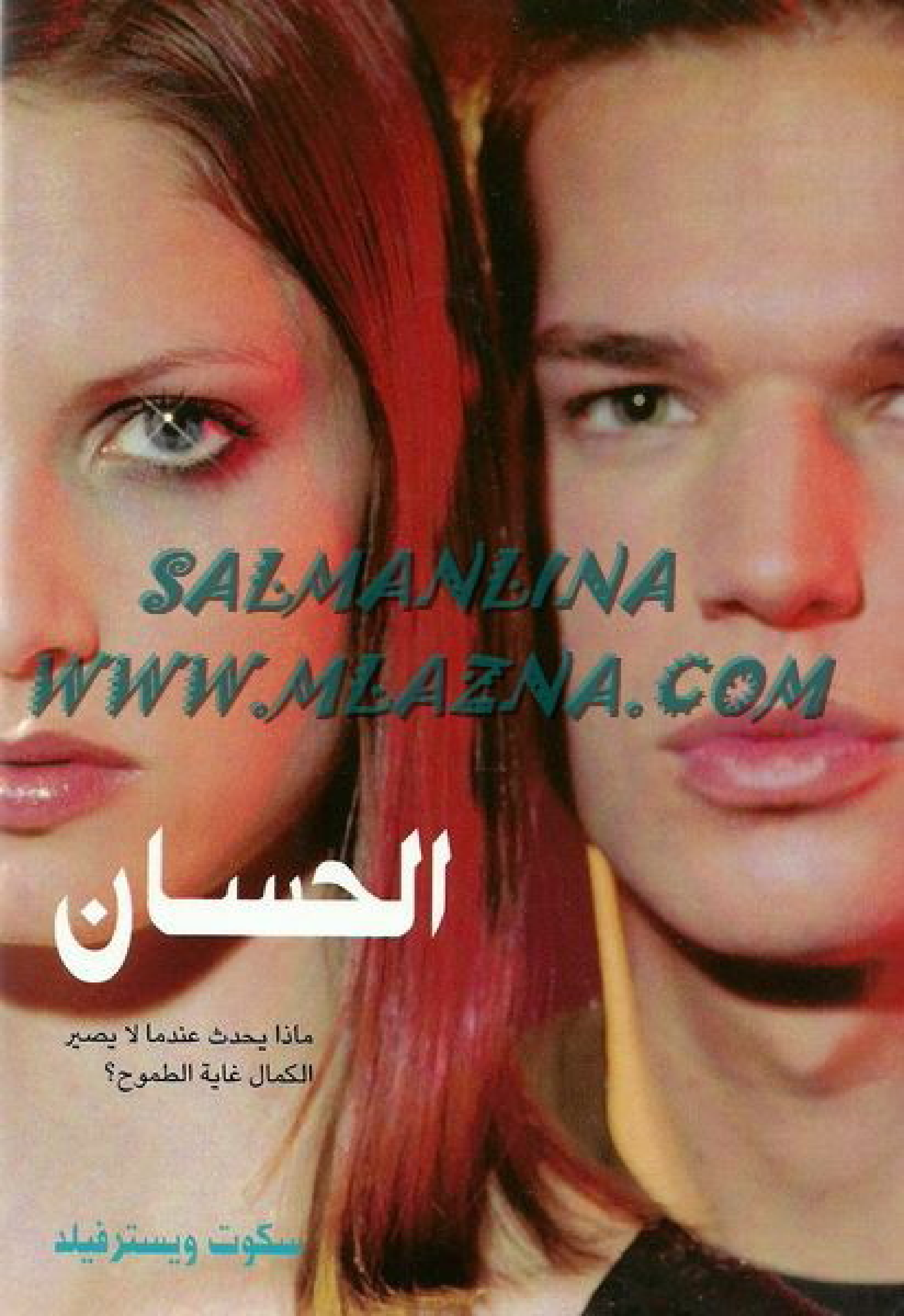


SALMANLINA
WWW.MLAZNA.COM
الحسان
ماذا يحدث عندما لا يصير
الكمال غاية الطموح؟
سكوت ويسترفيلد

Pretties

الحسان

Scott Westerfeld

سكوت ويسترفيلد

الطبعة الأولى ٢٠١١م
رقم إيداع ٢٠١٠/١٦٠٤٧
جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسؤولية محدودة)

كلمات عربية للترجمة والنشر
إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
[illegible]
ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢+ فاكس: ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢+
البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org
الموقع الإلكتروني: http://www.kalimat.org

ويسترفيلد، سكوت.
الحسان / سكوت ويسترفيلد. - القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠١١.
٢٤٤ص، ١٦٫٠×٢٣٫٠سم
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٦٢٦٣ ٦١ ٦
١- القصص الإنجليزية
أ- العنوان
٨٢٣

المحتويات

الجزء الأول

الجمال النائم

«تذكر أن أجمل الأشياء في العالم أقلها نفعًا».

جون راسكن،

في كتابه «أحجار البندقية»

الفصل الأول

فكرة تليق بالأشقياء

لطالما ظل اختيار الملابس المناسبة أصعب المهام في فترة ما بعد الظهيرة.

حملت الدعوة الموجهة من قصر فالانتينو عبارة تشترط الدخول بملابس نصف رسمية، بدت كلمة «نصف» محيرة للغاية، وفتحت الباب أمام العديد من الاحتمالات مثلها مثل الليالي التي تمر دون إقامة حفلات. أصبح هذا الأمر سيئًا بما يكفي للفتيان، الخيارات كثيرة ومحيرة، فالملابس نصف الرسمية للفتيان قد تكون سترة وربطة عنق (أو سترة بدون ربطة عنق عند ارتداء أنواع معينة من الياقات)، ويمكن أن تكون ملابس بيضاء وقمصان دون معطف أو سترة فوقها (وذلك في الظهيرات الصيفية فقط)، هي نوع من الملابس نصف الرسمية، وأي عدد من المعاطف الطويلة والصدريات وبذل الفراك والتنورات الاسكتلندية التي يرتديها الرجال أو المعاطف الصوفية الأنيقة — جميعها اختيارات يمكن اللجوء إليها. أما مفهوم الملابس نصف الرسمية للفتيات فهو يعج بالاحتمالات والخيارات مثله مثل المفاهيم الأخرى الموجودة هنا في مدينة الحسان الجدد.

وتفضل تالي الحفلات الرسمية التي يرتدي خلالها الفتيان ملابس السهرة الكاملة التي تتكون من بدلة فراك، أو الحفلات نصف الرسمية، فالفتيات في الحالتين ترتدين ملابس السهرة، ومع أن هذه الملابس ليست مريحة بالقدر الكافي، ومع أن الحفلات لا تكون مسلية إلا بعد أن يثمل جميع الحاضرين، فهي لا تشعر على الأقل أنها مضطرة للتفكير كثيرًا في اختيار الملابس المناسبة للحفل.

«نصف رسمية، نصف رسمية.» هكذا ظلت تالي تردد وهي تجول بنظرها في أرجاء خزانة ملابسها المفتوحة، والسير المتحرك يئز وهو يتحرك إلى الأمام تارة وإلى الخلف تارة أخرى محاولاً اللحاق بالإشارات الصادرة من عينيها، وتتأرجح

الملابس المعلقة على الشماعات بسبب حركته، نعم إن كلمة «نصف» هي كلمة سخيفة بالفعل.

تساءلت تالي بصوت مسموع: «هل هي أصلًا كلمة؟ نصف؟» لقد بدت الكلمة غريبة في فمها الذي كان جافًا مثل قطعة من الحطب منذ ليلة أمس.

أجابت الغرفة: «النصف هو شطر الواحد». ولعلها ظنت أن ما قالته ينم عن الذكاء.

تمتمت: «هذا بديهي!»

ألقت تالي بنفسها على الفراش وأخذت تحملق في سقف الغرفة وهي تشعر أنها توشك أن تدور بها، وشعرت أنه ليس من العدل أن تبذل كل هذا المجهود في التفكير في كلمة شطر، وقالت: «دعيه يختفي».

أساءت الغرفة الفهم وأغلقت الحائط على خزانة ملابس تالي، لم يكن ذلك ما تريده تالي، لكنها لم تجد في نفسها القوة لكي تشرح للغرفة أنها تعني ذلك الصداع الرهيب بعد أن أفرطت في الشراب ليلة أمس، إذ يجثم على رأسها وكأنه قطة بدينة عنيدة مترهلة تأبى أن تتزحزح عن مكانها.

في الليلة الماضية خرجت هي وبيريس بصحبة جماعة الأشقياء الآخرين لمزاولة التزلج في حلبة التزلج الجديدة المعلقة فوق استاد نيفرتيتي، لقد كانت طبقة الجليد المرتكزة على شبكة من الروافع رقيقة للغاية حتى إن المتزلجين كان بإمكانهم أن يروا الأرض من خلالها، وكانت عشرات من آلات تسوية الجليد الصغيرة تندفع بسرعة شديدة بين المتزلجين كالصراصير المذعورة وذلك لكي يظل لوح الجليد شفافًا وبلوريًا، أما الألعاب النارية التي كانت تنطلق من الاستاد الذي علقت فوقه حلبة التزلج، فقد جعلت تلك الطبقة الجليدية الرقيقة تتألق وكأنها من الزجاج الملون الذي تتغير ألوانه كل بضع ثوانٍ.

كان على الجميع ارتداء السترات المطاطية حتى تحميهم من الارتطام بالأرض إذا اخترق أحدهم اللوح الجليدي، لم يحدث ذلك بالطبع، ولكن التفكير — فقط — بأن العالم من حولها قد يتهاوى في أية لحظة إذا تشقق اللوح الجليدي فجأة كان يدفعها إلى احتساء كئوس من الشمبانيا.

وكان زين — زعيم الأشقياء — قد شعر بالملل ليلة أمس، فسكب زجاجة كاملة من الشمبانيا فوق الجليد، وقال إن درجة تجمد الكحول أقل من درجة تجمد الماء،

ومن ثم قد يذوب الجليد ويسقط أحدهم وسط الألعاب النارية. ليته أفرغ المزيد من الشمبانيا لكي ينقذ تالي من هذا الصداع الذي يفتك برأسها هذا الصباح.

أصدرت الغرفة صوتًا مميزًا يعني أن أحد أفراد الأشقياء ينادي على تالي.

– «مرحبًا.»

– «مرحبًا يا تالي.»

حاولت تالي بصعوبة أن تنهض من الفراش وهي تستند على أحد مرفقيها.

– «شاي-لا، أنا أحتاج إلى المساعدة!»

– «بشأن الحفل؟ أنا أعرف.»

– «كيف لي أن أنتقي ملابس نصف رسمية؟»

أجابتها شاي وهي تضحك: «تالي، أنت شاردة الذهن للغاية، ألم تصلك الرسالة؟»

– «أية رسالة؟»

– «لقد أرسلتها منذ ساعات.»

نظرت تالي إلى خاتم الاتصال الذي لا يزال ملقى على الخزانة الصغيرة المجاورة لسريرها، فهي لا ترتديه أبدًا أثناء الليل، إذ اعتادت على ذلك منذ أن كانت قبيحة، وتخرج متسللة طوال الوقت، ومنه كانت تبعث بضع نبضات. فقد تركته تالي مضبوطًا على وضع صامت حتى لا يزعجها أثناء نومها. قالت تالي: «لقد استيقظت لتوي من النوم.»

– «انسي كل ما يتعلق بالملابس نصف الرسمية. لقد أصبح الحفل تنكريًا، وهذا يعني أن علينا أن نرتدي أزياء تنكرية.»

نظرت تالي إلى الرسالة للتأكد من ميعاد الحفل: قبل الساعة الخامسة عصرًا تمامًا.

– «ماذا، أمامنا ثلاث ساعات فقط؟»

– «نعم، أعرف ذلك، إنني مشتتة للغاية، لا أدري ما الذي أرتديه، أمر مخجل. أيمكنني أن أنزل إليك؟»

– «بالطبع.»

– «سوف أحضر بعد خمس دقائق.»

– «حسنًا، أحضري الإفطار معك. إلى اللقاء.»

ألقت تالي برأسها على الوسادة مرة أخرى، فشعرت أن الفراش يدور بها وكأنها على متن لوح طائر، إن يومها لا يكاد يبدأ حتى ينتهي.

وضعت تالي خاتم الاتصال في إصبعها وشغلت الرسالة الموجودة عليه، تقول الرسالة إنه لن يسمح لأي شخص بالدخول ما لم تكن الملابس التي يرتديها رائعة فعلًا. كم أغضبها ذلك، فأمامها ثلاث ساعات فقط لكي تنتقي شيئًا مقبولًا وجذابًا، في حين يحظى الآخرون بفرصة أفضل إذ سبقوها في الاستعداد للحفل.

في بعض الأحيان تشعر بأن الحياة كانت أبسط بكثير عندما كانت مشاكسة «حقيقية».

دخلت شاي إلى الغرفة تتبعها صينية الإفطار المثقلة بألوان الطعام: قرص بيض مقلي بجراد البحر (الاستاكوزا) وخبز التوست وعجينة البطاطس المقلية وفطائر الذرة المقلية وعناقيد العنب وكعك المافين بالشيكولاتة وكئوس من مشروب كوكتيل بلودي ماري (مشروب كحولي من الفودكا وعصير الطماطم وعصير الليمون)، لقد جلبت معها أصنافًا تعجز في تفتيتها علبة كاملة من أقراص حرق السعرات. كانت الصينية المثقلة بالأطعمة تهتز بشدة، إذ أخذت الخادمة التي ترفعها في الهواء ترتعد وكأنها طفل صغير يبدأ يومه الأول في المدرسة.

– «[illegible] اليوم في زي فتاتين [illegible]؟»

قالت شاي ضاحكة: «لا، ولكن مزاجك يبدو سيئًا، وعليك أن تكوني رائعة هذه الليلة، فكل أصحابنا من الأشقياء سيحضرون لكي يصوتوا لانضمامك إلى الفريق».

قالت تالي وهي تتناول كأسًا من مشروب كوكتيل بلودي ماري من فوق صينية الإفطار المثقلة بالأطعمة: «ممتاز، سأكون رائعة»، ولكنها قطبت جبينها بعد أن رشفت رشفة من كأسها: «إن ملحه قليل».

قالت شاي: «لا عليك»، وأخذت شاي طبقة الكافيار التي كانت تزين أحد أطباق البيض المقلي ووضعتها في المشروب وقلبته.

– «ما هذا؟ أصبحت رائحته كالسمك».

ردت شاي: «الكافيار يؤكل مع أي شيء». وغرفت ملعقة أخرى من الكافيار ووضعتها في فمها، وهي تغمض عينيها لتستمتع بمضغ بيض السمك، وأدارت خاتمها لتستمع إلى بعض الموسيقى.

ابتلعت تالي ريقها، وتناولت المزيد من مشروب البلودي ماري، فقد ساعدها على الأقل على التخلص من الدوار الشديد الذي كانت تعانيه. وبدأت تستهويها رائحة كعك المافين، و يمكنها أن تتناول بعدها عجينة البطاطس المقلية، ثم البيض المقلي،

وربما يمكنها أن تجرب الكافيار؛ فتناول وجبة إفطار دسمة يمنح تالي تعويضًا عن الأيام التي ضاعت منها وهي في البرية، والإسراف في تناول أطعمة الإفطار اللذيذة يشعرها بأنها تسيطر على الموقف، وكأن صينية الإفطار الحافلة بألوان أطعمة المدن يمكنها أن تمحو من ذاكرتها تلك الشهور التي كانت تتناول فيها الأطعمة المسلوقة والاسباجتي باللحم.

تسارعت ضربات قلب تالي على دقات الموسيقى الحديثة التي تستمع إليها.

وقالت: «شكرًا لكِ يا شاي-لا، لقد أنقذتني من هذا الصداع القاتل».

– «لا عليكِ يا تالي-وا».

– «أين كنتِ ليلة أمس إذن؟»

ابتسمت شاي ابتسامة خبيثة.

– «هل تعرفتِ على فتى جديد؟»

هزت شاي رأسها بالنفي وهي تغمض عينيها وتفتحهما.

– «لا بد أنك أجريت عملية تجميلية أخرى، أليس كذلك؟» لم تجب شاي على سؤال تالي، ولكنها ضحكت في جذل.

– «إذن فقد فعلتها مرة أخرى، لا يجب أن تخضعي لأية عمليات جراحية أكثر من مرة واحدة في الأسبوع، أيمكن أن تكوني شاردة الذهن إلى هذا الحد؟»

– «لا بأس يا تالي-وا، إنها ليست إلا جراحة موضعية».

– «أين هي؟» تساءلت تالي وهي تتفحص وجه شاي الذي لم يبد مختلفًا على الإطلاق، ترى أيكون مكان الجراحة مختفيًا تحت البيجامة التي ترتديها.

قالت شاي وهي تطرف بعينيها مرة أخرى، فبدت رموشها الطويلة وكأنها ترفرف: «أمعني في النظر».

انحنت تالي للأمام وأخذت تحملق في عيني شاي النحاسيتين الخلابتين الواسعتين المظللتين بظلال جفون لامعة متلألئة. كل شيء بهما رائع. حينئذ شعرت تالي بأن ضربات قلبها تتسارع وهي تتأملها؛ فبعد مرور شهر على قدومها إلى مدينة الحسان الجدد، لا تزال تالي تقف كالمذهولة أمام عيون غيرها من الحسان، إذ كانت واسعة للغاية ودافئة جدًا وتلمع ببريق الاهتمام، فقد خيل لها أن عيني شاي الجذابتين تتمتمان بهذه الكلمات: أنا أنصت إليك، فأنت تبهرينني. وشعرت تالي أن هاتين العينين لا تكترثان بشيء في العالم إلا بها هي، شعرت بالاهتمام يطل من عيني شاي.

يستحوذ هذا الشعور على تالي بدرجة أكبر حينما يكون الأمر متعلقًا بشاي، فعلاقتهما تمتد جذورها إلى الماضي؛ إلى زمن القبح، قبل أن تغير عملية التحول شاي لتصبح بهذا الشكل.

«أمعني في النظر أكثر».

لمست تالي ما دار داخلها من محاولة لأن تهدئ من روعها، وعادت تشعر بأن الغرفة تدور بها، ولكن هذه المرة لأنها كانت تشعر بأنها بحالة معنوية جيدة. أشارت تالي إلى النوافذ لكي تزداد شفافية زجاجها قليلًا، وفي ضوء الشمس رأت الإضافات التجميلية التي وضعتها شاي: «إنها تضيف حقًا إلى جمالك».

إنها اثنتا عشرة حبة صغيرة من الياقوت تطوق كل حدقة من حدقتي عيني شاي، وتتألق برقة بلون أحمر، ومن خلفها قزحية عينيها الخضراوين بلون الزمرد، فبدت هذه الإضافة التجميلية أوضح من كل الجواهر الصغيرة المتألقة الأخرى المزروعة داخل عينيها.

«جميلة وعصرية، أليس كذلك؟».

أجابتها تالي وهي تحدق فيها باهتمام بعد أن ضيقت عينيها: «بلى، ولكن، لحظة... هل الجواهر الموجودة في الركن السفلي الأيسر مختلفة؟». ففي كل عين جوهرة يتوهج بريقها تارة ثم يخبو ثم يتوهج تارة أخرى وكأنها شمعة صغيرة بيضاء تطل من أعماق عيني شاي النحاسيتين.

قالت شاي: «هذا يعني أن الساعة الآن الخامسة، أفهمتِ؟».

تطلب الأمر من تالي ثانية واحدة لكي تتذكر كيف يمكنها أن تتعرف على الوقت بالنظر إلى ساعة البرج الكبير الموجود بمركز المدينة، ثم قالت: «ولكن هذا يعني أنها السابعة، فلو كانت الخامسة لتوهجت الجوهرة الموجودة في الركن السفلي الأيمن، أليس كذلك؟».

قالت شاي بلهجة متذمرة: «لأنها تعمل عكس اتجاه عقارب الساعة أيتها الحمقاء، أنا أعني أن الطريقة الاعتيادية لقراءة الساعة أصبحت مملة جدًا».

كادت تالي تنفجر ضاحكة وهي ترد عليها: «لحظة واحدة، أتقصدين أنك زرعت مجموعة من الجواهر في عينيك؟ تدلك على الوقت؟ وتعمل عكس اتجاه عقارب الساعة؟ أليس هذا أكثر من اللازم يا شاي؟».

شعرت تالي بالندم على كلامها، فقد خيمت سحابة من الحزن على وجه شاي، ومحت كل أثر للحبور الذي أضاء وجهها منذ قليل، لقد بدا أن شاي على وشك البكاء،

ولكن من دون أن تنتفخ عيناها أو يحمر أنفها، فالحديث عن العمليات التجميلية الجديدة دائمًا يعتبر من الموضوعات الحساسة، مثله مثل الحديث عن قصات الشعر الجديدة.

قالت شاي بهدوء مشوب بلهجة اتهام: «ألا تعجبك؟».

– «نعم، تعجبني بالطبع، فقد قلت لكِ من قبل إنها تضيف حقًا إلى جمالك.»

– «حقًا؟».

– «نعم، وأكثر مما تتخيلين، وجميل أنها تعمل عكس اتجاه عقارب الساعة.»

عادت ابتسامة شاي إلى وجهها، فتنهدت تالي بارتياح وهي لا تزال لا تصدق نفسها، فهذا الخطأ من الأخطاء التي لا يرتكبها سوى المبتدئين من الحسان، أما هي فقد خضعت لعملية التحول منذ أكثر من شهر كامل، فلماذا لا تزال تتفوه بمثل هذه التعليقات التي لا تصدر إلا من القبحاء؟ إذا حدث أن قالت تعليقًا مشابهًا الليلة أثناء الحفل، فقد يصوت أحد أفراد الأشقياء ضد انضمامها إلى الفريق، فصوت واحد ضدها يكفي لاستبعادها من الانضمام إليهم.

وإذا حدث ذلك فستصبح وحيدة، وتعود أيام الانطواء من جديد.

قالت شاي: «ربما علينا أن نتنكر كعجزي ساعة، احتفالاً بعيني الجديدتين».

ضحكت تالي، فقد فهمت من هذه الدعابة الواهية أن شاي سامحتها، فمهما حدث فهي وشاي صديقتان منذ فترة طويلة. سألتها: «هل تحدثت إلى بيريس وفاوستو؟».

أومأت شاي برأسها وهي تقول: «لقد قالا إننا جميعًا يجب أن نرتدي أزياء تعبر عن أفكار تليق بالأشقياء، لديهم فكرة معينة من الآن، ولكنهما يعتبرانها سرًا».

– «هذا سخيف، فهما يتصرفان وكأنهما يمتلكان مواهب حقيقية، كل ما كانا يفعلانه وهما قبيحان هو التسلل إلى الخارج، وربما عبور النهر مرات قليلة، ولم يتمكنا قط من الوصول إلى منطقة الضباب.»

انتهت الأغنية في تلك اللحظة، وخيم الصمت فجأة على المكان مع آخر كلمة نطقت بها تالي. حاولت تالي أن تفكر في أي شيء تقوله ولكن الكلمات خبت كما يخبو بريق الألعاب النارية في السماء المظلمة، وخيل إليها أن فترة طويلة مرت قبل أن تبدأ الأغنية التالية.

وحينما بدأت تلك الأغنية التالية شعرت تالي بالارتياح وقالت: «إن التنكر في زي يليق بالأشقياء لا بد أن يكون شيئًا سهلًا يا شاي-لا، فنحن أكبر فتاتين من الأشقياء في المدينة.»

مرت ساعتان وتالي وشاي منهمكتان في تجربة الملابس، إذ أخذتا تطلبان من الكوة الذكية الموجودة بالحائط أن تدفع إليهما بالحلل التنكرية لكي تجرباها. فكرت تالي وشاي في البداية في التنكر في زي قاطعتي طريق، لكنهما لم تكونا تعرفان كيف تبدو الملابس التي يرتديها قطاع الطرق، فكل قطاع الطرق الذين ظهروا في الأفلام القديمة التي شاهدتها تالي وشاي على الشاشة الحائطية لم يبد على مظهرهم أي طابع شقي، بل بدوا متخلفين، أما ملابس القراصنة فهي أفضل بكثير، ولكن شاي لا تريد أن تضع تلك الرقعة الجلدية السوداء فوق إحدى عينيها المزينتين بجواهر الياقوت الجديدة. فكرت الفتاتان في التنكر في زي قناصين، ولكن الكوة الذكية مصممة بحيث لا تأتي بالبنادق حتى إن كانت مزيفة. وفكرت تالي أيضًا في التنكر في هيئة الطغاة المشهورين على مر التاريخ، ولكنها اكتشفت أن معظم الشخصيات التي فكرت فيها كانت لرجال، ولم تعجبها أيضًا ملابسهم، فهي تفتقر إلى الذوق العصري.

قالت شاي: «ربما يمكننا أن نتنكر في زي فتاتين من العصر القديم، ألا تذكرين أننا درسنا أنهم كانوا دائمًا الأشرار.»

– «ولكنني أظن أنهم يشبهوننا في معظم النواحي، فيما عدا أنهم كانوا قبحاء.»

– «لا أدري، ربما يمكننا أن نقطع الأشجار أو نحرق النفط أو شيئًا من هذا القبيل.»

ضحكت تالي وقالت: «شاي-لا، إننا نبحث عن زي تنكري وليس عن أسلوب حياة.»

بسطت شاي ذراعيها وأخذت تسترسل في كلامها وهي تحاول التصرف كما يليق بفتاة جميلة، قائلة: «يمكننا أن ندخن السجائر؟ أو نقود السيارات؟».

ولكن الكوة الذكية سترفض أن تحضر لهما السجائر أو السيارات.

استمتعت تالي وهي تقضي وقتها بصحبة شاي تجرب الأزياء التنكرية ثم تبدي استيجابها وتضحك وتقذف بتلك الأزياء مرة أخرى إلى آلة إعادة تدوير الملابس، وشعرت بالسعادة وهي تشاهد نفسها ترتدي أزياء جديدة، حتى وإن كانت أزياء سخيفة. نجزء منها لا يزال يتذكر الماضي، حينما كان النظر في المرآة يعذبها، إنها لا

تزال تذكر المسافة الضيقة جدًا التي كانت تفصل بين عينيها وأنفها متناهي الصغر، وشعرها المجعد طوال الوقت، ولكنها الآن تشعر وكأن فتاة فائقة الجمال تقف أمامها تتبعها في كل حركة، فتاة تتمتع بوجه متناسق الملامح، تلمع بشرتها النضرة حتى وهي تعاني الصداع جراء الإسراف في الشراب، فتاة تتمتع بجسم متناسق وعضلات مشدودة، فتاة يساير لون عينيها الفضي أي شيء ترتديه.

ولكن ذوقها في اختيار الأزياء لا يزال بشعًا.

وبعد قضاء ساعتين في تلك المحاولات الدءوبة استلقت الفتاتان على الفراش، وشعرت تالي بأنه يدور بها.

قالت تالي: «كل الأشياء سخيفة، لماذا أجد كل الأشياء سخيفة يا شاي-لا؟ لن ينتخبني أحد الليلة قط إذا لم أستطع أن أظهر في الحفل بزي غير سخيف».

قالت شاي وهي تمسك بيدها: «لا تقلقي يا تالي، لقد أصبحت مشهورة حاليًا، ليس هناك داعٍ لكل هذا القلق».

- «ما أسهل أن تقولي مثل هذا الكلام».

مع أن شاي وتالي ولدتا في يوم واحد، فشاي أصبحت جميلة قبل تالي بعدة أسابيع، وانضمت إلى فريق الأشقياء منذ شهر كامل، وأصبحت من أعضائه المشهورين.

قالت شاي: «لن تكون هذه مشكلة كبيرة يا تالي، فأي شخص سبق له رفقة السلطات السرية الخاصة يصبح أحد أفراد الأشقياء تلقائيًا».

شعرت تالي حينما قالت شاي ذلك وكأن صفارة الرسائل تسري بداخلها تخترقها وتؤلمها، وقالت: «ولكنني مع ذلك يؤلمني ألا أكون رائعة».

- «بيريس وفاوستو هما المخطئان، لأنهما لم يخبرانا عما سيرتديانه الليلة».

- «فلننتظر حتى يأتيا ونقلد فكرتهما».

قالت شاي وقد وافقتها: «إنهما يستحقان ذلك، أترغبين في تناول الشراب؟».

- «لا بأس».

كانت تالي تشعر بدوار شديد ولم تستطع أن تتحرك من مكانها، فطلبت شاي من صينية الإفطار أن تذهب وتحضر بعضًا من الشمبانيا.

وصل بيريس وفاوستو والنيران تشتعل فيهما.

لم تكن هذه النيران في الواقع سوى ألعاب نارية صغيرة ملفوفة حول خصلات شعرهما ومعلقة على ملابسهما، تطلق شرارات آمنة تتوهج ثم تخبو، ولم يكف

فاوستو عن الضحك فالشرارات تدغدغه. كان فاوستو وبيريس يرتديان سترات القفز المطاطية، فهما متنكران في زي شابين قفزا من فوق سطح بناية اشتعلت فيها النيران.

قالت شاي معلقة: «هذا رائع!».

ووافقتها تالي: «إنها حقًا مضحكة»، ولكنها استطردت متسائلة: «ولكن كيف تليق هذه الفكرة بالأشقياء؟».

قال بيريس: «أتتذكرين عندما اقتحمت إحدى الحفلات في الصيف الماضي وسرقت إحدى السترات المطاطية لكي ترتديها وتقفزي من فوق السطح حتى تتمكني من الهرب؟ إن هذه هي أجمل خدعة قام بها شخص من القبحاء على الإطلاق!».

سألته تالي: «بالطبع ... ولكن لماذا تشتعل النيران في ملابسكما، أنا أقصد أنه إذا كان المبنى يحترق حقًا فهذه الخدعة لا علاقة لها بالأشقياء».

نظرت شاي إلى تالي نظرةً توحي أنها عادت تعلق تعليقات سخيفة شأنها شأن القبحاء.

رد فاوستو: «لا يمكننا أن نكتفي فقط بارتداء سترتين مطاطيتين، فاشعال النيران في الملابس سيجعل الفكرة أجمل بكثير».

قال بيريس: «نعم»، ولكن تالي شعرت بالحزن، فقد لاحظت أن بيريس فهم قصدها. يا لها من غبية! فزيهما التنكري حقًا رائع.

أطفأ بيريس وفاوستو الألعاب النارية لكي لا تنفد قبل أن يبدأ الحفل، وطلبت شاي من الكوة الذكية أن تصنع سترتين مثل سترتي بيريس وفاوستو.

هتف فاوستو شاكيًا: «هذه سرقة للأفكار!»، ولكن طلب شاي ذهب أدراج الرياح، فالكوة سترفض صنع زيٍّ تنكريٍّ على شكل سترة مطاطية، تحسبًا لاحتمال أن ينسى من يرتديها أنها غير حقيقية فيقفز من مكان عالٍ ويرتطم بالأرض. ومن غير المسموح أن تصنع سترة مطاطية حقيقية، فصناعة أي شيء معقد أو أي شيء غير قابل لإعادة التدوير تتطلب تقديم طلب خاص بصناعته، وهذا الطلب لن يفلح في إقناع الكوة الذكية بصناعة أية سترات مطاطية لعدم وجود حريق.

قالت شاي في ضيق: «إن القصر سخيف حقًا اليوم».

تساءلت تالي: «من أين حصلتما على هاتين السترتين؟»

ابتسم بيريس وهو يمسك بسترته وقال: «إنهما حقيقيتان، لقد سرقناهما من السطح».

قفزت تالي من فراشها لتحتضنه: «إذن فهذا الزي يناسب الأشقياء».

وبينما كانت تالي تقف بجوار بيريس وهي لم تعد تشعر أن الحفل سيكون سخيفًا، أو أنه من الممكن أن يعترض أحد على انضمامها للأشقياء، تألقت عيناه البنيتان وهو ينظر إليها، ورفعها من الأرض وهو يضمها إليه بشدة. لقد كانت تالي تشعر دائمًا أنها قريبة من بيريس حتى في أيام القبح، فقد شبَّا معًا، وكانا يقومان معًا بالكثير من الحيل والخدع التي تخالف القواعد والنظام. كم هو رائع أن تستعيد هذا الشعور نفسه الآن.

فطوال كل تلك الأسابيع التي قضتها تالي في البرية بعد أن ضلت الطريق، كان كل ما تريده هو أن تعود إلى المدينة لتكون مع بيريس، وقد أصبحت من جميلات مدينة الحسان الجدد. كم كانت غبية حينما استسلمت لشعورها بالحزن اليوم، من الغباء أن تسمح لهذا الشعور بأن يتسرب إليها سواء اليوم أو في أي يوم آخر، ربما كل ما في الأمر أنها أسرفت في شرب الشمبانيا بالأمس. همست في أذنه وهو ينزلها على الأرض: «سنظل خير صديقين إلى الأبد».

قالت شاي وهي تمسك بكتلة من الصوف عديمة الشكل كانت قد أخرجتها من خزانة ملابس تالي وهي تبحث بداخلها عن أي شيء يصلح كزي تنكري: «ما هذا الشيء؟».

كانت تالي تلف ذراعيها حول بيريس، فأبعدتهما عنه وقالت: «هذه سترتي الصوف التي كنت أرتديها حينما كنا نعيش في منطقة الضباب، أتذكرين؟». لقد بدت السترة غريبة، ليس كما تتذكرها: فهي ملبدة الخيوط، والغرز المنسوجة يدويًا واضحة، فسكان منطقة الضباب لم تكن لديهم كوة ذكية بالحائط، وكانوا مضطرين لصنع أغراضهم بأيديهم، وقد اتضح لها أن البشر لا يجيدون صنع ما يحتاجونه من أشياء.

– «ألم تضعيها في آلة إعادة التدوير؟»

– «بلى، فأنا أظن أنها مصنوعة من مادة غريبة لا يمكن للكوة الذكية أن تستخدمها في صناعة شيء آخر».

أمسكت شاي بالسترة وقربتها من أنفها لتشم رائحتها: «إن رائحتها تذكرني بالضباب وحفلات السمر حول نيران المعسكر وتلك اليخنة التي كنا نأكلها دائمًا، أتذكرين ذلك؟».

اقترب بيريس وفاوستو ليشما تلك الرائحة، فهما لم يسافرا إلى خارج المدينة إلا مع الرحلات المدرسية لزيارة أطلال المدينة القديمة الصدئة، ولم يصلا من قبل بالطبع إلى منطقة بعيدة مثل منطقة الضباب، حيث كان يضطر الجميع للعمل طوال اليوم في صناعة احتياجاتهم، وتربية (أو ربما صيد) الحيوانات اللازمة لطعامهم، وكان الجميع هناك يظلون قبحاء بعد أن يبلغوا عامهم السادس عشر، وربما يظلون شكذا حتى يفارقوا الحياة.

لم يعد هناك وجود لمنطقة الضباب، بالطبع، بفضل مجهودات تالي والسلطات السرية الخاصة.

قالت شاي: «تالي، أنا عندي فكرة جيدة، لنذهب إلى الحفل الليلة في زي فتاتين من سكان الضباب».

قال فاوستو وعيناه تبرقان بالإعجاب: «يا لها من فكرة رائعة تليق بالأشقياء!»

تطلع الثلاثة إلى تالي وقد بدا عليهم الإعجاب بالفكرة، ومع أنها أحست بشعور غير مريح يسري بداخلها، أدركت أنها إذا لم توافق فسينظر الجميع إليها على أنها فتاة سخيفة، إلى جانب أن ارتداءها زيًّا تنكريًّا رائعًا بكل المقاييس كسترة حقيقية مصنوعة من الصوف بأيدي سكان الضباب يضمن لها ألا يعترض أحد على انضمامها إلى الأشقياء، لأن تالي يانج بلود شقية بالفطرة.

الفصل الثاني

الحفل

كان الحفل مقامًا في قصر فالانتينو، وهو أقدم مبنى في مدينة الحسان الجدد، مكون من بضعة طوابق ويمتد بمحاذاة النهر، ولكن يعلوه برج إرسال يمكن رؤيته من منتصف الجزيرة. والجدران الداخلية للمبنى مشيدة من الحجارة الحقيقية، ولذلك لا يحتوي المبنى على غرف متكاملة، لكنه يتمتع بتاريخ حافل بالعديد من الحفلات الكبيرة المبهرة، مما جعل قائمة الانتظار للسكن في قصر فالانتينو لا تكاد تنتهي.

قطع بريس وفاوستو وشاي وتالي حدائق المتعة التي يشيع فيها الابتهاج والمؤدية إلى قصر فالانتينو وهي تعج بأشخاص متجهين إلى الحفل. رأت تالي شخصًا متنكرًا في زي ملاك بجناحين جميلين من الريش، وقدرت أن صاحبه تقدم بطلب الحصول عليه منذ شهور، وأحست أن ذلك يعد من قبيل الغش، وهناك أيضًا مجموعة من الحسان الجدد يرتدون بذلًا سميكة لتعطيهم حجمًا أكبر، وأقنعة تضاعف من حجم ذقونهم ثلاثة أضعاف، ورأت فريقًا من جماعة الهمجيين يتظاهرون بأنهم سكان ما قبل العصر القديم، فأخذوا يشعلون النيران في الهواء الطلق ويدقون الطبول وهم شبه عراة تقريبًا ويرقصون رقصة تشبه رقصة الروك، ويحيون حفلتهم على طريقتهم، مثلما يفعل الهمجيون دائمًا.

ظل بريس وفاوستو يتحدثان بشأن الوقت المناسب لإشعال النار في ملابسهما مجددًا؛ إنهما يريدان أن يجذبا انتباه الحاضرين لدى دخولهما الحفل، لكنهما لا يريدان أيضًا أن يستهلكا ألعابهما النارية كلها قبل أن يراها الأعضاء الآخرون في جماعة الأشقياء.

عندما اقتربوا من قصر فالانتينو وغمرتهم الأضواء الساطعة والضوضاء الصاخبة شعرت تالي بتوتر شديد، فملابسها المصنوعة بأيدي سكان الضباب لم تعد تبهرها

عندما رأت الأزياء التي يرتديها الآخرون؛ فكانت تالي ترتدي سترتها القديمة المصنوعة من الصوف، وبنطلونًا خشن الملمس وحذاءً يبدو كأنه مصنوع يدويًا. رأت تالي أحد سكان الضباب يرتديه ووصفته للكوة الذكية، وهي تحمل على ظهرها حقيبة التخييم في المعسكرات، ارتدت شاي مثل تالي بالضبط. ولطخت شاي وتالي وجهيهما وملابسهما بالوحل، لكي تبدوا و لم تغتسلا منذ فترة طويلة، فبدت فكرتهما رائعة وهما في الطريق إلى الحفل، ولكن بدأ الأمر الآن يشعرهما بالقذارة.

عند باب المبنى وقف اثنان متنكران في هيئة فالانتينو، يرتديان ملابس حراس، ليتأكدا من أن كل من يدلف إلى الداخل يرتدي زيًا تنكريًا. في البداية استوقفا بيريس وفاوستو، ولكن عندما أشعل الفتيان النار في ملابسهما ضحك الحارسان ودفعا بهما إلى الداخل، وعندما وقع نظرهما على شاي وتالي هزّا كتفيهما بشكل ينم عن عدم فهم، ولكنهما سمحا للفتاتين بالدخول.

قالت شاي: «انتظري حتى يرانا المشاكسون الآخرون سوف يستوعبون الفكرة».

أخذ الأربعة يشقون طريقهم وسط الزحام وسيل من الأزياء التنكرية يحيط بهم. لقد تنكر الحاضرون في أزياء وشخصيات مختلفة ومتعددة، وشاهدت تالي البعض متنكرًا في هيئة رجل الثلج، وآخرين يرتدون ملابس الجنود، وآخرين متنكرين في زي شخصيات الألعاب الإلكترونية، وهناك أيضًا مجموعة من الحاضرين متنكرون على هيئة أعضاء لجنة شئون الجمال من علماء مدينة الحسان الجدد ويمسكون بتصميمات الوجوه المستخدمة في عمليات التحول الجراحية. وكذلك المتنكرون في هيئة شخصيات تاريخية ينتشرون في كل مكان وهم يرتدون أزياء مجنونة تمثل شخصيات من جميع أنحاء العالم، مما ذكر تالي بمدى الاختلاف الكبير الذي كان يميز كل فرد عن الآخر في الماضي حينما كان عدد البشر كبيرًا جدًا. أما أغلبية الحاضرين من الحسان الجدد الأكبر سنًا فكانوا يرتدون أزياء تنكرية حديثة تمثل الأطباء أو الحراس أو البنائين أو السياسيين، أو أية مهنة يرغبون في الالتحاق بها بعد الجراحة التي يخضعون لها ليصبحوا من شباب الحسان. وعلى سبيل المزاح حاول عدد من المتنكرين في زي رجال الإطفاء أن يخمدوا ألسنة اللهب المشتعلة في بيريس وفاوستو، ولكنهم لم ينجحوا إلا في مضايقتهما.

ظلت شاي تسأل: «أين هم؟»، ولكن الجدران الحجرية لم تجبها.

قالت شاي: «هذه الجدران العتيقة لا تتكلم. كيف يعيش الناس هنا؟».

أجابها فاوستو: «أحسب أنهم يحملون الهواتف اليدوية طوال الوقت، كان علينا أن نطلب واحدًا».

إن المشكلة هي أنه داخل قصر فالانتينو لا يمكن الاتصال بالآخرين بالطلب فقط، فالغرف الداخلية قديمة ورطبة، ولذلك فالوجود داخل القصر لا يختلف كثيرًا عن الوجود خارجه. ووضعت تالي راحتها على الجدار وهي تمشي مع أصدقائها، وأعجبها الملمس البارد للأحجار القديمة، لكن الأحجار ذكرتها بالأشياء التي رأتها في البرية، فهي خشنة وهادئة ورتيبة. لم تكن تالي تتحرق شوقًا للقاء الأشقياء الآخرين، فلا بد أنهم سيظلون يراقبونها طوال الوقت لاتخاذ قرار إما بقبولها عضوًا جديدًا في جماعتهم أو رفضها.

أخذ الأربعة يتجولون في الردهات المزدحمة ويختلسون النظرات إلى الغرف المملئة برواد الفضاء والمستكشفين القدامى. رأت تالي خمس فتيات متنكرات في زي الملكة كليوباترا، واثنتين في زي الممثلة والمغنية الأمريكية ليليان راسل، وبضعة شبان يتنكرون في زي الممثل رودولف فالانتينو، وعرفت تالي فيما بعد أن قصر فالانتينو سمي على اسم هذا الممثل الذي عاش في العصر القديم، وكان يمتلك حسنًا طبيعيًا. أما الجماعات الأخرى فقد ارتدى أفرادها أزياء تنكرية موحدة تعبر عن أفكارهم، فجماعة الرياضيين يحمل أفرادها عصي الهوكي وهم يرتدون أحذية التزلج الطائرة فتتمايل أجسادهم من فوقها، وتتنكر أفراد جماعة الراقصين في زي أفراد فرقة «سبك بابيز» الموسيقية وهم يرتدون قمصانًا ذات ياقات بلاستيكية كبيرة مخروطية الشكل، أما جماعة الجراديين فينتشر أفرادها في كل مكان، يثرثرون فيما بينهم باستخدام خواتم الاتصال الخاصة بهم، وهم مزودون بهوائيات تشبه قرون الاستشعار مزروعة في جلودهم تمكنهم من الاتصال بعضهم ببعض في أي مكان حتى داخل جدران قصر فالانتينو البكماء، وتسخر الجماعات الأخرى دائمًا من جماعة الجراديين، إذ لا يجرؤون على الذهاب إلى أي مكان إلا في جماعات ضخمة كالجراد، وجميعهم متنكرون في شكل ذباب بعيون كبيرة جاحظة، وهي على الأقل فكرة منطقية لأنها تناسبهم.

لم تلمح تالي أيًا من الأشقياء الآخرين وسط سيل الأزياء التنكرية التي أحاطت بها، وبدأت تتساءل هل فضل جميع الأشقياء عدم حضور الحفل حتى لا يصوتوا لها؟ وبدأ ينتابها سيل من الخواطر النابعة من رهاب الاضطهاد، إذ ظلت تلمح شخصًا يتتبعها من بعيد، وهو مندس وسط الزحام يكاد يتوارى، ولكنه ظل دائمًا

موجودًا، ولكن كلما التفتت خلفها وجدت الزي الحريري رمادي اللون يختفي عن نظرها.

لم تستطع تالي أن تميز هل هذا الشخص فتى أم فتاة، فهو يرتدي قناعًا مخيفًا، ولكنه جميل في الوقت ذاته، وكانت عيناه القاسيتان تلمعان في أضواء الحفل الخافتة المتقطعة كعيني الذئب. شعرت تالي أن هذا الوجه البلاستيكي يهز شيئًا ما في أعماقها؛ إنه يوقظ ذكرى أليمة استيقظت في ذهنها في لحظة.

وعندئذٍ أدركت تالي هوية الزي التنكري؛ إنه زي أحد عملاء السلطات السرية الخاصة.

استندت تالي على أحد الجدران الحجرية الباردة، وعادت بذاكرتها إلى الرداء الحريري رمادي اللون الذي يرتديه عملاء السلطات السرية الخاصة، وأخذت تتذكر وجوههم الجميلة القاسية، وأصابها المشهد بدوار كعادتها كلما تذكرت الأيام التي قضتها في البرية.

لم يكن لمشاهدة الحلة الرمادية مثلا في مدينة الحسان الجدد أي مغزى، ففيما عدا تالي وشاي لم يسبق لأحد رؤية أي عميل من عملاء السلطات السرية الخاصة من قبل، إذ لم يكونوا إلا مادة للشائعات لدى معظم الناس، وكلما وقع شيء غريب في المدينة ألقي عليهم باللائمة، وقد حرص عملاء السلطات السرية الخاصة على التخفي، فوظيفتهم هي حماية المدينة من الأخطار الخارجية التي تهددها، مثلهم مثل الجنود والجواسيس الذين كانوا يحرسون أمن الدول أيام العصر القديم، ولكن لم يلتق بهم شخصيًا إلا من قام بأعمال إجرامية حقيقية مثل تالي يانج بلود.

ومع ذلك يبدو أن الزي التنكري الرمادي صنعته أيدٍ بارعة بإتقان، لا بد أن من صنعه رأى عميلًا حقيقيًا من عملاء السلطات السرية الخاصة من قبل. ولكن «لماذا يتتبعها» هذا الشخص؟ فكلما استدارت تالي لتنظر خلفها رأته يتحرك بخفة وكأنه حيوان يطارد فريسته، لقد أثارت خفة حركته تلك الرعب في نفس تالي، فهي تذكرها بمطاردتها بين أطلال منطقة الضباب في ذلك اليوم المشئوم حين جاءوا ليعيدوها إلى المدينة.

هزت تالي رأسها، فتذكر تلك الأيام دائمًا يثير في نفسها ذكريات سخيفة ومتضاربة. لم تكن السلطات السرية الخاصة تطارد تالي بالطبع، فما الذي يدفعهم إلى ذلك؟ لقد «أنقذوها»، وأعادوها إلى منزلها بعد أن تركت المدينة لكي تتبع شاي. لطالما كان التفكير في السلطات السرية الخاصة يصيب تالي بالدوار، ولكن ذلك يرجع

إلى أنه من المقصود أن تخيف وجوههم القاسية من ينظر إليها، مثلما تترك وجوه الحسان انطباعًا جميلًا لدى من ينظر إليها.

ربما لم يكن ذلك الشخص يتتبعها حسبما تظن، وربما كان هناك أكثر من شخص: جماعة كاملة يرتدي أفرادها زيًّا تنكريًّا واحدًا وينتشرون في أرجاء قصر فالانتينو، مما أوحى لها بأن هناك شخصًا واحدًا يترصدها، فهدأت هذه الفكرة من روعها قليلًا.

انضمت تالي إلى الآخرين، وأخذت تمزح معهم وهم يبحثون عن بقية الأشقياء، ولكنها ظلت في الوقت نفسه تبحث بعينيها عن أي شخص يتوارى في الأركان المظلمة، ومع الوقت تيقنت تالي من عدم وجود جماعة يرتدي أفرادها زيًّا تنكريًّا واحدًا كما كانت تظن، بل هو شخص واحد فقط لا يتحدث مع أحد، ولا يفعل شيئًا سوى ترصدها، وهو يتحرك بخفة شديدة ...

أخذت تالي تحاول أن تطمئن نفسها، فليس هناك ما يدعو السلطات السرية الخاصة لتتبعها، كذلك ليس من المنطقي أن يحضر أحد عملاء السلطات السرية الخاصة حفلًا تنكريًّا وهو يرتدي زي «السلطات الخاصة». راحت تالي تتكلف الضحك، وهي تفكر أنه من المحتمل جدًا أن يكون هذا الشخص واحدًا من الأشقياء قرر أن يحيك لها مكيدة بعد أن سمع بحكايتها هي وشاي التي روتها ألف مرة، وعرف كل شيء عما حدث لهما مع السلطات السرية الخاصة، إذا كان هذا هو كل ما في الأمر فسوف يكون من السخيف للغاية أن تظل شاردة الذهن هكذا أمام الجميع، من الأفضل أن تتجاهل هذا العضو الزائف للسلطات السرية الخاصة وتنسى الأمر تمامًا.

نظرت تالي إلى الزي الذي ترتديه، وتساءلت عما إذا كانت الملابس التي جلبتها معها من الضباب هي التي تشعرها بالخوف والتوتر، إن شاي على حق، فرائحة هذه السترة القديمة المصنوعة يدويًّا من الصوف تذكرها بتلك الأيام التي قضتها هي وشاي خارج المدينة، والعمل المضني نهارًا والالتفاف حول نيران المعسكر التماسًا للدفء ليلًا، كل هذه الذكريات تمتزج مع الوجوه القبيحة المسنة التي لا تزال تفزعها حتى تستيقظ من منامها ليلًا وهي تصرخ أحيانًا.

لا بد أن العيش في الضباب قد نال من عقل تالي.

لم يذكر لها أحد شيئًا عن هذا الشخص. أيكون جميعهم مشتركين في المكيدة؟ لقد ظل فاوستو قلقًا من أن تنطفئ الألعاب النارية قبل أن يراها أي من الأشقياء الآخرين وقال: «لنر هل هم موجودون في أحد الأبراج؟».

وافق بريس على الفكرة وقال: «على الأقل يمكننا أن نتصل بهم من أي مبنى حقيقي».

اتجهت شاي نحو أقرب باب وهي تقول في تذمر: «أوافق على أي شيء يخرجنا من كومة الصخور البشعة هذه».

كان الحاضرون يخرجون من القصر حتى ابتعدوا عن الجدران الحجرية العتيقة، واتجهت شاي نحو أحد الأبراج بدون تفكير وخلفها الآخرون، ومروا بجماعة من هواة تسريحات الشعر يرتدون شعرًا مستعارًا على شكل خلية نحل، ويدور فوق رأس كل منهم سرب من النحل الطنان، هو في حقيقة الأمر روافع صغيرة جدًّا طُليت باللونين الأصفر والأسود.

قال فاوستو: «لم يتقنوا تقليد أزيز النحل»، ولكن تالي لاحظت أن أزياءهم التنكرية أعجبته. ولما كان الشرر ينطلق من الألعاب النارية المثبتة بشعر فاوستو، بدأ الحاضرون ينظرون إليه بعيون مستفسرة.

اتصل بريس من داخل البرج بزين الذي قال له إن الأشقياء موجودون في الطابق العلوي من البرج. فقال بريس: «كان تخمينك في محله يا شاي».

تكدس الأربعة في المصعد الكهربائي ومعهم شخص متنكر في زي جراح وآخر في شكل حيوان التريبوليت البحري المنقرض، ولاعبا هوكي مخموران يترنحان بشدة من أثر الخمر، ولا يقويان على الوقوف باعتدال فوق حذائي التزلج الطائرين اللذين كانا يرتديانهما.

ضغطت شاي على كتفي تالي وهي تقول: «تخلصي من هذا القلق الذي يبدو على وجهك يا تالي-وا، لا توجد مشكلة، سوف تفوزين بعضوية الأشقياء، فزين معجب بك.»

ابتسمت تالي ابتسامة مصطنعة، وهي لا تدري إن كانت شاي محقة في ذلك أم لا، فزين يسألها دائمًا عن ماضيها إبان فترة القبح، ولكنه يفعل ذلك مع الجميع، ويستمع بنهم إلى حكايات الأشقياء باهتمام يبدو في عينيه المبرقشتين بالقطع الذهبية. ترى أكان زين يظن أن لتالي مكانة خاصة تميزها عن الآخرين؟

من الواضح أن هناك من يظن ذلك، فبينما انغلق باب المصعد لمحت تالي صاحب الزي التنكري الحريري رمادي اللون يندس بخفة وسط الزحام.

الفصل الثالث

المترصد

كان معظم الأشقياء الآخرين متنكرين كحطابين، وارتدوا قمصانًا مصنوعة من نسيج نُقشت عليه مربعات صغيرة وحشوات داخلية تحت ملابسهم لكي تبدو عضلاتهم كبيرة، وهم يحملون مناشير كهربية زائفة وكئوس الشمبانيا، وهناك من تنكر في زي قصابين، وكذلك تنكر بضعة حاضرين كمدخنين يمسكون بسجائر زائفة صنعوها من قبل، وتنكرت واحدة منهم في زي جلاد وعلقت على كتفها أنشوطة طويلة. أما زين المتخصص في التاريخ فقد حضر متنكرًا في زي مساعد لأحد الطغاة، ولم يكن زيه التنكري يخلو من ملامح الموضة الحديثة، فهو يرتدي حلة سوداء ضيقة ويلف ذراعه بشريط أحمر بدا رائعًا. وكان زين قد أجرى جراحة تنكرية جعلت شفتيه رفيعتين ووجنتيه غائرتين، مما جعله يبدو كواحد من عملاء السلطات السرية الخاصة إلى حد ما.

ضحك الجميع على الزي الذي كان بيريس يرتديه، وحاولوا أن يعيدوا إشعال الألعاب النارية المثبتة على رأس فاوستو مرة أخرى، لكنهم لم يفلحوا إلا في إشعال بعض من خصلات شعره، فاحترقت وانبعثت منها رائحة مزعجة. لم يدرك الأشقياء منذ اللحظة الأولى طبيعة الزي التنكري الذي ترتديه تالي وشاي، ولكنهم سرعان ما تزاحموا لكي يتحسسوا الألياف الخشنة للسترة المصنوعة يدويًا، وراحوا يسألون تالي هل تسبب لها الحكة. (كان ذلك صحيحًا، ولكن تالي هزت رأسها بالنفي).

وقفت شاي بالقرب من زين لكي تلفت انتباهه إلى الجراحة التجميلية الجديدة التي أجريت لعينيها.

سألته شاي: «ألا تظن أنها تضيف إلى جمالي؟».

قال زين: «يمكنني أن أعطيها خمسين ملي ميلين».

لم يفهم أحد من الأشقياء عبارة زين.

فاستطرد شارحًا: «إن الملي هيلين يساوي قدرًا من الجمال يكفي لإطلاق سفينة واحدة».

ضحك جميع الأشقياء الأكبر سنًا وقالوا: «خمسون ملي هيلين تبدو درجة جيدة جدًا».

ابتسمت شاي، وأضفت كلمات المديح التي قالها زين بريقًا على وجهها يشبه بريق الشمبانيا.

حاولت تالي أن تكون لطيفة ومرحة، ولكنها كلما فكرت في ذلك العميل الخاص صاحب الزي التنكري الرمادي الذي يترصدها كان الدوار يصيبها، وبعد بضع دقائق انسحبت إلى شرفة البرج لكي تملأ رئتيها بالهواء النقي البارد.

هناك كانت بضعة مناطيد مشدودة بحبال مثبتة في البرج بدت كأنها أقمار سوداء ضخمة بعض معلقة في السماء. ورأت تالي جماعة هواة المناطيد، وقد أخذوا يطلقون الألعاب النارية الملونة من مقصورة المنطاد تجاه الآخرين، ويضحكون حين تدوي فرقعة ألسنة اللهب الآمنة في السماء المظلمة. ثم بدأ أحد المناطيد يرتفع، فسقط الحبل الذي يربطه وارتطم بالبرج، وأطلق موقده هديرًا عاليًا غطى على الضوضاء المنبعثة من الحفل. ارتفع المنطاد، وبدت شعلة اللهب التي ترفعه كخط رفيع، حتى اختفى تمامًا في المدى. حينئذ دار بخلد تالي أنه لو لم تكن شاي قدمتها إلى الأشقياء، لكانت لتنضم إلى جماعة هواة المناطيد، إنهم يحلقون دائمًا بمناطيدهم ليلًا ويهبطون في أي مكان، ربما تهبط بهم في إحدى الضواحي البعيدة أو ربما خارج المدينة نفسها، فيطلبون إحدى العربات الطائرة لتعيدهم إلى المدينة.

أخذت تالي تحدق من فوق النهر باتجاه الظلام الذي يخيم على مدينة القبحاء، فشعرت أن حدة الدوار الذي برأسها قد خفت كثيرًا. والغريب أن ذكرياتها عن الأيام التي قضتها في البرية مشوشة للغاية، ولكنها تذكر بوضوح كيف كانت تتطلع من نافذة غرفتها في عنبر النوم وهي فتاة صغيرة قبيحة لتشاهد الأضواء التي تسطع في مدينة الحسان الجدد وهي تتحرق شوقًا لبلوغ السادسة عشرة. كانت دائمًا تتخيل نفسها هنا في هذا الجانب، تقف في أحد الأبراج العالية والألعاب النارية تنطلق من حولها، وحولها الحسان وقد صارت واحدة منهن.

بالطبع كانت تالي ترتدي في معظم هذه الأحلام ثوب الحفلات الراقصة، وليس سترة صوفية وبنطلونًا من نسيج خشن ووجهها ملطخ بالطين. أمسكت تالي بخيط

من الصوف ينسل من بين نسيج السترة، وتمنت لو أن شاي لم تعثر على هذه السترة الليلة. كانت تالي تريد أن تترك الأيام التي عاشتها في الضباب وراء ظهرها، وأن تنسى تمامًا كل ذكرياتها المتشابكة عن الهروب والاختباء وشعورها بأنها خائنة. كم تكره التطلع في كل دقيقة إلى باب المصعد خوفًا من أن يكون الشخص الذي يرتدي زي السلطات الخاصة الرمادي قد تتبعها إلى هنا. كانت تريد أن تشعر بأنها تنتمي انتماء كاملًا إلى مكان ما، لا أن تظل تنتظر وقوع الكارثة القادمة.

ربما كانت شاي محقة فيما رددته كثيرًا بشأن أن التصويت على انضمام تالي إلى الأشقياء الليلة سيصلح كل شيء، فجماعة الأشقياء من أشد الجماعات ترابطًا في مدينة الحسان الجدد، ويتطلب الانضمام إليها انتخابًا بالتصويت، وما إن يصبح المرء واحدًا من الأشقياء حتى تتاح له فرصة التعرف على الأصدقاء وحضور الحفلات والاشتراك في حوارات رائعة، ولن تضطر تالي إلى الهروب مرة أخرى.

العقبة الوحيدة هي أنه لا يستطيع الانضمام إلى هذه الجماعة إلا من كان من البارعين في الحيل أيام القبح، ولديه نوادر عن هذه الخدع بما في ذلك التسلل خفية من عنابر النوم، والتحليق طوال الليل على متن الألواح الطائرة والهروب. فالأشقياء هم مجموعة من الحسان الذين لم ينسوا قط أنهم كانوا يومًا من القبحاء، ولا يزالون يستمتعون بالمكائد والحيل المشاكسة التي كانت تجعل من مدينة القبحاء مكانًا جميلًا.

«كم ستعطين هذا المنظر؟» كان هذا صوت زين الذي وجدته بجوارها فجأة يقف بقامته الفارعة التي تصل إلى مترين — وهو أقصى طول للحسان — بزيه الأسود العتيق.

– «ماذا تقصد؟»

– «مائة ملي-هيلين؟ خمسمائة ملي-هيلين؟ أو ربما هيلينًا كاملًا؟»

أخذت تالي نفسًا لكي تهدئ من روعها وهي تنظر إلى النهر الذي يكتنفه الظلام وقالت: «لن أعطيه ولو ملي-هيلين واحدًا، فلا تنس أنها مدينة القبحاء».

ضحك زين ضحكة خافتة وقال وهو يسوي خصلة من شعر تالي خلف أذنها: «لا يا تالي-وا، ليس هناك ما يبرر هذه القسوة تجاه أخواتنا وإخواننا القبحاء الصغار، فليس ذنبهم أنهم ليسوا حسانًا مثلك».

– «لست أقصدهم هم، بل المكان، فمدينة القبحاء سجن.» شعرت تالي بأنها ارتكبت خطأ فادحًا، فليس من المناسب أن تردد تعليقات تتسم بكل هذا القدر من الجدية في حفل.

ولكن لم يبد أن زين يعبأ بذلك، وقال: «لقد هربت، أليس كذلك؟»، وأخذ يتحسس النسيج الغريب الذي صنعت منه سترة تالي مثلما فعل الآخرون، ثم أردف: «هل كانت منطقة الضباب أحسن حالاً؟».

لم تدر تالي أكان يريد منها إجابة جادة أم لا، وخشيت أن تقول شيئًا سخيفًا، فإذا ظن زين أن تالي ليست رائعة بما يكفي لتساير حياة الجمال، فسوف تنهمر الأصوات المعترضة على انضمامها مهما كان ما وعدها به بيريس وشاي.

تطلعت تالي إلى عينيه الذهبيتين اللامعتين اللتين تعكسان أضواء الألعاب النارية مثل المرايا الصغيرة، وشعرت وكأن هناك شيئًا ما خلف عينيه يشدها بقوة إليه، لم يكن هذا الشعور يشبه الانبهار الطبيعي بالجمال، ولكنه شيء آخر – شيء جاد وحقيقي – أشعرها وكأن الحفل قد اختفى من حولهما؛ فلقد كانت حكاياتها عن الضباب دائمًا تأسر زين، وقد استمع إليها كلها، ولكن ربما أراد أن يعرف شيئًا آخر.

قالت تالي: «لقد رحلت عشية عيد ميلادي السادس عشر، فلم أهرب من مدينة القبحاء بمعنى الكلمة».

قال زين: «هذا صحيح»، وحول نظره عنها واستدار ليتطلع إلى النهر، «كنت تودين أن تهربي من العملية».

– «كنت أبحث عن شاي، وكان عليّ أن أظل قبيحة حتى أعثر عليها».

قال زين: «لكي تنقذيها»، ثم سدد عينيه الذهبيتين باتجاهها مرة أخرى: «أكان هذا حقًا كل ما في الأمر؟».

أومأت تالي برأسها وهي تشعر بدوار نتيجة الشمبانيا التي احتستها في الليلة الماضية، أو ربما التي احتستها الليلة، ثم نظرت تالي إلى كأس الشمبانيا الفارغ الذي تمسك به بيدها دون أن تستطيع تحديد كم كأسًا أفرغته في جوفها.

«كنت مضطرة للقيام بذلك.» أدركت تالي وهي تنطق بهذه الكلمات أن ما تقوله يبدو كذبًا.

سألها زين وهو يبتسم بخبث وتهكم: «أكان أمرًا صادرًا من السلطات الخاصة؟».

رفعت تالي حاجبيها في اندهاش وهي تتساءل عن طبيعة الحيل التي كان زين يقوم بها عندما كان قبيحًا، فلم يكن زين يحكي كثيرًا عن حيله في زمن القبح، ومع أن زين لم يكن يكبرها بكثير فلم يكن مضطرًا لإثبات أنه شقي حقيقي؛ ذلك أمر بديهي.

وعلى الرغم مما فعلته الجراحة التنكرية بشفتيه لتبدوا رفيعتين فهو لا يزال وسيمًا. لقد نُحتت قسمات وجهه ببراعة شديدة وكأن الأطباء أرادوا أن يجسدوا فيه أقصى مواصفات الجمال التي حددتها لجنة شئون الجمال، فعظام وجنتيه حادة وكأنها رءوس سهام تختبئ تحت لحم وجهه، وعندما يبتسم يتقوس حاجباه ويرتفعان على نحو عجيب. اكتشفت تالي فجأة أنه إذا تغير مكان أي من قسماته ملليمترات قليلة سيكون شكله بشعًا، ومع ذلك لم يكن من الممكن أن يتخيل أحد أنه كان قبيحًا في يوم من الأيام.

سألته تالي: «أذهبت إلى أطلال المدينة القديمة الصدئة من قبل، عندما كنت ... صغيرًا؟».

– «كنت أذهب كل ليلة تقريبًا، في الشتاء الماضي».

– «في الشتاء؟».

– «أنا أحب أن أرى أطلال المدينة وهي مكسوة بالثلوج، فهي تضفي نعومة على الحواف الحادة مما يضيف قدرًا هائلاً من الهيبة إلى جمال المنظر».

– «باه»، حينها تذكرت تالي كم كان الجو باردًا وهي تقطع البرية في أوائل الخريف، وقالت: «كم يوحي ذلك بالبرودة... القارسة».

قال زين: «لم أفلح في إقناع أحد أن يأتي معي»، ثم استطرد قائلاً وقد ضاقت عيناه: «عندما تتحدثين عن الأطلال القديمة لا تذكرين أبدًا أنك التقيت بأحد هناك».

– «التقيت بأحد؟» أغمضت تالي عينيها، إذ شعرت فجأة أنها تفقد توازنها، فمالت نحو سور الشرفة وأخذت نفسًا عميقًا.

قال زين: «نعم، هل التقيت بأحد هناك؟».

انزلقت كأس الشمبانيا الفارغة من يدها وأخذت تتهاوى في الظلام.

تمتم زين وهو يبتسم: «انظري إلى أسفل»، وتناهى إلى سمعهما صوت تهشم الزجاج الذي انطلق من وسط الظلام، وانتشرت من حوله ضحكات من فوجئوا بسقوط الكأس كما تنتشر الموجات الدائرية حول حجر ألقي في الماء، وبدا الصوت بعيدًا وكأنه على بعد ألف كيلومتر.

أخذت تالي شهيقًا من الهواء البارد حتى تستعيد توازنها، إذ كانت إنها تشعر بتقلبات شديدة في معدتها. كم من المحرج أن تكون بتلك الحالة؛ أن تكون على وشك أن تتقيأ إفطارها بعد احتساء بضع كئوس من الشمبانيا.

همس زين لها: «لا عليك يا تالي، فقط حاولي أن تظلي مرحة وجميلة».

أدركت تالي كم كان سخيفًا أن يطلب منها أحد أن تظل جميلة ومرحة، ولكنها لاحظت أن نظرات زين إليها صارت أرق، حتى مع ملامحه الجديدة التي أضفتها عليه الجراحة التنكرية، وكأنه حقًا يريدها أن تستعيد هدوءها.

استدارت تالي وأشاحت بوجهها عن تلك الهوة السحيقة وأمسكت بسور الأمان من خلفها بكلتا يديها. عندئذ خرجت شاي وبيريس إلى الشرفة، وأحاط بتالي جميع أصدقائها الجدد من الأشقياء، فأصبحت تشعر بأن هناك من يحميها، وبالانتماء إلى جماعة، ولكنهم يراقبونها جيدًا أيضًا، ربما يتوقعون منها شيئًا مميزًا الليلة.

قالت تالي: «لم أر أي أحد هناك، كان من المفترض أن يأتي شخص ما، ولكنه لم يأت قط.»

لكن تالي لم تسمع رد زين.

ظهر الشخص الذي يتتبعها مرة أخرى، يقف بلا حراك في البرج المزدحم يحدق فيها، وخُيل إليها أن العينين البراقتين المثبتتين على القناع قد تنبهتا لنظراتها للحظات، ولكن ما لبث ذلك الشخص المقنع أن استدار واندس بين المعاطف البيضاء التي يرتديها المتنكرون في زي أعضاء لجنة شئون الجمال، وتوارى عن الأنظار خلف الأوراق الكبيرة التي طبعت عليها تصميمات الوجوه الخاصة بكل صورة من صور الجمال الرئيسية. ابتعدت تالي عن زين وانطلقت وسط حشود الحاضرين لتقتفي أثر هذا الشخص، ومع أنها تدرك جيدًا أن ما تفعله شيء سخيف، فلن تتمكن من استعادة توازنها الليلة إلا إذا عرفت هوية ذلك الشخص: أهو أحد أعضاء جماعة الأشقياء؟ أم عميل من عملاء السلطات الخاصة؟ أم واحد من الحسان الجدد الذي لا يعرفها ولا تعرفه؟ عليها أن تكتشف لماذا يلقي أحدهم بعملاء السلطات الخاصة في وجهها.

أخذت تالي تشق طريقها بين أصحاب المعاطف البيضاء بصعوبة، ثم مرت بجماعة يرتدي أفرادها كلهم بذلًا سميكة جعلت كلًا منهم يبدو بدينًا، وكانت تالي تثب فيما بينهم، فقد جعلتها الحشوات الداخلية الطرية التي يثبتونها فوق بطونهم تلف حول نفسها، وحينما مرت بفريق من لاعبي الهوكي يتأرجحون مثل الصغار فوق أحذية التزلج الزلقة، طرحت معظمهم أرضًا، ولمحت من بعيد أمامها قماشًا حريريًا رمادي اللون وهي تركض، ولكن الزحام شديد، والحاضرون في حركة دائبة، حتى إنها عندما وصلت إلى العمود الرئيسي للبرج، كان صاحب الزي التنكري الرمادي قد اختفى.

عندما نظرت تالي إلى الإشارات الضوئية التي تعلو باب المصعد، لاحظت أن المصعد في طريقه إلى أعلى ولم يكن يهبط، وهذا يعني أن عميل السلطات الخاصة الزائف هذا لا يزال في مكان ما داخل البرج.عندئذ وقع بصرها على الباب المؤدي إلى سلم الطوارئ؛ فلونه أحمر زاهٍ، وقد أُلصقت عليه لافتات تحذيرية تقول إن صفارة إنذار ستنطلق إذا فتحه أحد. تلفتت تالي حولها مرة أخرى، ولكنها لم تر أي أثر للزي التنكري الرمادي. أيًا كانت «حقيقة» هذا الشخص فلم يكن أمامه سوى النزول على هذا السلم، فصفارة الإنذار يمكن أن تعطل، لقد قامت هي نفسها بتلك الحيلة ألف مرة عندما كانت قبيحة.

اتجهت تالي إلى المخرج المؤدي إلى باب سلم الطوارئ ويداها ترتعشان. إذا دوت صفارة الإنذار فسيحملق الجميع فيها ويتهامسون عليها حتى يصل الحراس ويخلون البرج. كم ستكون نهاية رائعة لمستقبلها كواحدة من الأشقياء.

قالت بينها وبين نفسها: «ربما هو واحد من الأشقياء. لن تكوني شقية حقيقية إذا عجزت عن إطلاق صفارة إنذار من حين لآخر».

دفعت تالي الباب فانفتح، ولكنه لم يحدث صوتًا.

توجهت تالي إلى بئر السلم، وانغلق الباب من ورائها فأخمد صخب الحفل، وفي الهدوء المفاجئ شعرت بقلبها يكاد يقفز من بين ضلوعها، وسمعت صوت أنفاسها المتقطعة من أثر المطاردة، وشعرت بإيقاعات الموسيقى تتسرب من فتحة الباب السفلية لتهتز الأرضية الإسمنتية من تحتها.

كان صاحب الزي التنكري الرمادي جالسًا على السلم، في موضع أعلى من مكانها ببضع درجات، وقال: «لقد تمكنت من الوصول». إنه صوت فتى، لكنه غير واضح خلف القناع.

– «الوصول أين؟ إلى هذا الحفل؟».

– «لا يا تالي، أقصد إلى هنا من الباب».

– «لم يكن مغلقًا» قالت وهي تحدق في الجوهرتين اللتين تغطيان فتحتي العينين في القناع محاولة التعرف على هويته: «من أنت؟».

– «ألا تعرفينني؟» وفي صوته حيرة حقيقية وكأنه صديق قديم اعتاد على ارتداء القناع طوال الوقت. «كيف أبدو لك؟».

ابتلعت تالي ريقها وقالت بصوت ضعيف: «كعملاء السلطات الخاصة».

– «جيد أنكِ لا تزالين تتذكرين.» أحست تالي من صوته أنه يبتسم وهو يرد عليها، إنه يتحدث ببطء وحذر وكأنه يخاطب شخصًا غبيًّا.

– «بالطبع أتذكر. أأنت واحد منهم؟ هل أعرفك؟» لم تكن تالي تتذكر عميلًا بعينه من عملاء السلطات الخاصة، فقد كانت وجوههم جميعًا تصب في وجه واحد مشوش الملامح، وجه جميل عليه مسحة من القسوة.

– «لماذا لا تنظري بنفسك؟» لم يأتِ بأية حركة لكي يخلع قناعه، «هيا يا تالي.»

أدركت تالي فجأة طبيعة الموقف، فكل ما حدث – بدءًا من تعرفها على مغزى الزي التنكري الرمادي ومطاردتها لصاحبه في مكان الحفل، وإقدامها على فتح باب الطوارئ المزود بصفارة إنذار – كان اختبارًا؛ نوعًا من التجنيد. كان يجلس وهو يتساءل هل ستجرؤ تالي على نزع القناع من وجهه أم لا.

– ولكن تالي سئمت من الاختبارات فردت عليه: «فقط ابتعد عني».

– تالي ...

– «أنا لا أريد أن أعمل لحساب السلطات الخاصة. أنا أريد فقط أن أعيش هنا في مدينة الحسان الجديدة»

– «أنا آسف ...»

صاحت تالي وهي تلوح بقبضتيها: «دعني وشأني!»، ورددت الجدران الإسمنتية أصداء صيحتها، ثم ساد الصمت لحظة وكأن تلك الصيحة قد فاجأتهما، حيث كانت موسيقى الحفل تنساب إلى بئر السلم ضعيفة وخافتة.

وفي آخر الأمر انطلقت تنهيدة من وراء القناع، ورفع صاحب القناع محفظة صغيرة من الجلد وقال: «لدي شيء يخصك إذا كنتِ مستعدة له، أتريدينه يا تالي؟».

«أنا لا أريد أي شيء من ...» حينئذ خفت صوت تالي شيئًا فشيئًا ثم صمتت تمامًا؛ فقد تناهت إلى سمعها أصوات خافتة لوقع أقدام آتية من أسفل، لم تكن أصواتًا آتية من الحفل، ولكن هناك من يصعد السلم.

تحرك الاثنان في وقت واحد، وأطلا برأسيهما من فوق سور السلم وتطلعا إلى أسفل بئر السلم الضيق، من بعيد لمحت تالي قماشًا حريرًا رماديًّا، وأيادي تمسك بسور السلم، إنهم ستة أشخاص يصعدون درجات السلم بسرعة رهيبة، ولا يكاد صوت أقدامهم يعلو على صوت الموسيقى المكتوم.

قال الفتى المقنع وهو يهب واقفًا: «أراكِ فيما بعد».

أغمضت تالي عينيها وفتحتهما في حيرة. ودفعها المقنع جانبًا إذ أفزعه مرأى عملاء السلطات الخاصة الحقيقيين. من يكون هو إذن؟ وقبل أن يضع أصابعه على مقبض الباب انتزعت تالي القناع من فوق وجهه.

إنه قبيح، إنه حقًّا من القبحاء.

لم يكن وجهه يشبه على الإطلاق الأقنعة التنكرية التي يرتديها من تنكروا في هيئة أشخاص بدناء بأنوف كبيرة وأعين مصابة بالحول. ولم تكن القسمات الضخمة فقط هي ما أظهرته مختلفًا، فكل شيء فيه يعطي هذا الانطباع، وكأنه خُلق من مادة أخرى تمامًا. ولما كانت تالي تمتلك قوة إبصار فائقة باعتبارها واحدة من الحِسان، تمكنت من رؤية كل الثقوب في وجهه، والتشابكات العشوائية في شعره، وعدم تناسق قسمات وجهه. اقشعر جلدها لمرأى عيوبه، ولحيته غير المشذبة، وأسنانه التي لم يقوَّم اعوجاجها بالجراحة، والبثور المنتشرة فوق جبهته. أحست أنها تريد أن تبتعد عنه، وعن «قبحه» بكل ما فيه من قذارة واعتلال صحي وحظ عاثر.

لكنها عرفت اسمه بطريقة ما...

وسألته: «أنت كروي؟»

الفصل الرابع

تالي تسقط

قال كرُوي وهو ينتزع القناع ويعيده إلى وجهه: «فيما بعد يا تالي»، ثم فتح الباب بعنف، فاندفع صخب الحفل إلى بئر السلم وخرج كروي منه مسرعًا، واختفى وسط الزحام بزيه التنكري الرمادي.

كانت تالي واقفة في مكانها والباب يغلق مرة أخرى، إذ سمرتها الدهشة في مكانها. لقد كانت ذكرياتها عن القبح مغلوطة تمامًا، مثلها مثل ذكرياتها عن سترتها القديمة المصنوعة من الصوف. فوجه كروي أسوأ بكثير من الصورة التي في ذهنها عن سكان الضباب: ابتسامته المعوجة، وعيناه الباهتتان، والعلامات الحمراء النارية التي أحدثها ضغط القناع على بشرته المبللة بالعرق ...

وفي تلك اللحظة انغلق الباب بعنف، وسمعت تالي وسط الأصداء وقع الأقدام التي لا تزال تصعد السلم باتجاهها، فعملاء السلطات الخاصة الحقيقيون في طريقهم إليها، ولأول مرة منذ بداية اليوم تخطر لها فكرة واضحة.

«اهربي.»

فتحت تالي الباب واندفعت وسط الزحام.

انفتح باب المصعد فدخلته تالي ووجدت نفسها بجوار جماعة من محبي الطبيعة متنكرين في هيئة أشجار تكسوها الأوراق الجافة في آخر أيام الخريف، وأخذت تتساقط منهم الأوراق الجافة الصفراء والحمراء على الأرض وهي تندس بينهم. وكادت تالي تهوي على الأرضية اللزجة من أثر الشمبانيا المراقة، ولكنها تمكنت أن تحافظ على توازنها، ثم لمحت الزي التنكري الرمادي مرة أخرى.

كروي يتجه إلى الشرفة حيث يقف الأشقياء.

انطلقت تالي وراءه بسرعة البرق، فلم تكن تريد أن يتتبعها أحد ويخيفها في الحفلات ويعبث بذكرياتها، وهي في أمس الحاجة إلى الظهور أمام الجميع

كفتاة لطيفة ومرحة، كان عليها أن تلحق بكروي وتخبره ألا يتتبعها أبدًا بعد ذلك.

هذه ليست مدينة القبحاء ولا منطقة الضباب، وليس من حقه أن يكون موجودًا هنا، ولا يجوز له أن يطل عليها هكذا من ماضيها القبيح.

وركضت تالي لسبب آخر: وهو عملاء السلطات السرية، فيكفي أن تلمحهم حتى تنتفض كل خلية في جسدها، فهي تشعر بنفور شديد حينما تراهم يتحركون بسرعة تفوق سرعة البشر، وهو شعور أشبه بالنفور الذي يحس به المرء عند رؤية صرصار يركض هاربًا فوق صحن. ربما بدت حركات كروي غير معتادة، وثقته التي اكتسبها من مدينة الضباب شاذة في حفل يعج بالحسان الجدد، لكن عملاء السلطات الخاصة نوع مختلف تمامًا.

ما إن اندفعت تالي إلى الشرفة حتى رأت كروي وهو يقفز ليقف فوق السور ملوحًا بذراعيه في الهواء وللحظات كان فيها على وشك السقوط، ثم استعاد توازنه وثنى ركبتيه وانطلق في ظلمة الليل.

أسرعت تالي نحو المكان الذي كان كروي يقف فيه وانحنت فوق السور، فرأت كروي يهوي إلى أسفل حتى غاب عن نظرها وابتلعه الظلام، وبعد لحظة شعرت تالي بإعياء، ظهر كروي مرة أخرى وهو منقلب رأسًا على عقب، وكانت أضواء الألعاب النارية تنعكس على زيه الحريري الرمادي وهو يثب في الهواء باتجاه النهر.

وقف زين بجانبها ينظر إلى أسفل وتمتم: «لم يرد في الدعوة شيء عن ضرورة ارتداء سترات القفز المطاطية، من كان ذلك الشخص يا تالي؟».

فتحت تالي فمها لتقول شيئًا، لكن صفارة الإنذار انطلقت.

استدارت تالي فرأت جموع الحاضرين تتفرق، ففرقة السلطات الخاصة تندفع من باب بئر سلم الطوارئ وأفرادها يشقون طريقهم وسط جموع الحسان الجدد الذين أصابهم الارتباك. فلم تكن الوجوه القاسية التي يحملونها أقنعة تنكرية بل حقيقة واقعة شأنها شأن وجه كروي القبيح، تصيب من ينظر إليها بالاشمئزاز. سرت رجفة في جسد تالي حينما رأت الأعين التي تشبه أعين الذئاب، إنهم يتقدمون بسرعة رهيبة تذكرها بسرعة الفهود التي تطارد فريستها، كل هذا جعل جسدها يلح عليها أن تواصل الركض.

وعلى الجانب الآخر من الشرفة رأت بيريس يقف متجمدًا قرب السور، وقد روعه هول المنظر. أخيرًا انطلقت الأضواء المتوهجة من ألعابه النارية الآمنة، ولكن مؤشر الضوء الصغير المثبت بياقة سترة القفز التي يرتديها كان يشع ضوءًا أخضر.

اندفعت تالي تجاهه تشق طريقها وسط الأشقياء، وهي تحسب الزوايا لتعرف اللحظة المناسبة للقفز. بدا لها العالم للحظة واضحًا على نحو غريب، وكأن وجه كروي القبيح ووجوه عملاء السلطات الخاصة التي تجمع بين الجمال والقسوة قد أزالا حاجزًا كان يحول بينها وبين العالم. بدا كل شيء واضحًا وغير مستساغ وبدت تفاصيل الأشياء حادة جدًا حتى إنها اضطرت لأن تضيق عينيها وكأنها تندفع وسط رياح قارسة البرودة.

قفزت تالي واستقرت أمام بيريس تمامًا وطوقت كتفيه بذراعيها، فرفعتهما قوة الدفع الناتجة عن تلك القفزة فوق سور الشرفة، وسقطا في الظلام، واشتعل الزي التنكري الذي يرتديه بيريس مرة أخيرة في الرياح وهما يهبطان معًا، وكان الشرر الآمن يرتد من فوق وجهيهما بارزًا مثل الرقائق الثلجية.

أخذ بيريس يضحك تارة ويصرخ تارة أخرى، وكأنه ضحية مكيدة ضايقته لكنها في الوقت ذاته أنعشته، وكأن شخصًا سكب وعاء من الماء البارد فوق رأسه.

وبينما كانا يسقطان أدركت تالي أن سترة القفز المطاطية قد لا تحملهما معًا.

شددت تالي قبضتيها على كتفي بيريس، وسمعت بيريس يطلق صيحة مكتومة حينما بدأت الروافع تعمل، فرفعت السترة المطاطية بيريس حتى أصبح في وضع عمودي، مما تسبب في شعور تالي بأن كتفيها ستنخلعان. فلا تزال عضلات تالي قوية بفضل أسابيع من العمل اليدوي في منطقة الضباب، وقد زادت قوة العضلات بفعل عملية التحول الجراحية، ولكنها مع كل ذلك لم تستطع أن تحافظ على إحكام قبضتها حول كتفي بيريس والسترة تمتص سرعة سقوطهما؛ فقد انزلق ذراعاها إلى أسفل حتى التفتا حول خصر بيريس، وعلقت أصابعها بأحزمة السترة مما آلمها كثيرًا.

توقفا فجأة عن السقوط، ولامست قدما تالي الحشائش الخضراء، ففكت ذراعيها من حول خصر بيريس.

حينئذ ارتفعت السترة ببيريس مرة أخرى في الهواء، وأصابت ركبتاه جبهة تالي فعادت ترتفع في الظلام وهي تترنح، ثم فقدت توازنها وسقطت فوق كومة من أوراق الأشجار الجافة الهشة.

ظلت تالي لحظة بلا حراك، ورائحة الطين والعطن تفوح من كومة الأوراق تلك، مثل شيء متهالك. رمشت تالي بعينيها، فقد شعرت بشيء يسيل داخل إحداهما، ربما كانت السماء تمطر.

نظرت إلى أعلى نحو برج الاحتفالات والمناطيد البعيدة، وهي تغمض عينيها وتفتحهما وتلهث، وتمكنت من تمييز بعض الأشخاص الذين يطلون برءوسهم إلى أسفل من الشرفة المنيرة الموجودة بالطابق العاشر. وتساءلت هل أي منهم من عملاء السلطات الخاصة.

لم تر بيريس في أي مكان حولها، وتذكرت القفز بالسترة المطاطية حين كانت من القبحاء، إذ كانت تلك السترات المطاطية تتيح للمرء الهبوط من المنحدرات. لا بد أن بيريس هبط الآن باتجاه النهر ليلاحق كروي.

كروي، كانت تريد أن تقول له شيئًا ...

نهضت تالي بمشقة على قدميها ثم وقفت في مواجهة النهر، وشعرت برأسها ينبض بقوة، لكن الصورة الواضحة للعالم من حولها التي رأتها حينما ألقت بنفسها من الشرفة لم تكن قد غابت. خفق قلبها بعنف حينما انطلقت عاصفة من الألعاب النارية وأضاءت السماء، وألقت بضوء وردي وظلال خاطفة على الأشجار، فبدت الحشائش واضحة تمام الوضوح.

شعرت بأن كل شيء من حولها يبدو على حقيقته؛ شعورها بالاشمئزاز الشديد تجاه وجه كروي القبيح، وشعورها بالخوف من السلطات الخاصة، والأشكال والروائح من حولها، لقد شعرت وكأن غشاوة بلاستيكية رقيقة قد زالت من فوق عينيها، فأصبحت ترى العالم من حولها واضحًا بأدق التفاصيل.

أخذت تالي تهبط التل ركضًا باتجاه مدينة القبحاء التي يلفها الظلام، وصفحة ماء النهر التي تنعكس عليها الأشياء كالمرآة، وصاحت بصوت عال: «كروي!»

حينئذ خبت الأضواء التي خلقتها الألعاب النارية من السماء والتي كانت على هيئة زهرة وردية، فتعثرت تالي في بعض الجذور المتعرجة لشجرة عتيقة وتوقفت.

وكان ثمة شيء ينساب فوقها قادمًا من الظلام.

وظهرت مجموعة متفرقة من البقع الخضراء في مجال رؤيتها من أثر الألعاب النارية. وسألت: «أهو أنت يا كروي؟»

– «إنك لا تيأسين، أليس كذلك؟»

كان كروي بوجه بدا عليه الرضا واقفًا على أحد الألواح الطائرة على بعد متر من الأرض مباعدًا بين قدميه لكي يحافظ على توازنه. وكان قد استبدل ملابس فاحمة السواد بملابسه الحريرية الرمادية، وخلع قناعه الذي يحمل ملامح جميلة مشربة بالقسوة، وكان وراءه شخصان يرتديان ملابس سوداء يركبان على لوحين آخرين، إنهما من القبحاء الأصغر سنًا، يرتديان الزي الخاص بعنابر النوم في مدينة القبحاء وقد بدا عليهما التوتر.

«أردت أن ...» وبدأ صوت تالي يخفت شيئًا فشيئًا ثم توقفت عن الكلام. لقد تتبعته لكي تقول له: «ارحل، دعني وشأني، ولا تأت مرة أخرى»؛ لقد تتبعته لكي تصرخ في وجهه، لكن كل شيء أصبح واضحًا بشدة ... وأصبح كل همها الآن هو التمسك بهذه الصورة الواضحة، وأدركت على نحو ما أن اقتحام كروي لعالمها جزء من ذلك.

قال واحد من القبيحين الأصغر سنًا: «كروي، إنهم قادمون».

سألها كروي بلهجة هادئة: «ماذا كنت تريدين يا تالي؟».

أغمضت تالي عينيها وفتحتهما مرة أخرى، إذ شعرت بالحيرة وخشيت أن تقول شيئًا غير مناسب يؤدي إلى زوال الوضوح، ويعود الستار ليسدل من جديد بينها وبين العالم من حولها.

تذكرت تالي ما عرضه عليها حينما كانت معه في بئر السلم.

– «كان لديك شيء تود أن تعطيني إياه، أليس كذلك؟»

ابتسم كروي، وأخرج المحفظة الجلدية من حزامه وهو يقول: «هذا؟ نعم، أظن أنكِ مستعدة له. لكن هناك مشكلة واحدة فقط، من الأفضل ألا تأخذينه مني الآن، فالحراس قادمون، وربما السلطات الخاصة».

رد عليه الفتى القبيح المتوتر متذمرًا: «نعم، في عشر ثوان تقريبًا».

ولكن كروي تجاهله وواصل حديثه: «ولكننا سنتركه لكِ في فالانتينو ٣١٧. أيمكنك أن تتذكري ذلك؟ فالانتينو ٣١٧».

أومأت تالي برأسها، ثم أغمضت عينيها وفتحتهما، وشعرت بدوار.

قطب كروي حاجبيه وقال: «أتمنى ذلك»، ثم أدار لوحه الطائر إلى الاتجاه الآخر في حركة رشيقة واحدة، وقلده الفتيان القبيحان، وقبل أن يرحل أردف قائلاً: «أراك لاحقًا. يؤسفني ما حدث لعينك».

اندفع الثلاثة تجاه النهر في سرعة البرق، وذهب كل منهم في اتجاه حتى اختفوا في الظلام.

سألت تالي بصوت ضعيف: «ما حدث لعيني؟».

ووجدت نفسها تغمض عينيها وتفتحهما مرة أخرى، وأحست بأن رؤيتها أصبحت مشوشة، ورفعت يدها لتتحسس جبهتها فعلق شيء لزج بأصابعها، وأخذت المزيد من البقع الداكنة تتقاطر في كفها وهي تحملق فيها مذهولة.

وفي آخر الأمر شعرت بالألم؛ شعرت بخفقان في رأسها يتزامن مع دقات قلبها. لا بد أن جبهتها قد أصيبت حينما ارتطمت بركبة بيريس. وأخذت تتتبع بأصابعها خطًّا من الدماء يتقاطر حول حاجبها ويسيل على خدها ساخنًا كالدموع.

جلست تالي على العشب، وشعرت فجأة برجفة تسري في جسدها كله.

حينئذ أضاءت الألعاب النارية السماء مرة أخرى، فبدت الدماء على يدها حمراء زاهية، وتحولت كل قطرة منها إلى مرآة تعكس أضواء الانفجار التي تلتمع فوق رأسها، وامتلأت السماء في تلك اللحظة بالكثير من العربات الطائرة.

وبينما كانت قطرات الدماء تسيل على وجهها شعرت بأن شيئًا ينزلق من بين يديها، شيئًا تريد أن تحتفظ به ...

– «تالي!»

رفعت تالي رأسها فرأت بيريس يتسلق التل وهو يضحك ضحكة خافتة.

– «لم تكن تلك حركة لطيفة يا تالي-وا؛ كاد المطاف ينتهي بي في النهر!» وأخذ يقلد حركات من يوشك على الغرق، فراح يضرب المياه بذراعيه، ويهبط برأسه تحت المياه.

أعجبها تمثيله ووجدت نفسها تضحك، فما دام بيريس معها فهي تشعر أن كل شيء يصير لطيفًا ومرحًا، حتى تلك الرعدة الغريبة التي تسري في جسدها. قالت له: «ما المشكلة؟ ألا تستطيع أن تسبح؟».

ضحك بيريس وهبط بجانبها على العشب الطري وهو يحاول التملص من أربطة السترة المطاطية: «أنا لا أرتدي الملابس المناسبة للسباحة». وأخذ يدلك إحدى كتفيه وهو يقول: «وأيضًا ... آه! إنهما يؤلمانني، لقد تعلقت بهما ونحن نهبط.»

حاولت تالي أن تتذكر سبب إعجابها بفكرة القفز من شرفة البرج، ولكن منظر دمائها وهي تنزف جعلها شاردة الذهن، وصار كل همها هو أن تخلد إلى النوم، فقد بدا كل شيء واضحًا وقاسيًا. وقالت له: «أنا آسفة».

رد بيريس: «فقط نبهيني في المرة القادمة». حينئذ انطلقت أضواء الألعاب النارية فوقهما، ونظر بيريس إليها وهو يضيق عينيه، واكتست ملامح وجهه الجميل بالحيرة وهو يسألها: «ما هذا الدم؟».

– «آه، نعم. اصطدمت ركبتك بي وأنت تثب في الهواء. أليس هذا سخيفًا؟».

– «إنه ليس لطيفًا على الإطلاق.» ثم مد بيريس يده إلى ذراعها وضغط عليه برفق وقال: «لا تقلقي يا تالي، سوف أبعث برسالة لإحضار إحدى العربات الطائرة، فهناك الكثير منها بالخارج الليلة».

غير أن عربة كانت في الطريق إليهما بالفعل، ومرت في هدوء من فوقهما وهي تطلق أضواءً ألقت بوميض أحمر على العشب من حولهما، وتمكنت العربة الطائرة من رصدهما بالأضواء الكاشفة. تنهدت تالي وهي تتخلص من ذلك الشعور بالوضوح الشديد الذي أرهق ذهنها. لقد أدركت الآن لماذا كان هذا اليوم سخيفًا ومجهدًا، فقد أجهدت نفسها أكثر من اللازم، كان القلق يساورها من نتيجة تصويت الأشقياء، وفكرت كثيرًا في الأزياء التنكرية التي سترتديها، وكل هذه الأشياء جادة أكثر منها مرحة. فلا عجب إذن أن مقتحمي الحفل قد دفعوا بها إلى حافة الجنون.

ضحكت تالي: لقد دفعوا بها فعلًا إلى الحافة: حافة الشرفة.

ولكن كل شيء على ما يرام الآن، بعد أن رحلت الوجوه القبيحة والوجوه الجميلة قاسية الملامح، وبيريس موجود بجوارها ليعتني بها، أحست تالي بأن شعورًا بالراحة يغمرها. كم كان غريبًا أن تصاب بالشرود للحظة بعد أن ارتطمت رأسها بركبة بيريس، حتى إنها تحدثت مع هؤلاء القبحاء وكأنهم مهمون.

هبطت العربة الطائرة بالقرب منهما، وقفز منها حارسان يحمل أحدهما صندوق الإسعافات الأولية في يده، واتجها إليهما. خطر لتالي أن تطلب من الحارسان وهم يضمدان جرح رأسها أن يجريا لها جراحة تجميلية بعينها مثل جراحة شاي؛ ليس مثلها تمامًا فذلك سيكون سخيفًا، ولكن واحدة على شاكلتها.

رفعت تالي عينيها إلى وجهي الحارسين، إنهما من الحسان القدامى كبار السن، والهدوء والحكمة يكسيان وجهيهما، وتبدو عليهما البراعة. وكانت أمارات الاهتمام التي بدت عليهما لتخففا من إحساسها بالحرج من منظر الدماء التي تغطي وجهها.

اصطحبها الحارسان برفق إلى العربة ورشا طبقة جديدة من الجلد فوق الجرح، وأعطياها قرصًا مضادًا للتورم، وعندما استفسرت عن الكدمات ضحكا وأخبراها أن العملية التي أجرياها تكفلت بذلك، فالحسان لا يمكن أن تظهر عليهم الكدمات أبدًا.

وكانت تالي قد خضعت لاختبار للأعصاب، لأن الجرح كان برأسها؛ حينما حرك الحارسان مؤشرًا مضيئًا بضوء أحمر إلى الأمام والخلف على رأسها وهما يتتبعان المستقبلات الإلكترونية الموجودة بحدقتي عيني تالي. وعلى الرغم من أنه لم يبد الاختبار متطورًا، فالحارسان قالا إنه أثبت أن تالي لا تعاني ارتجاجًا أو تلفًا بأنسجة المخ. وحكى بيريس آنذاك عن حادثة تعرض لها عندما اصطدم بباب زجاجي في قصر ليليان راسل وهو يسير، فكان عليه أن يظل مستيقظًا طوال الوقت أو يموت، وضحكوا جميعًا من هذه القصة.

وجه الحارسان بعد ذلك بضعة أسئلة إلى تالي وبيريس حول الفتيان القبحاء الذين دبروا خدعة وعبروا النهر في تلك الليلة، وسببوا كل هذه المشاكل. «أتعرفان أي شخص منهم؟».

تنهدت تالي غير راغبة في التورط في هذا الأمر، فسوف يكون الوضع مخجلًا جدًا لها إذا تبين أنها هي السبب الذي دفع هؤلاء الفتيان القبحاء إلى اقتحام الحفل الليلة. لكن هؤلاء الحراس الحسان القدامى، وليس من المقبول أن يتجاهلهم المرء؛ إنهم دائمًا يعرفون عملهم جيدًا، ومن السخف والحماقة أن يحاول أحد أن يكذب عليهم وهو ينظر مباشرة إلى وجوههم الهادئة الحازمة.

– «نعم، أظن أنني تذكرت واحدًا منهم يدعى كروي».

– «لقد أتى من الضباب، أليس كذلك يا تالي؟»

أومأت تالي برأسها، وهي تشعر أنها تبدو خرقاء وهي ترتدي السترة المتسخة المصنوعة في الضباب والملطخة بالدم. إنه خطأ القائمين على قصر فالانتينو حين غيروا قواعد الملبس؛ فليس هناك أسخف من أن يظل المرء مرتديًا ملابسه التنكرية بعد أن يغادر الحفل.

– «أتعرفين ماذا كان يريد يا تالي؟ ولماذا جاء إلى هنا؟»

نظرت تالي إلى بيريس لكي يساعدها، إذ كان يتابع كل كلمة تقولها باهتمام شديد، وعيناه اللامعتان تتسعان في إعجاب، مما أشعرها بأنها من الشخصيات المهمة.

هزت تالي كتفيها وهي تقول: «إنها حيل القبحاء ليس إلا. ربما أراد أن يتباهى أمام أصدقائه». وبدا تبريرها هذا سخيفًا، فكروي لا يعيش في مدينة القبحاء، فهو ممن يقيمون في منطقة الضباب، من البرية الموجودة بين المدن. ربما لم يكن الفتيان اللذان قدما معه سوى اثنين من فتيان المدينة من هواة الحيل والمكائد، لكن كروي كان يتصرف بالتأكيد وفق خطة معينة.

غير أن الحارسين ابتسما وأومآ برأسيهما موافقين على كلام تالي: «لا تقلقي، لن يحدث ذلك مرة أخرى، سوف نراقبكما جيدًا لنضمن عدم حدوث ذلك».

ردت تالي عليهما بابتسامة، واصطحباها إلى منزلها.

عندما وصلت تالي إلى غرفتها وجدت رسالة من بيريس الذي عاد مرة أخرى إلى الحفل.

صرخ بيريس بصوت عالٍ: «خمني ماذا حدث؟» وعلت أصوات الحاضرين والموسيقى على صوته، مما جعل تالي تتمنى العودة إلى الحفل، بالرغم من البشرة الجديدة المرشوشة فوق جبهتها.

قطبت تالي جبينها، وارتمت على الفراش وبيريس يواصل رسالته: «عندما عدت إلى الحفل، وجدت أن الأشقياء صوتوا! لقد راقت لهم فكرة وجود عملاء السلطات الخاصة الحقيقيين في الحفل، وقد أعطى زين قفزتنا من البرج ستمائة-ملي-ميلين! ولذلك أصبحت من الأشقياء! أراك غدًا لا تزيلي الندبة التي على جبينك حتى يراها الجميع. خير صديقين إلى الأبد!»

انتهت الرسالة، وشعرت تالي بأن الفراش يدور بها بعض الشيء، أغمضت تالي عينيها وببطء أطلقت تنهيدة طويلة تنم عن الارتياح. أخيرًا أصبحت تالي واحدة من الأشقياء حقًا، ونالت كل ما طمحت إليه، فقد صارت حسناء تعيش في مدينة الحسان الجدد مع بيريس وشاي وعشرات من الأصدقاء الجدد، وتبخرت جميع المشاكل ولحظات الرعب التي عاشتها في السنة الماضية مثل الهروب إلى منطقة الضباب، وتحمل الظروف القاسية للعيش هناك وسط أطلال ما قبل العصر القديم، والعودة مرة أخرى إلى المدينة عبر القفار؛ انتهى كل ذلك نهاية سعيدة.

كان ذلك الإحساس رائعًا، ولكن تالي مرهقة للغاية، حتى إنها ظلت للحظة عاجزة عن أن تصدق ما حدث، وأعادت الاستماع إلى الرسالة التي بعثها بيريس إليها بضع مرات، ثم خلعت سترتها ذات الرائحة الكريهة ويداها ترتعشان ثم ألقت بها في ركن الغرفة. سوف «تأمر» الكوة الذكية غدًا بإعادة تدويرها.

استلقت تالي على ظهرها وظلت برهة تحملق في السقف، ووصلت رسالة من شاي، لكن تالي تجاهلتها، وضبطت خاتم الاتصال الخاص بها على وضع النوم. مع أن كل شيء كان مثاليًا ورائعًا، فقد بدا الواقع واهيًا بطريقة ما، وكأن مستقبلها كحسناء يمكن أن تقضي عليه أدنى مشكلة. كل شيء من حولها — الفراش الذي

تستلقي فوقه وقصر كوماشي، وحتى المدينة من حولها — يبدو واهيًا مثل فقاعة صابون فارغة ترتعش في الهواء.

ربما كانت تلك الخبطة التي تلقتها على رأسها هي التي سببت لها حالة الشرود الذهني الغريبة التي تتوارى خلف فرحتها. كل ما تحتاجه هو قسط وفير من النوم الليلة على أمل ألا تستيقظ في الغد وهي تعاني صداعًا نتيجة الإسراف في الشراب، وعندها ستشعر بأن كل شيء في حياتها حقيقي ومثالي.

خلدت تالي إلى النوم بعد بضع دقائق، وهي راضية لأنها أخيرًا أصبحت واحدة من الأشقياء.

ولكن أحلامها كانت سخيفة للغاية.

الفصل الخامس

زين

كانت هناك أميرة جميلة.

محبوسة في برج عالٍ ذي جدران حجرية غرفه الفارغة الباردة لا تتكلم. لم يكن هناك مصعد أو حتى سلم للحريق، ولذلك لم تدرِ تالي كيف صعدت الأميرة إلى البرج.

لكنها كانت واقفة على قمة البرج بلا سترة قفز مطاطية، وهي مستغرقة في نوم عميق.

كان هناك تنين يحرس البرج، تزين عينيه قطع من الجواهر، وملامحه قاسية ومتوحشة، وكان يتحرك حركات وحشية فجائية، مما أشعر تالي بتقلصات شديدة في معدتها. تعرفت تالي — مع أنها تحلم — على ما يرمز إليه التنين: إنه أحد أصحاب الوجوه الجميلة القاسية؛ أحد عملاء السلطات الخاصة، أو ربما مجموعة منهم تجمعوا في أفعى واحدة لها حراشف رمادية من الحرير.

ولا يمكن أن يخلو حلم كهذا من أمير.

نجح الأمير في الإفلات من التنين، ولم يجسر على ذبحه بل تسلل بجواره باحثًا عن شقوق في الجدار الحجري العتيق يثبت أصابعه فيها، فالجدار عتيق ومتهالك، وتسلق البرج الشاهق بسهولة، ونظر وهو يبتسم إلى أسفل حيث كانت التنين الذي ألهته مجموعة من الجرذان العابثة وهي تلهو بين مخالبه.

دخل الأمير إلى غرفة الأميرة من النافذة الحجرية الموجودة أعلى البرج، وقبل الأميرة، فاستيقظت من نومها، وانتهت القصة عند ذلك، واتضح أن النزول والمرور بجوار التنين لم يكن أمرًا صعبًا، فهذا حلم وليس فيلمًا سينمائيًا أو حتى حكاية خيالية، وانتهى كل شيء بقبلة حارة؛ نهاية تقليدية سعيدة.

فيما عدا شيئًا واحدًا ...
أن الأمر قبيح للغاية.

استيقظت تالي وهي تشعر بخفقان في رأسها.

وحينما رأت صورتها على الجدار العاكس تذكرت أن الآلام التي تشعر بها ليست صداعًا نتيجة الإفراط في الشراب فقط، واكتشفت أن تلك الخبطة التي تلقتها على رأسها ليست شيئًا جميلًا. أصبح الجلد الذي رشه الحارسان أعلى عينها شديد الاحمرار، تمامًا كما أخبرها الحارسان بالأمس، وستضطر إلى التوجه إلى أي مكتب جراحي حتى تزيل آثار تلك الندبة تمامًا.

ولكن تالي قررت ألا تعالجها الآن، فهي تضفي طابعًا شقيًا فعلًا مثلما قال بيريس. وابتسمت عندما تذكرت وضعها الجديد، فأحست عندئذٍ أن الندبة مناسبة.

تلقت تالي كومة من الرسائل من الأشقياء الآخرين؛ أصواتًا ثملة تهنئها بانضمامها إلى الأشقياء، وحكايات عن بعض الأعمال الطائشة التي قام بها البعض أثناء الحفل (ولكن لا شيء يفوق قفزتها من البرج مع بيريس). أخذت تالي تستمع إلى الرسائل وهي مغمضة العينين، واستغرقت في صخب الأصوات المتداخلة المسموعة في خلفية أصوات محدثيها، وهي تستمتع بقدرتها على التواصل مع الآخرين مع أنها عادت مبكرة إلى البيت، وهذه هي فائدة الانضمام إلى جماعة ما؛ ضمان وجود أصدقاء لنا مهما حدث.

كان زين قد ترك لها ثلاث رسائل يطلب في الرسالة الأخيرة منها أن تتناول الإفطار معه، ولم يبدُ من صوته أنه ثمل مثل الآخرين، فربما كان مستيقظًا من قبل.

عندما اتصلت به تالي رد عليها: «كيف حالكِ؟».

قالت تالي: «أفتقد ملامح وجهي الجميلة، هل أخبرك بيريس كيف أصيبت رأسي؟».

– «أكنتِ حقًا تنزفين؟»

– «بغزارة.»

– «يا إلهي.» وجدت تالي زين يتكلم بصوت لاهث، وقد تخلت عنه رباطة جأشه المعتادة. وأضاف: «ولكن قفزتكِ كانت لطيفة على أية حال. أنا سعيد لأنكِ نجوت من ... الموت.»

ابتسمت تالي وقالت: «شكرًا لك».

– «هل قرأتِ تلك الأخبار الغريبة عن الحفل؟»

كانت هناك رسالة إخبارية من بين رسائل تالي، ولكنها لم تقو على القراءة.

– «أي أخبار غريبة؟».

– «هناك من اخترق نظام الإرسال الإلكتروني أمس، وأرسل تلك الدعوة الجديدة التي تسببت في تغيير قواعد الملبس إلى الأزياء التنكرية، وظن أعضاء لجنة الحفلات في فالانتينو أن عضوًا آخر هو الفاعل، ولذلك واصلوا ترتيبات الحفل على هذا الأساس، ولكن لا أحد يعرف من الذي كتب تلك الدعوة. شيء محير، أليس كذلك؟»

أغمضت تالي عينيها وفتحتهما، ففجأة لم تعد معالم الغرفة واضحة، بل بدأت تشعر بالدوار، وتلك هي الكلمة المناسبة، وخُيل إليها أن العالم يدور من حولها وكأنها داخل معدة مخلوق هائل الحجم في حالة هياج. لا أحد يقدم على ارتكاب أفعال مثل اختراق أنظمة الإرسال إلا القبحاء، ولم يخطر ببالها أن هناك من يود أن ينقلب الحفل المقام في قصر فالانتينو إلى حفل تنكري سوى كروي بقناعه الجميل المشرب بالقسوة وعروضه الغريبة.

ومعنى ذلك أن المسألة كلها تتعلق بتالي يانج بلود.

– «هذا شيء سخيف للغاية يا زين».

– «بالطبع. هل أنت جائعة؟»

أومأت تالي برأسها، وهي تشعر أنها ستصاب بخفقان في رأسها من جديد. ومن النافذة بدت أبراج الاحتفالات في قصر جاريبو عالية ورفيعة. أخذت تالي تحدق فيها وكأن ذلك يمكن أن يقلل من شعورها بأن العالم يدور من حولها. لا بد أنها تبالغ في رد فعلها؛ فليس كل ما حدث من أجلها وحدها، فربما لم يكن الأمر إلا مكيدة ارتكبها بعض القبحاء بدون هدف، أو ربما فقد أحد أعضاء لجنة الحفلات في قصر فالانتينو صوابه وفعلها.

ولكن حتى إن كان ما حدث هو خطأ ليس إلا، فلا بد أن كروي قد استعد بزيه التنكري الرمادي ذاك، فتكنولوجيا الكوة الذكية ليست متاحة في أطلال المدينة القديمة الصدئة ولا في البرية حيث يختبئ سكان الضباب؛ وعلى المرء هناك أن يصنع احتياجاته بنفسه، وهو ما يتطلب الوقت والجهد، إلى جانب أن كروي لم يختر زيه التنكري بدون تفكير ...

تذكرت تالي العينين الباردتين المرصعتين بالجواهر وشعرت أنها ستفقد وعيها.

ربما يساعد الطعام على تحسين حالتها.

– «نعم، أنا جائعة للغاية. لنتناول إفطارنا».

التقت تالي بزين في حديقة دينزيل بارك، وهي حديقة من حدائق المتعة، تمتد في خط متعرج من وسط مدينة الحسان الجدد حتى قصر فالانتينو، وكان القصر نفسه تحجبه الأشجار، لكن برج الإرسال الموجود أعلى القصر ظاهر، وعلم فالانتينو العتيق يرفرف في الهواء البارد أعلاه. كانت معظم آثار الفوضى التي خلفتها الليلة الماضية قد أزيلت من الحديقة، فيما عدا بقايا سوداء تخلفت عن النيران التي أشعلها بعض هواة الحفلات في الهواء الطلق. وكان هناك عامل صيانة آلي يحلق فوق كومة من الرماد ويقلب التربة فيها مستخدمًا مخالبه بحركات دقيقة، ويبذر البذور فوق الأجزاء المحترقة من التربة.

رفعت تالي حاجبيها في دهشة (وقد سببت هذه الحركة لها ألمًا شديدًا) عندما اقترح عليها زين الخروج في نزهة خلوية، ولكن المشي في الهواء الطلق ساعد كثيرًا على تصفية ذهنها. أما الأقراص التي أعطاها لها الحارسان فقد سكنت آلام جرحها تمامًا، ولكنها لم تفلح في القضاء على شعورها العام بالتشوش. وقد كانت هناك شائعة في مدينة الحسان الجدد تقول إن الأطباء لديهم علاج لآلام الصداع التي تنتج عن الإفراط في الشراب ولكنهم يخفونه عن الآخرين اتباعًا للقواعد.

وصل زين في ميعاده، ومن ورائه صينية الإفطار تتمايل برقة مع النسيم العليل. اتسعت عيناه وهو يقترب من تالي عندما رأى الندبة الموجودة على جبهتها، ومد يده وكأنه يريد أن يتحسسها.

قالت تالي: «في غاية السخف، أليس كذلك؟».

أجابها زين وهو يرمقها بعينيه المتسعتين: «بل تليق بالأشقياء».

– «ولكنها لا تستحق الكثير من المللي هيلينات، أليس كذلك؟».

بدت أمارات التفكير على زين لبرهة ثم قال: «أنا لن أقيمها بالهيلينات، لكنني لا أعرف مقياسًا يمكن أن أستخدمه بدلًا منه. ربما ينبغي أن أستخدم مقياسًا أروع».

ابتسمت تالي، فقد كان بيريس على حق عندما طلب منها ألا تعالج وجهها في الحال. لقد ازداد زين حسنًا بفعل إعجابه بالندبة التي استقرت فوق جبهة تالي، أما التعبير الذي ارتسم على وجهه فقد جعلها تحس بشعور رائع وكأنها محور كل شيء، ولكن دون أن تشعر بأن العالم يدور من حولها.

وكانت الجراحة التنكرية التي قام بها زين قد زال مفعولها، وعادت شفتاه إلى الامتلاء الطبيعي الذي يميز شفاه الحسان، ولكن كان مظهره شديد الحدة في ضوء النهار، وقسمات وجهه شديدة التباين، فعظام ذقنه ووجنتيه حادة، وجبهته واسعة، وبشرته برونزية مثل الجميع، ولكن يبدو لونها في ضوء الشمس شاحبًا بعض الشحوب بالمقارنة بشعره الداكن. لم تكن قواعد العملية تسمح بأن يكون لون الشعر فاحم السواد، فقد كانت اللجنة ترى أن ذلك اللون مبالغ فيه للغاية، ولكن زين صبغ شعره باستخدام حبر الكتابة. والأهم من كل ذلك أنه لم يكن يأكل كثيرًا، مما حافظ على نحول وجهه وحدة نظراته، ومن بين كل الحسان الذين قابلتهم تالي منذ خضوعها لعملية التحول، كان زين هو الوحيد الذي ينفرد بملامح تميزه عن الآخرين.

ربما كان ذلك هو سبب اختياره قائدًا للأشقياء، إذ ينبغي أن يكون المرء مختلفًا عن الجميع حتى يكون شقيًا حقيقيًا. أخذت عيناه الذهبيتان تومضان وهو يقلبهما في أرجاء الحديقة بحثًا عن مكان يجلس فيه هو وتالي، حتى استقرا على رقعة تظللها أغصان شجرة بلوط ضخمة.

جلس زين بصحبة تالي فوق الحشائش وأوراق الأشجار، واستنشقت تالي الرائحة المنبعثة من قطرات الندى والتربة الخصبة. استقرت صينية الإفطار بينهما، والدفء ينبعث منها بفعل حرارة العناصر المتوقدة التي تحافظ على سخونة البيض المخفوق وعجينة البطاطس المقلية وتحول دون تراكم كتلٍ دهنية فيهما.

ملأت تالي صحنًا ساخنًا بالبيض والجبن وشرائح الأفوكادو، ودفعت بنصف كعكة من المافين في فمها. وحينما نظرت إلى زين ولم تر في يده سوى فنجان من القهوة، وخشيت أن يكون الأكل بنهم سلوكًا سخيفًا وغير لائق.

ولكن ما أهمية ذلك؟ فلقد ذكرت تالي نفسها بأنها الآن واحدة من الأشقياء، لقد صوّت الجميع لها وأصبحت رسميًا من الأشقياء، ثم إن زين طلب منها أن يلتقي بها هنا ليستمتعا معًا بوقتهما. يجب ألا تقلق بعد اليوم بشأن تقبل الآخرين لها. لقد حان الوقت لكي تستمتع بوقتها، فهناك أشياء أسوأ من الجلوس في حديقة رائعة بصحبة فتى وسيم يتفحصها بعينيه مثل زين.

التهمت تالي ما تبقى من كعكة المافين، الساخنة جدًا من الداخل والتي تخللتها خيوط متفرقة من الشيكولاتة نصف السائلة، ثم تناولت الشوكة لتتناول البيض. وتمنت أن تجد بعض الأقراص الحارقة للسعرات مع الإفطار، فمفعولها يكون أفضل

عند تناولها بعد الأكل مباشرةً، وهي ستتناول كثيرًا من الطعام، فمن الأرجح أن فقد الدماء يُشعر بالجوع.

سألها زين: «من كان ذلك الفتى الذي رأيته في الليلة الماضية؟».

لم تستطع تالي أن تتحدث لأنها لا تزال تمضغ طعامها، فاكتفت بهز كتفيها، ولكن زين انتظرها في صبر حتى تبتلع ما في فمها من طعام.

ثم أجابته تالي أخيرًا: «إنه ليس إلا واحدًا من القبحاء الذين يقتحمون حفلات مدينة الحسان الجدد».

– «لقد خطر ذلك لي، فمن غيرهم تتعقبهم السلطات الخاصة؟ أنا أعني: أكنت تعرفينه؟»

أشاحت تالي بوجهها عنه؛ فمن المخجل أن يجد المرء حياته الماضية تطارده قادمة من زمن القبح وتعبر النهر حتى تصل إليه، ولكن بيريس سمعها بالأمس وهي تخبر الحارس عن ذلك، ولذلك سوف تبدو سخيفة إذا حاولت أن تكذب على زين. أجابت: «نعم، أظن أنني كنت أعرفه، من منطقة الضباب، وهو يدعى كروي».

ارتسم تعبير غريب على وجه زين، وأخذت عيناه الزمردتان ترمقان مدى النظر وكأنما تحاولان البحث عن شيء ما، وبعد لحظة أومأ برأسه قائلًا: «أنا أيضًا كنت أعرفه».

تسمرت تالي، وقالت وهي تمسك بالشوكة التي ستضعها في فمها: «لا بد أنك تمزح».

هز زين رأسه نفيًا.

قالت تالي: «ولكنني ظننت أنك لم تهرب قط».

– «لا، لم أهرب.» ضم زين ساقيه إلى جذعه وطوق ركبتيه بذراعه وهو يرتشف رشفة من فنجان القهوة، ثم أردف: «لم أذهب إلى مكان أبعد من أطلال المدينة القديمة على أية حال، ولكننا أنا وكروي كنا صديقين حينما كنا صغارًا، وكنا نسكن في عنبر واحد في مدينة القبحاء».

قالت تالي: «هذا ... غريب». وتناولت أخيرًا قضمة البيض وأخذت تمضغها ببطء. إن هناك مليون شخص يسكنون المدينة، ومن بينهم جميعًا التقى زين بكروي. قالت تالي بصوت منخفض: «ما احتمالية أن يحدث ذلك؟».

هز زين رأسه مرة أخرى وقال: «هذه ليست مصادفة يا تالي-وا».

توقفت تالي عن مضغ البيض، فقد شعرت بطعمه غريبًا في فمها، وأحست كأن كل شيء سيدور من حولها مرة أخرى، ففي الآونة الأخيرة أصبحت المصادفات من الأمور النادرة في هذا العالم.

– «ماذا تقصد؟».

انحنى زين إلى الأمام وقال: «تالي، أنتِ تعرفين أن شاي كانت تسكن في العنبر نفسه الذي كنت أسكن به، أليس كذلك؟ في الماضي عندما كنا من القبحاء».

قالت تالي: «بالطبع، وهذا ما مكنها من أن تنضم إليكم بعد أن أتت إلى هنا».

توقفت تالي هنيهة، ثم شعرت أن هناك أمرًا بدأ يتضح لها ببطء بعد أن غاب عنها، فدائمًا تعود إليها ذكريات حياتها في منطقة الضباب ببطء شديد، مثل فقاعات ترتفع في سائل لزج كثيف ...

قالت تالي في حذر: «عندما كنا نقيم في منطقة الضباب عرفتني شاي بكروي؛ كانا صديقين منذ وقت طويل. إذن، أنتم الثلاثة كان يعرف كل منكم الآخر؟».

رد عليها زين وقد تقلصت قسمات وجهه وكأن هناك شيئًا فاسد المذاق سقط في فنجان قهوته: «نعم، هذا صحيح».

أطرقت تالي برأسها وأخذت تنظر إلى طعامها في حزن، وشعرت في الوقت الذي واصل فيه زين حديثه بأن الليلة الماضية تعيد نفسها، فقد أخذت الأحداث السخيفة التي عايشتها في الصيف الماضي تعود بعنف إلى ذهنها.

قال زين: «كنا ستة نسكن في عنبر واحد، وأسمينا أنفسنا في ذلك الوقت جماعة الأشقياء أيضًا. قمنا بكل الحيل المعهودة التي يقوم بها القبحاء: التسلل إلى الخارج ليلًا، واختراق أنظمة الإشراف الإلكتروني على العنابر، وعبور النهر للتجسس على الحسان الجدد».

أومأت تالي برأسها، فقد تذكرت القصص التي كانت تحكيها لها شاي عما كانت تفعله قبل أن يلتقيا وقالت: «والخروج إلى أطلال المدينة القديمة؟».

رد زين: «نعم، بعد أن علَّمنا بعض القبحاء الأكبر سنًّا كيف نقوم بذلك»، ثم رفع بصره إلى التل باتجاه المركز الشاهق الذي يتوسط مدينة الحسان الجدد وأضاف: «إن الخروج إلى أطلال المدينة القديمة يجعلكِ تدركين كم هو كبير هذا العالم، فقد عاش في تلك المدينة القديمة عشرون مليون شخص، ولذلك يعد هذا المكان الذي نعيش فيه ضئيلًا إذا قورن بها».

أغمضت تالي عينيها، ووضعت الشوكة التي تمسك بها على طبقها، فقد شعرت أنها بدأت تفقد شهيتها. ربما لم تكن فكرة تناول الإفطار مع زين فكرة جيدة بعد كل ما حدث الليلة الماضية، ففي بعض الأحيان يبدو لها أنه لا يزال يظن نفسه من القبحاء: يحاول أن يظل مرحًا ولطيفًا، ويقاوم المرح العفوي الذي يميز الحسان، لذلك هو بارع في قيادة الأشقياء، ولكن الجلوس معه بمفردك قد يسبب لك الدوار.

قالت تالي بهدوء: «نعم، ولكن سكان المدينة القديمة جميعهم ماتوا. لقد كان عددهم كبيرًا، ولكنهم كانوا أغبياء جدًّا».

رد بلهجة من سبق له سماع ذلك الكلام حتى حفظه: «أعرف، أعرف. ستقولين إنهم كادوا يدمرون العالم»، ثم تنهد وقال: «لكنني لم أستمتع بشيء قدر استمتاعي بالتسلل إلى الأطلال».

لمعت عينا زين وهو يقول هذه الكلمات، وتذكرت تالي رحلاتها إلى الأطلال، وكيف كان الجلال الذي تتسم به مدينة الأشباح يجعل كل خلية في جسدها في قمة التحفز، فشعورها بأن الخطر الحقيقي يحدق بها في كل مكان هناك يختلف تمامًا عن النشوة التي تنتابها حين يرتفع بها المنطاد أو حين تقفز من سطح عالٍ وهي ترتدي سترة نفاثة، فهي تعرف أن كل ذلك لن يلحق بها ضررًا حقيقيًا.

ارتعدت تالي، وهي تتذكر بعضًا من تلك الأحداث المثيرة الماضية وعندئذ التقت عيناها بعيني زين، فقالت: «أنا أعرف قصدك».

– «وأنا كنت أعرف أنني لن أعود إلى هناك بعد أن أخضع للعملية، فالحسان الجدد لا يقومون بحيل كهذه. لذلك حينما اقترب عيد ميلادي السادس عشر بدأت أفكر في مغادرة المدينة والتوجه إلى البرية، على الأقل فترة ما».

أومأت تالي برأسها ببطء، فقد تذكرت أن شاي كانت تقول لها كلامًا مشابهًا عندما التقت بها أول مرة، وهو ما أقنعها بأن تخطو أولى خطواتها في طريق الهروب إلى مدينة الضباب. وقالت: «وتمكنت أنت من إقناع شاي وكروي والآخرين بأن يأتوا معك، أليس كذلك؟».

قال زين وهو يضحك: «لقد حاولت، في البداية ظنوا أنني مجنون، لأنه لا يمكن لأحد أن يعيش في البرية. ولكن بعد ذلك التقينا هناك في البرية بذلك الفتى الذي ...».

قالت تالي: «كفى». لقد شعرت فجأة بأن قلبها يخفق بسرعة، وكأنها تناولت قرصًا حارقًا للسعرات، فتسارعت عملية التمثيل الغذائي لديها لحرق السعرات. وأحست بنداوة على وجهها وأن النسيم أصبح باردًا فجأة، وشعرت برطوبة على وجنتيها. ولكن وجوه الحسان لا تعرق ...

أخذت تالي تطرف بعينيها، وهي تقبض يديها بقوة حتى إن أظافرها انغرست في راحتيها. لقد تغير العالم قليلًا. شعرت تالي بأن خيوطًا رفيعة من أشعة الشمس تخترق أوراق الشجرة التي تظللهما بحدة، وهي تحاول التنفس بعمق وبطء. لقد تذكرت الآن أن الشيء نفسه حدث في الليلة الماضية عندما رأت كروي.

قال زين: «تالي؟».

هزت تالي رأسها، فلم تكن تريده أن يقول أي شيء، ولا سيما عن لقائه بأحد الأشخاص عند أطلال المدينة القديمة. لقد وجدت نفسها تتحدث بسرعة حتى تمنعه من مواصلة الكلام، وأخذت تردد ما قالته شاي لها: «لقد سمعتم عن منطقة الضباب، أليس كذلك؟ حيث يعيش الناس حياة تشبه حياة سكان ما قبل العصر القديم ويظلون قبحاء مدى الحياة. ولذلك قررتم أن تذهبوا جميعكم إلى هناك. ولكن عندما حان وقت الهروب من المدينة، جبُن معظمكم. لقد حكت لي شاي عن تلك الليلة. لقد حزمت جميع أمتعتها وكل شيء كان معدًّا، ولكنها في النهاية عجزت عن الهروب من فرط خوفها».

أومأ زين برأسه وهو يتطلع إلى فنجانه.

قالت تالي: «إذن، تهربت أنت أيضًا من الذهاب إلى هناك، أليس كذلك؟ ألم يكن من المفترض أن تهرب أنت في تلك الليلة؟».

رد زين بفتور: «بلى، لم أذهب، مع أن الفكرة بأكملها كانت فكرتي أنا، وأصبحت من الحسان في الميعاد المحدد تمامًا».

أشاحت تالي عنه بوجهها، إذ عجزت عن أن تمنع نفسها من أن تتذكر ما حدث أثناء ذلك الصيف: هرب بعض أصدقاء شاي إلى منطقة الضباب، وتحول البعض الآخر إلى حسان، تاركين شاي وحدها في مدينة القبحاء، وحينذاك التقت شاي بتالي، وأصبحتا صديقتين حميمتين، وحينما نجحت محاولة شاي الثانية وتمكنت من الهرب كانت تالي قد تورطت في الأمر بأسره.

زفرت تالي زفرة طويلة، وهي تحاول أن تطمئن نفسها. ربما كان ما حدث في الصيف الماضي كابوسًا مفزعًا، ولكن لولاه ما أصبحت الآن واحدة من الأشقياء، ولم تصبح إلا واحدة ضعيفة غير لطيفة من الحسان الجدد المملين وتحاول الانضمام إلى أية جماعة. ربما كان ما وصلت إليه الآن يستحق تحمل مشقة كل ما مر بها، فهي الآن حسناء ومحبوبة.

تطلعت تالي إلى زين، حيث كانت عيناه الجميلتان لا تزالان تحدقان إلى بقايا القهوة التي ترسبت في فنجانه. شعرت بأنها عادت إلى هدوئها فابتسمت. يبدو زين حزينًا للغاية وهو جالس، وحاجباه الداكنان متقوسان في يأس، فلا يزال يشعر بالندم لأنه تهرب من الخروج إلى منطقة الضباب. أمسكت تالي بيده.

قالت تالي: «إن ما حدث ليس أمرًا جللًا. لم يكن الوضع هناك رائعًا. فغالبًا كانت بشرتك ستحترق من الشمس وتصاب بلدغات الحشرات».

رفع زين عينيه إليها وهو يقول: «على الأقل أنتِ استغللتِ الفرصة يا تالي، لقد أوتيتِ ما يكفي من الشجاعة لتكتشفي ذلك بنفسكِ».

– «لم يكن لدي خيار آخر. كان عليّ العثور على شاي.» وارتجفت وهي تسحب يدها من يده وأردفت: «أنا محظوظة لأنني تمكنت من العودة».

اقترب زين منها ومد يده ليتحسس بأصابعه الرقيقة البشرة الجديدة المرشوشة فوق الندبة الموجودة بجبهتها. ونظر إليها وقد اتسعت عيناه الذهبيتان وقال: «أنا سعيد لأنك عدت».

ابتسمت وهي تلمس ظهر يده وقالت: «وأنا أيضًا».

زحفت أصابع زين إلى شعرها وتخللته، وضمها إليه برفق، فأغمضت عينيها وتركت شفتيه تضغطان على شفتيها، ورفعت يديها لتتحسس بشرة وجنته الناعمة الخالية من العيوب.

شعرت تالي بأن قلبها يخفق بعنف مرة أخرى، وأن ذهنها تعصف به الخواطر حتى وشفتاها تنفرجان، وأحست بأن الواقع يتبدل من حولها مرة أخرى، لكن الإحساس راق لها هذه المرة.

عندما وصلت تالي إلى مدينة الحسان الجدد حذرها بريس من الجنس، فالاقتراب أكثر من اللازم من الحسان الآخرين قد يكون مربكًا جدًّا للحسان الجدد في عالم الجمال، فهم يحتاجون إلى بعض الوقت لكي يعتادوا على الوجوه الأخاذة والأجسام المثالية والعيون اللامعة، فحين يتصف الجميع بالجمال قد ينتهي بك الأمر إلى الوقوع في حب أول شخص من الحسان تتبادل معه قبلة.

ولكن ربما يكون الوقت قد حان، فقد أتمت شهرها الأول في مدينة الحسان الجدد، وزين يتمتع بمكانة مميزة، ليس فقط لأنه زعيم الأشقياء ولأن ملامحه تختلف عن الآخرين، بل لحرصه على أن يكون لطيفًا ومرحًا ولحرصه على التحايل على القواعد. كل ذلك يجعله يفوق الآخرين حسنًا، على ما تظن.

ومن بين كل الأشياء غير المتوقعة التي حدثت في غضون الأربع والعشرين ساعة الماضية، كان هذا أحلاها. حين قبلت زين شعرت بأن رأسها يدور، ولكن ليس وكأنها تسقط في الظلام، كانت شفتاه دافئتين وناعمتين ومثاليتين، وشعرت تالي بالأمان حينما عانقتا شفتيها.

مرت فترة طويلة قبل أن يتباعدا قليلًا، ولا تزال عينا تالي مغمضتين. وشعرت بأنفاسه تلامس وجهها وبيده الدافئة الناعمة خلف رقبتها، وهمست: «ديفيد».

الفصل السادس

الصحوة

ابتعد زين عن تالي مضيقًا عينيه.

قالت بارتباك وسرعة: «أنا آسفة، أنا لا أعرف ماذا ...»

وأخذ صوتها يخفت حتى صمتت تمامًا، فأومأ زين برأسه ببطء: «لا عليكِ».

بدأت تتحدث مرة أخرى: «أنا لم أقصد أن ...» ولكن زين أشار لها بيده لكي تصمت، وظهر على قسماته الجميلة تعبير ينم عن الاستغراق في التفكير، وأخذ يحدق في الأرض وهو يشد الحشائش بإصبعيه.

قال زين: «أنا أتذكر الآن».

– «تتذكر ماذا؟»

– «كان هذا هو اسمه».

– «اسم من؟»

بدأ زين يتحدث بنبرة خافتة وهادئة وكأنه يخشى أن يوقظ شخصًا نائمًا بجواره: «هو من كان سيأخذنا إلى الضباب؛ ديفيد».

شهقت تالي بصوت خافت، وضيقت عينيها وكأن أشعة الشمس قد ازدادت حدتها، وكانت لا تزال تشعر بأثر شفتي زين على شفتيها وبالدفء في موضع لمساته، ولكنها وجدت نفسها ترتعد فجأة.

أمسكت بيد زين وهي تقول: «أنا لم أقصد أن أقول ذلك».

رد: «أعرف، ولكننا أحيانًا نستعيد الذكريات». رفع زين بصره من الحشائش، وعيناه الذهبيتان تلمعان وقال: «حدثيني عن ديفيد».

ابتلعت تالي ريقها وأشاحت بوجهها عنه.

ديفيد، وجدت نفسها تراه الآن، بأنفه الكبير الغريب وجبهته العالية وحذائه يدوي الصنع، وسترته المصنوعة من جلود الحيوانات. لقد نشأ ديفيد في الضباب، ولم تطأ قدمه أي مدينة من المدن طوال حياته. لقد كان وجهه قبيحًا من أعلاه إلى أسفله، وقد لوحت الشمس بشرته فصار لونها غير متناسق، وهناك ندبة تقطع أحد حاجبيه ... ولكنها حين تذكرته اشتعل شيء داخلها.

هزت تالي رأسها في دهشة، فقد نسيت ديفيد بطريقة أو بأخرى.

ولكن زين حاول أن يضغط عليها لكي تتحدث فقال: «لقد التقيتِ به في أطلال المدينة القديمة، أليس كذلك؟».

قالت تالي: «نعم، لقد سمعت عنه من شاي، وقد حاولت أن تعرفني عليه في إحدى المرات، ولكنه لم يأتِ، ولكنه هو من اصطحب شاي إلى الضباب».

تنهد زين وقال: «كان من المفترض أن يصطحبني أنا أيضًا. ولكنكِ ذهبتِ إلى الضباب بمفردك، أليس كذلك؟».

– «نعم، ولكن عندما وصلت إلى هناك، أنا وهو ...» لقد تذكرت تالي الآن، بدا لها أن ذلك حدث منذ مليون عام، ولكنها تستطيع أن ترى نفسها – حينما كانت قبيحة – تُقبل ديفيد، وتقطع معه البرية لأسابيع بمفردهما. انتابتها دفقة غريبة من الذكرى، كم بدا لها وجودها معه آنذاك قويًا وسرمديًا.

ولكن بعد ذلك اختفى ديفيد اختفاء غامضًا.

سألها زين: «وأين هو الآن؟ هل أمسكت به السلطات الخاصة عندما دمرت منطقة الضباب؟».

هزت تالي رأسها؛ فقد كانت ذكرياتها الأخرى عن ديفيد باهتة ومراوغة، ولكن اللحظة التي افترقا فيها ... اختفت من ذاكرتها، قالت: «لا أعرف».

شعرت تالي بدوار، إنها المرة المائة في ذلك اليوم التي تشعر فيها أن العالم يدور من حولها. ومدت يدها تجاه صينية الإفطار، ولكن زين أمسك بها وقال: «لا، لا تأكلي».

– «ماذا؟»

– «لا تأكلي أي شيء آخر يا تالي، بل عليكِ أن تتناولي قرصين من هذه الأقراص».

وأخرج زين شريطًا من أقراص حرق السعرات من جيبه، وكان الشريط ينقصه أربعة أقراص.

أخرج زين قرصين آخرين وابتلعهما برشفة من القهوة وهو يقول: «من المفيد أن تتسارع خفقات القلب».

سألت تالي: «فيما يفيد ذلك؟».

أشار زين إلى رأسه وقال: «يفيد في التفكير، فالجوع يساعد على تركيز الذهن، في الواقع أي شيء مثير يمكن أن يفيد في ذلك». ابتسم زين ابتسامة عريضة وهو يضع الشريط في يدها وقال: «كأن تقبلي شخصًا لم تقبليه من قبل، فذلك مفعوله ممتاز».

أخذت تالي تحملق في أقراص حرق السعرات، دون أن تفهم شيئًا. وأخذ الشريط اللامع المصنوع من رقاقات الألومنيوم يومض في الشمس وميضًا مزعجًا، وشعرت أن حوافه حادة مثل حد السكين.

– «ولكنني لم آكل إلا النزر اليسير من الطعام، وهو ما لا يمكن أن يزيد من وزني.»

– «ليس ما يهمني هو خسارة الوزن. أنا أحتاج لأن أتكلم معكِ يا تالي، أحتاجكِ معي دقيقة أخرى. لقد كنت أنتظر أن ألتقي بمن هي مثلك منذ مدة طويلة. أنا أريدك أن تكوني ... يقظة ومنتبهة».

– «وهل من المفترض أن تجعلني أقراص حرق السعرات يقظة ومنتبهة؟»

– «إنها تساعد على ذلك. سوف أشرح لكِ فيما بعد. فقط ثقي بي يا تالي-وا».

ظل زين يحدق فيها بنظرات عميقة ثابتة، كدأبه عندما يشرح للأشقياء فكرة جديدة لإحدى الحيل. كان من الصعب مقاومة زين عندما يصبح هكذا، حتى إن كان ما يقوله غير منطقي.

«حسنًا.» وبأصابع مرتبكة أخرجت تالي قرصين من الشريط ومدت يدها نحو فمها، ولكنها ترددت، فمن المفترض عدم تناول هذه الأقراص إلا بعد الأكل، لأنه يمثل خطرًا. في العصر القديم — عصر ما قبل عملية التحول الجراحية، عندما كان الناس جميعهم قبحاء — كان هناك مرض يمتنع المصابون به عن الطعام عمدًا. لقد كانوا يخافون جدًا من أن تصيبهم البدانة، حتى إنهم كانوا يصابون بنحافة شديدة. بل كانوا أحيانًا يتركون أنفسهم يتضورون جوعًا في عالم يعج بالطعام. كان هذا المرض من أخطر الأمراض التي نجحت العملية في التخلص منها.

ولكن قرصين من أقراص حرق السعرات لن يقضيا عليها. وعندما ناولها زين فنجان قهوته، ابتلعت تالي القرصين برشفة من القهوة، ثم التوت قسمات وجهها اشمئزازًا من المذاق اللاذع.

قال زين وهو يبتسم: «قهوة مركزة، أليس كذلك؟».

بعد لحظة بدأ قلبها يدق بعنف، وأخذ التمثيل الغذائي داخل جسمها يتسارع. غشت رؤيتها حادة، ومثلما حدث في الليلة الماضية شعرت وكأن هناك غشاوة بلاستيكية رقيقة كانت تحجب عنها العالم بدأت تتقشع من فوق عينيها، وأخذت تضيق عينيها أكثر أمام ضوء الشمس الساطع.

قال زين: «ما آخر شيء تتذكرينه عن ديفيد؟».

حاولت تالي أن تثبت يديها المرتعشتين، وأخذت تنقب في ذهنها وتحاول أن تخترق الضباب الذي يحيط بذكرياتها عن أيام القبح. وقالت: «كنا جميعًا موجودين عند الأطلال القديمة خارج المدينة. أتتذكر ما حكته شاي عن قصة اختطافنا لها؟».

أومأ زين برأسه، مع أن شاي قد حكت القصة بأكثر من طريقة، في بعض المرات قالت شاي إن تالي وسكان الضباب اختطفوها من مبنى المقر الرئيسي للسلطات الخاصة، وفي روايات أخرى قالت إنها تركت المدينة لكي تنقذ تالي من الضبابيين، وهربتا معًا إلى المدينة مرة أخرى. وبالطبع لم تكن قصص شاي هي الوحيدة التي تتغير أحداثها في بعض الأحيان، فالأشقياء غالبًا يضيفون بعض المبالغات على حكاياتهم عن الأيام الخوالي، فهدفهم هو إضفاء الجاذبية على تلك الحكايات، ولكن تالي استشعرت أن زين يريد أن يعرف الحقيقة.

استطردت تالي: «لقد دمرت السلطات الخاصة منطقة الضباب، ولكن كان هناك بضعة منا لا يزالون يختبئون في الأطلال القديمة».

– «الضباب الجديد، هذا هو الاسم الذي كان القبحاء يطلقونه عليه».

– «هذا صحيح، ولكن كيف عرفت ذلك؟ ألم تكن قد صرت من الحسان في ذلك الحين؟».

ابتسم زين ابتسامة عريضة وقال: «أتظنين أنكِ الوحيدة من بين الحسان الجدد التي أقنعتها أن تروي لي القصص يا تالي-وا؟».

– «آه». تذكرت تالي القبلة التي تبادلتها مع زين منذ لحظات، وأخذت تتساءل عن الطريقة التي يحث بها زين الأخريات على تذكر أيام القبح.

سألها زين: «ولكن لماذا عدتِ إلى المدينة؟ لا تقولي لي إن شاي قد أنقذتكِ فعلًا».

هزت تالي رأسها: «لا أظن ذلك».

– «هل أمسكت السلطات الخاصة بكِ؟ وهل أمسكوا بديفيد أيضًا؟»

– «لا.» انطلقت الكلمة من بين شفتيها دون تردد. صحيح أن ذكرياتها مشوشة، ولكنها كانت متأكدة أن ديفيد لا يزال موجودًا خارج المدينة في مكان ما، وأصبحت تراه الآن بوضوح في مخيلتها وهو مختبئ في مدينة الأطلال القديمة.

– «أخبريني يا تالي، لماذا عدتِ إلى هنا، وسلمتِ نفسكِ؟».

كان زين لا يزال يمسك بيدها، يضغط عليها بشدة وهو ينتظر إجابتها. لقد قرب وجهه منها مرة أخرى، وعيناه الذهبيتان تلمعان في الظل المتفاوت، وقد بدت فيهما لهفة لكل ما تقوله. ولكن الذكريات استعصت عليها، إذ كانت محاولة تذكر تلك الأيام تشبه ضرب رأسها في أحد الجدران.

عضت تالي على شفتها وقالت: «كيف لا يمكنني أن أتذكر، ماذا أصابني يا زين؟».

– «هذا سؤال جيد، ولكن أيًا كان ما أصابكِ، فقد أصابنا جميعًا.»

– «أصاب من؟ الأشقياء؟».

هز زين رأسه، وهو يرفع عينيه إلى أبراج الاحتفالات الشاهقة التي تطل عليهما من ارتفاع عالٍ، وقال: «ليس نحن فقط، بل الجميع، على الأقل كل من يعيش في مدينة الحسان الجدد، فمعظم الناس لا يريدون حتى أن يتحدثوا عن أيامهم الماضية حينما كانوا من القبحاء، فهم يقولون إنهم لا يريدون التحدث عن مثل هذه الأشياء الطفولية المملة».

أومأت تالي برأسها، فقد أدركت بسرعة أن الأمور تسير على هذا النحو في مدينة الحسان الجدد؛ ففيما عدا ما اعتاد عليه الأشقياء، يعد الحديث عن أيام القبح شيئًا يتنافى تمامًا مع روح العصر والذوق العام.

استطرد زين: «ولكن إذا ضغطتِ عليهم فسيتضح لكِ أن معظمهم يعجزون عن التذكر».

قطبت تالي جبينها وقالت: «ولكننا نحن الأشقياء دائمًا نتحدث عن الأيام الماضية».

قال زين: «لقد كنا جميعًا من مثيري المتاعب، ولذلك لدينا مخزون من القصص المثيرة، ولكن علينا دائمًا أن نحكي هذه القصص، ويستمع بعضنا إلى بعض، ونخالف القواعد، وعلينا دائمًا أن نبقى متيقظين، وإلا سننسى مع الوقت كل شيء يخص هذا الماضي. سننسى إلى الأبد».

عاد زين يحدق فيها بقوة مرة أخرى، لقد أدركت تالي شيئًا مهمًا فجأة، فقالت: «هذا هو هدف الأشقياء، أليس كذلك؟».

أومأ زين برأسه. «هذا صحيح يا تالي، الصمود أمام النسيان، ومساعدتي على اكتشاف ما أصابنا».

– «كيف لك أن ... ما الذي يجعلك مختلفًا هكذا؟».

– «سؤال جيد آخر، ربما لأنني ولدت هكذا، أو ربما لأنني قطعت عهدًا على نفسي في الربيع الماضي، في تلك الليلة التي جبنت فيها وتراجعت عن الهروب». وأردف: «في يوم من الأيام سوف أترك المدينة سواء صرت من الحسان أم لا». وحينئذ بدأ صوت زين يخبو وهو ينطق بالكلمات الأخيرة، ثم زفر وقال: «ولكن اتضح لي أن الأمر أصعب بكثير مما كنت أظن، فقد بدأت أحس بالملل الشديد وأنا هناك، وكنت قد بدأت أنسى.» وتهلل وجهه وهو يضيف: «ولكنكِ ظهرت بعد ذلك بقصصكِ الغريبة التي تخلو من المنطق. الآن تسير الأمور على نحو يساعد على اليقظة والانتباه».

ردت تالي: «أظن ذلك». ونظرت إلى يدها التي يمسك زين بها، وقالت: «أتسمح لي بسؤال آخر يا زين-لا؟».

ابتسم زين وقال: «بالطبع فأنا معجب بأسئلتك».

أشاحت تالي بوجهها وقد بدا عليها شيء من الإحراج وقالت: «عندما قبلتني، هل كان ذلك لكي تبقى متيقظًا، وتساعدني على التذكر على نحو أفضل؟ أم كان ذلك ...». وخفت صوتها شيئًا فشيئًا ثم صمتت، وهي تنظر بخوف في عينيه.

ابتسم زين ابتسامة عريضة وقال: «ما رأيك أنتِ؟». ولكنه لم يمهلها وقتًا لكي تجيب عليه، فقد وضع يديه على كتفيها وجذبها إليه مرة أخرى، وقبلها قبلة أشد حرارة هذه المرة، حتى إن دفء شفتيه امتزج مع قوة يديه وهما يضغطان على كتفيها، واختلط ذلك الدفء بطعم القهوة ورائحة شعره.

عندما انتهيا مالت تالي إلى الخلف وأخذت تلهث، فقد سلبتها القبلة القدرة على التنفس تمامًا. ولكنها أشعلت بداخلها التيقظ والانتباه أكثر من أقراص حرق السعرات، وأكثر حتى من القفز من برج الاحتفالات في الليلة الماضية. وتذكرت تالي شيئًا آخر كان من الضروري أن يكون واضحًا في ذهنها قبل الآن، ولكنه لم يكن واضحًا لسبب تجهله.

كان زين سيسعد كثيرًا بهذا الشيء.

قالت تالي: «في الليلة الماضية أخبرني كروي أن معهم شيئًا يخصني، ولكنه لم يقل لي ما هو ذلك الشيء، قال إنه سيتركه لي هنا في مدينة الحسان الجدد، في مكان خفي حتى لا يجده الحراس».

سألها زين وقد اتسعت عيناه: «أهو شيء من الضباب الجديد؟ أين؟».

- «فالانتينو ٣١٧».

الفصل السابع

فالانتينو ٣١٧

قال زين: «انتظري لحظة»، ثم سحب خاتم الاتصال من إصبعها، وخلع خاتمه، ثم توغل بها في حديقة المتعة التي يطل عليها قصر فالانتينو. قال زين: «من الأفضل ألا نرتدي هذين الخاتمين، فنحن لا نرغب في أن يتتبعنا أحد».

ردت تالي: «معك حق». وتذكرت تالي أيام القصر، وكيف كان من السهل أن تخترق أنظمة الإشراف الإلكترونية الخاصة بعنابر النوم. وتابعت: «الحارسان في الليلة الماضية ... قالا إنهما سيراقباني جيدًا».

ضحك زين ضحكة خافتة: «إنهم دائمًا ما يراقبونني».

علق زين الخاتمين في قطعة من الخيط وربطهما في قصبتين طويلتين من قصب الخيزران، فانثنت القصبتان بفعل ثقل الخاتمين المعدنيين. قال زين شارحًا: «سوف تحركهما الرياح من آن لآخر، وبهذه الطريقة سيبدو الأمر وكأننا لم نخلعهما من إصبعينا».

– «ولكن ألن يبدو ذلك غريبًا؟ أعني وجودنا معًا في مكان واحد فترة طويلة».

ضحك زين وقال: «إنها من حدائق المتعة، أنا أقضي معظم وقتي هنا».

شعرت تالي بالضيق من كلماته، إذ فهمت ما تعنيه، ولكنها لم تدع ذلك يبدو عليها، وسألته: «ولكن كيف سنعثر عليهما مرة أخرى؟».

– «أنا أعرف هذا المكان، لا تقلقي».

– «أنا آسفة».

التفت زين إليها وضحك: «آسفة على ماذا، هذا أفضل إفطار تناولته منذ فترة طويلة».

ترك زين وتالي الخاتمين معلقين، وانطلقا لأسفل في اتجاه النهر وقصر فالانتينو، وتالي تتساءل بينها وبين نفسها عما يمكن أن يجداه في الغرفة رقم ٢١٧. في معظم القصور يطلقون على كل غرفة اسمًا خاصًا بها — فغرفة تالي الموجودة في قصر كوماشي كانت معروفة باسم إيتسيترا، وغرفة شاي تعرف بغرفة بلوسكاي — ولكن فالانتينو قصر قديم جدًا حتى إن غرفه تحمل أرقامًا بدلًا من الأسماء، ولطالما كان ساكنو قصر فالانتينو يتفاخرون بأشياء من هذا القبيل، ويتمسكون بالتقاليد القديمة لمنزلهم العتيق.

قال زين وهما يقتربان من القصر الضخم مترامي الأطراف: «اختيار صائب لإخفاء ما لديهم، فهذا المكان يصعب الوصول إليه، ومن السهل الحفاظ على الأسرار في مكان لا تتحدث جدرانه».

قالت تالي: «ربما كان ذلك هو سبب اقتحامهم لحفل مقام في فالانتينو وليس في أي قصر آخر».

قال زين: «ولكنني ذهبت وأفسدت كل ترتيبات حفلتهم».

نظرت إليه تالي وقالت: «أنت؟»

– «لقد اتجهنا في البداية إلى القصر الحجري، ولكن حينما فشلنا في العثور عليكم في أي مكان، قلت إن علينا أن نصعد إلى برج الاحتفالات الجديد حتى تعثر الجدران الذكية عليكم».

قالت تالي: «لقد خطرت لنا هذه الفكرة نفسها».

هز زين رأسه وقال: «أجل، لو بقينا كلنا بأسفل في قصر فالانتينو، لما استطاعت السلطات الخاصة العثور على كروي بهذه السرعة، ومن ثم كان سيصبح لديه وقت كافٍ لكي يتحدث إليك».

– «هل يسترقون السمع من خلال الجدران؟»

ابتسم زين ابتسامة عريضة وقال: «نعم، فلماذا تظنين إذن أنني اقترحت عليك أن نقوم بنزهة خلوية في هذا اليوم قارس البرودة».

أومأت تالي برأسها، وأخذت تفكر بإمعان في الأمر: إن خاتم الاتصال المرتبط بأجهزة المدينة يستقبل الرسائل الخاصة بصاحبه، ويجيب على أسئلته، ويذكره بمواعيد، ويطفئ أيضًا الأنوار أو يضيئها في غرفته، وإذا كانت السلطات تود أن تراقب أي شخص فبوسعها أن تعرف كل ما يفعله ونصف ما يفكر فيه، وتذكرت

تالي حديثها إلى كروي في البرج، وخاتم الاتصال في إصبعها، والجدران تلتقط كل كلمة ... «هل يراقبون الجميع؟»

– «لا، ليس بوسعهم أن يقوموا بذلك، ومعظم الناس لا يستحقون عناء المراقبة، ولكن البعض منا يتلقى معاملةً خاصة، مثلما هو الحال داخل أبنية السلطات الخاصة.»

أطلقت تالي سبةً، لقد وصل عملاء السلطات الخاصة في الليلة الماضية إلى البرج بمنتهى السرعة، فهي لم تتحدث مع كروي سوى دقائق معدودة، وكأنهم يقفون على مقربة منهما. ربما اكتشفوا أن أحدهم اقتحم الحفل، أو ربما لم تكن تفصلهم مسافة كبيرة عن تالي يانج بلود ...

تطلعت تالي إلى الأشجار وظلالها تتحرك مع الريح، وأخذت تتخيل أن هناك أشباحًا رمادية تمرق بين الأشجار. وقالت: «أنا لا أظن أن ما حدث ليلة أمس كان بسببك يا زين. كان ذلك خطأي أنا.»

– «ماذا تعنين؟»

– «إنه دائمًا خطأي.»

قال زين بصوت هادئ: «دعك من هذه السخافة يا تالي. ليس عيبًا أنك ممن يتمتعون بمكانة مميزة.»

خفت صوته شيئًا فشيئًا ثم صمت وهما يمران تحت القنطرة التي تعلو المدخل الرئيسي لقصر فالانتينو. وداخل الجدران الحجرية الباردة لف الصمت المكان فبدا أشبه بصمت القبور.

همس زين: «كان الحفل لا يزال مستمرًا عندما انصرفنا، ربما يكونون قد ناموا جميعهم لتوهم.»

أومأت تالي برأسها. لم يكن أي من عمال الصيانة الآليين قد بدءوا في أعمالهم، وأجزاء من الأزياء التنكرية الممزقة مبعثرة في الردهات، وعبقت الهواء في المكان رائحة المشروبات المسكوبة بعطر حلو يبعث على الغثيان، والأرض لزجة تحت أقدامهما، وقد تجرد المكان من كل مظاهر الروعة والبهاء التي أضفاها الحفل عليه، مثلما تنتهي روعة الليالي التي تدور فيها كؤوس الشمبانيا بآلام الصداع الناتج عن الإسراف في الشراب.

شعرت بأن إصبعها عار بدون خاتم الاتصال، وتذكرت كيف كانت تخلعه من إصبعها وهي قبيحة لكي تتسلل وتعبر النهر، والرعب يتملكها خشية أن يضبطها

أحد آنذاك، ولكن الخوف أبقاها متيقظة، وأرهف حواسها حتى إنها تمكنت من سماع صوت النفايات التي خلفها الحفل وهي تتحرك على الأرضية في الممرات التي تعصف بها تيارات الهواء، وكذلك تمكنت من تمييز رائحة الشمبانيا المسكوبة على الأرض التي يفوح منها عبق الزبيب المختمر عن رائحة الجعة العتيقة. ولم يبدد صمت المكان سوى صوت وقع أقدامهما.

همست تالي: «لا بد أننا سنجد نزلاء الغرفة ٣١٧ نائمين».

رد عليها زين بصوت منخفض وعيناه تلمعان في الظلام غير الحالك: «إذن فسوف نوقظهم».

كانت أرقام الغرف في الطابق الأرضي تبدأ من مائة وتنتهي بمائة وتسعة تسعين، ولذلك بحث الاثنان عن طريقة يصعدان بها إلى الطابق الأعلى. وكان القصر قد زُود بمصاعد كهربائية في مكان ما، ولكن بدون خاتمي الاتصال لن تفتح لهما أبواب هذه المصاعد. صعد زين وتالي سلمًا درجاته حجرية فوجدا نفسيهما في الطابق الثالث أمام صف من الغرف يبدأ بغرفة رقم ٣٠١. وظلت الأرقام تتصاعد وهما يسيران في الردهة، والغرف التي تحمل أرقامًا فردية تقع على جانب، والغرف ذات الأرقام الزوجية تقع على الجانب المقابل. ضغط زين على يدها حينما وصلا إلى غرفة رقم ٣١٥.

ولكن الغرفة التي تلتها تحمل رقم ٣١٩.

عادا إلى الوراء، ليتأكدا من الأرقام الموجودة على الجانب الآخر من الردهة، ولكن لم يجدا إلا أبوابًا تحمل الأرقام: ٣١٦ و٣١٨ و٣٢٠. بحث زين وتالي في بقية الطابق، ووجدا غرفًا تحمل أرقامًا تبدأ من ٢٢٠ وغرفًا تبدأ من ٣٣٠. كانت الأرقام التي تحملها هذه الغرف زوجية وفردية، ولكن لم يجدا الغرفة رقم ٣١٧ بقصر فالانتينو.

قال زين وهو يضحك ضحكة خافتة: «إنه لغز يعتمد حله على اليقظة».

تنهدت تالي وقالت: «ربما لم يكن كل ذلك إلا مزحة».

- «أتظنين أن سكان الضباب الجديد سيخترقون أنظمة الإرسال الإلكترونية ويغيرون دعوة تلقتها المدينة بأكملها، ويتسللون عبر النهر، ويقتحمون إحدى الحفلات فقط لكي يضيعوا وقتنا؟»

وافقته تالي: «على الأرجح لا»، ولكنها شعرت بأن شيئًا ما بداخلها بدأ يخبو، ووجدت نفسها تفكر في جدوى هذه الرحلة الاستكشافية للبحث عن سر كبير أخفاه

«القبحاء». ثم إن التسلل إلى قصر يخص آخرين والتجول فيه هكذا يعد أمرًا سخيفًا للغاية. سألته تالي: «هل تظن أن طعام الإفطار لا يزال دافئًا؟».

التفت إليها وهو يرنو إليها بنظرة مشحونة بالانفعالات وهو يقول: «تالي ...» وبيدين مرتعشتين أزاح خصلات شعرها خلف أذنيها وأردف: «ابقي معي».

قالت تالي: «أنا هنا معك».

ضمها زين إليه، حتى كادت شفتاه تمس شفتيها وهو يقول: «أنا أعني، ابقي متيقظة».

قبلته تالي، وأحست أن معالم العالم من حولها تتضح حين شعرت بضغط شفتيه. وتجاهلت فكرة إحساسها بالجوع وقالت: «ماذا عن المصعد الكهربي؟».

– «أي مصعد تقصدين؟»

قادته مرة أخرى إلى المساحة الموجودة بين غرفة رقم ٣١٥ والغرفة رقم ٣١٩. هناك باب مصعد يتوسط الجدار الحجري الطويل.

قالت تالي: «هنا كانت غرفة».

فقال زين: «ولكنهم تخلصوا منها حينما ركبوا المصعد». وضحك وأردف قائلًا: «يا لهم من كسالى هؤلاء الحسان، ألا يستطيعون أن يصعدوا طابقين على السلم».

– «ربما تكون الغرفة رقم ٣١٧ قد أصبحت هي هذا المصعد الكهربي».

قال زين: «هذا سخيف، ليس بإمكاننا أن نطلب المصعد من دون خواتم الاتصال».

– «يمكننا أن ننتظر حتى يستدعي شخص آخر المصعد ثم نتسلل إلى الداخل».

أدار زين بصره في أرجاء الردهة الخالية، التي تتراكم فيها أكوام من الأكواب البلاستيكية، والزينات الورقية الممزقة، وقال وهو يتنهد: «سننتظر لساعات من الآن، عندما نكون قد فقدنا يقظتنا وانتباهنا».

– «نعم، لن نكون متيقظين» وبدأت تالي تحس وكأن هناك غشاوة أخذت تتجمع أمام عينيها وتشوش رؤيتها، وقرقرت معدتها الخاوية من فرط الجوع، فقفزت إلى ذهنها صورة فطيرة مافين دافئة بالشيكولاتة، وهزت تالي رأسها لكي تمحوها، واستحضرت بدلًا منها صورة الزي الخاص بالسلطات الخاصة. فحين رأت الحرير الرمادي بالأمس تمكنت من التركيز، مما حفزها لمطاردة كروي والدخول إلى بئر سلم الطوارئ، لقد كان كل ذلك امتحانًا فقط للوقوف على مستوى قدرتها

على التفكير. وربما يكون هذا الموقف امتحانًا آخر، فهو كما قال زين، لغز يعتمد حله على اليقظة.

أخذت تالي تحدق في باب المصعد، لا بد من طريقة للدخول.

وشيئًا فشيئًا أخذت تعود إليها ذكرى أيام القبح، ولكنها ذكرى ليست ببعيدة؛ فتذكرت تالي كيف سقطت في بئر مصعد مظلم ذات مرة. لقد كانت هذه هي إحدى القصص التي تحب شاي سماعها من تالي كثيرًا، وهي تحكي عن الطريقة التي مكنتها هي وديفيد من التسلل إلى المبنى الرئيسي للسلطات الخاصة ... قالت تالي: «السطح».

سألها زين: «ماذا؟».

– «يمكن النزول إلى بئر المصعد عن طريق السطح، لقد قمت بذلك بنفسي في إحدى المرات.»

– «حقًا؟»

بدلًا من أن تجيبه قبلته مرة أخرى. إنها لا تتذكر تمامًا كيف تمكنت من ذلك، ولكنها متأكدة من أنه بإمكانها أن تتذكر إذا بقيت متيقظة: «اتبعني».

ولكن الصعود إلى السطح لم يكن بالبساطة التي تتخيلها، فدرجات السلم التي صعدت عليها هي وزين انتهت عند الطابق الثالث. قطبت تالي حاجبيها، وأحست بأن كل شيء يفقد وضوحه بفعل الإحباط الذي أصابها. كان الصعود إلى السطح في قصر كوماشي سهلًا للغاية. «هذا سخف، ماذا سيفعلون إذا نشب حريق في القصر؟».

قال زين: «إن الحجارة لا تحترق»، وأشار إلى نافذة صغيرة في آخر الردهة، تتخلل أشعة الشمس ألواحها الزجاجية الملونة، وقال: «يمكننا الخروج منها». وأسرع نحوها.

– «ماذا؟ أتريد أن تتسلق الجدار الخارجي؟»

أطل زين برأسه من النافذة ونظر إلى أسفل وهو يطلق صفارة طويلة: «لا يوجد شيء أفضل من المرتفعات يمكن أن يبقيكِ متيقظة».

قطبت تالي حاجبيها، فهي لم تكن متأكدة مما إذا كانت تود أن تظل متيقظة إلى هذا الحد.

قفز زين حتى جلس على حافة النافذة السفلية وانحنى إلى الخارج وهو يقبض بيديه على الحافة العليا للنافذة، ثم وقف بحذر، وبدأ ينهض ببطء حتى إن تالي لم

تعد ترى سوى حذائه الطويل يرتكز على الإفريز الحجري من الخارج. بدأ قلبها يدق بعنف، حتى إنها شعرت بخفقات في أطراف أصابعها مع كل دقة من دقاته، لقد أصبح العالم من حولها حادًا مثل الكتل الجليدية المستدقة التي تتدلى من أسقف الكهوف المتجمدة.

ظلت قدماه بلا حراك فترة طويلة من الوقت، ثم أخذ يقترب من الحافة بخطوات بطيئة، حتى لم يعد يرتكز على النتوء الحجري إلا بأصابع قدميه، فأصبح على حافة الهاوية.

- «ماذا تفعل عندك بالأعلى؟»

لم يجبها لكنها رأت نعليه يرتفعان ببطء في الهواء، وبعدها سمعت تالي صوتًا مكتومًا لاحتكاك نعليه بالحجارة، فأخرجت رأسها من النافذة ونظرت إلى أعلى.

رأت زين يتدلى بجسده من حافة السطح، وقدماه تتأرجحان في الهواء وتحتكان بالجدار الحجري، ثم استطاع زين أن يثبت إحدى قدميه في شق بين الحجارة، فسحب نفسه إلى أعلى واختفى عن نظرها.

وبعد لحظة ظهر وجهه وقد ارتسمت عليه ابتسامة عريضة امتدت حتى أذنيه وقال: «هيا اصعدي!»

أدخلت تالي رأسها وأخذت نفسًا عميقًا، وهي تضع يديها على إفريز النافذة، وكانت الحجارة خشنة وباردة، وقد تسببت الرياح العاتية التي تندفع من النافذة في سريان قشعريرة بجسدها ...

قالت تالي بصوت خافت: «ابقي متيقظة»، ثم رفعت جسدها وجلست على النافذة، فتسربت برودة الحجارة إلى فخذيها، وأرخت عينيها إلى أسفل لتنظر بسرعة إلى الأرض؛ فقد كانت هناك مسافة كبيرة تفصلها عن أوراق الأشجار وجذور الأشجار المتناثرة التي يمكن أن تخفف من ارتطامها بالأرض. واشتدت قوة الرياح مرة أخرى، فحركت غصون الشجر القريبة، وتمكنت تالي من رؤية كل غصنين منها، وملأت أنفها رائحة أشجار الصنوبر، فلن تعاني مشكلة بخصوص البقاء متيقظة.

أخرجت إحدى قدميها ووضعتها على إفريز النافذة، ثم وضعت الأخرى بالطريقة نفسها.

الوقوف هو الخطوة المخيفة حقًا، تشبثت تالي بإطار النافذة بإحدى يديها، وهي تنهض لتقف، أما اليد الأخرى فتتحسس الجدار الخارجي بحثًا عن موضع

يمكن الإمساك به. لم تجسر تالي على النظر إلى أسفل مرة أخرى. وكان الجدار الحجري البارد يعج بالثقوب والشقوق، ولكنها لا تتسع إلا لأطراف أصابعها.

عندما مدّت ساقيها ووقفت مستقيمة وجدت نفسها عاجزة عن الحركة لحظة، وأخذ جسدها يترنح قليلًا مع النسيم، وكأن القصر برج شاهق الارتفاع شُيِّدَ بلا أساس.

تناهى إلى سمعها صوت زين آتيًا من أعلى: «متيقظة ومنتبهة إلى أقصى حد، أليس كذلك؟ فقط تمسكي بالإفريز».

رفعت تالي بصرها من جهة الجدار المواجه لها ونظرت إلى أعلى، حيث كانت حافة السطح أعلى قليلًا من متناول يديها: «هذا ليس عدلًا. أنت أطول مني».

مد زين إحدى يديه إلى أسفل ناحية تالي وهو يقول: «ليست هناك مشكلة».

– «هل أنت واثق من أنك تستطيع أن تمسك بي؟»

– «كفي عن هذا يا تالي -وإلا ما فائدة كل هذه العضلات الجديدة إذا لم تُستخدم في شيء؟».

همست تالي لنفسها: «شيء مثل أن ألقى حتفي؟»، لكنها رفعت يدها لتمسك بيده.

ولكن عضلاتها الجديدة أقوى بكثير مما تتصور، فقد أحكمت أصابعها حول معصم زين، وتمكنت من أن ترفع جسدها بسهولة من فوق إفريز النافذة، حيث أمسكت بيدها الأخرى حافة السطح، وتمكنت من وضع أحد أصابع قدمها في شق صغير في جدار القصر. وصعدت وهي تدمدم من فرط المجهود، ثم تدحرجت فوق الإفريز حتى وصلت إلى السطح. تمددت على أرضية السطح باسطة ذراعيها وقدميها فوق السطح الحجري الصلد، وأحست بالاطمئنان، وأخذت تضحك ضحكًا متواصلًا بفعل مشاعر الارتياح التي اجتاحتها.

ابتسم زين ابتسامة عريضة وقال: «لقد كان ما قلته من قبل صحيحًا».

فنظرت تالي إليه بعينين متسائلتين.

– «لقد كنت أنتظر فتاة مثلك منذ وقت طويل».

إن وجوه الحسان لا تحمر خجلًا — أو على الأقل ليس على طريقة القبحاء — ولكن تالي هبت واقفة لكي تخفي رد فعلها تجاه كلمات زين، فإحساس الانتباه الناتج عن تسلق الجدار الحجري وتعريض حياتهما للخطر جعل نظراته حادة للغاية، ووقفت لتتطلع إلى المنظر الذي يطل عليه القصر.

نظرت من فوق السطح، فرأت أبراج احتفالات مدينة الحسان الجدد الشاهقة تعلو فوقهما، والممرات الخضراء المتعرجة في حدائق المتعة التي تمتد حتى أعلى التل الموجود بوسط المدينة، ومن وراء النهر بدت مدينة القبحاء التي بدأ سكانها يومهم، ورأت ملعب كرة قدم، يمتلئ بالقبحاء الذين وصلوا للتو إلى المدينة حول كرة تجمع بين اللونين الأبيض والأسود، وحمل الهواء إلى أذنيها صوت صفارة تدوي بعنف، يبدو المنظر قريبًا وواضحًا للغاية، وشعرت تالي أن جهازها العصبي لا يزال يطن ويردد أصداء اللحظات التي كانت تتأرجح فيها وهي معلقة بيد زين.

كانت أرضية السطح الحجرية مستوية، ولا يميزها سوى ثلاث فتحات متحركة للتهوية، وعمود الإرسال الشاهق، وكوخ معدني في حجم خزانة ملابس أحد القبحاء. أشارت تالي إلى الكوخ وقالت: «هذا الكوخ يقع فوق المصعد تمامًا».

عبر زين وتالي إلى الجانب الآخر من السطح، وعندما وصلا الكوخ وجدا بابًا قديمًا من المعدن الصدئ يشبه الأبواب التي تعج بها أطلال المدينة القديمة، وقد نقش عليه بعناية: «فالانتينو ٣١٧».

قال زين بابتسامة: «هذا رائع للغاية يا تالي». جذب زين الباب بعنف، ولكن تصاعد صوت صرير عالٍ لسلسلة معدنية لامعة نشبت عن آخرها عندما جذب الباب.

نظرت تالي إلى الأداة التي تحجز السلسلة وتمنعها من الانزلاق، وهي تعتصر ذهنها الذي لا يزال مصابًا بالدوار: «هذا الشيء اسمه ... قفل، أظن ذلك». أخذت تتحسس ذلك الجسم المعدني الأملس بين يديها، وتحاول أن تتذكر كيف كان يعمل. «كان سكان الضباب يستخدمونه لحماية الأشياء التي من الممكن أن تتعرض للسرقة».

- «رائع، بعد كل هذا لا نزال نحتاج إلى خواتم الاتصال».

هزت تالي رأسها: «إن سكان الضباب لا يستخدمون خواتم الاتصال يا زين، لكي تفتح قفلًا فأنت تحتاج إلى ...» وبحثت في ذاكرتها عن كلمة قديمة أخرى، ووجدتها، فأردفت: «لا بد أن يكون هناك مفتاح في مكان ما هنا».

- «مفتاح؟ أيشبه ذلك كلمة المرور؟»

- «لا. إن المفتاح هو شيء معدني صغير، تدخله في فتحة القفل وتديره، فينفتح القفل».

- «كيف يبدو شكله؟»

- «قطعة مسطحة من الصُّلب، في طول إبهام اليد، وله أسنان».

قهقه زين حينما سمع وصفها لصورة المفتاح، ولكنه بدأ يبحث حوله عنه.

حدقت تالي في الباب، فلاحظت أن الكوخ بدا أقدم بكثير من السلسلة المعدنية التي كانت تغلقه. وأخذت تفكر في الغرض الذي كانت تُستخدم من أجله، انحنت إلى الأمام، وقربت رأسها من ذلك الفراغ الصغير الذي أحدثه زين عندما جذب الباب، وهي تضع يديها على جانبي رأسها لتحجب الضوء عن عينيها، وأخذت تدقق النظر داخل الكوخ المعتم، وشيئًا فشيئًا بدأت عيناها تتعودان على الظلام، حتى تمكنت من تمييز بعض الأشكال المعتمة بداخل الكوخ.

يوجد بالداخل، على ما يبدو، بكرة ضخمة ومحرك آلي بدائي الصنع، يشبه تلك المحركات التي كان سكان الضباب يستخدمونها. لقد كانت المصاعد الكهربية، في وقت من الأوقات، تصعد وتهبط على سلاسل. وهذا الكوخ قديم، لا بد أنه لم يعد يُستخدم الآن بعد اختراع الروافع، وذلك منذ زمن بعيد، فالمصاعد الحديثة تعمل بالطريقة نفسها المستخدمة في الألواح الطائرة وسترات القفز (وهي طريقة أكثر أمانًا بكثير من أن يبقى المرء معلقًا بسلسلة ... إن الفكرة نفسها فقط جعلت تالي ترتعد) لا بد أنهم تركوا هذه الآلات القديمة فوق السطح وظلت هنا ليأكلها الصدأ بعدما أُضيفت الروافع.

جذبت تالي القفل مرة أخرى، ولكنه ظل ثابتًا. ولكن وجود قفل ثقيل وبدائي الصنع مثل هذا هنا في المدينة بدا شيئًا غريبًا للغاية، فالحراس عندما يريدون تأمين شيء ما يركبون مستشعرات عليها تمنع الناس من الدخول. ليس من المفترض أن يكون هناك من استخدم قفلًا معدنيًا سوى سكان الضباب الجديد.

لقد طلب منها كروي أن تأتي إلى هنا، ولذلك لا بد من وجود مفتاح لهذا القفل في مكان ما هنا.

تمتمت تالي: «اختبار سخيف آخر».

سألها زين: «ماذا؟» وكان في تلك اللحظة قد صعد فوق الكوخ المعدني ليبحث عن المفتاح.

استطردت شارحة لزين: «شأنه شأن ارتداء كروي زي السلطات الخاصة، ودفعنا للبحث عن فالانتينو ٣١٧. لا بد أن العثور على المفتاح هو لغز آخر يحتاج إلى حل، لأن كل ذلك ما هو إلا اختبار. إنهم يهدفون إلى عرقلة العثور على الشيء الذي تركه كروي لي، إنهم لا يريدوننا أن نعثر عليه، إلا بعد أن نستعيد انتباهنا».

قال زين وهو جالس فوق حافة الكوخ: «أو ربما يقصدون أن يجعلنا البحث متيقظين، حتى نستطيع أن نفكر بوضوح عندما نجد هذا الشيء».

قالت تالي وهي تتنهد: «أيًا كان الأمر». وأحست بشعور من الضيق يتزايد بداخلها، وشعرت بأن هذا الاختيار لن ينتهي، وأنها كلما حلت مشكلة انتقلت إلى مستوى آخر من المشاكل، وكأنها تلعب لعبة فيديو سخيفة. ربما أفضل شيء تفعله هو أن تنسى كل ذلك، وتتناول إفطارها. لماذا تحاول أن تثبت نفسها لسكان الضباب الجديد أصلًا؟ إنهم لا يهمونها، إنها جميلة وهم قبحاء.

ولكن زين لا يزال يشعر بالدوار، وقال: «إذن فلا بد أن يخبئوا المفتاح في مكان يتطلب الوصول إليه المزيد من الجهد. ولكن ما الأصعب من تسلق الجدار الحجري والصعود إلى هنا؟».

أدارت تالي بصرها في أرجاء السطح، حتى وقع بصرها على عمود برج الإرسال الطويل، وكان علم فالانتينو فوقه يرفرف في مهب الرياح، على بعد عشرين طابقًا فوقهما، وعندما رأته بدا العالم من حولها يستعيد وضوحه من جديد، فابتسمت وقالت: «الصعود إلى هناك».

الفصل الثامن

البرج العالي

برج الإرسال هو أحدث الإضافات التي طرأت على قصر فالانتينو، وقد صنع من الفولاذ المطلي بالبوليمرات البيضاء لحمايته من الصدأ. هذا البرج جزء من نظام تتبع خواتم الاتصال الخاصة بسكان المدينة، الذي من المفترض أن يساعد في العثور على أي شخص يضل طريقه أو يتعرض لأية إصابة خارج البنايات الذكية.

كانت شبكة الدعامات البيضاء ترتفع عاليًا فوق زين وتالي، فبدت أشبه بلعبة الخيوط المتشابكة المعروفة باسم مهد القطة، وأخذت تلمع في ضوء الشمس مثل الخزف. لم يبد لهما أن البرج يصعب تسلقه، فيما عدا أنه أطول من قصر فالانتينو بخمس مرات، بل إنه أطول حتى من أبراج الاحتفالات. رفعت تالي بصرها وأخذت ترنو إلى ارتفاعه الشاهق، وهي تسمع صوت قرقرة خافتة من معدتها، ولكنها متأكدة من أن ذلك ليس بسبب الجوع، وقالت: «على الأقل ليس هناك تنين يحرسه».

حول زين عينيه المفعمتين بالقلق عن البرج إليها وهو يقول: «ماذا تقولين؟».

هزت تالي رأسها وقالت: «شيء كنت قد حلمت به».

– «أتظنين حقًا أن المفتاح موجود هناك بأعلى؟».

– «أظن ذلك».

– «هل تسلق سكان الضباب الجديد كل هذا الارتفاع؟».

عاودتها الذكريات القديمة، وقالت: «لا، ربما صعدوا بمحاذاة البرج باستخدام الألواح الطائرة، فمن الممكن أن تصل الألواح الطائرة إلى هذا الارتفاع إذا بقيت قريبة بما يكفي من أية قطعة معدنية كبيرة».

قال زين بلهجة هادئة: «على فكرة، يمكننا أن نطلب الحصول على لوح طائر ...».

نظرت إليه تالي في ذهول.

تمتم زين: «لن يكون ذلك لطيفًا على الإطلاق، أليس كذلك؟».

– «نعم، بالإضافة إلى أن أي شيء يطير به نظام إشراف إلكتروني، أيمكنك خداع نظام التحكم في سلامة اللوح الطائر؟».

– «كنت فيما مضى، ولكنني لا أستطيع أن أتذكر».

– «ولا أنا أيضًا. حسنًا إذن، سوف نتسلق البرج».

قال زين: «لا مانع، ولكن أولًا ...». ثم أمسك بيد تالي وضمها إليه وتبادلا قبلة مرة أخرى.

طرفت بعينيها، ثم شعرت بابتسامة عريضة ترتسم على وجهها، وأضاف زين: «فقط لكي نبقى متيقظين».

كان النصف الأول من المهمة سهلًا.

بقي زين وتالي معًا وأخذ كل منهما يتسلق أحد جانبي البرج المتقابلين، واستخدما شبكة الدعامات والأسلاك المتشابكة كوسيلة للتشبث وتفادي السقوط. كانت الرياح تنشط ما بين الحين والآخر، فتشد تالي بعبث على نحو يصيبها بالتوتر، ولكن لم يكن الأمر يتطلب إلا النظر إلى أسفل بسرعة حتى تستعيد تركيزها.

وعند منتصف الطريق إلى قمة البرج رأت تالي قصر فالانتينو بالكامل وحدائق المتعة التي تمتد في كل الاتجاهات، حتى المنصات المخصصة لهبوط العربات الطائرة فوق المستشفى المركزي الذي أجريا فيه عملية التحول. وكان النهار قد أوشك على الانتصاف، وانعكست أشعة الشمس فوق صفحة النهر، وعلى الجانب الآخر من النهر تقع مدينة القبحاء، فرأت تالي عنبر النوم الذي كانت تقطنه فيما مضى يربض بحجمه الهائل بين الأشجار. وكان هناك بضعة من القبحاء في ملعب كرة القدم اتجهت أنظارهم إلى تالي وزين، وأخذوا يشيرون إليهما، فلعلهم يتساءلون عمن يتسلق البرج.

أخذت تالي تفكر كم من الوقت سيمر دون أن يلحظهما أحد — على هذا الجانب من النهر وهما يتسلقان البرج — ويرسل استدعاء للحراس.

لم يكن تسلق البرج يتطلب منها أن تبذل مجهودًا بدنيًا كبيرًا، وذلك بفضل عضلاتها الجديدة. ولكن عندما اقتربت هي وزين من قمة البرج بدأ البرج يضيق شيئًا فشيئًا، ومن ثم أصبحت الثغرات التي يتشبثان بها أثناء صعودهما أقل. كان الغطاء المصنوع من البوليمرات أملس، ولا يزال مبللًا في بعض الأركان بقطرات الندى

التي لم تكن قد جفت بعد بحرارة شمس الصباح. كذلك كانت الدعامات تزدحم بأطباق الاستقبال التي تعمل بالموجات الكهرومغناطيسية الصغرى، وحزم الأسلاك السميكة المجدولة، وبدأ الشك يتسرب إلى نفس تالي. أيكون المفتاح موجودًا حقًّا هنا؟ ولماذا يدفعها سكان الضباب الجديد إلى المخاطرة بحياتها لتنجح في اختبار فقط؟ وعندما ازدادت صعوبة تسلق البرج، وازداد خوفها من السقوط منه، وجدت نفسها تتساءل كيف انتهى بها المطاف هنا على هذا العمود المعدني الشاهق المستدق الذي تعصف به الرياح.

في الليلة الماضية كان كل هدفها هو أن تصبح واحدة من الأشقياء، جميلة ومحبوبة ومحاطة بجماعة من الأصدقاء الجدد، وقد نجحت في أن تحقق كل ما تمنته، وأهم ما في ذلك أن زين قد قبلها، فهذا تطور رائع لم يخطر ببالها قبل هذا الصباح.

لقد ثبت لها أن الحصول على ما يريده المرء لا يتحقق بالضبط بالطريقة التي يتصورها قط، فكونها أصبحت واحدة من الأشقياء لم يجلب لها الرضا، ومصاحبة زين تنطوي فيما يبدو على المخاطرة بحياتها والحرمان من تناول الإفطار. لقد وافق الأشقياء على انضمامها إليهم في الليلة الماضية فقط، وها هي تضطر لإثبات قدراتها مرة أخرى.

ومن أجل ماذا؟ أهي حقًّا تريد أن تفتح ذلك الكوخ الصدئ الموجود بأسفل؟ فأيًا ما كان الشيء الذي قد تجده بداخله، فلن ينالها منه إلا دوار أشد، وحتمًا سيذكرها بديفيد والضباب وكل ما تركته وراءها. كانت تشعر بأنها كلما تقدمت خطوة إلى الأمام في عالمها الجديد جذبها شيء ما إلى أيام القبح.

وفي غمرة انشغال ذهن تالي بكل هذه الأسئلة وضعت قدمها في المكان الخطأ.

فانزلق نعل فردة حذائها من فوق إحدى حزم الأسلاك السميكة المغلفة بطبقة بلاستيكية ملساء، مما تسبب في إبعاد ساقيها المتأرجحتين عن البرج، وأفلتت يداها من فوق إحدى الدعامات التي لا تزال مبتلة بالندى. هوت واجتاح جسدها إحساس السقوط بسرعة البرق بفعل الجاذبية التي تشدها إلى أسفل، ولم يكن ذلك الإحساس غريبًا عليها، فقد أحست به أثناء المرات التي سقطت فيها من فوق أحد الألواح الطائرة أو ألقت بنفسها من فوق إحدى البنايات.

هدتها فطرتها إلى أن تهدأ، حتى أدركت مدى الفرق الشاسع بين سقوطها هذه المرة وكل المرات الأخرى السابقة: فلم تكن ترتدي سوارين واقيين من الارتطام أو سترة قفز. إنها تهوي «حقًّا» هذه المرة، دون أن يكون هناك ما يمكن أن ينقذها.

تنبهت فجأة ردود أفعالها الانعكاسية الجديدة التي منحتها إياها العملية، فأسرعت يداها وتشبثت بحزمة من الأسلاك المجدولة مرت أمامها، وانزلق كفاها على المادة البلاستيكية العازلة التي تغلف حزمة الأسلاك تلك، وتسبب الاحتكاك بها في سفع جلدها وكأن النيران قد اشتعلت في حزمة الأسلاك التي تمسك بها، وأخذت ساقاها تتأرجحان باتجاه البرج، وركبتاها مثنيتان وجسدها يتقلب، وارتطمت بالجسم المعدني للبرج، فهز ذلك الارتطام جسدها كله، وامتص ردفها الصدمة ولكنها لم تفلت أصابعها الملتهبة من فوق حزمة الأسلاك.

أخذت تالي تحرك قدميها بحثًا عن مكان ترتكزان عليه، حتى وجدت دعامة واسعة استطاعت أن تضع باطن قدميها فوقها، فتحملت قدماها معظم ثقلها بعد أن كان على يديها، لحسن حظها، ولفت ذراعيها حول حزمة الأسلاك وانقبضت كل عضلة من عضلاتها، وهي تسمع صيحات زين آتية من فوقها بصعوبة. حدقت باتجاه النهر، واندهشت حين لاحظت حدة بصرها.

كل شيء أمامها يتألق، وكأن حبات من الماس قد تناثرت في أرجاء مدينة القبحاء. شعرت بأن ذهنها أصبح صافيًا ونقيًا مثل الهواء بعد أن تغسله أمطار الصباح، وأدركت أخيرًا السبب الذي دفعها إلى تسلق هذا البرج، ليس لإبهار زين أو الضبابيين، ولا لكي تنجح في أي اختبار، ولكن لأن هناك شيئًا بداخلها كان يصبو إلى هذه اللحظة، وإلى هذا الوضوح الذي لم تشعر به منذ أن خضعت للعملية، وأتاحت لها هذه اللحظة قدرًا أعلى بكثير من التيقظ أو الانتباه.

ترامت إلى سمعها صيحة آتية من بعيد: «هل أنتِ بخير؟».

عادت تالي تنظر إلى أعلى نحو زين، وحين أدركت المسافة الطويلة التي قطعتها وهي تهوي ابتلعت ريقها، ولكن تصنعت الابتسام وهي ترد عليه: «أنا متيقظة تمامًا. انتظرني بالأعلى».

وبدأت تتسلق البرج بسرعة الآن، دون أن تهتم بالكدمة التي أصابت ردفها، وكانت تحس بألم في راحتيها الملتهبتين كلما لفتهما حول جزء تمسك به، ولكن في خلال دقيقة واحدة لحقت بزين، ولاحظت أن عينيه الذهبيتين اتسعتا بشدة أكثر من أية مرة، وكأن سقوطها قد أفزعه أشد مما أفزعها هي.

ابتسمت تالي مرة أخرى، إذ أدركت أن سقوطها ربما أفزعه فعلًا أشد مما أفزعها، وقالت: «هيا بنا». رفعت تالي جسدها وأخذت تتسلق تلك الأمتار القليلة المتبقية وخلفها زين.

وعندما وصلت إلى قمة البرج وجدت مغناطيسًا أسود ملتصقًا بقاعدة سارية العلم وقد تعلق به مفتاح جديد لامع. انتزعت المفتاح بحرص ووضعته في جيبها، وعلم فالانتينو يرفرف فوقها بصوت مدوٍّ، وبدا وهو يرفرف خاليًا من التجاعيد مثل ملابس خرجت لتوها من الكوة الذكية.

صرخت تالي: «وجدته»، ثم بدأت تهبط، وتخطت زين، حتى قبل أن تتاح له الفرصة أن يتحرك، وظل الاندهاش مرتسمًا على وجهه.

لم تدرك تالي كم تؤلمها عضلاتها، إلا عندما وقفت مرة أخرى فوق سطح قصر فالانتينو، ولا يزال قلبها يدق بعنف، والعالم من حولها لا يزال في وضوح البلور. أخرجت المفتاح من جيبها، وهي تتحسس أسنانه بأحد أطراف أصابعها المرتعشة، وحواسها تسجل كل تفاصيل الحافة المعدنية المسننة.

صاحت تالي لزين: «أسرع»، إذ لا يزال في منتصف الطريق، وبدأ زين يهبط بسرعة أكبر، ولكنها زفرت في ضيق، وأسرعت صوب الكوخ.

أدخلت المفتاح في القفل وأدارته، فانفتح القفل. حينئذ احتك الجانب السفلي من الباب الصدئ بالأرضية الحجرية، فأخرج صريرًا ينم عن أنه لم يفتح منذ زمن بعيد. دخلت تالي وأحست أنها لا ترى شيئًا لأول وهلة، وهي تقف في الظلام وقد تملكها الحماس، وتراءت لها أشكالٌ حمراء اللون أخذت تنبض بالتزامن مع ضربات قلبها. وإذا كان الضبابيون قد خططوا لكل ذلك، حتى تصبح متيقظة وتتذكر ما مضى، فقد حققوا ما كانوا يريدونه.

كانت رائحة الغرفة الضيقة تشي بأنها قديمة للغاية، فالهواء بداخلها دافئ وساكن. وحينما تأقلمت عينا تالي مع الظلام رأت الكتابات والرسوم المتقشرة التي ملأت كل شبر من الجدار، وطبقات متراكمة من الرسوم من بينها شعارات، وأسماء أشخاص مكتوبة بخطوط رديئة وأسماء محبين يعلنون حبهم، بعض التواريخ لم تكن تعني شيئًا لها، حتى أدركت أنها كتبت بطريقة سكان العصر القديم، إذ تضم كل القرون القديمة التي مرت قبل حدوث الانهيار العظيم. وفي هذه الغرفة أيضًا كانت آلات المصعد المتهالكة مزينة هي الأخرى بمزيد من النقوش والرسوم، وعدة أشياء قديمة باتت من المحرمات مبعثرة على الأرضية: علب قديمة تحتوي على بخاخات للطلاء، وأنابيب فارغة من صمغ النانو المعروف برداءته كلاصق، وألعاب نارية محترقة تفوح منها رائحة نيران المعسكرات التي كانت تستخدم في العصر

القديم. حينئذ وقع بصر تالي على ورقة مستطيلة صفراء اللون بدت وكأنها دهست بالأقدام، وأحد طرفيها مغطى بلون أسود، تشبه صور السجائر الموجودة بكتب التاريخ التي تحكي عن العصر القديم، فالتقطتها وقربتها من أنفها لتشمها، ولكنها ألقت بها على الأرض حينما نفذت رائحتها العفنة إلى أنفها وكادت أن تتقيأ.

سيجارة؟ بدأت تالي تتذكر، لا بد أن هذا المكان أقدم بكثير من اختراع الروافع، وربما أقدم بكثير من المدينة نفسها، إنه قطعة غريبة من التاريخ طواها النسيان. تساءلت كم جيل من القبحاء ومن صغار الحسان الذين يحبون الحيل والألعاب مثل الأشقياء وطئت أقدامهم هذا المكان قبلها.

كانت المحفظة الجلدية التي أراها كروي إياها معلقة على أحد التروس الصدئة القديمة الموجودة بالمعدات الخاصة بالمصعد، إنها هناك تنتظر.

التقطتها تالي، وبدا ملمس الجلد البالي غريبًا عليها، فهو يذكرها بالملمس الرث للأنسجة التي كان الضبابيون يستخدمونها. فتحت المحفظة الجلدية وسحبت منها ورقة، ثم سمعت صوت شيء ينزلق على الأرض الحجرية، فعرفت أن هناك شيئًا صغيرًا قد وقع من المحفظة، أو بالأحرى شيئين. جثت على ركبتيها وضيقت عينيها وأخذت تتحسس الأحجار الباردة براحتيها اللتين لا تزالان مقيدتين حتى وجدت قرصين أبيضين صغيرين.

حدقت فيهما وهي تشعر بأن أحداث ذكرى ما تكاد تقترب منها.

أظلمت الحجرة فرفعت تالي عينيها، كان زين يقف في مدخل الباب وهو يلهث وعيناه تبرقان في الظلام: «شكرًا لأنكِ انتظرتني يا تالي».

لم تقل تالي أي شيء، فتقدم زين خطوة إلى الأمام وجثا على الأرض بجانبها.

– «هل أنتِ بخير؟» وضع زين يده على كتفها. «لم تصطدم رأسكِ بشيء عندما سقطتِ، أليس كذلك؟».

– «نعم. فقط جعلت تلك السقطة ذهني صافيًا. لقد وجدت هذه.» أعطته تالي الورقة، ففردها بيده ورفعها عاليًا لكي يسقط عليها الضوء الذي يدخل من الباب. كانت الورقة مكتوبة بخط رديء لا يكاد يقرأ.

نظرت تالي إلى القرصين الموجودين في يدها، إنهما يشبهان الأقراص الحارقة للسعرات من حيث لونهما الأبيض وحجمهما الصغير، لكنها على يقين من أن تأثيرهما أكبر بكثير من حرق السعرات الحرارية فقط، فقد تذكرت شيئًا ...

أنزل زين الورقة ببطء، وقد اتسعت عيناه.

– «إنها رسالة، إنها موجهة إليكِ يا تالي.»

– «رسالة؟ من الذي أرسلها.»

– «أنتِ يا تالي.» رددت الجدران المعدنية للكوخ صدى صوته. «إنها مرسلة منكِ.»

الفصل التاسع

رسالة إلى نفسي

عزيزتي تالي أنتِ هي أنا.

أو أظن أن بإمكاننا أن نقول أيضًا إن أنا هي أنتِ — تالي يانج بلود، شخص واحد. ولكن إذا كنتِ تقرئين هذه الرسالة الآن فنحن إذن أيضًا شخصان مختلفان، أو على الأقل هذا ما نظنه، نحن سكان الضباب الجديد، أنه قد حدث بالفعل. لقد تغيرتِ، ولذلك فأنا أكتب إليكِ.

أنا لا أدري هل تتذكرين أنك قد كتبت هذه الكلمات. (إنني في الواقع أملي على شاي ما أريد أن أكتبه، فقد تدربت على الكتابة بخط اليد حينما كانت في المدرسة.) هل تبدو مثل كلمات كتبت على صفحة مذكرات قديمة تعود إلى أيام طفولتك، أم مثل كلمات من مذكرات شخص آخر؟

إذا كنتِ لا تتذكرين كتابة هذه الرسالة على الإطلاق فنحن الاثنتان في مشكلة كبيرة، وخاصة أنا؛ لأنه إذا كانت نفسي لا تتذكرني فهذا يعني أنني أنا — من كتبت تلك الرسالة — لم يعد لي وجود تقريبًا. يا إلهي، وربما يعني ذلك أنني قد أصبحت شبه ميتة، ولذلك، حاولي من فضلك أن تتذكري على الأقل.

توقفت تالي عن القراءة وأخذت تتبع الكلمات المكتوبة على الورقة بإصبعها محاولة أن تتذكر هل أملتها على شاي أم لا. لقد كانت شاي تحب أن تجرب كتابة الكلمات بالأقلام ذات الرءوس المستدقة، فهذه هي إحدى الحيل التي تعلمتها شاي استعدادًا لرحلتها هي وأصدقائها إلى الضباب. لقد تركت لها ورقة مكتوبة تخبرها فيها كيف تتبعها إلى هناك، ولكن هل هذا فعلًا هو خط يد شاي؟

والأهم من ذلك، هل هذه الكلمات حقيقية؟ لم تستطع تالي أن تتذكر أي شيء، تأخذت نفسًا عميقًا وواصلت القراءة ...

ولكن، على أية حال، إليكِ ما أحاول أن أخبركِ به: لقد عبثوا بمخكِ — أقصد «بمخنا» — ولذلك قد تبدو هذه الرسالة غريبة عليكِ.

نحن (وأقصد «نحن» سكان الضباب الجديد الموجودين خارج المدينة، وليس «نحن» أي أنا وأنتِ) لا نعرف بالضبط كيف يحدث ذلك، ولكننا متأكدون من أن «شيئًا ما» يصيب كل من يخضع لعملية التحول. عندما يحولونكِ إلى واحدة من الحسان يحدثون بأنسجة المخ بعض الجروح، وهذا يجعلكِ مختلفة اختلافًا سيئًا. انظري إلى المرآة يا تالي، إذا كنتِ حسناء فهذا يعني أنكِ متأثرة بهذه الجروح.

سمعت تالي صوت شهيق حاد بجانب أذنها، فالتفتت لتجد زين يطل برأسه من فوق كتفها ويقرأ الرسالة. قالت تالي: «يبدو أنك كنت على حق فيما قلته عنا نحن الحسان». أومأ زين برأسه ببطء. «نعم، رائع.»، ثم أشار إلى الفقرة التالية من الرسالة: «ماذا عن هذه الفقرة؟» فحولت تالي نظرها إلى الورقة التي تمسك بها في يديها مرة أخرى.

ولكن هناك خبرًا سارًا، وهو أن هناك دواءً يعالج هذه الحالة، ولذلك أتى ديفيد ليأخذكِ معه حتى يعطيكِ الأقراص التي قد تصلح ما حدث بأنسجة مخكِ. (أنا آمل حقًا أن تتذكري ديفيد.) إنه شاب طيب، حتى إن كان عليه أن يختطفكِ ويأتي بكِ إلى هنا، فعليكِ أن تثقي به. ربما يكون وجودكِ خارج المدينة، أينما يخفيكِ سكان الضباب الجديد، مرعبًا لكِ، ولكن الأشخاص الذين أحدثوا تلك الجروح بمخكِ سوف يبحثون عنكِ، ولذلك يجب أن تكوني في أمان حتى تنتهي من العلاج.

توقفت تالي عن القراءة وقالت: «اختطفني؟».

قال زين: «يبدو أن الخطة قد طرأ عليها تغير بعد كتابتكِ لهذه الرسالة».

شعرت تالي بالحيرة لبرهة، فقد بدت صورة ديفيد واضحة في ذهنها أكثر من أية مرة سابقة. «هب أنني أنا التي كتبت هذه الرسالة، وإذا كانت حقيقية، ولكن كروي هو الذي جاء ليقابلني، وليس ... ديفيد.» بدأت الذكريات تتدافع إلى رأسها،

حينما نطقت باسمه: يداه اللتان طبعت عليهما سنوات العمل خشونة واضحة، وسترته المصنوعة من جلود الحيوانات، والندبة البيضاء في منتصف حاجبه. وبدأت مشاعر الخوف تتصاعد بداخلها. «ماذا حدث لديفيد يا زين؟ لماذا لم يأت؟»

هز زين رأسه: «لا أعرف. هل أنتِ وهو ...؟».

نظرت تالي إلى الرسالة مرة أخرى، واهتزت الكلمات أمام عينيها، ثم سقطت من عينيها عبرة على الورقة وذاب الحبر فيها، فتحولت إلى بقعة سوداء. «أنا متأكدة من أننا كنا كذلك.» كانت تتحدث بصوت أجش، وقد عصفت بها الذكريات. «ولكن شيئًا ما قد حدث.»

– «حقًا؟»

– «أنا لا أعرف ما هو.» تساءلت تالي لماذا لا تستطيع أن تتذكر، هل ذلك حقًا بسبب «الجروح» أو الندوب الموجودة بأنسجة مخها كما أشارت الرسالة؟ أم لأنها ببساطة لا تريد أن تتذكر؟

– «ما هذا الذي تمسكين به في يدك يا تالي؟»

فتحت تالي كفيها اللذين اعتراهما اللون الأحمر جراء الالتهاب لتكشف له عن القرصين الصغيرين الأبيضين: «إنه الدواء. دعني أنتهِ من هذه الرسالة.» أخذت نفسًا لتهدئ من روعها.

يبقى هناك شيء واحد، لقد أخبرتني مادي (والدة ديفيد، وهي التي توصلت إلى هذا الدواء.) أن عليّ أن أضيف جزءًا يحتوي على «استمارة موافقة خطية»:

أصرح أنا، تالي يانج بلود، بموجب هذه الاستمارة إلى مادي وديفيد بأن يعطياني الأقراص التي تعالج الجروح التي أصابت أنسجة مخي أثناء عملية تحويلي إلى واحدة من الحسان. وأنا أدرك أن هذا يعتبر اختبارًا لدواء لم يصرح به بعد، وربما ينتج عن ذلك مضاعفات خطيرة، ربما تصل إلى موت أنسجة المخ الخاصة بي.

أنا آسفة بشأن هذه الجملة الأخيرة، ولكن هذه هي المخاطرة التي علينا أن نخوضها، ومن أجل هذا ضحيت بنفسي وقررت أن أصبح من الحسان، حتى نتمكن من اختبار الدواء، وننقذ بيريس وشاي وأي شخص آخر في هذا العالم عبثوا بمخه.

لذلك، عليكِ أن تتناولي الأقراص المعالجة، من أجلي، أنا أعتذر مقدمًا إذا كان ديفيد ومادي قد أجبراكِ على تناولها رغمًا عنكِ. سوف تصبحين أفضل، أنا أعدكِ بذلك.

حظ سعيد،

مع أرق مشاعري،

تالي

أسقطت تالي الورقة في حجرها، فقد شعرت أن الكلمات المنقوشة عليها قد ابتلعت الصفاء والوضوح من العالم حولها، وعاد الدوار إلى رأسها مرة أخرى وصار ذهنها مشتتًا، وقلبها لا يزال يدق بعنف، ولكن ليس بشكل جيد (دون أن تبعث دقاته المتسارعة بداخلها اليقظة والانتباه) كما كان يدق حينما نجت بنفسها قبل أن تصطدم بالأرض عندما سقطت من البرج. كان شعورها أقرب إلى الخوف، وكأنها محتجزة داخل ذلك الكوخ المعدني الصغير.

أطلق زين صوتًا خافتًا من فمه: «لذلك عدت مرة أخرى؟».

– «أنت تصدق هذه الرسالة، أليس كذلك؟»

لمعت عيناه الذهبيتان في الظلام. «بالطبع. كل شيء يبدو منطقيًا الآن. لماذا لا تستطيعين أن تتذكري ديفيد أو العودة مرة أخرى إلى المدينة؟ ولماذا كانت حكايات شاي عن هذه الأيام كثيرة ومتضاربة؟ ولماذا يهتم سكان الضباب الجديد بكِ إلى هذا الحد؟»

– «لأن أنسجة مخي قد أصيبت؟!»

هز زين رأسه: «إننا جميعًا نعاني يا تالي إصابات تلف بأنسجة المخ مثلما توقعت تمامًا. ولكنكِ ضحيتِ بنفسكِ من أجل هدف محدد، لأنكِ كنتِ تعرفين أن هناك دواءً يعالج تلك الحالة». أشار زين إلى القرصين اللذين تمسك بهما في يدها: «هذا هو السبب الذي جعلكِ تأتين إلى هنا».

حدقت تالي في القرصين اللذين بدوا صغيرين في عتمة الكوخ ولا وزن لهما: «ولكن الرسالة تقول إن هذا الدواء قد لا ينجح، وقد ينتهي الأمر بموت أنسجة مخي ...»

أمسك زين برسغها برفق وقال: «إذا كنتِ لا تودين أن تتناوليهما يا تالي، فأنا أود ذلك».

أطبقت تالي بيدها على القرصين وقالت: «لا أستطيع أن أسمح لك بذلك».

– «ولكن هذا هو ما كنت أنتظره، طريقة لأهرب بها من الحسن، وأبقى متيقظًا وقادرًا على التفكير بوضوح طوال الوقت!»

صاحت: «لم أكن أنا أنتظر ذلك، كل ما أردته هو أن أصبح واحدة من الأشقياء!»

أشار زين إلى الرسالة وقال: «لا، بل أردتِ ذلك».

– «لم أكن أنا، هي التي تقول ذلك.»

– «ولكنك ...»

– «ربما أكون قد غيرت فكري!»

– «لا لم تغيري فكرك، ولكن العملية هي التي غيرته».

فتحت تالي فمها ولكن دون أن تنطق بكلمة واحدة.

– «تالي، لقد كنتِ تعلمين أن هناك خطورة من تناول هذا الدواء عندما قررتِ أن تضحي بنفسك، وهذا دليل على أنك شجاعة للغاية.» رفع زين يديه وتحسس وجهها، كانت عيناه تبرقان في شعاع الشمس الذي انعكس على وجهه. «ولكن إذا لم تكوني ترغبين في ذلك فدعيني أخض المغامرة نيابة عنك».

هزت تالي رأسها، وتساءلت عن أي شيء تخاف أكثر، من خطورة تأثير القرصين عليها أم من احتمالية أن يتحول زين إلى شخص بلا عقل إذا تحمل المخاطرة نيابة عنها، أو ربما تكون خائفة فعلًا من أن تكتشف ماذا حدث لديفيد. يا ليت كروي كان قد تركها وشأنها، ويا ليتها لم تعثر على فالانتينو ٣١٧. ماذا لو كان بإمكانها أن تنسى شأن القرصين وتبقى جميلة وخرقاء، لم يكن ليقلقها أي شيء من هذا مرة أخرى. «أنا أريد فقط أن أنسى ديفيد.»

– «لماذا؟» انحنى زين ليقترب منها. «ماذا فعل بكِ؟»

– «لا شيء، لم يفعل شيئًا. ولكن لماذا أتى كروي ليترك لي هذين القرصين بدلًا من ديفيد الذي كان من المفترض أن يأتي ويأخذني معه؟ ماذا لو كان هو ...»

اهتز الكوخ لحظة، فسكتت تالي ونظر كلاهما إلى أعلى، هناك شيء ضخم يمر فوقهما.

همست تالي: «عربة طائرة ...».

– «ربما لا تكون إلا عربة مارة من فوقنا، فنحن على حد علمهم في حديقة المتعة الآن.»

– «إلا إذا رآنا أحد ونحن نصعد إلى أعلى ....» سكتت تالي حينما رأت سحابة من الغبار تتسرب إلى الداخل من خلال الباب نصف المفتوح، وتلمع في شعاع الشمس الذي يضيء الكوخ. «إنها تهبط.»

قال زين: «إنهم يعرفون أننا هنا»، وبدأ يمزق الرسالة.

– «ماذا تفعل؟»

قال زين: «لا يمكن أن ندعهم يعثرون على هذه، لا يجب أن يعرفوا بوجود الدواء»، ملأ زين فمه بقصاصة الورقة التي كتبت عليها الرسالة، فانكمشت عضلات وجهه من مذاق الحبر والورق.

نظرت تالي إلى القرصين اللذين في يدها. «ماذا عن هذين؟»

ابتلع زين القصاصة وعلى وجهه أمارات الامتعاض، وقال: «عليّ أن أتناولهما الآن». اقتطع زين قطعة أخرى من الورقة بأسنانه وبدأ يمضغها.

– «إنهما صغيران للغاية، بإمكاننا أن نخفيهما.»

هز زين رأسه وهو يبتلع قصاصة الورق ثم قال: «عندما يمسكون بنا سيتضح لهم أننا لا نرتدي خاتمي الاتصال الخاصين بنا، وسوف يرغبون في أن يعرفوا ما الحيلة التي كنا نرتب لها. وفور أن يدخل بعض الطعام إلى جوفكِ لن تكوني متيقظة ومنتبهة كما أنت الآن، وربما يتملككِ الرعب وتسلميهم القرصين».

سمعا وقع أقدام آتية من السطح نحوهما فدفع زين الباب إلى الأمام حتى كاد ينغلق، وسحب أطراف السلسلة المعدنية إلى الداخل، وضغط على القضيب المعدني، فانغلق القفل وساد الظلام الحجرة. «لن يبقيهم هذا بالخارج طويلًا، أعطيني القرصين، وإذا نجح تأثيرهما فأنا أعدك أن أتأكد من أنكِ ....»

سمعا صوتًا آتيًا من الخارج، وشعرت تالي بأن أطرافها تجمدت من الرعب، الصوت حادّ مثل السكين. لم يكن الحراس هم من بالخارج، ذلك صوت أحد عملاء السلطات الخاصة.

كان قرصا الدواء يحدقان فيها وسط الظلام الذي خيم على الكوخ وكأنهما عينان مبيضتان لا حياة فيهما. كانت تالي متأكدة، إلى حد ما، من أن تلك الكلمات المكتوبة في الرسالة التي ترجاها أن تتناول القرصين هي كلماتها. ربما لو فعلت سيبقى كل شيء واضحًا ومفهومًا طوال الوقت، مثلما قال زين.

أو ربما يفشل العلاج وتتحول تالي إلى جسد أجوف بعد أن تموت أنسجة مخها.

أو ربما يكون ديفيد هو الذي مات، تساءلت تالي هل سيتذكر شيءٌ بداخلها وجه ديفيد بعد اليوم، ومهما يكن ما ستفعله فلن تتمكن من معرفة الحقيقة إلا إذا تناولت القرصين.

بدأت تالي تقربهما من فمها، ولكنها وجدت نفسها عاجزة عن أن تضعهما بداخله، فقد تخيلت أنسجة مخها وهي تتحلل، وتخيلت نفسها وقد أصبحت كائنًا بلا وجود مثل تالي الأخرى التي كتبت الرسالة. نظرت تالي إلى عيني زين الجميلتين اللتين ملأهما التوسل، لم يكن لدى زين، على الأقل، أي شكوك.

ربما كان عليها ألا تفعل ذلك وحدها ...

أطلق الباب صريرًا عاليًا، أحدهم يحاول أن يجذبه إلى الخارج لينفتح، فشدت السلسلة المعدنية عن آخرها محدثة صوتًا حادًا، ثم ضُرب الباب ضربة عنيفة من الخارج، دوى صوتها في أرجاء الكوخ المعدني الصغير مثل الألعاب النارية: إن عملاء السلطات الخاصة يتمتعون ببنية قوية، ولكن هل بإمكانهم أن يسقطوا بابًا معدنيًا؟

همس زين: «الآن يا تالي».

– «لا أستطيع».

– «إذن، أعطيني القرصين».

هزت تالي رأسها وانحنت لتقترب منه، وهمست له مستغلة الضربات المدوية التي تعصف بالباب كغطاء لصوتها حتى لا يسمعها من بالخارج: «لا يمكنني أن أفعل ذلك بك يا زين، ولا يمكنني أن أفعله وحدي، ربما إذا تناول كل منا واحدًا ...».

– «ماذا؟ هذا جنون، إننا لا نعرف كيف سوف ...»

– «إننا لا نعرف أي شيء يا زين».

توقفت الضربات التي تعصف بالباب، فأشارت تالي إلى زين الذي هم بأن يجيبها لكي تصمت، فعملاء السلطات الخاصة لا يتمتعون فقط بالقوة والسرعة، ولكنهم يتمتعون أيضًا بقدرة حادة على السمع تضاهي الحيوانات الضارية.

فجأة تدفق ضوء ساطع من خلال فتحة الباب إلى الحجرة ملقيًا بظلال وحشية داخل الكابينة، وتأثرت رؤية تالي بذلك الضوء المفاجئ. أصدرت آلة القطع صفيرًا وهي تذيب السلسلة المعدنية لتفصل بين حلقاتها، واشتم زين وتالي رائحة المعدن المنصهر، ثوان قليلة ويقتحم عملاء السلطات الخاصة الكوخ.

همست تالي، وهي تعطي زين أحد القرصين: «هيا معًا». أخذت نفسًا عميقًا، ووضعت القرص الآخر على لسانها، شعرت فجأة بمرارة في فمها كله وكأنها قد قضمت بأسنانها بذرة عنب لاذعة، ابتلعت القرص فامتد طعمه اللاذع إلى حلقها.

وقالت بصوت خافت مفعم بالتوسل: «من فضلك، افعل ذلك من أجلي».

تناول زين القرص، وتقلصت قسمات وجهه حينما شعر بمذاقه المر، ثم حدق فيها وهز رأسه قائلًا: «ربما كان هذا تصرفًا أحمق للغاية يا تالي».

حاولت تالي أن تبتسم وهي ترد عليه: «على الأقل، تصرفنا بحماقة ونحن معًا»، ثم انحنت إلى الأمام، وأمسكت بعنقه من الخلف وقبلته. لم يأت ديفيد لكي ينقذها. ربما يكون قد مات، أو لا بد أنه لا يهتم بما حدث لها، فهو قبيح، وزين جميل ويقظ وهو الآن بجانبها. قالت تالي: «يحتاج كل منا إلى الآخر الآن».

اقتحمت السلطات الخاصة الكوخ وكل منهما يقبل الآخر.

الجزء الثاني

الدواء

«... ومن ينعم بالقبلات أسعد حظًا ممن ينعم بالحكمة.»

إي إي كامينجز

من قصيدة «ما دامت المشاعر

تأتي في المقام الأول»

الفصل العاشر

اختراق

كانت الليلة الفائتة هي أول ليلة يتساقط فيها الصقيع في ذلك الشتاء، فسطعت الأشجار وكأنها أسطح زجاجية، وتدلت عناقيد الثلج المدببة من الأغصان الجرداء، وبدت السماء من وراء الخطوط السوداء البراقة التي امتدت بمحاذاة النافذة مقسمة إلى مقاطع صغيرة للغاية.

وضعت تالي يدها على زجاج النافذة، لكي تتسرب برودته إلى راحتها، برودة الجو منعشة، ولكنها جعلت ضوء الأصيل أكثر حدة، صلب وهش تمامًا مثلما تخيلت عناقيد الثلج المتدلية من الأشجار بالخارج، لا يزال جانب من تفكيرها يرغب في الاستسلام إلى أحلام الجمال، وأشعة الأصيل الحادة تعمل على تركيزه.

رفعت تالي يدها من فوق زجاج النافذة، فخلفت راحتها علامة باهتة على الزجاج، بدأت تخبو شيئًا فشيئًا حتى اختفت.

قالت شاي: «وداعًا أيها الضباب، فتالي لن تستسلم لك بعد اليوم». ابتسمت تالي ابتسامة عريضة واضعة راحتها الباردة على وجنة زين.

تمتم زين وهو يتقلب ليزيح عنه يدها: «ماذا ...»

– «استيقظ أيها الفتى الوسيم».

فتح زين عينيه قليلًا، وقال لسوار الاتصال الخاص به: «اجعل الغرفة مظلمة». لبت الغرفة الأمر الصادر إليها، وبدأ زجاج النافذة الشفاف يتحول إلى زجاج معتم.

قطبت تالي جبينها وهي تسأله: «أهو الصداع مرة أخرى؟»، فزين لا يزال يعاني بعض آلام الصداع النصفي الشديدة التي تفقده وعيه ساعات، ولكنها لم تكن بمثل سوء الآلام التي كانت تداهمه في الأسابيع الأولى بعد أن تناول القرص.

همهم زين: «لا، فقط أشعر بالنعاس».

رفعت تالي يدها وضغطت على أجهزة التحكم اليدوي، وضبطتها بحيث يصبح زجاج النافذة شفافًا مرة أخرى. «إذن، فقد حان الوقت لكي تستيقظ، سوف نتأخر عن ميعاد التزحلق على الجليد».

نظر إليها وهو يضيق إحدى عينيه وقال: «التزحلق على الجليد أمر سخيف».

- «النوم هو السخيف. لتنهض ولتكن متيقظًا ومنتبهًا».

- «الاستيقاظ هو السخف».

رفعت تالي حاجبها، لم يعد يؤلمها الآن، فجمالها الآن تام كامل، فقد أصلحت ما حدث بجبهتها، ولكنها وضعت وشمًا مكان الندبة التي كانت موجودة بجبهتها لكي تتذكرها دائمًا؛ وكان هناك دوامات سوداء تدور فوق عينيها بالتزامن مع ضربات قلبها. وبالإضافة إلى ذلك أيضًا فقد حصلت على جراحة تجميلية بعينيها مثل تلك التي حصلت عليها شاي: حبات جواهر تظهر الوقت وتعمل في عكس اتجاه عقارب الساعة.

«إن اليقظة ليست شيئًا سخيفًا، أيها الكسول» وضعت تالي يدها على النافذة مرة أخرى لتشحنها بالبرودة، ولمع سوار الاتصال الخاص بها في ضوء الشمس مثل الأشجار المتجمدة الموجودة بأسفل، وللمرة المليون تبحث تالي عن أية وصلة على السطح المعدني للسوار، ولكنه بدا وكأنه قد شكل من قطعة معدنية واحدة منطبقة تمامًا مع معصمها البيضاوي. جذبتها بإحكام وأخذت تتحسس الفراغ الصغير ما بين معصمها والسوار، إن جسدها يصبح أكثر نحافة مع كل يوم يمر عليها. قالت تالي لسوارها برقة: «القهوة، لو سمحت».

امتلأت أرجاء الغرفة برائحة القهوة الساخنة، فتحرك زين في فراشه مرة أخرى. وعندما أصبحت يد تالي باردة بما يكفي وضعتها على صدر زين العاري. رجع زين إلى الوراء فجأة، ولكنه لم يقاومها، فكل ما فعله هو أنه قبض بيديه على ملاءة الفراش وتنفس بعمق حتى إن جسده ارتعد، ثم فتح عينيه، لتلمع حدقتاه الذهبيتان مثل شمس الشتاء البارد. «حسنًا، لقد جعلك ذلك متيقظًا».

- «لقد حسبت أن اليقظة شيء سخيف».

ابتسم زين وهز كتفيه والنعاس يبدو عليه.

ردت تالي عليه بابتسامة، فقد أصبح زين فائق الوسامة عندما استيقظ من نومه لأول مرة. فقد خفف النوم من نظرته المشحونة بالانفعالات، تاركًا آثار الضعف

والوهن على ملامحه الحادة، بدا مثل صبي جائع ضل طريقه. لم تذكر له تالي بالطبع هذه الحقيقة من قبل، فلو عرفها فربما يسعى للحصول على جراحة تجميلية لإصلاح تلك الملامح.

في طريقها إلى ماكينة صنع القهوة تعثرت تالي في أكوام الملابس التي تنتظر إعادة التدوير وأطنان الأطباق المتسخة التي تناثرت فوق كل شبر على أرضية الغرفة. وكالعادة، غرفة زين غارقة في الفوضى فقد أطلت الملابس المكدسة من خزانته نصف المفتوحة، وكم من السهل إخفاء أي شيء في غرفة مثل تلك.

وبينما كانت تالي تحتسي قهوتها طلبت من الكوة الذكية أن تصنع لهما اثنين من طاقم التزلج الذي أراد كل منهما ارتداءه: سترة بلاستيكية ثقيلة مبطنة بفرو الأرنب الصناعي، وبنطلون مزود بوسائد واقية للركبة حتى لا يصابا إذا سقطا أثناء التزلج، وكوفية سوداء، والأهم من هذا كله زوج من القفازات الثقيلة التي تصل إلى منتصف الذراع. وفي أثناء قذف الكوة الذكية بالملابس أعطت تالي زين فنجانًا من القهوة ساعده أخيرًا على أن يفيق.

لم يتناول زين وتالي الإفطار — طوال الشهر الماضي بأكمله؛ فلم تكن تلك الوجبة مدرجة على قائمة طعامهما — ونزلا إلى داخل المصعد الذي هبط بهما إلى الباب الرئيسي لقصر بولشر، وهما يتحدثان لغة الحسان بفصاحة طوال الطريق.

– «هل رأيت الصقيع يا زين-لا؟ لقد صنع طبقة كثيفة من الثلج».

– «إن الشتاء لذيذ للغاية».

– «للغاية. والصيف حقًا شديد ... لا أعرف. التدفئة أو شيء من هذا القبيل».

– «تمامًا».

ابتسما بلطف عندما مرَّا بمشرف الباب الرئيسي، وخرجا إلى برودة الجو. توقف زين وتالي للحظة عند سلم الباب الرئيسي، وناولت تالي زين فنجان قهوتها، وجذبت قفازيها إلى أعلى مدخلة إياهما تحت كميها، حتى يكون سوار الاتصال المثبت على ذراعها الأيسر مغطى بطبقتين من الملابس، ثم لفت هذا الذراع بكوفيتها السوداء حتى تحكم الغطاء جيدًا حول السوار، ثم تناولت الفنجانين من زين، وأخذت تشاهد البخار المتصاعد من الفنجانين الممتلئين بالقهوة السوداء التي يتعرج سطحها ويلتوي في الهواء بينما كان زين يشد قفازيه بالطريقة نفسها التي قامت بها تالي.

وعندما انتهى زين مما كان يفعله تحدثت تالي إليه بنبرة ليست شديدة: «لقد ظننت أنه من المفترض أن نتصرف بطريقة طبيعية اليوم».

- «أنا أتصرف بطريقة طبيعية».
- «هيا أيها الفتى، الاستيقاظ هو السخف؟».
- «ماذا؟ هل بالغت في ذلك؟».

هزت رأسها وقهقهت وجذبته تجاه حلية التزلج المعلقة.

مر شهر منذ أن تناول زين وتالي القرصين، ولم تمت أنسجة مخ أحدهما بعد. ولكن الساعات الأولى كانت سخيفة للغاية، فقد ظل عملاء السلطات الخاصة يفتشونهما ويفتشون فالانتينو ٣١٧ بجنون، وكانوا يضعون كل شيء يعثرون عليه في أكياس بلاستيكية. وكان قد وجها إليهما أطنانًا من الأسئلة بأصواتهم المزعجة. كانوا يحاولون أن يعرفوا ما الذي يدفع فتى وفتاة من الحسان الجدد إلى تسلق برج الإرسال. حاولت تالي أن تخبرهم أنهما كانا يريدان الاختلاء أحدهما بالآخر، ولكن لم يفلح أي تفسير قدمته في إرضاء السلطات الخاصة.

في النهاية ظهر بعض الحراس وبحوزتهم خاتما الاتصال اللذان تركهما زين وتالي في الحديقة، كانوا يحملون أيضًا بخاخًا علاجيًا من أجل راحتي تالي الملتهبتين وكعك المافين. تناولت تالي إفطارها الذي تأخر كثيرًا مثل كلب شره، حتى فقدت كل يقظتها وانتباهها، وبعدها ابتسمت في حسن وطلبت منهم أن يأخذوها إلى المستشفى لكي يُجرى لها عملية تجميل تخفي آثار الندبة التي أصابتها ليلة أمس. وبعد مرور حوالي ساعة أخرى ملأها الشعور بالملل. وسمح عملاء السلطات الخاصة للحراس بأن يأخذوا تالي إلى المستشفى، وبصحبتها زين.

لم يحدث أي شيء آخر، فيما عدا ما يتعلق بسواري الاتصال. لقد ثبت الأطباء واحدًا حول معصم تالي أثناء عملية التجميل التي خضعت لها من أجل إصلاح الندبة الموجودة فوق حاجبها، أما زين فقد استيقظ في اليوم التالي ليجد نفسه مرتديًا السوار الآخر. يعمل هذان السواران مثل خاتمي الاتصال بالضبط، فيما عدا قدرتهما على إرسال الرسائل الصوتية من أي مكان، مثل الهاتف اليدوي. وهذا يعني أن سوار الاتصال يمكن أن يستمع إلى حديث من يرتديه أثناء وجوده خارج المباني الذكية. وعلى عكس خاتم الاتصال لا يمكن خلع هذا السوار، فهو طوق معدني مقفل بسلسلة غير مرئية. لقد حاول زين وتالي عبثًا أن يفتحا سواريهما، ولكن لم تفلح أي من الأدوات التي استخدماها في ذلك.

على عكس كل التوقعات صار السواران إحدى علامات الموضة لذلك الموسم، فعندما رآهما أعضاء جماعة الأشقياء الآخرون، لم يستطع زين أن يفعل شيئًا لكي يمنعهم من طلب تصريح بتصنيع أساور خاصة بهم، سوى أنه طلب من الكوة الذكية أن تصنع مجموعة من الأساور المقلدة التي لا تعمل مثل الحقيقية، ووزعها عليهم. وعلى مدار الأسابيع القليلة التي تلت ذلك انتشر الخبر بأن الأساور من العلامات التي تميز الأشقياء، وتدل على أنك تسلقت برج الإرسال الموجود أعلى قصر فالانتينو. فقد اتضح أن مئات من الحسان الجدد شاهدوا زين وتالي وهما يتسلقان البرج وكانوا يبعثون بالرسائل بعضهم إلى بعض، لكي يطل من هم داخل القصور من نوافذهم ويشاهدوا هذا المشهد المثير. وفي خلال أسابيع قليلة كان ينظر لأشخاص الذين لا يرتدون أي نوع من الأساور المعدنية المثبتة حول المعصم على أنهم لا يسايرون الموضة، وكذلك استلزم الأمر أيضًا تركيب أجهزة إشراف إلكترونية لإبعاد الحسان الجدد عن البرج.

أصبح الناس الآن يشيرون بالبنان إلى زين وتالي عندما يرتادان الأماكن العامة، بالإضافة إلى أن عدد الراغبين في الانضمام إلى الأشقياء يزداد كل يوم، وكأن الجميع يودون أن يصبحوا رائعين وجذابين مثل الأشقياء.

كانت تالي تشعر بالقلق بشأن هذا الاختراق، ولكنها لم تتحدث كثيرًا مع زين في هذا الأمر وهما في طريقهما إلى حلبة التزلج. فمع أن سواري زين وتالي لا يمكن أن يسمعا أي شيء وهما ملفوفان جيدًا في الملابس الشتوية الثقيلة، فقد أصبح الصمت رفيقهما الجديد الذي بدأ يلازمهما في كل مكان يذهبان إليه.

بدأت تالي تتعود على طرق مختلفة للتواصل كأن تغمز بعينيها أو تديرهما تعجبًا أو غضبًا، أو تحرك شفتيها بالكلمات في صمت. فالعيش وسط مؤامرة تحاك في صمت، جعل كل إيماءة محملة بدلالات مهمة، وملأ كل لمسة يتقاسمانها بمعانٍ غير منطوقة.

أمسك زين بيد تالي، وهما بداخل المصعد الزجاجي الذي صعد بهما إلى اللوح الجليدي المعلق والذي يطل على الملعب الداخلي الكبير لإستاد نفرتيتي، وقد لمعت عينا زين كدأبه قبل قيامه بإحدى الحيل المفاجئة وغير المتوقعة التي تطيح بالقواعد، مثل قذف كرات الثلج أثناء الاختباء فوق سطح قصر بولشر. لقد جاءت نظرة زين

مليئة بالمرح تلك في وقتها، فقد هدأت من أعصاب تالي قليلًا، فمن المهم ألا يراها الأشقياء الآخرون وهي متوترة.

كان أغلبهم قد وصل هناك، وكانوا يخلعون أحذيتهم ليرتدوا أحذية التزلج، ويجربون السترات المطاطية حتى يجد كل منهم السترة التي تناسب قياسه الصحيح. وكان هناك عدد قليل من الأشخاص الذين انضموا حديثًا إلى الأشقياء يقومون بالإحماء، فكعوب أقدامهم تتأرجح فوق السطح الجليدي المعلق، وتنبعث من أحذية التزلج الخاصة بهم أصوات تشبه أصوات أجهزة الإشراف الخاصة بالمكتبة حينما تحاول إسكات الموجودين بقاعات القراءة.

أخذت شاي تتزلج فوق الجليد متجهة نحو تالي لكي تحتضنها، ولكنها توقفت حينما اصطدمت بها. «مرحبًا، أيتها النحيفة.»

ردت تالي عليها مقلدة إياها وهي تقهقه: «مرحبًا يا حولاء». لقد عاد استخدام الأسماء الخاصة بأيام القبح لسابق عهده كأسلوب يساير الموضة، ولكن شاي وتالي تبادلتا اسميهما القديمين لأن تالي أصبحت تفقد وزنها الآن، ولم تكن سعيدة بامتناعها عن الطعام، ولكنها تأمل في أن تصبح في النهاية نحيفة بما يكفي لكي تخلع السوار من معصمها.

رأت تالي كوفية سوداء ملفوفة حول ذراع شاي، لقد فعلت شاي ذلك كنوع من التضامن معها، وهي تتباهى أيضًا بالوشم المرسوم فوق حاجبها، الذي يشبه الوشم الذي رسمته تالي، وهو مجموعة من الثعابين تتلوى حول حاجبها حتى تصل إلى خدها. وقد وضع معظم الأشقياء الوشم الذي يتحرك مع ضربات القلب على وجوههم، فبنظرة واحدة يمكن معرفة حال يقظتهم وانتباههم. وهناك تصاعدت أعمدة كثيفة من البخار من الأكواب المزودة بسخانات ذاتية، مكونة غيمة بخارية فوق رءوس ذلك الحشد من الأشقياء، ويدور الوشم فوق وجوه الجميع.

أثار ظهور تالي وزين ذلك الحشد الكبير وارتفعت الأصوات بعبارات التحية التي انهالت عليهما فور أن رآهما الباقون. اتجه بيريس، الذي يرتدي سترة مطاطية، نحو تالي متزلجًا وهو يحمل حذاء التزلج الذي اعتادت أن ترتديه.

قالت تالي وهي تخلع حذاءها جالسة فوق الثلج: «شكرًا، يا صاحب الأنف الكبير». ولم يكن مسموحًا بارتداء أحذية التزلج الطائرة هنا في حلبة التزلج، فالأنصال المعدنية الحقيقية المثبتة بنعال الأحذية تلمع في ضوء شمس الشتاء مثل الخناجر. سألت تالي بيريس وهي تعقد رباط حذائها: «هل أحضرت زجاجتك؟».

أخرج بيريس الزجاجة وقال: «فودكا مركزة».

– «إنها ذات قدرة فائقة على الإذابة.» لم يعد زين وتالي يشربان الكحول؛ فلقد اتضح لهما أن ذلك يساعد على الإبقاء على الضباب الذي يحيط بعقول الحسان أكثر من مساعدته على التيقظ أو التفكير بوضوح، ولكن المشروبات الكحولية القوية لها استخدامات أخرى هنا وسط الجليد.

بسطت تالي يديها المغلفتين بزوج من القفازات، وجذبها بيريس إلى أعلى، فدفعتهما قوة تلك الجذبة إلى الانزلاق على الجليد في حركات تشبه رقصة الفالس، وقهقه الاثنان، وأحدهما يستند على الآخر لكي يستعيدا توازنهما.

قال بيريس: «لا تنسي سترتك يا نحيفة».

أخذتها تالي منه وربطت الأحزمة: «ذلك سيكون سخيفًا، أليس كذلك؟».

أومأ بيريس برأسه بحركة متوترة.

سألته تالي بصوت يكاد يقترب من الهمس: «هل وصلت أية رسالة من أصدقائنا الموجودين على الضفة الأخرى للنهر؟»

– «لا، لم يبعثوا حتى برسالة واحدة، إنهم شاردو الذهن تمامًا».

قطبت تالي جبينها، لقد مر شهر على زيارة كروي للمدينة، ولم يظهر أي أحد من سكان الضباب الجديد منذ ذلك الوقت، إن هذا الصمت ينذر بالسوء، إلا إذا كان ذلك أحد اختباراتهم المزعجة. أيًا كان معنى هذا الصمت فتالي تتوق إلى البحث عنهم بنفسها فور أن تتخلص من ذلك السوار السخيف. «ما أخبار محاولات التحايل على نظام التحكم باللوح الطائر التي يقوم بها فاوستو؟»

هز بيريس كتفيه، وهو يحول نظره وانتباهه إلى الأشقياء الذين يتدافعون إلى حلبة التزلج وهم يضحكون ويصرخون ويشقون طريقهم بين آلات تسوية الجليد الصغيرة التي تناثرت عبر أرجاء الحلبة لتجلو الجليد.

تفحصت تالي الوشم المرسوم على جبهة بيريس، إنه عين ثالثة ترمش كلما دق قلبه، ونظرت إلى عينيه الأخاذتين البنيتين الصافيتين فبدتا بلا أعماق. يبدو بيريس أكثر انتباهًا وتيقظًا من شهر مضى، الأشقياء جميعهم بدوا كذلك، ولكن تالي لم تعد تلحظ تحسنًا في حالته من يوم إلى آخر. لقد كان هذا الأمر أكثر صعوبة لبقية الأشقياء الذين لم يتناولوا القرصين اللذين تناولهما زين وتالي، فقد أخذ كل منهما نصف العلاج. كان من الممكن أن تثار مشاعرهم، ولكن الحفاظ على تركيزهم الذهني كان أمرًا صعبًا.

لا بأس، فهذا الاختراق سوف يسبب لهم صدمة ذهنية تساعدهم على الانتباه.

«لا بأس يا صاحب الأنف الكبير، هيا لنتزلج.» انطلقت تالي وهي تستند على سطح أحد الأنصال المعدنية لحذائها، وازدادت سرعتها وهي تلف بسرعة حول الحافة الخارجية لحلبة التزلج، نظرت إلى أسفل من خلال لوح الجليد الشفاف تحت قدميها الذي تناثرت عليه حبات الثلج.

من السهل رؤية الروافع المعلقة التي تمسك بالحلبة المعلقة عاليًا في الهواء، كانت هذه الروافع مرتبة داخل شبكة بحيث تفصل بين كل رافع وآخر بضعة أمتار، وقد انبعثت خطوط مبردة رفيعة تشبه أشعة الشمس من تلك الشبكة، وظهر لها من بعيد الإستاد الرياضي الفسيح بيضاوي الشكل، وتبدو صورته باهتة مثل صورة العالم في عين الحسان الذين يلف الضباب عقولهم.

بدأت أنوار الإستاد تضاء استعدادًا لمباراة الكرة التي من المقرر أن تبدأ بعد خمس وأربعين دقيقة، وحسبما هو معتاد ستُطلق الألعاب النارية قبل بدء المباراة، فور أن يجلس المتفرجون في مقاعدهم، وهو أمر في غاية البهاء.

أعلاها كانت السماء بساطًا أزرق ممتدًا لا يقطعه سوى قليل من بالونات الهواء الساخن المشدودة بحبال مثبتة في أكثر أبراج الاحتفالات ارتفاعًا في المدينة، فعندما شهد الفضاء ولادة حلبة التزلج المعلقة تلك كانت أعلى شيء في مدينة الحسان الجدد، فعلى امتداد البصر تظهر المدينة بأكملها أمام تالي أسفل حلبة التزلج.

أخذت تالي تتزلج وهي تتبع زين، حتى لحقت به وهو يستدير خلفه: «هل ترى أن الجميع يبدو عليهم التيقظ والانتباه؟».

– «إنهم متوترون أكثر»، ارتد زين إلى الوراء بحركات رشيقة، وهو يمارس التزلج إلى الخلف بسهولة مثلما يدخل الهواء إلى رئتيه أو يزفره خارجهما، لقد تحررت عضلاته، التي زادت العملية من حجم كتلتها، من الخوف والكسل الذي يسيطر على تفكير الحسان، بإمكانه الآن أن يقف على يديه وقدماه إلى أعلى دون أن يرتعش جسده، ويتسلق الجدار الخارجي لقصر بولشر ويصل إلى نافذة حجرته في ثوانٍ، ويستطيع أيضًا أن يسبق القطار المعلق الذي ينقل المسنين من الحسان من ضواحي المدينة إلى المستشفى المركزي، دون أن يشعر أبدًا بالتعب من ذلك المجهود، وبإمكانه أيضًا أن يحبس أنفاسه دقيقتين كاملتين.

ذكرتها بطولات زين بفرقة الحراس التي أنقذها أفرادها من إحدى الحرائق الكبيرة التي اندلعت في الأدغال أثناء رحلتها إلى منطقة الضباب، فيثق زين بقدراته

الجسدية مثلهم تمامًا، إنه سريع وقويّ، ولكن بدون تلك الحركات المتشنجة التي تميز عملاء السلطات الخاصة وتجعلهم أبعد ما يكونون عن البشر.

لم تكن عضلات تالي أو قوتها واهنتين، ولكن الدواء حمل قوة زين وقدرته على التنسيق بين حركات جسده المختلفة إلى مستوى آخر جديد، وهي تحب التزلج على الجليد معه، والالتفاف في دوائر حول الآخرين، والتحرك برشاقة وسط أحذية التزلج وأنصالها اللامعة التي تدور في دوامات متعددة الأشكال والتكوينات داخل الحلبة مما يجعلها محط اهتمام الآخرين من الأشقياء.

سألها زين بصوت لا يكاد يُسمع فوق خشخشة أحذية التزلج: «هل وصلت أية رسالة من الضباب الجديد؟».

– «يقول بيريس إنه لا توجد أية رسالة».

بدا الضيق الشديد على زين الذي استدار، فتناثر الثلج نتيجة احتكاك حذائه بلوح الجليد على واحد من الحسان غير المنضمين إلى الأشقياء كان يحاول بصعوبة شديدة أن يتزلج بمحاذاة جانب من جوانب الحلبة.

لحقت تالي به وقالت: «علينا أن نتحلى بالصبر يا زين، سوف نتخلص من هذين».

– «لقد تعبت من الصبر يا تالي». نظر زين إلى أسفل من خلال لوح الجليد، حيث كان الإستاد يعج بالمتفرجين الذين تتزايد أعدادهم في انتظار بدء المباراة الأولى من النهائيات ما بين فرق المدينة المختلفة. «كم هو الوقت المتبقي؟»

قالت تالي: «في أية دقيقة بدءًا من الآن».

ما إن انتهت تالي من كلماتها حتى انطلقت أولى الألعاب النارية محولة حلبة التزلج إلى لوحة ألوان يتناثر عليها اللونان الأحمر والأزرق بدرجاتهما، وبعد لحظة دوى انفجار آخر للألعاب النارية التي تصاعدت أصداؤها باتجاه حلبة التزلج، وأعقبه هتافات الإعجاب التي أطلقها الجمهور المحتشد بالإستاد.

قال زين بابتسامة عريضة مرتسمة على وجهه أطاحت بالضيق الذي كان يسيطر عليه: «لننطلق».

ضغطت تالي على يديه، ثم تركته يتزلج مبتعدًا عنها، وأخذت تتزلج حتى وصلت إلى مركز الحلبة، وهو أبعد نقطة عن بنية الشبكة المعلقة حول الجليد، رفعت تالي يدها وانتظرت حتى يتجمع الأشقياء حولها في دائرة ضيقة.

قالت تالي بصوت منخفض: «الزجاجات»، ثم ترامت إلى سمعها الهمسات التي تناقلها الحشد المتجمع حولها.

وانعكست أشعة الشمس آنذاك على الفتاحات المعدنية، وسمعت تالي أصوات الأغطية وهي تفتح. دق قلبها بسرعة، وأصبحت حواسها مرهفة؛ فهي الآن تنتظر ما سيحدث. تدور رسومات الوشم الموجودة على وجوه الجميع بلا توقف. رأت تالي زين وهو يتزلج بسرعة أكبر بمحاذاة الحافة الخارجية للحلبة.

فقالت بصوت منخفض: «لنبدأ السكب».

حينئذ انبعث من بين الأشقياء المحتشدين حول تالي صوت خرير سائل ما؛ فالفودكا المركزة والكحول الإيثيلي النقي يتدفقان من أفواه زجاجات الخمر. ظنت تالي أنها سمعت صوت تشقق، إن هذا أقل ما يمكن أن يحدث بعد أن بدأت المشروبات الكحولية التي صبها الأشقياء فوق الحلبة ترفع درجة الجليد.

لقد كان زين فيما مضى يحلم دائمًا بالقيام بحيلة تلفت انتباه الآخرين مثل تلك. وكان أحيانًا يصب الشمبانيا على الجليد أثناء تزلج الأشقياء، لكن الدواء جعله جادًا في نيته، حتى إنه اختبر ذلك الأمر باستخدام الثلاجة الصغيرة الموجودة في غرفته.

ملأ زين وعاء مكعبات الثلج بخليط من المياه والفودكا مع اختلاف نسبتيهما في كل مكعب اختلافًا طفيفًا، ووضع الوعاء في المجمد. تجمدت المكعبات التي تحتوي على المياه فقط دون تدخل، ولكن المكعبات التي احتوت على الكحول انخفضت نسبة تجمدها كلما زادت نسبة الكحول المضاف إليها، أما المكعب الذي يحتوي على الفودكا فقط فقد ظل سائلًا تمامًا.

نظرت تالي إلى طبقة الشراب وهي تنتشر ببطء من بين أحذية التزلج وتذيب العلامات التي أحدثتها أنصال الأحذية والأشخاص الذين يسقطون على الثلج أثناء التزلج.

أصبحت صورة الإستاد شديدة الوضوح مع تسارع ضربات قلبها، حتى أصبحت تالي قادرة على رؤية كل تفاصيل أضواء الألعاب النارية الخضراء والصفراء المتصاعدة باتجاه الحلبة، وعندما طرقت أصوات التشققات المدوية أذن تالي سمعت صوت تشقق آخر باللوح الجليدي ينذر بقرب انهياره، وعروض الألعاب النارية تتزايد احتفالًا بالمباراة النهائية.

رفعت تالي يدها ملوحة لزين.

انعطف عند المنعطف التالي، واتجه نحوهم وهو يتزلج بقوة. حينئذ رأت تالي الرعب على وجوه الحشد الملتف حولها، وكأنهم قطيع من الغزلان رأوا فهدًا آتيًا من بعيد. تناول عدد قليل من الأشقياء آخر ما تبقى من الفودكا في الزجاجات ثم صبوا بداخلها عصير البرتقال المعلب، لكي يمحوا أي برهان على فعلتهم تلك.

ابتسمت تالي وهي تتخيل نفسها واقفة أمام الحراس، وتتظاهر بالارتباك المعهود لدى الحسان وهي تقول: «لقد كنا نقف جميعًا هناك نتحدث، لا نلوي على شيء ولم نكن حتى نتزلج، وفجأة ...»

صاح زين: «انتبهوا!» فانقسم الحشد إلى نصفين متباعدين أحدهما عن الآخر ليفسحوا الطريق أمام زين.

وصل زين إلى مركز الحلبة، وعندها قفز في الهواء بارتفاع لا يمكن لبشر أن يصل إليه، فلمعت العيون مثلما تلمع الأنصال المعدنية في ضوء الشمس، ثم نزل بكل ثقله مرتكزًا بنصلي حذائه المعدنيين على الجليد.

سُمعت أصوات عالية كأن زجاجًا يتكسر، واختفى زين عن الأنظار في الحال، سمعت تالي صوت الصدوع التي تنتشر عبر أرجاء الحلبة يعلو كأنه صوت سقوط شجرة من أشجار الغابات على الأرض.

للحظة خاطفة، اندفعت تالي إلى الهواء، حيث ظلت قطعة كبيرة من الثلج تتأرجح عاليًا في الهواء ثم ارتطمت بنقطة ارتكاز أحد الروافع فتأرجحت عاليًا مرة أخرى، ثم انشقت هذه القطعة إلى نصفين وبدأت تالي حينئذ تهوي إلى أسفل، وشعرت أن معدتها تقفز في جوفها حتى كادت تبلغ حلقها. والأيادي المغطاة بالقفازات تمسك بسترتها من كل اتجاه في لحظة من لحظات الخوف الجماعي. تعالت صيحة في الهواء حينما انهار الجزء الأوسط من الحلبة تمامًا، وتهاوت قطع الجليد الصغيرة وآلات تسوية الجليد وتهاوى الأشقياء جميعًا باتجاه الحشائش الخضراء التي تكسو ملعب كرة القدم، وأخذ عشرة آلاف متفرج يحدقون فيهم في ذعر.

الآن يستيقظ الجميع من غيبوبة الحسن.

الفصل الحادي عشر

الوثبة

ساد الهدوء المكان للحظات.

وأخذت قطع الجليد المتكسرة تتساقط حولها دون صوت، وتعكس أضواء الإستاد وهي تدور في الهواء. وبددت الرياح هتافات التشجيع التي أطلقها الأشقياء فور خروجها من أفواههم، وأخذ الحاضرون بالإستاد ينظرون إلى أعلى وقد ألجمتهم الدهشة. بسطت تالي ذراعيها، حتى تخفف من سرعة سقوطها، وهي تثني أصابعها وكأنها تتشبث بتلك اللحظات النادرة، فهذه المرحلة من مراحل القفز بالحبل المطاطي تشبه دومًا الطيران.

وأخذت تالي تدور وهي تهوي في خضم من الأصوات المدوية والأضواء الساطعة، وشعرت بطنين في أذنيها، وأغمضت عينيها مضطرة بفعل خيوط من الأضواء الساطعة كادت تعميها. وبعد بضع لحظات من الذهول هزت تالي رأسها وفتحت عينيها، فرأت شررًا بألوان قوس قزح يتطاير في كل مكان، وكأنها وسط مجرة تتفجر. دوى مزيد من الانفجارات فوقها، وأخذ وابل لا ينقطع من الشرر المتوهج يتطاير حولها. لقد أدركت تالي ما حدث ...

لقد انطلق المشهد الأخير من عرض الألعاب النارية في الوقت نفسه الذي اخترق فيه حشد الأشقياء لوح الجليد وهم يسقطون منه. لقد كان توقيت هذا الاختراق مثاليًا على نحو غريب.

وأمسك لسان ناري مشتعل بسترة القفز التي ترتديها، وهو يشتعل بوهج بارد شأنه شأن جميع الألعاب النارية الآمنة، وأخذ يدغدغ وجهها بالشرر المتطاير منه. راحت تالي تلوح بيديها في الهواء حتى تعتدل، ولكن الأرض تقترب بسرعة حتى لم يبق بينها وبين الأرض سوى ثواني قليلة، ولا تزال عاجزة عن التحكم في وضعها

حينما أمسكت بها أحزمة سترة القفز، مما جعلها تتوقف فجأة وهي تهبط، فأصبح جسدها معلقًا على بعد أمتار قليلة من الأرض.

عادت سترة القفز تجذب تالي وترفعها في الهواء حتى اعتدلت قامتها، فتكورت تالي على نفسها حتى تتفادى خطر الاصطدام بأي شيء كبير لا يزال يسقط. لطالما ظل احتمال أن يرتطم أحدهم بقطعة كبيرة من الجليد أو إحدى آلات تسوية الجليد المرحلة المخيفة من تلك الخطة. ولكن تالي لم تصب بأذى أثناء الوثبة، وما إن وصلت إلى ذروة الوثبة حتى ترامى إلى سمعها صوت الحاضرين وهم يطلقون شهقات في اضطراب شديد، فأدركت أن هناك خطئًا ما وقع.

لقد خطر لها هي وزين أن يخترقا أنظمة شاشة عرض الأهداف، حتى يعرضوا رسالة ما في هذه اللحظة بهدف اختراق التشوش العقلي الذي يسيطر على الحسان وهم لا يزالون يشعرون بالدوار من وقع الصدمة، لكن الحراس سيعرفون حينها أن هذا الاختراق مدبر، فيؤدي ذلك إلى عواقب وخيمة.

سيسمع سكان الضباب الجليد بطريقة أو بأخرى، بهذه الحيلة، وسيدركون على الأقل ما وراءها...

لقد نجح الدواء، وأصبح لدى سكان الضباب الجديد حلفاء في المدينة، وبدأت السماء الجليدية تسقط.

توقفت تالي عن التواثب في الهواء في منتصف الملعب تقريبًا، فوق الأرض المكسوة بالعشب المزدحمة بقطع الجليد المتكسرة، وآلات تسوية الجليد المرتعشة، والأشقياء الذين تعالت ضحكاتهم، وعدد قليل من المتزلجين الأبرياء الذين سقطوا من الحلبة عندما انهار الجليد، والذين بلا شك داخلهم شعور بالسعادة لاشتراط ارتداء سترات القفز أثناء التزلج. وأخذت تتلفت حولها بحثًا عن زين، فاكتشفت أن قوة الدفع حملته إلى أرض الملعب ثم دفعت به داخل شبكة المرمى، فأسرعت نحوها عند نهاية الملعب، وهي تتطلع إلى الأشقياء في الطريق، حيث كان الوشم المنقوش على وجوههم يخفق بعنف. وظلت تالي تدور تحت تأثير السحر الذي سرى مفعوله بفعل الاختراق والذي له تأثير مضاد للتشوش العقلي المصاحب للحسن. لم يصب أي فرد من الأشقياء بأذى فيما عدا بضع كدمات أو احتراق بعض خصلات الشعر.

قال لها فاوستو بهدوء وهي تمر بجانبه: «لقد نجحت خطتنا يا تالي»، وهو ينظر في دهشة إلى قطعة كبيرة من الجليد بيده. واصلت تالي عدوها نحو المرمى.

كان زين يضحك بهستيرية وقد التفت خيوط الشبكة المتداخلة حوله، وحينما رأى تالي صاح وهو يطيل نطق الكلمة: «هدف!»

حينئذ توقفت تالي فجأة عن الركض وهي تشعر بالارتياح، وتركت نفسها تستمتع بالصحوة التي غمرت كل شيء، فقد تبدل العالم من حولها. لقد خُيل لها أنها تستطيع أن ترى كل الحاضرين بنظرة واحدة منها، إذ بدا كل تعبير من تعبيراتهم شديد الوضوح في أضواء الإستاد الساطعة الفائقة، كذلك ارتسمت أمارات الرهبة والذهول على وجوه عشرة آلاف يحدقون فيها.

تخيلت تالي أنها في تلك اللحظة تلقي عليهم خطبة، تخبرهم فيها بكل شيء يتعلق بالعملية الجراحية، والإصابات التي تحدثها تلفًا بأنسجة المخ، والثمن الفادح الذي يدفعونه لكي يصبحوا من الحسان، وأن الجمال أصبح مرادفًا للعجز عن التفكير، وأن حياتهم الميسرة حياة فارغة، وبدا على الحاضرين المذهولين وكأنهم سيستمعون إليها.

كانت تريد هي وزين تنبيه سكان الضباب الجديد، ولكن ذلك لم يكن هو السبب الوحيد الذي دفعهم لتنفيذ الاختراق، فهما يعرفان أن حيلة من هذا القبيل من شأنها أن تشحذ عقول الأشقياء لبضعة أيام، ولكن هل يمكن أن تنجح خبرة اليقظة في تغيير الحسان الذين لم يتناولوا الأقراص المعالجة تغييرًا دائمًا؟ عندما رأت تالي التعبير البادي على وجه فاوستو أحست أن ذلك ممكن. والآن عندما رأت وجوه كل هؤلاء الحسان — سواء الملاح الجدد أو أو حتى الملاح القدامى وجميعهم يشعرون بالدوار من وقع تلك الصدمة — خطر لها أنه ربما يكون سقوط السماء الجليدية قد أيقظ شيئًا أكبر من الهدف الذي يسعيان إليه.

من المؤكد أن كل من في المدينة لاحظوا ما حدث، فالحراس يتدفقون إلى الملعب حاملين أدوات الإسعافات الأولية. لم تر تالي من قبل كل هذا الخوف والهلع يرتسم على وجوه الشباب الحسان، فشأنهم شأن جمهور المشاهدين بدوا جميعًا مندهشين من فكرة حدوث مشكلة كبيرة هنا في المدينة. وها هي الكاميرات الطائرة التي استعدت لتصوير المباراة الفاصلة تدور فوق أرجاء الملعب وتلتقط صور الدمار، وأدركت تالي أنه بحلول نهاية اليوم ستُعرض أحداث هذه الحيلة على شاشات كل مدينة على وجه الأرض.

تنفست تالي بعمق، إنها تشعر بإحساس يشبه إحساسها عندما أشعلت أول لعبة نارية في حياتها وهي طفلة صغيرة، وأدهشها كيف أن مجرد نقرة بسيطة

على زر تؤدي إلى ضوضاء عارمة، وشغلها التفكير عما إذا كانت ستتعرض للعقاب بسبب ذلك أم لا. وعندما خفت الفرحة العارمة التي اجتاحتها انتابها شعور مؤكد بأنه مهما بلغ منهما الحرص للتغطية على هذه الحيلة، فسوف يكتشف أحد أن اختراقهم للوح الجليدي مدبر.

شعرت تالي فجأة أنها بحاجة إلى لمسة من زين، إلى الطمأنينة التي يمنحها إياها في صمت، فقطعت المسافة المتبقية إلى الشبكة عدوًا، لتجد زين قد تحرر من خيوطها الممزقة التي كانت تلفه، وبجانبه اثنان من الحراس يعالجان وجهه ببخاخ علاجي، حينئذ أزاحتهما تالي جانبًا، وضمت زين بين ذراعيها.

تحدثت تالي بأسلوب الحسان لأن الحراس ينتشرون في كل مكان: «تجربة طريفة ومنعشة، أليس كذلك؟».

قال زين: «بلى، للغاية». وعلى الرغم من أنه لم يكن على وجه زين أي وشم مضيء، شعرت تالي بقلبه يدق بعنف تحت السترة الثقيلة.

سألته تالي: «هل أصبت بأي كسور؟».

قال زين وهو يتحسس أحد جانبي وجهه بحذر شديد: «لا، أشعر فقط بألم خفيف». ذلك حيث كانت خطوط الشبكة قد خلفت علامات حمراء على جانب وجهه هذا، وأردف: «يبدو أننا سددنا هدفًا».

ضحكت تالي وقبلت خده المصاب بأرق ما تستطيع، ثم قربت شفتيها من أذنه وقالت: «لقد نجحت خطتنا، نجحت فعلًا، يمكننا تحقيق أي شيء نريده».

- «أجل.»

- «بعد ما فعلناه ينبغي أن يعرف سكان الضباب الجديد أن الدواء ناجح، وسوف يرسلون إلينا المزيد من الأقراص، وسوف يكون باستطاعتنا أن نغير كل شيء».

ابتعد عنها وأومأ برأسه، ثم مال عليها وقبّل أذنها برقة وهمس قائلًا: «وإذا لم يلاحظوا ذلك فسنضطر لأن نخرج ونبحث عنهم».

الفصل الثاني عشر

المتطفلة

كانت تلك الليلة ليلة الشمبانيا، ومع أن تالي وزين كانا قد قررا أن يقلعا عن الشراب، فقد أحسا أنهما يجب أن يشربا نخب نجاة الأشقياء من الانهيار الهائل الذي وقع بإستاد نفرتيتي.

لقد تدربوا جميعًا على ما سيفعلونه في تلك الليلة، ومثلوا كل ردود أفعالهم مسبقًا، حتى يضمنوا أن أحدًا لن يذكر أي شيء عن سكب المشروبات الكحولية فوق الجليد، وأن أحدًا لن يتفاخر ابتهاجًا بخطة حققت نجاحًا باهرًا. سيقتصر الأمر على ثرثرة لمجموعة من الحسان الجدد المتحمسين بعد أن أفاقوا من تجربة غير متوقعة رائعة وبعيدة كل البعد عما ألفوه.

ظل كل منهم يروي قصة سقوطه مرارًا وتكرارًا: كيف شعروا باهتزاز الحلبة عندما تصدع الجليد، والانبهار بمشاهدة عروض الألعاب النارية وهي تتناثر من حولهم وهم يسقطون، وكيف جذبتهم سترات القفز، وكيف اتصل بهم آباؤهم وأمهاتهم بعد أن انتهى كل شيء حينما انتابهم القلق بعد أن رأوا كل ما حدث يذاع مرات ومرات على كل القنوات. وأجريت مقابلات مع معظم أعضاء الأشقياء لعرضها في المواد الإخبارية وأخذوا يروون قصصهم وعلى وجوههم تعبيرات من البراءة الممتزجة بالدهشة، وفي كل مرة تنتشر القصة الإخبارية وتطرأ عليها مستجدات مثل مطالبة المجلس المعماري للمدينة بالاستقالة، وإعادة تحديد مواعيد مباريات كرة القدم النهائية بالكامل، وغلق حلبة التزلج المعلقة إلى الأبد (وهذه هي إحدى العواقب السخيفة التي لم تتوقع تالي حدوثها).

ولكن لم يمض وقت طويل حتى أصبحت الأخبار المذاعة تتسم بالتكرار إلى حد الملل، فالمرء يشعر بالملل عندما يرى الوجه نفسه على الشاشات الجدارية مرات

ومرات، حتى إن كان هذا الوجه وجهه، ولذلك اصطحبهم زين إلى الخارج ليشعلوا نارًا في الهواء الطلق بحديقة ديتزيل بارك.

ظلت حالة الصحوة والتيقظ مسيطرة على الأشقياء، وأخذوا يعيدون سرد قصصهم وهم يجلسون حول النار ورسومات الوشم المضيء المنقوشة على وجوههم تتألق في الضوء المنبعث من النار المشتعلة وهي تدور. تحدثوا جميعًا لغة الحسان بطلاقة، تحسبًا لوجود أي شخص يستمع إليهم، ولكن تالي سمعت بين كلامهم شيئًا أعمق من ذلك الهراء وتلك السخافات التي تعج بها لغة الحسان. إنهم يتحدثون كما كانت تتحدث هي وزين معًا، وهما يدركان طوال الوقت أن سواريهما يستمعان لما يقولانه، ولكن في الوقت نفسه كان حديثهما بلغة الحسان محملًا بالدلالات والمعاني. لقد بدأت تلك المؤامرة التي كانا يحيكانها معًا في صمت تخرج من بينهما وتنتشر بين الآخرين. وعندما استمعت تالي إلى أحاديث الأشقياء وهي تحدق في النار المتوهجة، بدأت تفكر في أن انفعالات ومشاعر الصحوة والتيقظ التي أثارها هذا الاختراق ستستمر بالفعل، وأنه ربما يتسنى للناس أن يتمكنوا من التخلص من ذلك الضباب الذي يلف عقول الحسان دون الحاجة إلى أي أقراص.

قال لها زين وهو يمرر أصابعه خلف رقبتها حتى يقطع أفكارها: «من الأفضل أن تشربي هذه الشمبانيا أيتها النحيفة، فقد سمعت أن الكحول يتبخر بسرعة شديدة».

تصنعت تالي تعبيرًا ينم عن الجدية وهي تقول: «يتبخر؟ هذا سيئ للغاية». ورفعت كأسها لتتأمله في الضوء المنبعث من النار. فطوال الوقت كانت نشرات الأخبار تذيع كل ساعة آخر التطورات الخاصة بالتحقيق في الاختراق الذي حدث، فعدد من المهندسين يحاول اكتشاف كيف يمكن أن ينهار لوح جليدي سمكه عشرون سنتيمترًا تدعمه شبكة من الروافع تحت ثقل بضع عشرات من الأشخاص. أرجع الخبراء أسباب هذا الانهيار إلى الموجات التصادمية الناتجة عن عروض الألعاب النارية، والحرارة المنبعثة من أضواء الإستاد، بل إلى الاهتزازات المتزامنة التي أحدثها المتزلجون الذين كانوا يتحركون في صفوف متراصة مثل الجنود الذين يسيرون بخطوة عسكرية، ولكن لم يتبادر إلى ذهن أي من الخبراء أن السبب الحقيقي لهذا الانهيار قد تبخر.

رفعت كأسها وضربتها بكأس زين برفق، فتعالى صوت صلصلة. شرب زين كأسه، ثم أخذ كأسها بيده ووضع بعض القطرات منها في كأسه. قال زين: «شكرًا، أيتها النحيفة».

– «على ماذا؟»

– «على أنكِ اقتسمتِ معي.»

ردت تالي عليه بابتسامة جذابة، فقد كان زين يقصد القرصين اللذين اقتسماهما معًا بالطبع، وليس الشمبانيا، وقالت: «على الرحب والسعة، ويسرني أنه كان هناك ما يكفي لاثنين».

– «ومن حظنا السعيد أن الأمور سارت على هذا النحو.»

أومأت تالي برأسها، فلم يكن تأثير الدواء مثاليًا، ولكن إذ أخذنا بعين الاعتبار أن كلًا منهما تناول نصف الجرعة المقررة منه فقط، فقد تكلل الاختبار بالنجاح. لقد أحدث القرص المعالج تأثيرًا فوريًا على زين، فقد تخلص من حالة الغفلة والشرود التي تميز الحسان خلال بضعة أيام. أما مفعول القرص على تالي فكان أبطأ، كانت غالبًا تشعر بالتشوش عندما تستيقظ صباحًا، وتحتاج من زين إلى تذكيرها بأن عليها أن تفكر في خواطر تكسبها اليقظة والانتباه، ولكن الشيء الإيجابي هو أنها لم تصب قط بآلام الصداع البشعة التي كانت تداهم زين.

قالت تالي وهي تضرب كأسها بكأسه: «من الأفضل أننا اقتسمناها». فقد تذكرت التحذير المكتوب في الرسالة التي أرسلتها إلى نفسها حين كانت قبيحة، وارتعدت مع أن الدفء ينبعث من النار. ربما يمثل قرصان جرعة زائدة عن الحد حقًا، وربما لو كانت قد تناولت القرصين معًا لكانت لتصاب بتلف في المخ.

ضمها زين إليه وقال: «مثلما قلت من قبل ... شكرًا لكِ»، ثم قبلها، وفي نسيم الليل البارد أحست تالي بدفء شفتيه، وانعكس وهج النار على صفحة عينيه فلمعتا، وظل يلثم فمها طويلًا، وما بين هذه القبلة الطويلة التي عجزت معها عن التنفس وشراب الشمبانيا، شعرت أنها تعود إلى غفلة الحسان وأن صورة الحفل المقام على ضوء النار بدأت تتشوش، وربما لم تكن تلك الحالة سيئة في كل الأحوال ...

تركها زين في النهاية والتفت إلى النار وهو يداعب أذنها بأنفه وهمس قائلًا: «علينا أن نخلع هذه الأشياء».

قالت تالي: «اصمت!» ومع أن السوارين مختفيان تحت المعاطف والقفازات التي يرتديانها، فإن تالي تشعر أنهما اكتسبا قدرًا كبيرًا من الشهرة إلى حدٍّ ما حاليًا وهذا لا يتيح لهما مناقشة ما ينويان فعله بصوت عالٍ، وكذلك كانت هناك إحدى الكاميرات الطائرة التي تصور الحفل من أجل التغطيات والمتابعات التي تتناول انهيار حلبة التزلج، ولكن الأشقياء يحاولون إبعادها برميها بالحجارة.

– «إن ذلك يثير أعصابي يا تالي».

ردت عليه وكأنها تتوسل إليه لكي يكف عن الكلام: «لا تقلق، سوف نحل هذا الموضوع».

ركل زين أحد الأغصان الجافة نحو النار، وبينما كان ذلك الغصن يشتعل أطلق زين صيحة ألم.

قالت تالي: «زين، ما بك؟».

هز زين رأسه وهو يضع أصابعه على صدغيه، وابتلعت تالي ريقها، إنها آلام الصداع مرة أخرى. إنها تنتهي في بضع ثوان في بعض الأحيان، وتستمر ساعات في أحيان أخرى.

رد عليها وهو يأخذ نفسًا عميقًا: «لا، أنا بخير».

همست تالي: «أتعرف، يمكنك أن تذهب إلى الطبيب».

– «انسي ذلك الأمر، سوف يعرفون أنني تناولت العلاج».

جذبته تالي حتى اقتربا من الخشب المشتعل وهو يطقطق، وقربت شفتيها من أذنه وقالت: «هل أخبرتك من قبل عن مادي وآز والدي ديفيد؟ لقد كانا طبيبين، جراحين بالتحديد، وخلال فترة طويلة لا يعرفان شيئًا عن الإصابات المخية التي تتلفه، وكانا يظنان أن معظم الناس أغبياء، فأي طبيب سوي سيستبعد احتمال تعمد إحداث ضرر عند إجراء عمليات جراحية».

هز زين رأسه بعنف واستدار ليهمس في أذنها: «لن يتوقف الأمر على يد طبيب سوي يا تالي، فالحسان الجدد لا يمرضون».

أخذت تالي تتطلع إلى الوجوه المتوهجة التي التفت حول النار، فكثيرًا ما كان الأشقياء يذهبون إلى المستشفى، ولكن من أجل معالجة الإصابات فقط، وليس بسبب المرض. فعملية التحول تعزز الجهاز المناعي، وتقوي أجهزة الجسم وتصلح الأسنان إلى الأبد، فمن النادر أن يعاني أحدٌ من الملاح الجدد أية مشكلة صحية، وإن حدث ذلك تجرى له الكثير من الفحوصات، وإذا استمرت آلام الصداع التي يعانيها زين ستعرض نتائج الفحوصات على الخبراء.

همس زين: «إنهم يراقبوننا من الآن، ولن نتحمل أن يتطفل أحد على أفكاري»، وأجفل مرة أخرى والتوت ملامحه ألمًا.

قالت تالي بصوت خافت: «علينا أن نذهب إلى المنزل».

– «ابقي أنت. أنا أستطيع الذهاب إلى بولشر وحدي».

زفرت تالي في ضيق وأبعدته عن النار وهي تقول: «هيا».

تركها تتقدمه نحو الظلام ودارا حول الأشقياء الآخرين، ونادت شاي عليهما، ولكن تالي أشارت لها بالابتعاد وهي تقول: «لقد أفرط في الشمبانيا»، فابتسمت شاي مبدية تعاطفها واستدارت متجهة نحو النار مرة أخرى.

أخذ زين وتالي يسيران بخطوات بطيئة في إرهاق عائدين إلى المنزل، والأرض الجرداء تتلألأ بفعل الصقيع المتناثر عليها في ضوء القمر، وأخذت حدة الرياح الباردة تشتد بعد أن استمتعا بالحرارة المنبعثة من النار. الليلة كانت جميلة، ولكن كل ما يهم تالي هو معرفة ما أصاب رأس زين، هل هو أحد الأعراض الجانبية البسيطة للدواء فقط؟ أم علامة على إصابته بشيء خطير؟

قالت تالي بصوت أعلى من الهمس بقليل: «لا تقلق يا زين، سوف نحل هذا الموضوع، أو سنخرج من هنا ونستعين بالضبابيين. إن مادي هي التي اخترعت هذا الدواء، ولا بد أنها ستكتشف ما الذي أصابك».

لم يجبها زين وهو يمشي بخطوات مترنحة بجانبها وهما يصعدان التل.

عندما لاح لهما قصر بولش جذبها زين لكي تتوقف وقال: «عودي إلى الحفل، أنا أستطيع الوصول إلى المنزل وحدي من هنا». كان صوته مرتفعًا أكثر من اللازم.

نظرت تالي حولها، كانا وحدهما، فهي لم تر أي حسان أو كاميرات طائرة، فهمست: «أنا قلقة عليك».

خفض زين صوته: «من السخف أن تقلقي عليّ أيتها النحيفة، إنه صداع فقط، الصداع المعتاد؛ ربما نظرًا لأنني أصبحت من الحسان قبلك بفترة طويلة»، واصطنع الابتسام، وأردف: «يستغرق الأمر مني فقط وقتًا أطول لكي أعتاد على التفكير واستخدام عقلي مرة أخرى».

– «هيا، حتى أوصلك إلى فراشك».

– «لا، عودي أنتِ. أنا لا أريدهم أن يعرفوا شيئًا عن ... هذا».

همست تالي: «أتعهد لك بأنني لن أقول أي شيء». لم يكونا قد أخبرا أحدًا بأمر الدواء، إذ يريدان أن يتأكدا تمامًا أولًا من أن الأشقياء أصبحوا على درجة من اليقظة والانتباه تجعلهم يحرصون على الكتمان، وأردفت: «سأقول إنك أفرطت في الشراب».

قال بحزم: «حسنًا، ولكن عودي إلى الحفل. عليكِ أن تبقيهم يقظين، واحرصي على منعهم من أن يثملوا ويثرثروا بكلام فارغ».

التفتت تالي خلفها إلى النار التي أشعلها الأشقياء، والتي تظهر بصعوبة من خلال الأشجار التي تقع على مستوى أدنى من الموقع الذي يقفان فيه. كانت تدرك أن احتساء الكثير من كؤوس الشمبانيا كفيل بدفع المرء للتفاخر بإنجازاته، وعادت تتطلع إلى زين وقالت: «هل ستكون بخير؟».

أومأ برأسه: «أنا بدأت أتحسن من الآن».

أخذت تالي نفَسًا من الهواء البارد؛ فلم يبد على زين أي تحسن، وقالت: «زين ...»

– «اسمعي، سوف أكون بخير، ومهما حدث فأنا سعيد أننا تناولنا القرصين».

تنفست تالي بعمق لكي تهدئ نفسها وقالت: «ماذا تعني بمهما حدث؟».

– «أنا لا أعني الليلة، أنا أقصد لو حدث شيء في أي وقت، حسبما تعلمين».

نظرت تالي إلى عينيه الذهبيتين، ورأت فيهما الألم الذي يحمله بداخله في صمت، مهما كان الذي يحدث لزين، فاحتفاظها بحالة اليقظة والانتباه لا يستحق أن تخسره.

هزت تالي رأسها وقالت: «لا، أنا لا أعرف».

تنهد زين وقال: «أرى أنني أسأت التعبير عما أريد قوله. أنا بخير».

– «أنا قلقة عليك».

– «عودي أنتِ إلى الحفل».

تنهدت تالي، فلم يكن هناك فائدة من الجدال، ورفعت ذراعها وأشارت إلى الوشاح الملفوف حول معصمها وقالت: «حسنًا، ولكن إذا ازداد شعورك بالتعب ابعث إليّ برسالة».

ابتسم زين في مرارة وقال: «على الأقل، هناك فائدة لتلك الأشياء».

قبلته تالي برقة، ثم وقفت تنظر إليه وهو يجر قدميه في إعياء حتى وصل إلى باب القصر ودلف إلى الداخل.

شعرت تالي في طريق عودتها إلى مكان الحفل وهي بمفردها أن الهواء قد صار أشد برودة، وكادت تتمنى أن تصبح من الغارقين في غفلة الحسان مرة أخرى ولو لليلة واحدة، بدلًا من أن يكون عليها أن تراقب الأشقياء. منذ القبلة الأولى التي تبادلتها هي وزين، وهي تشعر أن وجودها مع زين بدأ يؤدي إلى تعقيد كل شيء.

تنهدت تالي، فربما كانت هذه هي الطريقة التي دائمًا تسير بها الأمور.

كانت تالي تدرك أن زين لن يذهب إلى الطبيب أبدًا، ولكن هل تستطيع هي أن «تجبره» على الذهاب إلى الطبيب إذا ساءت آلام الصداع التي يعانيها؟ كان زين بالطبع على صواب؛ إذ إن أي طبيب يضطلع بمهمة علاجه يستطيع

على الأرجح أن يكتشف سبب حالته، ويمكنه عندئذٍ أن يعيد زين إلى حالة غفلة الحسان.

يا ليت كروي لم يختفِ، وتمنت تالي لو أتيح لها معرفة كم سيستغرق الأمر من سكان الضباب الجديد حتى يتواصلوا معهما في تلك الأثناء، فبعد ذلك الاختراق لا بد أنهم أدركوا أن الدواء قد نجح، حتى إذا لم تكن المواد الإخبارية تصل إليهم في المكان الذي يختبئون فيه. أيًا كان فلا بد أن كل القبحاء في العالم يتحدثون الآن عن انهيار حلبة التزلج وعن تالي يانج بلود التي تظهر بوجهها البري» على شاشاتهم الجدارية.

لا يزال عليها هي وزين بالطبع أن يهربا من المدينة، ولكنها لم تكن تدري كيف تنزع الأساور، فكلما نقص وزنهما «بدا» لها أن لحظة نزع السوارين المصنوعين من الصلب باتت وشيكة، ولكن كم سيستغرق ذلك الأمر؟ لم تكن تشعر بالارتياح لدخولها في سباق ما بين تجويع نفسها من ناحية وتجويع مخ زين من ناحية أخرى.

ولم تكن ترغب في أن يهربا بدون الأشقياء الآخرين، شاي وبيريس على الأقل، فالأشقياء يقظون جدًا الليلة لدرجة أنهم قد يسارعون جميعًا بركوب الألواح الطائرة وينطلقون إذا طلبت منهم ذلك، ولكن تُرى إلى أي حد سيكونون يقظين غدًا؟

فجأة شعرت تالي بالإرهاق، وبأنها مثقلة بعدة مهام في وقت واحد، وبهموم كثيرة ملقاة على عاتقها وحدها، فكل ما كانت تسعى إليه هو أن تصبح واحدة من الأشقياء، وأن تشعر بالأمان وسط جماعة من الأصدقاء، أما الآن فقد وجدت نفسها مسئولة عن حركة تمرد.

«هل أفرط صديقك في احتساء الشمبانيا؟»

تجمدت تالي في مكانها، فقد انطلقت الكلمات من الظلام، ووقعها على أذنيها كان كالأظافر التي تخدش سطحًا معدنيًا.

قالت تالي: «من هناك؟».

رأت شخصًا يخرج من بين الظلال يرتدي معطفًا مزودًا بقلنسوة، ويتقدم في صمت مطبق بين أوراق الأشجار الجافة الساقطة. وانعكس شعاع من ضوء القمر عليه فتبينت أنها امرأة ويزيد طول هذه المرأة عنها بعشرة سنتيمترات، بل إنها أطول حتى من زين، لا بد أنها من السلطات الخاصة.

أجبرت تالي نفسها على أن تهدأ، وهي تحاول تمالك أعصابها ورسم تعبير هادئ على وجهها يليق بفتاة من الحسان الجدد انضمت لتوها لعالم الحسان، وقالت بلهجة غاضبة: «شاي أهذه أنتِ؟ تتعمدين إخافتي هكذا؟»

تقدمت المرأة خطوة أخرى نحوها في ضوء كشاف صغير، وخلعت القلنسوة وهي تقول: «لا يا تالي، هذه أنا».

لقد كانت هذه المرأة هي دكتورة كابل.

الفصل الثالث عشر

التنين

«هل تعرفينني؟»

ابتسمت دكتورة كابل ببرود وقالت: «أنا واثقة من أنكِ تتذكرينني يا تالي».

تراجعت تالي خطوة إلى الوراء، فبدا عليها شيء من الخوف، فمن المتوقع أن يشعر أشد الحسان الجدد جراءة بالخوف عند رؤية دكتورة كابل، فملامحها القاسية التي زادها ضوء القمر حدة جعلتها تبدو وكأنها امرأة جميلة ذات ملامح قاسية.

تدفقت الذكريات على ذهن تالي: تذكرت كيف كانت محتجزة في مكتب دكتورة كابل عندما قابلتها أول مرة، كان لقاء أكثر من سيئ، واكتشافها وجود السلطات الخاصة، ثم التقت بها مرة أخرى عندما قبلت أن تبحث عن شاي وتغدر بها في مقابل أن تصبح من الحسان، وكذلك لقاءها معها بعد ذلك في الضباب، حيث تبعتها كابل ومعها جيش من السلطات الخاصة لكي يدمروا موطنها الجديد حرقًا.

قالت تالي: «نعم، أظن أنني أتذكركِ. لقد كنت أعرفكِ، أليس كذلك؟».

ردت كابل وأسنانها الحادة تلمع في ضوء القمر: «بالطبع كنتِ تعرفينني، ولكن الأهم من ذلك يا تالي أنني أعرفكِ».

اصطنعت تالي ابتسامة مجردة من التعبير، لا بد أن دكتورة كابل تتذكر لقاءهما الأخير، حينما حاولت تالي هي وديفيد أن ينقذا الضبابيين، لقد اضطرا آنذاك لأن يضرباها على رأسها حتى تفقد الوعي.

أومأت دكتورة كابل إلى الوشاح الأسود الذي تلفه تالي بإحكام حول السوار المختبئ تحت قفازها وسترتها، وقالت: «طريقة غريبة لارتداء الكوفية».

– «ماذا، ألا تتابعين جديد الموضة؟ الكل يفعلون ذلك».

– «لكنني أرى أنكِ أنتِ التي ابتدعت هذه الموضة، فلطالما كنتِ من هواة الحيل والمكائد».

بسمت تالي ابتسامة تليق بالحسان وقالت: «أظن ذلك. لقد كنت أقوم بكل نوع الحيل والمكائد في الماضي عندما كنت قبيحة».

– «ولكن ليس كالحيل التي تقومين بها اليوم».

– «أه. هل رأيتِ المواد الإخبارية؟ ألم يكن سخيفًا للغاية أن يسقط الجليد من تحت أرجلنا بهذا الشكل؟»

– «نعم ... بهذا الشكل تمامًا». ضيقت دكتورة كابل عينيها وأردفت: «لا بد أن أعترف، أنكم استطعتم أن تخدعوني في البداية، إن حلبة التزلج المعلقة تعد من المنشآت المعمارية باهظة التكاليف المصممة للترفيه عن الحسان الجدد، لا بد أن الحلبة كانت ستتعرض لحادث يومًا ما، ولكن عندما فكرت في التوقيت ...! لقد وقع الحادث والإستاد ممتلئ عن آخره، في وجود مئات من الكاميرات مستعدة للتصوير».

طرفت تالي بعينيها وهزت كتفيها وقالت: «أراهن على أن تلك الألعاب النارية هي السبب. لقد كنا نشعر بها ونحن نسقط من خلال الثلج. من صاحب هذه الفكرة الفاشلة؟»

أومأت دكتورة كابل برأسها ببطء وهي تقول: «يكاد الأمر يبدو وكأنه حادث وقع بالصدفة. ثم رأيت وجهكِ يا تالي على الشاشات في المواد الإخبارية، وأنتِ تقصين حكايتك القصيرة الرائعة وقد اتسعت عيناكِ في براءة». والتوت شفة دكتورة كابل العليا، ولكنها لم تكن تبتسم، وأردفت: «فأدركت أنكِ لا تزالين تقومين بالحيل».

شعرت تالي بأن شيئًا يعتصر معدتها، وذكرها ذلك بأيام القبح؛ إنه ذلك الشعور الذي ينتابها حين يضبطها أحد، وحاولت أن تحول مشاعر الخوف التي تجيش بداخلها إلى تعبير ينطق بالدهشة وهي تقول: «أنا؟».

– «نعم يا تالي أنتِ، بطريقة أو بأخرى».

كانت دكتورة كابل ترمق تالي وتالي تتخيل نفسها وهي تساق إلى أغوار مبنى السلطات الخاصة ويقوم عملاؤها بإبطال تأثير الدواء وتنمحي الذكريات من ذهنها مرة أخرى، أو ربما لن تعيدها السلطات الخاصة هذه المرة إلى مدينة الحسان الجدد مرة أخرى. حاولت تالي أن تبتلع ريقها، ولكنها شعرت أن فمها جاف كقطعة من حطب، ولكنها تكلمت رغمًا عنها وقالت: «نعم، صحيح، وكأنني أنا المتسببة في كل ما يحدث».

اقتربت دكتورة كابل من تالي فقاومت تالي بشدة رغبتها الملحة في الهروب، وهي تجاهد لتصمد في مكانها. حدقت المرأة بها في برود وكأنها تمعن النظر إلى حيوان

تجارب يستلقي أمامها على الطاولة مشقوق الجسد وقالت: «أنا أتمنى بالطبع أن تكوني أنتِ المتسببة في هذا الذي حدث».

قطبت تالي جبينها وقالت: «تتمنين ماذا؟».

– «فلنتحدث بصراحة، يكفيني هذا الحد من التمثيل، أنا لم آتِ إلى هنا لكي آخذك إلى زنزانتي».

– «حقًا؟».

– «أتظنين حقًا أنني قد أهتم إذا حطمت الأشياء هنا في مدينة الحسان الجدد؟».

– «أظن ... نوعًا ما».

قالت دكتورة كابل بلهجة يشوبها التذمر: «إن أعمال الصيانة ليست من اختصاصي، السلطات الخاصة تهتم فقط بالتهديدات الخارجية، إن المدينة كفيلة بالاعتناء بنفسها يا تالي، هناك العديد من احتياطات الأمان حتى إن الأمر لا يستدعي أي قلق، فلماذا في رأيك يشترط على المتزلجين بتلك الحلبة ارتداء سترات القفز؟».

طرفت تالي بعينيها، فلم يتبادر إلى ذهنها من قبل أن تستفسر بخصوص تلك السترات، فكل شيء في مدينة الحسان الجدد يتمتع بدرجة عالية من الأمان طوال الوقت، ولولا ذلك للقي الحسان الجدد حتفهم أينما ذهبوا. هزت تالي كتفيها وقالت: «تحسبًا لسقوط الروافع؟ حين يحدث انقطاع في التيار الكهربائي مثلًا؟».

أطلقت دكتورة كابل ضحكة حادة لم تستمر إلا أقل من ثانية واحدة وقالت: «لم يحدث انقطاع للتيار الكهربائي منذ مائة وخمسين سنة»، ثم هزت رأسها استبعادًا للفكرة، واستطردت: «أسقطي ما تشائين يا تالي، فأنا لا أعبأ بحيلك وفخاخك التافهة ... كل ما يهمني هو ما تكشفه هذه الحيل عنكِ».

أخذت المرأة ترمق تالي في ثبات مرة أخرى، وعادت تالي تقاوم رغبتها في الهروب، وهي لا تدري هل ما تفعله دكتورة كابل هو محاولة لدفعها للاعتراف بما فعله الأشقياء فقط، ربما تكون تالي قد أفشت بالكثير من الآن، ولكن شيئًا ما في نظرات دكتورة كابل الباردة وصوتها الحاد، وحركاتها التي تشبه حركات الضواري، ووجودها في العالم من الأساس، جعل من تظاهر تالي بأنها مصابة بغفلة الحسان أمرًا مستحيلًا، فلو كان أي واحد أو واحدة من الحسان الجدد في مكانها لفر هاربًا وهو يصرخ أو سقط مغشيًا عليه في الحال.

إلى جانب أن السلطات الخاصة لم تكن لتتجشم عناء التحدث مع تالي، إذا كانت تريد منها أن تعترف بحيلها.

قالت تالي بطبقة صوتها العادية وهي تجاهد للحفاظ على هدوء نبرة صوتها: «إذن، لماذا أتيتِ إلى هنا؟».

– «لطالما أعجبتني غريزة الصمود التي بداخلكِ يا تالي، لقد أتقنتِ دور الخائنة الصغيرة عندما تحتم عليك ذلك.»

– «آه، شكرًا لكِ.»

أومأت كابل برأسها وقالت: «والآن اتضح لي أنك أذكى مما كنت أظن. إنكِ بارعة في مقاومة عملية التكييف».

قالت تالي بلهجة غاضبة: «التكييف، أهذا هو الاسم الذي تطلقونه عليه؟ وكأنك تتحدثين عن نوع من المنتجات المخصصة للعناية بالشعر أو شيء من هذا القبيل؟».

مالت دكتورة كابل إلى الأمام نحو تالي مرة أخرى وهي تقول: «هذا رائع»، وأخذت تحدق فيها وكأنها تحاول أن تخترق رأسها وتصل إلى عقلها، وأردفت: «في مكان ما بداخل رأسك، لا تزالين تحتفظين بشخصيتك كفتاة قبيحة تهوين الحيل والفخاخ، أليس كذلك؟ وذلك يثير إعجابي للغاية. أظن أنني أستطيع أن أستخدمكِ».

شعرت تالي بعاصفة من الغضب تجتاحها، وبنار تشتعل في رأسها، وقالت: «آه ... تتحدثين وكأنكِ لم تستخدميني من قبل؟».

«إذن، أنتِ تتذكرين حقًا. هذا رائع.» وعلى الرغم من فتور عيني المرأة وبرودتهما وانطفاء بريقهما، بدا فيهما شيء من البهجة. وتابعت: «أعرف أنها كانت تجربة مزعجة يا تالي، ولكنها كانت ضرورية. كان ينبغي أن نستعيد أطفالنا من الضباب مرة أخرى، ولم يكن من الممكن أن يساعدنا أحد غيرك. ولكنني أعتذر لكِ بشدة».

قالت تالي: «تعتذرين عن ابتزازي وتهديدي حتى دفعتني إلى خيانة أصدقائي، تعتذرين عن تدمير الضباب، تعتذرين عن قتل والد ديفيد». شعرت تالي بأن وجهها يرتسم عليه تعبير ينم عن الاشمئزاز، وأردفت: «لا أظن أنكِ ستستخدمينني يا دكتورة كابل، لأنني قدمت لك خدماتٍ من قبل بما فيه الكفاية».

كل ما فعلته المرأة هو أنها ابتسمت مرة أخرى وقالت: «أنا أتفق معكِ، إذن لقد حان الوقت لكي أقدم أنا خدمة لكِ. إن ما أعرضه عليك هو أمر يجعلك في منتهى ... اليقظة والصحوة».

حين سمعت تالي تلك الكلمة وهي تخرج من بين شفتي كابل الرفيعتين والقاسيتين ضحكت ضحكة جافة وقالت: «وماذا تعرفين أنتِ عن الشعور باليقظة؟».

– «ستندهشين حين تعرفين أننا داخل السلطات الخاصة نعرف كل شيء عن المشاعر والأحاسيس وخاصة تلك التي دائمًا تبحثين عنها أنت وجماعتكِ التي تطلقون عليها اسم جماعة الأشقياء. بإمكاني أن أهبها لكِ يا تالي، طوال اليوم، وكل يوم، سوف تحصلين على درجة من اليقظة لا يمكنكِ تخيلها، إنها الصحوة الحقيقية، وليس فقط الهروب من الضباب الذي يلف عقول الحسان، بل شيء أفضل بكثير.»

– «عم تتحدثين؟»

قالت كابل وعيناها الباهتتان تلمعان ببريق بارد: «أتذكرين التحليق على متن اللوح الطائر يا تالي؟ ذلك الشعور بأنكِ على قيد الحياة؟ نعم، إن بإمكاننا أن نزرع الحسن بداخل البشر فيصبحوا فارغين وكسالى وتافهين، ولكن بإمكاننا أيضًا أن نجعلهم متيقظين وواعين، كما تطلقين أنتِ على ذلك الشعور. سوف تشعرين بحدة تلك اليقظة على نحو يفوق شعوركِ بها عندما كنتِ قبيحة، وستفوق في اتقادها شعور ذئب يقتنص فريسته. وسوف تغمركِ اليقظة أكثر مما كانت تغمر الجنود في العصر القديم حينما يتقاتلون على رقعة أرض صحراوية غنية بالنفط. سوف تصبح حواسكِ أشد رهافة، وسيصبح جسدكِ أسرع من جسد أي عداء في التاريخ، وستصبح عضلاتكِ في قوة عضلات أي إنسان في العالم.»

صمت صوت المرأة الحاد، وشعرت تالي فجأة أنها تستطيع سماع كل ما حولهما في الليل جيدًا، لقد كان باستطاعتها سماع صوت قطرات المياه المتساقطة من كتل الثلج المتدلية من الأشجار على الأرض الصلبة، وحفيف أوراق الأشجار التي تتمايل مع الرياح، وأصوات الشرر المتطاير من النار المشتعلة في الحطب من بعيد، وتمكنت كذلك من سماع الأصوات التي تدور في الحفل جيدًا، فالأشقياء يتحدثون بصوتٍ عالٍ عن الأعمال البطولية التي قاموا بها اليوم، ويتجادلون حول من منهم قام بأعلى قفزة أو أصعب محاولة هبوط. لقد جعلت كلمات كابل العالم من حولها يشبه في حدته البلور المهشم.

– «يجب أن ترى العالم كما أراه أنا يا تالي.»

– «أتعرضين عليّ ... وظيفة؟ أن أصبح واحدة من السلطات الخاصة؟»

– «أنا لا أعرض عليكِ وظيفة، ولكن أعرض عليكِ كيانًا جديدًا مختلفًا تمامًا.»

كانت دكتورة كابل تنطق كل كلمة بعناية متعمدة. «بإمكانكِ أن تصبحي واحدة منا.»

أخذت تالي تتنفس بصعوبة، وشعرت بنبضها يخفق في كل جزء من جسمها، وكأن الفكرة نفسها قد بدأت تغيرها من الآن. كشرت تالي عن أسنانها في وجه دكتورة كابل وهي تقول: «أتظنين أنني سأعمل لحسابك؟».

قالت دكتورة كابل وهي تهز رأسها: «فكري في الخيار الآخر المتاح أمامكِ يا تالي، وهو أن تقضي بقية حياتكِ بحثًا عن متع رخيصة، وتتجحين بعد جهد جهيد في أن تبقي يقظة وواعية لحظات قليلة في كل مرة، ولكن دون أن تصلي إلى الصفاء الذهني الكامل. ولكنكِ تصلحين لتكوني أحد عملاء السلطات الخاصة الممتازين، لقد نلتِ إعجابي حين سافرتِ إلى الضباب بمفردك، لطالما كنت أتوسم فيكِ الخير، ولكنني حينما رأيت أنكِ لا تزالين بارعة في الحيل حتى الآن وبعد أن خضعت للعملية أدركت أنك لا تزالين طبيعية، فلتنضمي إلينا».

شعرت تالي بومضة تضيء بداخلها حينما تكشفت أمامها في النهاية حقيقة ما وقالت: «أخبريني كيف كانت حياتكِ حين كنتِ قبيحة؟».

– «رائع يا تالي»، أطلقت المرأة ضحكتها الحادة القصيرة واستطردت: «أنت تعرفين الإجابة من قبل، أليس كذلك؟».

– «كنتِ من هواة الحيل».

أومأت كابل برأسها: «كنت مثلكِ تمامًا، كلنا كنا كذلك، كنا نذهب إلى الأطلال، ونحاول أن نهرب إلى أبعد من ذلك، وكانوا يعيدوننا إلى المدينة، ولذلك نسمح للقبحاء بأداء الحيل البسيطة لكي نعرف من هو أبرعهم، ولكي نرى من منكم يشق طريقه ليخرج من القفص، هذا هو الهدف من وراء حركة التمرد التي تقومون بها يا تالي: الترقي للالتحاق بالسلطات الخاصة».

أغمضت تالي عينيها، وأدركت أن المرأة صادقة، إذ تذكرت أيام القبح، كم كان من السهل خداع أنظمة الإشراف على عنبر النوم، وكيف كان الجميع يتمكنون من التغلب على القواعد، وأخذت تالي نفسًا عميقًا وقالت: «ولكن لماذا؟».

– «لأنه لا بد أن يكون هناك من يسيطر على الأمور يا تالي».

– «ليس هذا ما قصدته، إن ما أريد أن أعرفه هو لماذا تفعلون ذلك بالحسان؟ لماذا تغيرون عقولهم؟»

– «يا إلهي، ألم يتضح لكِ السبب يا تالي؟» هزت دكتورة كابل رأسها في خيبة أمل وقالت: «ماذا يعلمونكِ في المدرسة هذه الأيام؟».

أخذت تالي تسرد ما تلقنته: «أن سكان العصر القديم كادوا أن يدمروا العالم».

– «ها أنتِ قد أجبتِ على نفسكِ.»

– «ولكننا أفضل منهم، إننا لا نستغل الحياة البرية، ولا نستخرج المعادن من باطن الأرض ولا نحرق النفط، وليس لدينا حروب ...» حينئذ طرأ بعض الاضطراب على نبرة صوت تالي عندما بدأت تدرك الحقيقة.

أومأت دكتورة كابل برأسها وقالت: «نحن لا نخطئ يا تالي بفضل العملية، فالبشر يكونون كالبلاء إذا ظلوا على حالهم دون تعديل، فهم يتكاثرون بلا انقطاع، ويستهلكون كل موارد الطبيعة، ويدمرون كل شيء يقع تحت أيديهم، من دون تلك العملية يتحول البشر حتمًا إلى نسخة من سكان العصر القديم».

– «ولكن ليس في الضباب.»

– «تذكري ما حدث يا تالي، لقد قطع الضبابيون كل الأشجار، وقتلوا الحيوانات لأكلها، وعندما هبطنا هناك كانوا يحرقون أخشاب الأشجار.»

ردت تالي: «ليس بتلك الكثرة»، وأخذ صوتها يخبو ويضعف.

– «ماذا لو أصبح هناك ملايين من الضبابيين؟ وبعد فترة قصيرة، أصبح هناك مليارات منهم؟ إن البشرية التي تحقق الاكتفاء الذاتي لسكانها خارج حدود مدننا هي داء؛ سرطان ينتشر بجسد العالم، ولكننا نحن ...» ورفعت المرأة يدها مداعبة وجنة تالي، وأصابعها دافئة جدًا بالرغم من برودة هواء الشتاء: «السلطات الخاصة ... نحن الدواء لذلك الداء».

هزت تالي رأسها وهي تتراجع بخطوات متعثرة مبتعدة عن دكتورة كابل وقالت: «انسي هذا الأمر».

– «هذا هو ما كنتِ تريدينه دائمًا يا تالي.»

صاحت تالي: «أنت مخطئة، كل ما كنت أريده هو أن أصبح جميلة، إنكِ أنتِ دائمًا من تقفين في طريقي!»

ألجمتهما صيحة تالي، وترددت أصداء الكلمات الأخيرة في أرجاء الحديقة، وخيم الصمت على الحفل، فالجميع على الأرجح يتساءلون عمن تصرخ بصوت عالٍ هكذا عند الأشجار.

كانت دكتورة كابل هي أول من أفاقت من هذه الصدمة، فتنهدت بهدوء وقالت: «اهدئي يا تالي، لا داعي للصراخ. إذا كنتِ لا ترغبين في العرض الذي عرضته عليكِ فسوف أترككِ تعودين إلى الحفل، وأنتِ حرة في أن تكبري وتصبحي واحدة من الحسان القدامى المعتدين بأنفسهم، فسرعان ما ستتلاشى أهمية شعوركِ باليقظة، وستنسين هذه المحادثة القصيرة».

أخذت تالي تطيل النظر إلى عيني دكتورة كابل الجميلتين والقاسيتين، وكادت أن تفضي إليها بأمر الدواء، وأن تفاجئها به، ولكن كانت تالي مصممة ألا يغيب عقلها مرة أخرى، لن يحدث ذلك غدًا، ولا حتى بعد خمسين عامًا، لن تنسى تالي هويتها، إنها غير مضطرة لأن تكون واحدة من عملاء السلطات الخاصة حتى تشعر بأنها لا تزال على قيد الحياة.

وكان حلق تالي لا يزال يؤلمها من أثر الصياح ومع ذلك قالت بصوت أجش: «لن يحدث ذلك أبدًا».

– «كل ما أريده منكِ هو أن تفكري فيما عرضته عليكِ، وتمهلي حتى تصلي إلى قرار مناسب، فالأمر كله لا يهمني كثيرًا، فقط تذكري شعوركِ عندما تسقطين من حلبة التزلج، يمكنكِ أن تنالي هذا الشعور نفسه في كل لحظة من لحظات حياتكِ». ثم لوحت دكتورة كابل بيدها بلا مبالاة وقالت: «وإذا كان الأمر يهمك فربما أتمكن من العثور على مكان صديقك زين، لقد راقبته لفترة من الوقت، وكان قد ساعدني في إحدى المرات».

شعرت تالي برعشة تسري في جسدها وهزت رأسها: «لا».

أومأت دكتورة كابل برأسها وقالت: «نعم، لقد كان زين مستعدًا كل الاستعداد للإدلاء بمعلوماته حول ديفيد وحول الضباب، في تلك المرة التي لم يهرب فيها».

بعد ذلك استدارت المرأة واختفت بين الأشجار.

الفصل الرابع عشر

انشقاق

عادت تالي إلى الحفل وهي تمشي بخطوات مضطربة.

حينئذ ازدادت النيران المشتعلة وسط الهواء الطلق ضخامة، فأجبرت الحرارة المنبعثة منها المحتفلين على توسيع الدائرة من حولها. ذلك حيث كان قد حصل أحد الأشقياء على تصريح لعمل ألواح من الوقود النباتي بالحجم الصناعي تكفي لاستهلاك نسبة الكربون المسموح للكريمز جميعهم باستهلاكها على مدار شهر كامل. وقد ألقى الأشقياء بالأغصان المتساقطة التي جمعوها من الحديقة فوق هذه الألواح، فأخذ خشبها الأخضر يطقطق داخل ألسنة اللهب مذكرًا تالي بالنيران التي كانت تشعل لطهي الطعام، حينما كانت المياه التي تملأ القدور الموضوعة فوق جذوع الشجر المقطوعة لتوها تغلي مرسلة شحنات من البخار المتصاعد الذي يجسد أرواح الغابة الغاضبة.

نظرت تالي إلى أعلى باتجاه عمود الدخان القاتم الذي يتصاعد إلى السماء وكأنه نذير سوء، من هنا اكتسبت منطقة الضباب هذا الاسم، فمثلما قالت دكتورة كابل كان الضبابيون يحرقون جذوع الأشجار التي يجتثونها وهي حية من الأرض، فيتصاعد الدخان الكثيف مغطيًا السماء كالضباب.

لقد ظل البشر يلعبون هذه الخدعة لآلاف السنين، منذ عدة قرون، لقد دفعوا بكميات كبيرة من الكربون إلى الهواء تكفي لتخريب المناخ من أجل مصالحهم. فقط عندما أطلق أحدهم أعدادًا من البكتيريا المحللة للنفط في الهواء انتهت الحضارة القديمة، وأنقذ كوكب الأرض.

والآن يتجه الأشقياء غريزيًا نحو هذا الاتجاه نفسه وهم في أقصى حالات اليقظة والانتباه. أحست تالي فجأة أن دفء النار الذي يثير البهجة من حولها جعلها تشعر بأنها أصبحت أسوأ.

وترامت إلى سمعها الأصوات المتحدثة من حولها: فالأشقياء يتفاخرون بالمسافات التي قطعوها وثبًا في الهواء فوق ملعب الكرة ويتجادلون حول من أجرى أفضل مقابلة في برامج الأخبار.

وكان حوارها التعس مع دكتورة كابل قد زاد من حدة حواسها حتى إنه أصبح بإمكانها أن تميز كل صوت على حدة، وبوسعها أن تفكك خيوط الحوار خيطًا خيطًا. لقد بدا لها الأشقياء جميعهم فجأة مجموعة من الحمقى، يردد أحدهم للآخر حكايات انتصاراته وأفعاله البطولية، مثلما يفعل الحسان تمامًا.

– «الفتاة النحيفة؟».

استدارت تالي بعيدًا عن النار لتجد شاي واقفة بجانبها.

– «هل زين بخير؟» أنعمت شاي النظر في تالي عن قرب فاتسعت عيناها واستطردت: «تالي-واء أنتِ تبدين ....»

لم تكن تالي تحتاج لأن تسمع بقية الجملة، فقد قرأتها في عيني شاي: إنها تبدو في حالة سيئة للغاية، وارتسمت على وجه تالي ابتسامة متعبة عندما قرأت في عيني شاي تلك المعلومة. لقد كان هذا بالطبع جزءًا من تأثير الدواء، فهي ربما لا تزال تبدو أخاذة الجمال، وتكوينها العظمي لا يزال مثاليًا، وبشرتها لا تزال خالية من العيوب، ولكن وجه تالي يعكس حالتي الاضطراب والقلق الداخلي اللتين تعيشهما، فهي الآن تستطيع أن تفكر بمنطق مغاير للحسان والحسناوات، ولذلك لن تبقى جميلة في كل دقيقة من اليوم، فالغضب والخوف والقلق ليست من المشاعر التي تضفي جمالًا على الوجه.

– «زين بخير، إن الأمر يخصني».

استندت شاي على تالي وطوقتها بذراعها: «لماذا أنتِ حزينة أيتها النحيفة؟ أخبريني».

– «إنه فقط»، نظرت تالي حولها إلى الأشقياء الذين يتفاخرون بما فعلوه. «إنه كل شيء إلى حد ما».

خفضت شاي صوتها وقالت: «أرى أن الأمور صارت على نحو ممتاز اليوم».

– «بالطبع، كان كل شيء ممتازًا».

– «حتى أفرط زين في الشراب بالطبع. هذا هو كل شيء»، أليس كذلك؟».

أطلقت تالي صوتًا مبهمًا، لا يؤكد ما قالته شاي ولا ينفيه، فهي لم تكن تريد أن تكذب على صديقتها، فسوف تخبرها في النهاية بكل شيء عن الأقراص المعالجة، وهذا يعني أنها ستفسر لها أسباب آلام الصداع التي يعانيها زين.

تنهدت شاي وهي تضغط بيدها على تالي أكثر، وسرت لحظة من الصمت، سألتها بعدها: «ماذا حدث لكما بأعلى أيتها النحيفة؟».

– «بأعلى أين؟».

– «هل تعرفين، عندما تسلقتما برج الإرسال، لقد غيرتكما هذه التجربة.».

أخذت تالي تلعب بالكوفية الملفوفة حول ذراعها، وتمنت لو أنها تستطيع أن تخبر صديقتها بكل شيء، ولكن إطلاع أي شخص على أخبار الدواء قبل الخروج بأمان من المدينة هو مخاطرة كبيرة. «أنا لا أعرف ماذا أقول يا حولاء العين، إن الصعود إلى هناك جعلنا متيقظين ومنتبهين حقًا، فمن أعلى يمكن رؤية المدينة بأكملها، ويمكن أن تسقطي في أية لحظة، حتى إن الموت يعد احتمالاً قائمًا، وهذا يمثل فارقًا.»

همست شاي: «أنا أعرف».

– «تعرفين ماذا؟».

– «الإحساس الذي تخلفه تلك التجربة، لقد تسلقت البرج، لقد توصلت أنا وفاوستو إلى طريقة لاختراق أنظمة الإشراف الإلكترونية، وفي الليلة الماضية قررت أن أقوم بذلك، لكي أكون متيقظة عندما نخترق حلبة التزلج.».

– «حقًا؟» حدقت تالي في وجه شاي الذي انعكس ضوء النار عليه، إن وجهها يلمع زهوًا، وتألقت حبات الجواهر المزروعة في عينيها. إن الأشقياء جميعهم بدءوا يتغيرون، ولكن إذا كانت شاي تستطيع أن تخترق أنظمة الإشراف الإلكترونية وتتسلق برج فالانتينو، فهذا يعني أنها تتفوق على بقية أعضاء الفريق. «هذا رائع، وتسلقت البرج ليلًا؟».

– «هذه هي الطريقة الوحيدة لكي نفلت بعملتنا تلك، فقد استطاعت السلطات الخاصة أن ترصدكما أنتِ وزين. لقد قال فاوستو إنني يجب أن ارتدي سترة مطاطية، ولكنني أردت أن أفعل مثلكِ تمامًا، فكان يمكن أن أسقط — أن أموت مثلما قلتِ — حتى إنني أصبت بجرح عند احتكاكي بأحد الكابلات.».

ارتسمت ابتسامة على شفتي شاي وهي تكشف لتالي عن خط أحمر يمتد فوق راحتها، ولكنها توقفت بعد ذلك لحظة، وارتسمت على جبهتها بعض الخطوط التي لم تكن تساير جمالها. «ولكنها كانت تجربة محبطة إلى حد ما.».

– «كيف؟».

– «لم تغيرني كثيرًا كما ظننت أنها ستفعل.».

هزت تالي كتفيها وقالت: «لا بأس، فكل فرد يختلف عن الآخر ...».

قالت شاي بصوت خفيض: «أنا أظن ذلك، ولكن ذلك دفعني إلى أن أتساءل ... لم يحدث ذلك لكما فقط لأنكما تسلقتما البرج، أليس كذلك؟ هناك شيء آخر حدث في ذلك اليوم يا نحيفة. إنكِ لم تخرجي من قبل للتنزه مع زين بمفردكما، ولكن منذ هذا اليوم أصبح لديكما أنتما الاثنان العديد من الأسرار التي تتهامسان طوال الوقت بها، ولا يذهب أحدكما إلى أي مكان دون الآخر».

قالت تالي: «يا حولاء العين ...» ثم تنهدت واستطردت: «أنا آسفة إذا كانت تصرفاتنا كصديقين قد سيطرت علينا، ولكنك تعرفين أن هذه هي أول قصة حب أعيشها وأنا واحدة من الحسان».

حدقت شاي بالنار وقالت: «هذا ما ظننته في البداية، ولكن الأمر قد تخطى ذلك يا تالي، أنتما تختلفان كثيرًا عن بقية الأشقياء، كلاكما». واستطردت شاي بنبرة صوت أعلى من الهمس: «زين تهاجمه آلام الرأس الغريبة تلك التي يحاول أن يخفيها، وأنتِ من كنتِ تصرخين منذ دقيقة، أليس كذلك؟».

ابتلعت تالي ريقها.

– «ما الذي غيركما هذا اليوم؟».

أشارت تالي إلى رسغها وقالت: «اصمتي!».

– «لا تسكتيني! أخبريني».

نظرت تالي حولهما في توتر، حيث كانت النيران تبتلع المزيد من الفروع المتساقطة على الأرض، فعَلا صوتها، وكان معظم الأشقياء ينشدون أغاني عن الشراب والخمر، فلم يسمع أحد كلمات شاي الثائرة، ولكن تالي تشعر بأن السوار المعدني الصلب الذي يحيط برسغها دائمًا يتلصص عليها. «لا أستطيع أن أخبركِ يا حولاء».

– «نعم، بإمكانكِ أن تخبريني». عندما نظرت تالي إلى وجه شاي في ضوء النار بدا لها أنه تغير، فكلما ازداد غضبها خبت ملامحها الجميلة الناعمة: «أتعرفين يا تالي، لقد تذكرت بعض الأشياء عندما وصلت إلى أعلى البرج، وأنا أحدق إلى الأرض من تحتي وأتساءل عما إذا كنت سأموت أم لا، وعندما كنت أسقط من حلبة التزلج وأقفز فوق ملعب الكرة تذكرت بضعة أشياء أخرى. الكثير مما حدث أيام القبح عاد مرة أخرى إلى رأسي، أليس ذلك عظيمًا؟».

حولت تالي بصرها عن تلك الملامح القاسية التي تغطي وجه شاي: «نعم، بالطبع هذا عظيم».

– «أنا سعيدة لأنكِ توافقينني الرأي. إليكِ ما تذكرته: بسببكِ أنتِ يا تالي أنا هنا الآن في المدينة. ماذا عن كل تلك القصص التي كنت أحكيها؟ كلها كانت خاطئة. ما حدث فعلًا هو أنك تبعتني خارج المدينة إلى منطقة الضباب لكي تخونيني، أليس ذلك صحيحًا؟»

شعرت تالي بذلك الشيء مرة أخرى، الشيء نفسه الذي اعتصر معدتها عندما رأت دكتورة كابل بين الأشجار. لقد افتضح أمرها؛ منذ تلك اللحظة التي شعرت فيها بتأثير القرص المعالج عليها شيء ما بداخلها كان يعرف أن هذه اللحظة ستأتي، وأن شاي ستتذكر في النهاية حقيقة ما حدث عندما كانت هي وتالي قبيحتين. ولكن تالي لم تتوقع أنها ستأتي بهذه السرعة: «نعم، لقد تتبعتكِ لكي أعيدك مرة أخرى إلى هنا، وما حدث لمنطقة الضباب هو خطأي، فقد تعقبتني السلطات الخاصة إلى هناك.»

– «هذا صحيح، لقد خُنتنا بعدما سرقت ديفيد مني بالطبع.» ابتسمت شاي في مرارة واستطردت: «أنا أكره أن أثير موضوع ديفيد بأكمله، ولكن من يعرف إذا كنت سأظل أتذكره غدًا، أنت تعرفين. ولذلك فكرت في أن أذكره لك وأنا متيقظة.»

استدارت تالي لكي تنظر إليها وقالت: «سوف تتذكرينه.»

هزت شاي كتفيها وقالت: «ربما، ولكن خدعة مثل تلك التي قمنا بها اليوم لا تتاح لنا كثيرًا، ولذلك قد يُغَيِّب عقلي مرة أخرى غدًا.»

أخذت تالي نفسًا عميقًا، وملأت رئتيها برائحة الدخان المتصاعد من الأغصان الخشبية، والوقود النباتي المحترق وأوراق أشجار الصنوبر الرفيعة، والشمبانيا التي سكبت من الكئوس. فقد بدا كل شيء واضحًا في ضوء النار وكأنها في وضح النهار، حتى إن تالي ترى الخطوط الرفيعة المتجعدة لبصمات أصابعها. لم تكن تعرف كيف يمكن أن ترد على شاي.

قالت شاي: «انظري إليَّ». وكان الوشم على وجهها يدور بعنف حتى إن الثعابين المحيطة برأسها تداخلت فيما بينها مثلما تتداخل الخطوط المعدنية الرفيعة في إطار دراجة يدور بسرعة. استطردت شاي: «قولي لي ماذا حدث في ذلك اليوم. اجعليني متيقظة دائمًا. أنت مدينة لي بذلك.»

ابتلعت تالي ريقها، فهي وزين قد تعاهدا على ألا يخبرا أي شخص بهذا الأمر. لم يحن الوقت بعد. ولكنهما لم يدركا إلى أي مدى وصلت شاي. لقد أصبحت متيقظة بما يكفي حتى إنها أقدمت على تسلق البرج بمفردها، وتذكرت في النهاية حقيقة ما

حدث في أيام القبح الماضية. ربما تكون قادرة على أن تحتفظ بالسر، إن معرفتها بأمر الدواء سوف تعطيها أملًا، على الأقل. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تمكن تالي من أن تبدأ في تعويض شاي عما فعلته بها.

شاي محقة، هي مدينة لها.

– «لقد حدث شيء آخر في ذلك اليوم.»

أومأت شاي برأسها ببطء: «كما ظننت. ما هو؟».

أشارت تالي إلى كوفية شاي، فخلعتاها معًا من حول ذراع شاي ولفتاها بإحكام حول رسغ تالي لتكون طبقة أخرى فوق سوارها. أخذت تالي نفسًا وخفضت صوتها قدر ما تستطيع وهمست لشاي: «لقد وجدنا دواءً».

ضيقت شاي عينيها وهي تقول: «إنه يتطلب الامتناع عن الطعام، أليس كذلك؟»

– «نعم، آه ... هذه كلها أشياء مساعدة: الجوع وشرب القهوة والقيام بالخدع التي تخالف القواعد. كل هذه الأشياء كان زين يقوم بها منذ شهور. ولكن الدواء الحقيقي... هو أبسط من ذلك.»

– «ما هو؟ سوف أفعله.»

– «لا يمكنك ذلك.»

– «اللعنة عليك يا تالي»، برقت عينا شاي واستطردت: «إذا كان بإمكانكِ أن تفعلي ذلك فبإمكاني أن أفعله!»

هزت تالي رأسها وقال: «إنه قرص».

– «قرص؟ مثل أقراص الفيتامينات؟»

– «لا، إنه قرص خاص أحضره كروي إليَّ ليلة الحفل الذي أقيم بقصر فالانتينو، حاولي أن تتذكري يا شاي. قبل أن أعود معكِ إلى المدينة مرة أخرى توصلت مادي إلى طريقة لعلاج الإصابات التي تحدثها العملية، لقد ساعدتني على أن أكتب رسالة، أتتذكرين؟»

بدا وجه شاي خاليًا من أي تعبير للحظة، ثم قطبت جبينها وقالت: «هذا عندما صرت حسناء.»

– «هذا صحيح، بعدما أنقذتكِ أنا وديفيد، كنا نختبئ حينها في الأطلال خارج المدينة.»

هزت شاي رأسها وقالت: «شيء غريب أنني أجد صعوبة في تذكر تلك الأيام أكثر من أيام القبح».

– «حسنًا لقد توصلت مادي إلى علاج، ولكنه كان خطيرًا لأنه لم يجرب بعد، ولم تكن لتعطيه لكِ، لأنكِ رفضتِ، لقد كنتِ ترغبين في أن تظلي حسناء. ولذلك ضحيت بنفسي حتى نختبر الدواء، وهذا هو سبب وجودي هنا الآن.»

– «وكرووي أحضره لك من شهر مضى؟»

أومأت تالي برأسها، وهي تمسك بيد شاي وقالت: «وقد نجح، فقد رأيتِ كيف غيرَنا الدواء أنا وزين، إنه يجعلنا متيقظين طوال الوقت، وما إن نخرج من هنا سيصبح بإمكانكِ ...» توقفت الكلمات على شفتي تالي عندما اصطدمت عيناها بملامح شاي.

– «ماذا هناك؟»

– «أنتِ وزين، كل منكما تناول كمية من الدواء؟»

قالت تالي: «نعم، كان هناك قرصان وتقاسمناهما، كنت خائفة من أن أتناولهما وحدي.»

استدارت شاي لتواجه النار وهي تسحب يدها من يد تالي: «لا يمكنني أن أصدقك يا تالي.»

– «ماذا؟»

استدارت شاي بسرعة لتواجهها. «لماذا هو؟ لماذا لم تطلبي مني أنا أن أشاركِ؟».

– «ولكنني ...»

– «من المفترض أنكِ صديقتي يا تالي، لقد فعلت كل شيء من أجلكِ. أنا أول من أخبركِ عن الضباب، أنا من قدمتكِ إلى ديفيد، وعندما أتيتِ إلى مدينة الحسان الجدد ساعدتكِ لكي تنضمي إلى الأشقياء. هل خطر ببالك أن تتقاسمي الدواء معي؟ فكوني أصبحت هكذا هو خطؤكِ أنت أساسًا!»

هزت تالي رأسها وقالت: «لم يكن هناك وقت ... حتى إنني لم ...»

قالت شاي بحدة: «لا، بالطبع، لم يخطر ذلك لكِ، كنتِ تعرفين زين بالكاد، ولكنه هو قائد الأشقياء، لذلك فمصادقته هي أولى الحيل التي يجب أن تنجزيها، مثلما فعلتِ مع ديفيد عندما كنا في الضباب خارج المدينة، ولذلك تقاسمت الدواء معه».

صاحت تالي: «أنا لست هكذا!».

– «بل أنتِ كذلك يا تالي، ولطالما كنتِ هكذا! وليس هناك دواء يمكن أن يغيركِ، منذ وقت طويل وأنتِ مشغولة بخيانة من حولكِ، لم تكوني بحاجة إلى عملية

جراحية لكي تصبحي إنسانة أنانية وسطحية لا ترى سوى نفسها، لقد كنتِ كذلك بالفعل.»

حاولت تالي أن ترد عليها، ولكن الكلمات حبست في حلقها ولم تستطع الخروج، ثم انتبهت تالي إلى الهدوء الذي خيم على المكان من حولهما، فأدركت أن شاي كانت تصرخ بصوت عالٍ، والأشقياء ينظرون إليهما في ذهول وحيرة، وخيم الصمت على المكان فلم يعد يسمع صوت سوى حسيس النار. إن الحسان لا يتشاجرون، إنهم حتى نادرًا ما يدخلون في جدال، وهم بالطبع لا يصرخ بعضهم في وجوه بعض في منتصف إحدى الحفلات؛ فهذا السلوك البغيض لا يقوم به سوى القبحاء.

نظرت تالي إلى رسغيها، وتساءلت هل نفذ صوت شاي المرتفع عبر طبقات الملابس والسترة البلاستيكية إلى سوارها، إذا كان ذلك قد حدث فسوف ينتهي كل شيء الليلة.

ابتعدت شاي عنها وهي تهمس بلهجة عنيفة: ربما يعود ضباب الحسن ليغلف عقلي من جديد غدًا يا تالي، ولكنني أقسم بأنني سأتذكر ذلك دائمًا. مهما قلت لكِ من كلمات عذبة ورقيقة فلا تثقي بذلك: أنا لست صديقتك. استدارت شاي وأخذت تسير بين الأشجار وهي تشق طريقها بخطوات عنيفة بين الأغصان المتجمدة.

نظرت تالي حولها إلى الأشقياء الآخرين، حيث لمعت كئوس الشمبانيا التي يمسكون بها بشدة تحت ضوء القمر، عاكسة ألسنة اللهب الضخمة، فالجميع يحدق بها، وشعرت تالي بأنها وحيدة وعارية أمام نظراتهم، ولكنهم ما لبثوا أن حولوا أنظارهم عنها بعد بضع لحظات من الصمت الرهيب، وبدءوا يقصون من جديد حكايات اختراقهم لحلبة التزلج.

شعرت تالي بدوار في رأسها، لقد تبدل حال شاي تمامًا، وتغيرت تغيرًا مفزعًا، مع أنها لم تتناول قرصًا معالجًا؛ لقد تحولت من حسناء رقيقة إلى وحش كاسر فقط لأن مشاعر الغضب الحقيقية اشتعلت بداخلها بضع دقائق ... إن هذا غير منطقي بالمرة.

فجأة تذكرت تالي ما قالته دكتورة كابل لها في نهاية حوارهما حول مساعدة زين للسلطات الخاصة. لا بد أن عملاء السلطات الخاصة قد أرسلوه إلى دكتورة كابل بعد أن هرب أصدقاؤه من المدينة، فاعترف لها بكل ما يعرفه عن منطقة الضباب وذلك الشخص المجهول الذي يدعى ديفيد، والذي يأخذ القبحاء إلى هناك.

ربما كان هذا ما أبقاه متيقظًا طوال كل هذه الشهور؛ شعوره بالخجل لأنه لم يهرب مع أصدقائه، وشعوره بالذنب لأنه خانهم واعترف لدكتورة كابل بما يعرفه عنهم.

بالطبع كانت تالي تحتفظ هي الأخرى بأسرار مشينة أثارت شعورها بالذنب، ولذلك ظلت متيقظة، لم تشعر قط بأنها منسجمة مع عالمها الجديد، ولم تكن يومًا متأكدة مما تريده، مهما شربت من شمبانيا، لقد كانت ذكرياتها القديمة عن عالم القبح تختبئ بداخلها وتنتظر اللحظة التي ستنطلق فيها لتغير تالي.

لقد تغيرت شاي هي الأخرى، ليس من خلال شعورها بالذنب، ولكن عن طريق الغضب المدفون بداخلها، فقد كانت ابتسامتها الحسناء تخفي تحتها ذكرياتها التي طويت بداخلها عن الخيانة التي جعلتها تخسر ديفيد ومنطقة الضباب، وأخيرًا كلفتها حريتها.

كل ما كانت شاي تحتاجه هو أن تتسلق ذلك البرج، وتسقط من فوق حلبة التزلج، كانت تلك الأحداث المثيرة كافية جدًا لكي تزيح الستار عن ذكرياتها، وتفجر بركان الغضب المدفون بداخلها، هي الآن تكره تالي. وربما لن تحتاج شاي إلى أي أقراص معالجة على الإطلاق، فقد يكون رصيدها من الذكريات القديمة عن أيام القبح كافيًا، ربما تفتح كل الأفعال الشنيعة – التي ارتكبتها تالي يانج بلود في حقها – الطريق إلى العلاج أمام شاي.

الفصل الخامس عشر

الأمطار

استيقظت تالي بذهن قبيح.

لقد كان هذا هو ما اعتادت أن تطلق عليه اليقظة أو الانتباه والصحوة — وكان هناك بصيص من بريق يعلق بضوء النهار الرمادي الحاد مثل السهام التي تخترق الأجساد، وكانت قطرات المطر نصف المتجمدة ترشق النافذة بطرقات حادة متلاحقة.

لم تكن الأمطار تضايقها، فهي تحجب معالم أبراج الاحتفالات وحدائق المدينة، وكل ما يمكنها رؤيته هو مساحات من اللونين الأخضر والرمادي، وكان الزجاج — الذي بللته مياه المطر — يعكس بريق أضواء القصور الأخرى.

لقد بدأت الأمطار تنهمر في وقت متأخر ليلة الحفل، مطفئة في النهاية النار التي أشعلها الأشقياء، وكأن دكتورة كابل قد طلبت من السماء أن تغرق احتفالهم بأمطارها.

يومان مرا، وتالي وزين محبوسان بالداخل، لا يستطيعان أن يتحدثا بحرية داخل جدران قصر بولشر الذكية. إنها حتى لم تتمكن من إخباره بهطول الذكريات القديمة على رأس شاي، ولا عن مقابلتها لدكتورة كابل في الغابة. وليس ذلك يعني أن تالي لا تتوق إلى أن تكشف لزين ما اعترفت به لشاي، أو أن تتحدث معه فيما قالته دكتورة كابل عن ماضيه.

وكان هناك كومة أخرى من الرسائل تنهال عليها هذا الصباح، ولكنها لم تعد تستطيع أن تواجه أي طلبات جديدة للانضمام إلى الأشقياء، فانهيار حلبة التزلج فوق الإستاد والتغطية الإخبارية التي أعقبت هذا الحدث في اليومين الماضيين جعلا الأشقياء من أشهر الجماعات في مدينة الحسان الجدد، ولكن انضمام مجموعة من الأعضاء الجدد إلى الجماعة هو آخر ما يحتاج إليه الأشقياء، ما يحتاجونه فعلًا هو أن يظلوا متيقظين ومنتبهين، وكانت تالي تشعر بالقلق من أن يومًا ثالثًا من

الأمطار التي أجبرت الجميع على البقاء داخل القصور قد يعود بعقول الجميع إلى أسر ضباب الحسن مرة أخرى.

استيقظ زين وبدأ يحتسي قهوته وهو يحدق فيما يظهر وراء زجاج النافذة ويدير أحد أصابعه حول سواره في شرود، فنظر إليها وهي تنهض من الفراش، ولكنه لم يتحدث. لقد كان الصمت الذي جمع بينهما منذ أن وضعوا سواري الاتصال في يديهما جعلهما يبدوان وكأنهما يحيكان مؤامرة، حيث كانا يتهامسان بأسرارهما الخاصة، وكانت تالي متحيرة مما إذا كانت قلة الأحاديث تباعد بينهما شيئًا فشيئًا. لقد كانت شاي محقة في هذا الأمر، إنها لم تكن تعرف عن زين سوى القليل قبل ذلك اليوم الذي تسلقا فيه البرج، وما قالته دكتورة كابل لها جعلها تدرك أنها لا تزال لا تعرفه جيدًا.

ولكن عندما يتخلصان من هذين السوارين، ويغادران المدينة وتتحرر ذكرياتهما من قيود ضباب الحسن الذي يلفها، لن يمنعهما شيء من أن يخبر أحدهما الآخر بكل شيء.

قالت تالي: «الطقس سخيف، أليس كذلك؟».

– «إذا انخفضت الحرارة بضع درجات سوف تمطر ثلجًا».

تهللت أسارير تالي وقالت: «نعم، سوف يكون الثلج رائعًا للغاية». عندئذ تناولت تالي أحد القمصان المتسخة من الأرض وكورته على بعضه ثم قذفته تجاه رأسه: «حرب كرات الثلج!» ترك زين القميص المتكور يسقط على الأرض بعد أن ارتطم بوجهه، وابتسم برفق. فلقد تلاشت آلام الصداع التي داهمت زين ليلة الحفل، ولكنها أضفت على حالته المزاجية الجدية والرصانة. لم يتبادل الاثنان كلمة واحدة، ولكنهما يعرفان أن عليهما أن يتركا المدينة سريعًا.

إن الأمر كله متوقف على السوارين.

جذبت تالي سوارها، لترى هل ستتمكن من إخراجه من يدها، فانزلق السوار من معصمها حتى راحتها ثم توقف. إنها لا تحتاج إلا بضع سنتيمترات حتى تخلعه. لم تأكل تالي أي شيء تقريبًا بالأمس، فقد صممت على أن تخسر كل ما بجسدها من شحوم إذا كان ذلك ما سيمكنها من أن تخلع ذلك السوار من يدها، ولكنها تساءلت عما إذا كان بإمكانها أن تصبح نحيفة بما يكفي، فقطر السوار يبدو أصغر قليلًا من عرض عظام راحتها، وهذا العرض لن يقل مهما حاولت أن تجوع نفسها.

حدقت تالي في العلامات الحمراء التي خلفها السوار المعدني على معصميها، فعظمة مفصل الإبهام هي أكبر العظام الموجودة براحة يدها، وهي أيضًا تمثل الجزء الأكبر من المشكلة، و بدا لها أنها يمكن أن تجذب إبهامها إلى الخلف بقوة تكفي لكسر تلك العظمة حتى تفسح الطريق أمام السوار لكي تتمكن من خلعه من يدها، ولم تتخيل تالي أنه سيكون هناك شيء أكثر إيلامًا من تلك الفعلة.

انطلق رنين الباب، وتنهدت تالي، فلا بد أن أحدًا ما قد تعب من تجاهلهما له، فأتى بنفسه ليراهما.

قال زين: «نحن لسنا هنا، أليس كذلك؟»

هزت تالي كتفيها، إذا لم تكن شاي هي التي بالخارج، أو واحد من راغبي الانضمام إلى الأشقياء، وعندما فكرت في الأمر، وجدت أن حالتها المزاجية لا تسمح لها برؤية أي شخص.

رن جرس الباب مرة أخرى.

سألت تالي الغرفة: «من يكون الطارق، على أية حال؟» ولكن الغرفة لم تستطع أن تتعرف عليه، وهذا يعني أن الشخص الذي يطرق الباب لا يرتدي خاتم الاتصال الخاص به.

قال زين: «هذا ... غريب.»

تبادلا النظرات للحظة، وشعرت تالي أن الفضول قد استحوذ عليهما.

قالت تالي للغرفة: «حسنًا، افتحي الباب». انزلق الباب جانبًا، وظهر فاوستو، إنه يبدو كقطة صغيرة انتشلت من النهر، فقد التصق شعره المبلل برأسه، وبدت ملابسه مشبعة بالماء، ولكن عينيه تبرقان، ويحمل لوحين طائرين تحت ذراعيه، والمياه تقطر من سطحيهما اللذين زودا بمفاتيح تحكم دائرية. دخل فاوستو إلى الغرفة، ودون أن ينطق بكلمة واحدة أسقط اللوحين من تحت ذراعيه، فظلا عالقين في الهواء على ارتفاع بسيط من الأرض، وأخرج فاوستو من جيبه أربعة أساور واقية من الارتطام واثنين من أجهزة الاستشعار التي تعلق حول البطن.

أمسك فاوستو بأحد اللوحين وقلبه إلى أسفل وأومأ برأسه إلى الفتحة المؤدية إلى الأسلاك الموجودة أسفل اللوح، وتدحرجت تالي من فوق الفراش ونهضت لكي تنظر إلى اللوح عن قرب؛ لقد كانت الألواح التي تغطي فتحة الأسلاك منزوعة، وقد أطل اثنان من الأسلاك الحمراء من تلك الفتحة، وأحاط شريط لاصق أسود بطرفيهما اللذين جُدلا معًا.

مثل فاوستو بحركات جسمه كيف نزع السلكين، ثم فتح يديه بحركة تعني «أين هي؟» وارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه.

أومأت تالي برأسها ببطء، حيث كان فاوستو لا يزال متيقظًا ومنتبهًا منذ يوم اختراق الحلبة، فنقوش الوشم المرسومة على وجهه تدور مع ضربات قلبه. إنه على الأقل لم يضع الوقت في اليومين المطرين السابقين، فقد تمكن من خداع اللوحين بالطريقة نفسها التي يستخدمها القبحاء. فعند نزع الأسلاك تتحطم أنظمة التعقب والتحكم الخاصة بها، وتتحرر الألواح الطائرة من شبكة الاتصال الخاصة بالمدينة.

حالما يتخلصان من سواريهما يمكن أن يطير زين وتالي إلى أي مكان يريدان أن يذهبا إليه.

– «مدهش»، هذا ما قالته تالي بصوت عالٍ، غير مكترثة بالجدران التي يمكن أن تسمعها.

لم ينتظرا حتى يسطع ضوء الشمس.

الطيران تحت المطر أشبه بالوقوف تحت رشاش من المياه المتجمدة، وأخرج لهما القلب الذكي الطارات الواقية والأحذية ذات النعال المثبتة للقدم التي تضمن لهما أن يبقيا ثابتين على سطح اللوحين، ولكن مع هطول المطر لا يمكنهما الاعتماد على هذه الأحذية اعتمادًا كبيرًا.

التصقت سترة تالي التي تشبعت بالمياه بجسدها نتيجة الرياح التي تنشط بقوة بأعلى والتي أطاحت بغطاء الرأس الذي ترتديه تالي وكادت تطيح بها هي نفسها من فوق سطح اللوح مع كل انعطافة. ولم تضعف ردود أفعالها الانعكاسية التي كانت تصدر عنها في أيام القبح عند الطيران، فإذا كانت عملية التحول قد أثرت عليها في شيء فقد زادت من قدرتها على الحفاظ على توازنها، وقد حالت قطرات المطر، التي كادت أن تتجمد، دون تسلل ضباب الحسن إلى عقلها، حتى عندما يعمل جهاز التدفئة الموجود بسترتها بأقصى طاقته. لقد ظل ذهنها صافيًا وتفكيرها شفافًا مثل قطعة من البلور، بفضل ضربات قلبها المتسارعة وأسنانها التي تصطك بعضها ببعض من البرودة.

عمدت هي وزين إلى الهبوط تجاه النهر على ارتفاع مساوٍ لقمم الأشجار، متبعين الطريق المتعرج الذي يمر بحديقة دينزيل بارك، وكانت الأغصان تتمايل من تحتهما مع الرياح وكأنها أياد تتأرجح في الهواء تريد أن تمتد لأعلى لتجذبهما إلى أسفل.

واختفت آخر آثار ضباب الحسن التي كانت لا تزال عالقة بذهنها منذ الصباح وهي تنحني إلى اليسار أو اليمين لكي يستدير اللوح الطائر، وكانت تشعر بوزن جهاز الاستشعار المثبت على حلقة البطن التي ترتديها، والذي يخبر اللوح الطائر عن مركز الجاذبية الخاص بها. وكان هذا الشعور ليعيد إليها ذكرياتها عن الرحلات الاستكشافية التي كانت تقوم بها هي وشاي إلى أطلال المدينة القديمة، وتذكرت كيف كان من السهل التسلل خارج المدينة عندما كانت قبيحة.

كل ما كان يعكر صفوها هو سوار الاتصال الذي يحيط بمعصمها ولا تستطيع أن تخلعه. وكانت الأساور الواقية من الارتطام كبيرة بما يكفي لكي تغطي حلقة سوار الاتصال المعدنية، فقد تكيفت المواد البلاستيكية اللينة والذكية المصنوعة منها تلك الأساور مع شكل سوار الاتصال، ولكن ذلك القيد المعدني لا يزال يطوف بتصورها وهو يخترق جلدها لينشب حوافه في يدها.

عندما وصلا إلى النهر استدارا منطلقا فوقه، فانزلق لوحاهما بخفة تحت الجسور، وارتطم لوح تالي بالأمواج المتلاطمة ذات القمم البيضاء التي حركتها الرياح، فضحك زين بهستيرية، وانطلق بلوحه فوقف أمامها وغمس ذيل لوحه في الماء، فتكون جدار عالٍ من رذاذ المياه.

ثنت تالي ركبتيها إلى أسفل وانحنت إلى الأمام، لكي تتجنب الارتطام بأكثر الأمواج قوة، ثم مالت بمقدمة اللوح إلى الأمام لكي تسبق زين، واستدارت بلوحها الذي مال تجاه أحد جانبيه لكي تعترض مساره فارتطم اللوح بالنهر محدثًا جدارًا من الماء أمامه، وترامى إلى سمعها صوت زين وهو يصيح مخترقًا ذلك الجدار اختراقًا مباشرًا.

كانت تالي تلهث بشدة والمياه تغطي ملابسها، وتساءلت هل ذلك هو ما يكون عليه عملاء السلطات الخاصة؟ الحواس الحادة، واللحظات المشحونة بالمشاعر والأحداث، والأجسام التي تتحرك بدقة وكأنها آلات أوتوماتيكية.

حينئذ تذكرت تالي أن آز ومادي قالا لها ذات مرة إن عملاء السلطات الخاصة ليس لديهم أية إصابات بأنسجة المخ؛ فقد عولجوا.

ولكن بالطبع هناك ثمن يدفعه عملاء السلطات الخاصة؛ الوجه الجديد الذي يكتسبوه: أسنان شبيهة بأنياب الذئاب، وعينان باردتان بلا بريق يثيران الرعب في نفس كل من يراهما. ولكن هذا المنظر الشبيه بأبطال أفلام الرعب يعتبر شيئًا هينًا

[illegible] فوريًا بالعمل لدى السلطات الخاصة، وتنفيذ الواجبات الخاصة بهذا العمل بما في ذلك تتبع القبحاء الهاربين، وتدمير أي شخص تشعر السلطات أنه يهدد المدينة.

ولكن ماذا لو كانت عملية التحول التي يخضع لها عملاء السلطات الخاصة تغير أذهانهم على نحو ما، فيتخلصون من العقول الفارغة، ليصبحوا متصاعين للأوامر؟ فما يمتلكونه من قوة وسرعة يمكنهم بسهولة من الفرار من المدينة، ولكن ماذا لو كانت تلك العملية تزرع بداخلهم شيئًا مثل سوار الاتصال الذي يقيد معصم تالي، شيئًا يبلغ السلطات الخاصة بأماكنهم طوال الوقت؟

ألقى زين بحفنة من المياه على وجه تالي مذكرًا إياها باللعبة التي يلعبانها معًا، فانطلقت تالي عاليًا في الهواء وارتفعت بلوحها فوق أحد جسور المشاة، أما زين فقد نظر حوله بالأسفل في حيرة، محاولًا أن يعرف أين اختفت تالي.

حينئذ هبطت تالي أمامه مباشرة، وضربت صفحة النهر بلوحها الطائر، فاندفع تيار عنيف من المياه عاليًا، لكنها عرفت على الفور أن ارتطامها بالنهر كان أسرع مما يجب، فمع هذه السرعة العالية كانت المياه صلبة مثل الإسمنت، فانزلقت قدما تالي نتيجة ارتطامها بها، وسقطت من فوق سطح اللوح الطائر...

وفي لحظة هوت إلى أسفل، فبدأ السواران الواقيان من الارتطام يعملان، أمسكا بمعصميها بقوة ولفاها، فتوقفت عن السقوط وأصبحت في وضع آمن.

ظلت تالي تتأرجح وهي متدلية من السوارين الواقيين من الارتطام ونصف جسدها منغمس في مياه النهر قارسة البرودة، وكانت تصيح بصوت عالٍ إذ اكتشفت مستوى جديدًا من الانغماس في المياه. شعرت تالي بالبهجة لأن هجومها أوقع بزين أيضًا في النهر.

صاح زين وهو يجذب نفسه إلى أعلى ليعتلي سطح لوحه الطائر مرة أخرى:
«حركة رائعة حقًا يا نحيفة.»

لم تستطع تالي أن تجيبه لأنها تلهث بشدة، وزحفت حتى وصلت إلى اللوح الطائر واستلقت على وجهها وهي تضحك، ودون أن يتحدث الاثنان هبطا بلوحيهما على ضفة النهر ليلتقطا أنفاسهما.

على ضفة النهر الموحلة جلس الاثنان متجاورين ليستمد كل منهما الدفء من الآخر. وكان قلبها لا يزال يدق بعنف، وصفحة النهر التي تضربها قطرات المطر تمتد أمامهما وكأنها بستان من الزهور اللامعة.

قالت تالي: «يا لجمالها!»، وحاولت أن تتخيل كيف سيكون الوضع عندما تذهب إلى البرية مع زين، عندما يكون الشعور الذي تحسه الآن ملكًا لها كل يوم، وتتحرر من قوانين المدينة التي تشل تفكيرها.

كانت العروق بمعصمها تنبض بشدة، فخلعت السوار الواقي من الارتطام لتتفقده، لقد جرحها سوار الاتصال المعدني عندما كانت تسقط من فوق سطح اللوح الطائر. حاولت تالي أن تخلع السوار من يدها ولكنه توقف عند النقطة نفسها رغم أن جلدها مبلل.

قالت تالي: «لا يزال عالقًا».

أمسك زين بيدها وقال بصوت منخفض: «لا تسحبيه يا تالي». غطى زين السوار بسترتها واستطرد وهو يهمس: «كل ما سيحدث هو أن معصمك سوف يتورم».

بدا عليها الضيق الشديد، ووضعت غطاء الرأس البلاستيكي المثبت بسترتها على رأسها، فراحت قطرات المطر تنقره وكأنها طرقات متلاحقة. «ظننت أنه مع الماء ربما ...»

«لا، فالمعادن تتكمش بالبرودة، ولذلك فالسواران غالبا سيكونان أضيق ونحن هنا بالخارج».

نظرت تالي إلى زين وهي ترفع حاجبها وقالت: «أهذا يعني»، ثم استطردت وهي تهمس: «أنهما قد يصبحان أكبر إذا تعرضا للحرارة؟»

ظل زين صامتًا لحظة، ثم قال بصوت منخفض للغاية، حتى إن صوته لا يكاد يُسمع مع صوت المطر: «إذا سُخِّنا فعلًا؟ أظن أن قطرهما سيزداد قليلًا».

- «إلى أي حد؟»

هز زين كتفيه، ولكن سترتها الثقيلة كادت تخفي تلك الحركة، لقد بدا عليه الاهتمام الآن وهو يرد عليها: «إلى أي مدى يمكنكِ تحمل الحرارة؟»

- «أنت لا تتحدث عن حرارة شمعة، أليس كذلك؟»

هز زين رأسه: «شيء أكثر سخونة بكثير، شيء يمكننا أن نتحكم به حتى لا يحرق أيدينا، وإن كانت بشرتنا ستحترق على أية حال».

نظرت تالي إلى النتوء الذي ظهر بكمها وتنهدت وقالت: «أظن أن هذا سيجدي أكثر من كسر عظمة الإبهام».

- «أكثر من ماذا؟»

- «شيء كنت قد ...» وبدأ صوتها يخفت شيئًا فشيئًا ثم صمتت.

تتبع زين نظراتها التي حدقت في الضفة الأخرى للنهر، فهناك شخصان فوق نوحين طائرين يشاهدانهما، وقد حجب غطاءا الرأس المثبتين بمعطفي الأمطار اللذين يرتديانهما وجهيهما.

جاهدت تالي لكي تبقي صوتها منخفضًا: «الضبابيون؟»

هز زين رأسه بالنفي: «هاتان سترتان من سترات العنابر».

– «ماذا يفعل قبحاء المدينة بالخارج تحت هذه الأمطار؟»

نهض زين وقال: «ربما علينا أن نسأل عن ذلك».

الفصل السادس عشر

الجارحون

على الضفة الأخرى من النهر، الموجودة في مدينة القبحاء، احتمى أربعة أشخاص بأحد الأغطية الواقية لإحدى آلات تدوير الورق ليكونوا بعيدين عن الأنظار وعن قطرات المطر. سُرّت تالي عندما رأت إصبعي القبيحين خاليين من خاتمي الاتصال، فبذلك لن تسجل شبكة الاتصال الخاصة بالمدينة أن الأربعة تقابلوا معًا بالخارج.

همست الفتاة: «أهذه أنتِ حقًا يا تالي؟»

– «آه، نعم، هل عرفتني من خلال قطرات الأمطار؟»

– «لا! إنني أنا سوسي وهذا هو ديكس.»

– «ألا تتذكريننا؟»

– «ذكراني.»

كل ما فعلته الفتاة أنها حملقت بها، إنها ترتدي طوقًا مصنوعًا من الجلد الطبيعي حول رقبتها، يبدو عليه أنه من ممتلكات الضبابيين غاليًا، فصناعته اليدوية ولونه الباهت بفعل الزمن يدلان على ذلك، من أين لها بشيء مثل هذا؟

قال الفتى: «لقد ساعدناك بخدعة «فليحيا الضباب الجديد»، أتتذكرين؟ في الماضي عندما كنتِ ... قبيحة.»

بدأت أجزاء صورة ما تتجمع ببطء في ذهن تالي: كانت الحروف الضخمة المشتعلة تضيء السماء لتحول انتباه السلطات عنها هي وديفيد أثناء اقتحامهما لمبنى السلطات الخاصة الرئيسي. هذان هما القبيحان اللذان قاما بتلك الخدعة، وبعد ذلك ساعداهما على الاختباء في أطلال المدينة القديمة، وكانا يجلبان لهما الطعام والأخبار من المدينة، ويقومان بمزيد من الخدع ليشغلا الحراس وعملاء السلطات الخاصة.

قال ديكس: «لقد نسيتنا حقًا، فهذا صحيح إذن، إنهم يفعلون شيئًا بأمخاخكم».

قال زين: «نعم، هذا صحيح، ولكن اخفض صوتك قليلًا من فضلك». كانت قطرات المطر تقرع الغطاء البلاستيكي الواقي محدثة ضوضاء عالية — وكأنها محرك طائرة نفاثة — معيقة السمع، ولذلك يحتاج القبيحان لمن يذكرهما بأن يخفضا صوتيهما. حول ديكس عينيه اللتين تحدقان في وجه تالي إلى معصمها الذي غطاه السوار الواقي من الارتطام والتفت حوله كوفية، وكأنه لا يصدق أن السوار المعدني الموجود تحت تلك الطبقات يستمع إليهم.

– «آسف».

عندما عاود ديكس النظر إلى وجهها لم يستطع أن يخفي دهشته من ذلك التحول الذي حدث بملامحها، بينما كانت سوسي صامتة، تقف مذهولة، تتشبث بكل كلمة تقولها تالي. وتحت تأثير نظراتهما المحدقة بوجهها شعرت تالي بأنها شخص على قدر كبير من الأهمية، وأنها تمتلك قوة ذات أثر عجيب. من الواضح أن الاثنين على استعداد لأن يقوما بأي شيء يطلبه منهما زين أو تالي. شعرت فيما مضى أن مثالها يستحق هذا القدر من الدهشة لأن ضباب الحسن كان يحيط بعقلها لكن تلك الدهشة أصبحت تشعرها بشيء من الإحراج؛ لأن ذهنها تحرر من الضباب.

ولكن التحدث مع القبحاء لم يكن شيئًا مربكًا وصعبًا كما تخيلت، فعلى مدار الشهر الماضي كانت أفكارها متحررة من ضباب الحسن، مما جعل النظر في وجوه غير خالية من العيوب مهمة أسهل لتالي، فالوجهان القبيحان لم يثيرا في نفسها ذلك القدر من الرعب الذي أثارته رؤيتها لوجه كروي، فالفراغ الصغير بين السنتين الأماميتين في فم سوسي بدا مبهرًا أكثر منه مثيرًا للاشمئزاز، والبثور التي تناثرت على وجه ديكس لم تجعلها تقشعر.

– «ولكن الإصابات لم تكن ذات تأثير دائم، فقد بدأنا نستعيد ذكاءنا، وهذه بالمناسبة ليست معلومة يمكنكما نقلها للجميع، هل هذا مفهوم؟».

أومأ الاثنان برأسيهما دون أن ينطقا بكلمة واحدة، ولم تكن تالي على يقين من أن الأمر يستحق منهما أن يخاطرا بالتلميح لقبيحين قابلهما مصادفة بوجود دواء يشفي الحسان. إن استخدام سوسي وديكس هو بالطبع أسرع طريق لتوصيل رسالة ما للضباب الجديد.

سألت تالي: «ما الأخبار الآتية من الأطلال؟».

انحنت سوسي لتقترب منها، فقد تذكرت أن عليها أن تهمس إليهما، وقالت: «هذا ما جاء بنا إلى هنا، فحسبما يمكننا أن نقول اختفى سكان الضباب الجديد جميعًا، حتى الليلة الماضية».

سألتها تالي: «ماذا حدث الليلة الماضية؟»

– «حسنًا، منذ أن اختفى سكان الضباب الجديد، ونحن نذهب إلى الأطلال كل عدة ليالي، لنتفقد المواضع القديمة والألعاب النارية اليدوية. ولكننا لم نر أي شيء مدة شهر.»

نظر زين وتالي أحدهما إلى الآخر، لقد ترك كروي القرصين لتالي منذ شهر، إن هذا التوقيت في الأغلب ليس صدفة.

قالت سوسي: «ولكن في الليلة الماضية وجدنا بعض الأشياء في مخبأ قديم، أعواد إضاءة محترقة وبعض المجلات القديمة».

قالت تالي متسائلة: «مجلات قديمة؟»

قالت سوسي: «نعم، من العصر القديم، تلك المجلات التي توضح كيف كان الجميع قبحاء في الماضي».

قالت تالي: «أنا لا أظن أن سكان الضباب الجديد تركوا تلك المجلات وراءهم، إنها ثمينة، فأنا أعرف شخصًا ضحى بحياته في سبيل الحفاظ على هذه المجلات، لا بد أنهم سيعودون».

قال ديكس: «ولكنهم مختبئون، حتى لا يعرضوا أنفسهم للخطر».

قال زين بصوت منخفض: «لماذا؟ وإلى متى؟»

رد عليه ديكس: «وكيف لنا أن نعرف؟ لهذا جئنا اليوم إلى هنا، لقد كنا ننوي أن نتسلل تحت الأمطار لنصل إليكِ يا تالي، لقد ظننا أن حل هذا اللغز معكما».

أكملت سوسي: «عندما ظهرتم جميعكم في نشرات الأخبار في اليوم التالي ظننا أن هناك شيئًا قد حدث، يبدو أن ما حدث في الإستاد كان خدعة مرتبة، أليس كذلك؟»

قالت تالي: «من الجيد أنكما لاحظتما، كان من المفترض أن يلاحظ سكان الضباب الجديد ذلك أيضًا، ومن الواضح أن ذلك حدث».

قالت سوسي: «كنا نظن أنكم تعرفون شيئًا عما حدث، وخاصة بعدما رأينا بعضًا من أصدقائكما من الحسان هنا في مدينة القبحاء».

قطبت تالي جبينها وقالت: «حسان؟ هنا بالخارج؟»

- «نعم في حديقة كليوباترا بارك، لقد تعرفت على اثنين منهم من نشرات الأخبار، أظن أنهما من الأشقياء، هذه هي جماعتكم، أليس كذلك؟»

- «بلى، ولكن ...»

قطبت سوسي جبينها وسألتها: «ألم تكوني تعرفين؟»

هزت تالي رأسها بالنفي، بعد أن مر اليومان الماضيان وصلتها بضع رسائل من الأشقياء الآخرين، معظمهم يشتكي من الأمطار، ولكن أحدًا لم يخبرها أنه ذاهب إلى مدينة القبحاء.

قال زين متسائلًا: «ماذا كانوا يفعلون؟»

نظر ديكس وسوسي أحدهما إلى الآخر بملامح بائسة.

قالت سوسي: «في الحقيقة نحن لسنا متأكدين، إنهم لم يتحدثوا إلينا، لقد تتبعونا فقط لكي نبتعد عن المكان الذي كانوا فيه».

تنهدت تالي ببطء، صحيح أن الحسان يسمح لهم بالوجود على هذه الضفة من النهر، وبإمكانهم أن يذهبوا إلى أي مكان داخل المدينة يرغبون فيه، ولكنهم لا يأتون إلى مدينة القبحاء أبدًا، وهذا يعني أن حديقة كليوباترا بارك هي المكان المناسب لأي شخص من الحسان يبحث عن الخصوصية، وخاصة إذا كانت الأمطار تنهمر بغزارة، ولكن ما الذي يدفع بعض الأشقياء إلى البحث عن الخصوصية؟

سألها زين: «ألم تخبري الجميع أن عليهم أن يظلوا بعيدًا عن الأنظار فترة».

- «نعم أخبرتهم بذلك.» انتابتها الدهشة، يا ترى من منهم قام بذلك، وما «الذي» جاء بهؤلاء الأشقياء إلى هنا.

قالت تالي: «خذانا إلى هناك».

قاد ديكس وسوسي زين وتالي نحو الحديقة، طار الأربعة ببطء تحت الأمطار التي تهطل بانتظام. لقد وضعت تالي في اعتبارها إمكانية أن يكون هناك من يراقب المواضع التي فيها سوارها وسوار زين، فطلبت من ديكس وسوسي أن يتخذا طريقًا غير مباشر إلى الحديقة. بعض المشاهد التي مرت بها تالي في طريقها إلى الحديقة بدت مألوفة إلى حد ما، والطريق المتعرج الذي اتخذوه إلى الحديقة يمر على بعض المواضع المرتبطة بطفولة تالي، العنابر الخاصة بالقبحاء، والمدارس والحدائق التي غمرتها المياه، وملاعب كرة القدم الخاوية، كل هذه المشاهد بدت شبه مألوفة لها.

على الرغم من هطول الأمطار بغزارة فهناك بعض القبحاء بالخارج، بعضهم يتدحرج من فوق أحد التلال، كل منهم في دوره، يصرخون عاليًا وهم يركضون ليلقوا بأنفسهم فوق الوحل وينزلقون. وهناك بضعة قبحاء يلعبون الغميضة في فناء أحد العنابر، وينزلقون ويسقطون على الأرض، فينتهي بهم الأمر والوحل يغطيهم مثل القبحاء الذين يتدحرجون من فوق التل. الجميع منشغلون للغاية بالاستمتاع بوقتهم فلم يلاحظوا الأشخاص الأربعة وهم يمرون من فوقهم بألواحهم الطائرة.

قفز سؤال إلى رأسها: هل كانت تستمتع بوقتها إلى هذا الحد وهي قبيحة؟ كل ما يمكنها أن تتذكره عن تلك الأيام هو تحرُّقها شوقًا لتتحول إلى فتاة حسناء، ورغبتها الجارفة في أن تعبر إلى الضفة الأخرى من النهر وتترك كل ذلك وراءها. شعرت تالي، وهي تطير فوق الأرض بوجهها المثالي الذي أخفاه غطاء الرأس المثبت بسترتها، أنها روح صعدت إلى السماء تغبط من تشاهده من الأحياء، وتحاول أن تتذكر حياتها عندما كانت واحدة منهم.

كانت حديقة كليوباترا بارك — الواقعة في أعلى الحزام الأخضر الذي يحيط بمدينة القبحاء من الخارج — خالية من الأحياء، فتحولت ممرات السير إلى جداول صغيرة تنقل مياه الأمطار إلى النهر الذي تغمره المياه. أما الحيوانات، فيبدو أنها مختبئة، فلم يظهر منها إلا بضعة طيور بائسة تعلقت بأشجار الصنوبر الضخمة التي انحنت أغصانها إلى أسفل تحت تأثير الأمطار الغزيرة التي تنهمر عليها.

أوصلهما ديكس وسوسي إلى بقعة خالية من الأشجار والحشائش بها أعلام خاصة بسباقات التزلج المتعرج، شعرت تالي أنها تعرف تلك البقعة وتستطيع أن تميزها.

– «هذا هو أحد الأماكن التي تحبها شاي، هنا علمتني الطيران باستخدام الألواح الطائرة.»

قال زين: «شاي؟ ولكنها كانت ستخبرنا إذا كانت تنوي القيام بخدعة ما، أليس كذلك؟»

قالت تالي بصوت منخفض: «ربما لا». فلم تصلها أية رسائل من شاي منذ وقت المشادة التي نشأت بينهما. «كنت أقصد أن أقول يا زين، إنها غاضبة مني بعض الغضب في الوقت الحالي.»

قالت سوسي: «يا إلهي، كنت أظن أن الحسان جميعهم يحبون بعضهم بعضًا».

– «عادة ما يحدث ذلك.» تنهدت تالي مستطردة: «مرحبًا بكِ في العالم الجديد».

ضيق زين عينيه وقال: «أظن أنني أنا وتالي بحاجة إلى أن نتحدث معًا، ثم نظر إلى القبيحين.

استغرق الأمر منهما لحظة ليفهما ما يعنيه، ثم قالت سوسي: «آه، طبعًا سوف نذهب. ولكن ماذا لو ...؟»

قالت تالي: «إذا ظهر سكان الضباب الجديد مرة أخرى فابعثي لي برسالة».

– «ألا تقرأ أجهزة المدينة بريدك.»

– «محتمل، لا تقولي أي شيء سوى أنك شاهدتنا في الأخبار، وأنك تودين الانضمام إلى الأشقياء عندما تبلغين عامك السادس عشر. واتركي الرسالة الحقيقية مخبأة هنا تحت آلة إعادة التدوير تلك، وسوف أبعث شخصًا ليأخذها. هل فهمتِ ذلك؟»

قالت سوسي وقد كشفت ابتسامتها عن الفراغات التي تفصل أسنانها الأمامية: «نعم فهمت». أدركت تالي أن الاثنين سوف يذهبان إلى الأطلال كل ليلة حتى إذا استمرت الأمطار ليبحثا عن سكان الضباب الجديد وهما سعيدان بأن لديهما مهمة يؤديانها.

ارتسمت ابتسامة حمقاء على وجه تالي وهي تشكرهما: «شكرًا على كل شيء».

رحل القبيحان، وظل زين وتالي صامتين لدقيقة وهما يشاهدان البقعة الخالية من الحياة الخضراء وهما واقفان عند تجمع كثيف للأشجار. نكست أعلام سباق التزلج المتعرج البلاستيكية تحت قطرات المطر المنهمرة وكأنها رءوس بائسة، فالرياح تحملها إلى أعلى بصعوبة. وقد تجمعت مياه الأمطار عند بعض المواضع في برك ضحلة عكست أسطحها السماء الرمادية وكأنها مرايا متموجة. تذكرت تالي كيف كانت تطير وهي قبيحة بين هذه الأعلام بلوحها الطائر، وتعلمت كيف تميل بلوحها جانبًا لكي تنعطف إلى اليسار أو اليمين، كان ذلك فيما مضى، عندما كانت هي وشاي صديقتين حقًا ...

من المستحيل أن تخمن لماذا تأتي شاي إلى هذا المكان، ربما كل ما في الأمر أن بعض الأشقياء يتدربون على الطيران بالألواح الطائرة، يظنون أن هذه الطريقة تجعلهم متيقظين ومنتبهين، وليس هذا أمرًا خطيرًا.

عندما جلست هي وزين أدركت تالي أنه لا يوجد الآن ما يمنعها من أن تحكي لزين كل شيء.

لقد حان الوقت لكي تعترف له بما فعلته في منطقة الضباب، وكيف أخبرت شاي بالدواء المعالج، ومن المفترض أن تكون قد فاتحته فيما كشفته لها دكتورة كابل عنه، لكن تالي لم ترغب في أن تدخل في حوار معه، فالبرد الذي يداهمها ومياه الأمطار التي تغمرها لا يشجعان على فتح أي موضوع للحديث. إن جهاز التدفئة الذي زودتها به سترتها يعمل بأقصى طاقته، وبدأ إحساسها باليقظة والانتباه اللذين أثارهما فيها التحليق بالألواح الطائرة يخبو، ويحل محله الغضب الذي شعرت به تالي تجاه نفسها لأنها انتظرت كل هذه الفترة، إلى جانب أن السوارين اللذين يستمعان إليهما دائمًا يشجعانها على تجنب ذكر أي مواضيع قد تثير قلق أجهزة المدينة.

قال زين بصوت منخفض ظهرت فيه لمحة من اليأس: «إذن، ماذا حدث بينك وبين شاي؟»

– «لقد بدأت تستعيد ذكرياتها.» أخذت تالي تحملق في بركة صغيرة موحلة، وتشاهد قطرات المياه التي تتساقط من أغصان الصنوبر وهي تشوه سطحها. «في ليلة اختراق الحلبة فجرت غضبها في وجهي، فهي تحملني مسئولية تمكين السلطات الخاصة من تحديد مكان الضباب، وأرى أن هذا غالبًا هو ما حدث. لقد خنتهم.»

أومأ زين برأسه. «هذا ما كنت أظنه. فكل القصص التي رويتماها أنتما الاثنتان – قبل أن أتناول أنا وأنت الدواء – والتي تقول إنهم جعلوك تنقذينها وتستعيدينها من الضباب، فهذا حديث ينم غالبًا عن الخيانة.»

نظرت تالي إليه وقالت: «إذن، كنت تعرف؟»

– «أنكِ ذهبت إلى هناك للتجسس لحساب السلطات الخاصة؟ لقد خمنت ذلك.»

– «أوه.» لم تكن تالي تعرف هل عليها أن تشعر بالارتياح أم بالخجل. لقد تعاون زين نفسه مع دكتورة كابل، ولذلك ربما يستطيع أن يتفهم الأمر.

– «لم أكن أرغب في أن أفعل ذلك يا زين، أنا أعني أنني ذهبت في البداية إلى هناك لكي أحضر شاي، لكي يحولوني إلى فتاة حسناء، ولكنني بعد ذلك غيرت رأيي، وكنت أرغب في البقاء بالضباب، لقد حاولت أن أدمر شريحة التعقب التي أعطوها لي، ولكن انتهى بي الأمر إلى أنني شغّلتها، حتى حينما حاولت أن أفعل الصواب خنت الجميع!»

استدار زين ليواجهها، وبدت نظراته حادة أسفل القلنسوة المثبتة بمعطفه، قال: «إن من يحكمون هذه المدينة يتلاعبون بنا جميعًا، وينبغي على شاي أن تعرف ذلك.»

قالت تالي: «لقد تمنيت أن يكون هذا هو كل شيء، لقد سرقت منها ديفيد أيضًا، في الماضي، عندما كنا في الضباب.»

– «آه، هو مرة أخرى.» هز زين رأسه واستطرد: «حسنًا، أظن أنها غاضبة منك جدًا في الوقت الحالي، وهذا على الأقل سيبقيها متيقظة».

ابتلعت تالي ريقها، «نعم، ستكون متيقظة ومنتبهة للغاية، وهناك شيء آخر أغضبها مني.»

صمت زين والمياه تقطر من غطاء رأسه منتظرًا إياها كي تكمل حديثها.

– «لقد حكيت لها عن الدواء.»

همس زين بلهجة غاضبة: «حكيتِ لها عن ماذا؟»

قالت تالي وهي تبسط كفيها في توسل: «كان عليّ أن أفعل ذلك، لقد كادت تخمن ذلك يا زين، وكانت تفكر أن بإمكانها أن تعالج نفسها. لقد تسلقت برج فالانتينو مثلما فعلنا ظنًا منها أن هذا هو ما غيرنا، ولكن ذلك لم يكن له نفس تأثير القرصين المعالجين. لقد ظلت تسألني عما حدث لنا، وقالت إنني مدينة بإخبارها بعد كل ما فعلته بها في أيام القبح.»

انفجر الغضب في أعماق زين وقال: «إذن فقد حكيت لها عن القرصين المعالجين؟ رائع، ربما يكون هذا الخطأ من بين أخطاء أخرى ارتكبتها».

– «ولكنها استعادت كامل يقظتها وانتباهها يا زين، ولا أظن أنها قد تخطئ وتفشي هذا السر.» ثم هزت تالي كتفيها وأضافت: «إذا كانت معرفتها بشأن القرصين المعالجين قد غيرت شيئًا بداخلها، فقد أثارت بداخلها كمًا من الغضب يمكنها من أن تبقى متيقظة ومنتبهة إلى الأبد».

– «أثار بداخلها الغضب؟ لأنكِ حصلت على الدواء وهي لم تحصل عليه؟»

تنهدت تالي وأجابته: «لا، لأنك أنت الذي حصلت عليه».

– «ماذا؟»

– «أنا مدينة لها، ولكنك أنت من حصلت على القرص.»

– «ولكن لم يكن هناك وقت لـ ...»

– «أنا أعرف ذلك يا زين، ولكنها هي لا تعرف. الأمر يبدو لها كما لو كان ...»

هزت تالي رأسها، إنها تشعر بدموع ساخنة في عينيها، ولكن بقية جسدها بارد، ورويدًا رويدًا بدأت تفقد إحساسها بأصابعها، وبدأ جسدها يرتعد.

– «لا عليك، يا تالي.» أمسك زين بيدها التي غطاها القفاز الثقيل وضغط عليها بقوة.

– «لو كنت سمعتها يا زين، إنها حقًّا تكرهني.»

– «اسمعي يا تالي، يؤسفني ما حدث، ولكنني سعيد لأنني أنا من حدث معه ذلك.»

نظرت تالي إليه، من خلال غشاوة من الدموع تغطي عينيها. «نعم، أتقصد أنك تريد أن تشكرني على آلام الصداع تلك التي تصيبك.»

قال زين: «إن هذا أفضل من أن يظل عقلي أسير ضباب الحسن»، ثم استطرد: «ولكن ليس هذا ما قصدته. في هذا اليوم لم نعثر على القرصين فقط، أنا سعيد ... بشأني أنا وأنتِ».

نظرت تالي إلى أعلى تجاه وجهه فوجدته يبتسم، وفي برودة الجو سرت رعدة بأصابعه، التي لا تزال متشابكة مع أصابعها المرتعدة أيضًا.

ردت عليه تالي بابتسامة هي الأخرى: «وأنا أيضًا».

– «لا تدعي شاي تجعلك تشعرين بالذنب مما فعلناه يا تالي.»

قالت تالي وهي تهز رأسها بالنفي: «بالطبع لن أدع ذلك يحدث»، وهي تدرك تمامًا أنها مقتنعة بما قالت وأنها تعنيه، فمهما تكن الطريقة التي فكرت بها شاي فاختيارها لزين شريكًا لها في العلاج اختيار صائب، فقد أبقاها متيقظة ومنتبهة، وكان يدفعها لاجتياز اختبارات الضبابيين، وظل يلح عليها لكي تستجمع شجاعتها وتتناول القرصين المعالجين اللذين كان تأثيرهما لا يزال تحت الاختبار. إن تالي لم تعثر في ذلك اليوم فقط على دواء يستطيع أن يحرر عقلها من ضباب الحسن، ولكنها وجدت شخصًا يمكنها أن تمضي معه قدمًا في حياتها، لتتخطى كل الأشياء التي انحرفت عن المسار الصحيح في الصيف الماضي.

عندما وعدها بيريس بأنه سيظل أفضل صديق لها إلى الأبد كانا لا يزالان طفلين، ولكن في يوم عيد ميلاده السادس عشر تركها بيريس وراءه في مدينة القبحاء ورحل، ثم فقدت بعد ذلك صداقتها لشاي عندما خانتها وتعاونت مع السلطات الخاصة وسرقت منها ديفيد، حتى ديفيد نفسه لم يعد موجودًا الآن، فهو مفقود في مكان ما في البرية، وغير موجود تقريبًا في ذكرياتها عن الماضي، إنه حتى لم يكلف نفسه عناء إحضار القرصين إليها، وترك كروي يقوم بتلك المهمة، وبإمكان تالي أن تخمن ما يعنيه ذلك، ولكن زين ...

حملقت تالي في عينيه الذهبيتين الأخاذتين، إنه الآن هنا معها، بشحمه ولحمه، كم كانت غبية حينما سمحت لما يحدث بينهما أن يتداخل مع ماضيها المليء بالأحداث المربكة.

– «كان ينبغي أن أخبرك عما حدث بيني وبين شاي من قبل، ولكن الجدران الذكية ...»

– «لا عليكِ، ولكن يمكنكِ أن تضعي ثقتك بي، دائمًا.»

ضغطت تالي على يده بكلتا يديها وقالت: «أنا أعرف.»

رفع زين يده ليداعب وجهها وقال: «لم نكن حقًا على معرفة جيدة بأحدنا الآخر في ذلك اليوم، أليس كذلك؟»

– «ولكنني أظن أن الفرصة قد أتيحت أمامنا، وكم كانت غريبة تلك الطريقة التي بها أتيحت لنا هذه الفرصة.»

ضحك زين: «أحسب أن هذه هي الطريقة المعتادة التي تتاح بها مثل هذه الفرص، ولكن في الأغلب دون وجود أقراص دوائية مجهولة أو عملاء من السلطات الخاصة يطرقون الباب بشدة، ولكنها دائمًا تكون مخاطرة عندما... تقبلين شخصًا لأول مرة.»

أومأت تالي برأسها وانحنت إلى الأمام، ووسط برودة قطرات المطر ضغطت شفتاها على شفتيه بقوة وببطء. شعرت بالرعدة التي سرت في جسده، وببرودة الأرض الموحلة من تحتهما، ولكن قلنسوتيهما التصقتا معًا فانفصلا عن العالم من حولهما، ونشرت أنفاسهما، التي اختلط بعضها ببعض، الدفء في ذلك الفراغ الصغير داخل القلنسوتين.

همست تالي: «أنا سعيدة لأنك أنت الذي كنت معي في ذلك اليوم.»

– «وأنا أيضًا.»

– «أنا ... آه!»، ابتعدت تالي عنه وهي تمسح بيديها على وجهها، فقد تسربت قطرة مياه داخل قلنسوتها، وأخذت تتدحرج على خدها وكأنها عبرة باردة ومزعجة.

ضحك زين وهو ينهض من الأرض، ثم جذبها لتنهض هي الأخرى، فهبت واقفة. «هيا، لا يمكننا أن نظل هنا إلى الأبد، لنعد إلى بولشر لنتناول إفطارنا ونرتدي ملابس جافة.»

– «أنا لم أكن مزعجة.»

ارتسمت على وجهه ابتسامة، ولكنه أشار إلى معصمه: «إذا جلسنا في مكان واحد لفترة طويلة فذلك قد يثير فضول أحدهم لمعرفة ما ذلك الأمر الخطير الذي يبقينا هنا في مدينة القبحاء».

همست له: «مهما يكن لا يهمني».

ولكن زين كان على حق، يجب أن يعودا إلى المنزل، فهما لم يتناولا أي شيء طوال اليوم سوى بضعة أقراص حارقة للسعرات وبعض القهوة. كان معطفاهما مزودين بجهاز تدفئة، ولكن ما بين المجهود البدني الذي بذلته تالي أثناء التحليق بالألواح الطائرة، وصدمتها عندما غمرت مياه النهر شديدة البرودة جسدها، بدأت تالي تشعر بالإرهاق وبالبرودة تتسرب إلى عظامها، فالجوع والبرودة والقبلة جعلوها تشعر بدوار في رأسها.

طقطق زين أصابعه، فارتفع لوحه الطائر في الهواء.

قالت تالي بصوت منخفض: «انتظر لحظة، هناك شيء آخر حدث ليلة اختراق حلبة التزلج يجب أن أخبرك به».

– «حسنًا».

– «بعدما أخذتك إلى المنزل ...» سرت رعشة في جسدها عندما تذكرت ملامح دكتورة كابل الوحشية، ولكنها أخذت نفسًا عميقًا، لكي تهدأ. يا لها من غبية، لماذا لم تسرع بالخروج مع زين بعيدًا عن جدران قصر بولشر الذكية لتخبره بمقابلتها مع دكتورة كابل؟ فهي لم تكن ترغب في أن يخفي أحدهما أي أسرار عن الآخر.

– «ما الأمر، يا تالي؟»

– «كانت تنتظرني ...» هكذا أجابته تالي، ثم استطردت: «دكتورة كابل».

لم يثر الاسم أي تعبيرات على وجه زين، ثم أومأ برأسه بعد لحظة وقال: «أنا أتذكرها».

– «أتتذكرها فعلًا؟»

قال زين: «من الصعب نسيانها»، ثم توقف زين وأخذ يحملق في المساحة الخالية من الأشجار، وتساءلت تالي هل سيقول شيئًا آخر.

ولكنها أكملت حديثها في النهاية: «لقد عرضت عليّ عرضًا غريبًا، كانت تريد أن تعرف ما إذا كنت ...»

همس لها زين: «اصمتي».

بدأت تتحدث مرة أخرى: «ماذا ...» ولكن زين وضع يده المغطاة بالقفاز فوق فمها ليسكتها. استدار زين وانحنى فوق الأرض الموحلة وجذبها إلى أسفل بجانبه.

كان هناك جمع من الأشخاص يتقدمون من بين الأشجار نحو المساحة التي تخلو منبا، يتحركون ببطء، ويرتدون ملابس شتوية تكاد تكون متطابقة، وكل منهم يلف معصمه الأيسر بكوفية سوداء، ولكن تالي استطاعت في الحال أن تتعرف على واحدة منهم، كانت عيناها نحاسيتين، وعلى وجهها وشم تدور رسوماته وسط ذلك الجو البارد.

إنها شاي.

الفصل السابع عشر

الطقوس

رأت تالي عشرة أشخاص يشقون طريقهم بصعوبة فوق الأرض الموحلة في تصميم هادئ. عندما وصلوا إلى منتصف المساحة الخالية من الأشجار اصطفوا في دائرة واسعة حول أحد أعلام سباقات التزلج المتعرج، وتحركت شاي لتقف في مركزها، وهي تلتفت ببطء وتحدق في الآخرين من أسفل القلنسوة المثبتة بسترتها، وانتظم الآخرون في وقفتهم على بعد ذراع منها، ووجوههم نحو شاي وراحوا ينتظرون في صمت.

ظلت شاي واقفة بلا حراك فترة طويلة، ثم خلعت سترتها وتركتها تسقط على الأرض ثم خلعت قفازيها وبسطت ذراعيها، لم تكن ترتدي إلا بنطلونًا وقميصًا أبيض بلا أكمام وسوارًا معدنيًا مزيفًا يحيط بمعصمها الأيسر، ثم أرجعت شاي رأسها إلى الوراء، حتى تتساقط قطرات المطر فوق وجهها.

سرت رعشة في جسد تالي وأحكمت شد سترتها حول جسمها، هل تحاول شاي أن تقتل نفسها بردًا؟!

لم يحرك الآخرون ساكنًا لبرهة، ثم بعد ذلك أخذوا يخلعون معاطفهم وقفازاتهم وستراتهم ببطء مثلما فعلت شاي وبعضهم يتطلع إلى بعض في حيرة، وعندما سقطت القلنسوات من فوق رءوسهم عرفت تالي اثنين آخرين من الأشقياء، وهما هُوو، أحد أصدقاء شاي القدامى الذي هرب إلى الضباب ثم قرر أن يعود بمفرده إلى المدينة، وتاكس الذي انضم إلى الجماعة قبلها ببضعة أسابيع.

ولكن السبعة الآخرين لم يكونوا من الأشقياء، لقد وضعوا معاطفهم على الأرض بحذر شديد، وأخذوا يلفون أذرعهم حول أجسادهم طلبًا للدفء في ظل البرودة القارسة. عندما بسط هوو وتاكس ذراعيهما حذا الآخرون حذوهم على مضض، وانهمر المطر على وجوههم، وغمر قمصانهم البيضاء حتى التصقت بأجسادهم.

همس زين: «ماذا يفعلون؟»

لم تجبه تالي، بل هزت رأسها فقط. لقد لاحظت أن شاي خضعت لجراحة جديدة، فقد نقشت على ذراعيها وشومًا بارزة لعلامة #، وتمتد من المرفقين حتى المعصمين، ولاحظت أن هوو وتاكس نقلا هذا التصميم نفسه على ذراعيهما فيما يبدو.

بدأت شاي تتكلم وهي تنظر إلى أعلى، موجهة حديثها إلى العلم الذي يرتفع فوق رأسها، فبدت أشبه بمخبولة لا تحدث أحدًا بعينه، لم تنقل الرياح كل ما كانت تقوله عبر المساحة الخالية من الأشجار إلى أذني تالي، فكل ما استطاعت أن تسمعه كلمة من هنا وأخرى من هناك. لم تستطع تالي أن تفهم ما سمعته، ولكن إيقاع الكلام يبدو مثل إيقاع ترنيمة فبدت أشبه بالصلوات التي كان سكان العصر القديم وما سبقه من عصور يتضرعون بها إلى أبطالهم الخارقين غير المرئيين الموجودين في السماء.

سكتت شاي بعد بضع دقائق، وظل الجمع الملتف حولها صامتًا، والجميع يرتعدون من البرودة فيما عدا شاي التي بدت كمن فقدت صوتها. أدركت تالي أن هناك وشومًا متحركة منقوشة على وجوه السبعة غير المنضمين للأشقياء جميعهم، ويبدو من النقوش، التي تتلألأ تحت قطرات المطر، أنها نقشت بفعل جراحة حديثة. وخمنت تالي أن الوشوم الدوارة صارت حتمًا الموضة بعد كارثة الإسعاد الرياضي. ولكن تصادف وجود هذه النقوش على وجوه هؤلاء الحسان السبع غير المعروفين أثار بداخلها شعورًا بالخوف.

همست تالي: «أتذكر الرسائل التي كان يبعث بها من يرغبون في الانضمام إلينا؟ كانت شاي تقوم بضمهم».

رد عليها زين في غضب وهو يهمس: «ولكن لماذا؟ لقد اتفقنا جميعًا على أن انضمام أعضاء جدد إلى الجماعة هو آخر شيء نحتاج إليه الآن».

– «ربما هي تحتاجهم».

– «من أجل ماذا؟»

شعرت تالي برعدة تسري في جسدها وهي تقول: «من أجل هذا».

قال زين في غضب: «سوف نستخدم حق الفيتو ونسحب عضويتهم».

هزت تالي رأسها وقالت: «أنا لا أعتقد أنها تكترث بالفيتو، أنا غير متأكدة هل لا تزال...».

اخترق صوت شاي الأمطار مرة أخرى، ثم مدت يدها في جيبها الخلفي وأخرجت شيئًا مطويًا يلمع تحت الضوء الرمادي، عندما بسطته اتضح أنه سكين طويلة.

اتسعت عينا تالي من الدهشة، ولكن لم يبد على أي شخص من الحسان الملتفين حول شاي أنهم قد تفاجئوا؛ فقد كانت تعبيرات وجوههم تجمع بين الخوف والإثارة.

وأخذت شاي تردد المزيد من الكلمات بالإيقاع البطيء المتروي نفسه وهي ترفع السكين عاليًا. سمعت تالي كلمة واحدة منها تتكرر حتى استطاعت أن تتبينها.

بدت لها تلك الكلمة وكأنها «الجارحون».

قالت تالي: «هيا نتبعد من هنا». كان صوتها منخفضًا للغاية حتى إن زين لم يسمعه على الأرجح. كانت تريد أن تصعد إلى سطح لوحها الطائر وتبتعد، ولكن تالي لم تستطع أن تتحرك، أو ترفع عينيها عما تراه، أو تغمض عينيها.

تناولت شاي السكين بيدها اليسرى ووضعت حدها على ساعدها الأيمن، ونصل السكين المبتل يلمع، ورفعت شاي ذراعيها واستدارت ببطء وهي تحدق في ثبات في كل من يلتفون حولها لبرهة، ثم رفعت عينيها تجاه الأمطار المنهمرة.

أتت شاي بحركة قصيرة، حتى إن تالي لم تستطع أن تلاحظها من مخبئها هي فقط، ولكنها عرفت ما حدث من ردود أفعال الآخرين. لقد ارتجفت أجسادهم واتسعت عيونهم في إعجاب يشوبه الذعر، وقد عجزوا، مثل تالي عن تحويل أنظارهم عن المشهد.

ثم رأت تالي الدماء وهي تسيل من الجرح، وقد خففت الأمطار المنهمرة من قوامها، وراحت تنساب على ذراع شاي المرفوعة حتى وصلت إلى كتفها ومنها إلى القميص الذي ترتديه فصبغته بلون أقرب إلى الوردي منه إلى الحمرة.

استدارت شاي مرة واحدة، لتنظر إليهم جميعًا نظرة فاحصة، وكانت حركاتها البطيئة المتأنية مزعجة مثلها مثل الدماء التي تسيل فوق ذراعها، ومن الواضح الآن أن الآخرين يرتجفون وهم يختلسون النظر بعضهم إلى بعض.

أنزلت شاي ذراعها وهي تتمايل قليلًا على قدميها، ومدت يدها الممسكة بالسكين، فتقدم هوو إلى الأمام وأخذ السكين منها، واتخذت هي مكانه في الدائرة.

همس زين: «ما هذا؟»

هزت تالي رأسها وأغمضت عينيها، شعرت فجأة أن المطر يصم أذنيها، ولكنها سمعت كلماتها هي وسط الأمطار المنهمرة بغزارة: «هذا هو دواء شاي الجديد».

تبعه الآخرون بعد ذلك واحدًا تلو الآخر.

وظلت تالي تتوقع أنهم سيركضون، فهي ترى أنه إذا أقدم واحد فقط منهم على الفرار فسوف يتفرق الآخرون في أنحاء الغابة كالأرانب المذعورة، ولكن هناك

شيئًا يثبتهم في أماكنهم، ربما البرودة القارسة، أو ربما الأمطار التي تثبط الهمم، أو ربما هذا التعبير المخبول الذي ارتسم على وجه شاي. أخذ الجميع ينظرون، ثم جرحوا أنفسهم مثلها، واحدًا تلو الآخر، وكلما قام واحد منهم بذلك تحولت ملامحه لتصبح أشبه بوجه شاي الذي يرتسم عليه تعبير من النشوة والجنون.

وكلما جرح أحدهم نفسه شعرت تالي أن شيئًا يجوفها من الداخل. فلم تستطع أن تغفل أن هذه الطقوس تنطوي على أمر يتعدى الجنون، فتذكرت ليلة الحفل التنكري، لقد ظلت متيقظة بفضل الذعر والخوف مما أتاح لها تتبع كروي، ولكنها عادت إلى غفلة الحُسن، ولم يصبح ذهنها صافيًا إلا عندما اصطدمت ركبة بيريس برأسها وهو يثب في الهواء، فجرح حاجبها.

كانت شاي معجبة جدًا بالندبة التي خلفها ذلك الجرح، بل إنها هي التي اقترحت عليها أن تدق مكانها وشمًا تخليدًا لهذا الحدث. ومن الواضح كذلك أنها فهمت أن التغيير الذي طرأ على تالي بفعل الجرح، فقد ساعدها على الوصول إلى زين، ثم إلى قمة برج الإرسال، ثم أخيرًا إلى الدواء.

والآن ها هي شاي تطلع الآخرين على ما عرفته.

همست تالي: «هذا هو خطؤنا.»

– «ماذا؟»

بسطت تالي كفيها المتواريين تحت قفازيها وأشارت بهما إلى ذلك المشهد الماثل أمامهما. هي وزين قدما لشاي كل ما تحتاجه لكي تنشر هذا الدواء: الشهرة التي ذاعت في أرجاء المدينة كلها، ومئات من الحسان صاروا يتحرقون شوقًا للانضمام إلى جماعة الأشقياء، ولا يستطيعون صبرًا حتى يصبحوا من الأشقياء.

أو حتى يصبحوا من تلك الجماعة التي أطلقت عليها شاي اسم «الجارحين».

– «لم تعد واحدة منا بعد الآن.»

همس زين في غضب: «لماذا نكتفي بالجلوس هنا؟» كان يضم قبضتيه وقد احمر وجهه غضبًا، في ظل القلنسوة التي يرتديها.

أمسكت تالي بيديه وقالت: «زين، اهدأ.»

– «يجب أن نجعلها ...» وخفت صوته، ثم توقف عن الكلام وهو يسعل بصوت مختنق وقد اتسعت عيناه.

همست تالي: «زين، ما بك؟»

كان زين يعاني ضيقًا في التنفس، وأخذ يقبض بيديه على الهواء.

صاحت تالي بصوت عالٍ: «زين!» وأمسكت بيده الأخرى وهي تحدق في عينيه وهما تجحظان، فوجدته توقف عن التنفس.

تطلعت تالي نحو المساحة الخالية من الأشجار، إذ هي في أمس الحاجة إلى المساعدة حتى لو جاءت من الجارحين أنفسهم، لقد سمع بعضهم صيحتها، ولكن كل ما فعلوه أنهم ظلوا يحدقون فيها وقد اتسعت عيونهم عن آخرها والدماء تسيل منهم وعلى وجوههم الوشوم المضيئة تدور، ويبدو عليهم فقدان التركيز لدرجة لا تسمح لهم بمساعدتها.

مزقت تالي الوشاح الأسود الملفوف حول ذراعها حتى تصل إلى سوارها لكي تبعث برسالة استغاثة. ولكن زين مد يده وأمسك بيدها وقال وهو يهز رأسه في ألم: «لا.»

– «زين إنك تحتاج إلى المساعدة!»

قال زين بعجلة: «أنا بخير ...»

فكرت تالي للحظة، فلم تتخيله وهو يموت في هذا المكان بين ذراعيها، ولكنها إذا اتصلت بالحراس فربما ينتهي الأمر بها هي وزين على طاولة الجراحة، وتسيطر عليهما غفلة الحسن إلى الأبد، لتصبح طريقة العلاج التي اخترعتها شاي هي الطريقة الوحيدة المتاحة. قالت تالي: «حسناً، ولكن سآخذك إلى المستشفى».

– «لا!»

– «لن ندخل المستشفى، بل سنذهب إلى أقرب نقطة نستطيع أن نصل إليها، وسوف ننتظر ونرى ماذا سيحدث.»

دفعت تالي بزين فوق لوحها الطائر وطقطقت أصابعها فارتفع اللوح الطائر، ثم استلقت فوق زين وتحسست اللوح وهو يستقر باضطراب تحت عبء وزنهما، صمدت الروافع وظلت تدعم اللوح المعلق في الهواء، فبدأت تالي تنطلق إلى الأمام بحذر.

وحين بدأ اللوح يتحرك التفتت تالي خلفها صوب المساحة الخالية من الأشجار، كان العشرة أشخاص جميعهم يحملقون في زين وتالي، وشاي تتجه نحوهما وفي عينيها نظرة باردة مثل المطر.

شعرت تالي فجأة بأن الخوف يسيطر عليها، الخوف نفسه الذي شعرت به عندما رأت عملاء السلطات الخاصة. ثبتت تالي قدميها بقوة على سطح اللوح وانحنت إلى الأمام حتى ارتفع اللوح فوق الأشجار وغادرت المكان.

كانت الرحلة من الحديقة إلى النهر مفزعة، فقد تمددت أطراف زين في كل الاتجاهات، وثقله ينتقل من مكان إلى آخر على سطح اللوح الطائر، مما يعرضه للانقلاب مع كل انعطافة، وتالي تلف ذراعيها حول زين، وأظافرها تحتك بالسطح السفلي المتكتل من اللوح. كانت تالي تقود اللوح بساقيها المتأرجحتين، وتنعطف بزاوية منفرجة تشبه حركات سكير يترنح. أخذت الأمطار تضرب وجهها، فتذكرت النظارة الواقية الموجودة بجيب سترتها، ولكن لم يكن من الممكن أن تصل إليها دون أن تتوقف.

ولم يكن هناك وقت للتوقف.

اندفع بهما اللوح بين الأشجار، وأخذت سرعته تزداد، كلما هبطا باتجاه النهر، وراحت أغصان أشجار الصنوبر — المبللة بقطرات المطر — تفاجئها من قلب الأمطار لتصفع وجهها، حينما خرجا أخيرًا من حديقة كليوباترا بارك اتخذت تالي طريقًا مختصرة، من خلال نطاق من الملاعب الرياضية الموحلة، وانطلقت فوقه بأقصى سرعة، وانعطفت صوب الطرف الأقصى من الجزيرة المركزية.

لم يكن من الممكن رؤية المستشفى على هذا البعد، إذ كانت الأمطار تنهمر بغزارة، ولكن تالي لمحت أضواء عربة طائرة وهي متجهة صوب ذلك الاتجاه، كانت العربة تطير بسرعة على ارتفاع كبير، ولعلها عربة إسعاف تنقل أحد الأشخاص إلى المستشفى. أخذت تضيق عينيها لكي تخترق وابل الأمطار المنهمرة ببصرها حتى تمكنت من اقتفاء أثر العربة الطائرة بعينيها وتتبعتها. عندما اختفت العربة الطائرة عن نظرها كانا قد وصلا إلى النهر، وبدأ اللوح المحمل بثقل زائد يفقد قدرته على التحليق عاليًا فوق المياه.

أدركت تالي ما يحدث، ولكن بعد فوات الأوان، فالشبكة المعدنية المدفونة تحت الأرض — التي تستخدمها الروافع المغناطيسية للارتفاع عن الأرض — موجودة على عمق أكبر هنا، فهي مدفونة بالأرض تحت المياه بعشرة أمتار. عندما اقتربا من وسط النهر بدأ اللوح الطائر يهبط ويزداد اقترابًا من سطح النهر بمياهه الباردة وأمواجه المتلاطمة.

في منتصف المسافة ارتطم اللوح بالمياه، وارتدت يدا زين عن سطح النهر وكأنها اصطدمت بسطح صلب، ولكن اللوح عاد يرتفع في الهواء، وكلما اقترب الشاطئ الآخر وقصرت المسافة إليه استعادت الروافع قوتها وارتفعت بهما إلى ارتفاع أعلى.

نادها زين المستلقي تحتها بصوت أجش ومنخفض: «تالي ...»

– «سوف يكون كل شيء على ما يرام يا زين، لا تقلق.»

– «نعم، أشعر أن كل شيء يسير على ما يرام.»

استجمعت تالي شجاعتها ونظرت إليه، كانت عيناه مفتوحتين، وقد زال الاحمرار عن وجهه، ولاحظت أن صدره عاد يعلو ويهبط وهو مستلقٍ تحتها، وأصبح يتنفس على نحو طبيعي، قالت: «فقط اهدأ يا زين، سوف أتوقف حين نقترب من المستشفى».

– «لا تأخذيني إلى هناك.»

– «سوف آخذك قريبًا منها فقط، تحسبًا لأي شيء.»

قال زين في إرهاق: «أي شيء مثل ماذا؟»

– «مثل توقف أنفاسك مرة أخرى! والآن اصمت.»

أطاعها زين وكف عن الكلام وهو يغمض عينيه.

بدأت أنوار المستشفى تلوح في الأفق، واقترب شبح البناية مما أدخل الطمأنينة على نفس تالي، وبدا سطح النهر الذي تضربه الأمطار وهو يُطوى طيًّا من تحتهما، ولمحت الأضواء الصفراء المتقطعة عند مدخل الطوارئ، ولكنها ابتعدت عن النهر قبل أن تصل إلى مدخل الطوارئ، وبدأ اللوح يصعد ضفة النهر ببطء، ووجهت تالي اللوح الطائر نحو موقف يضم عربات إسعاف فارغة، وتصطف فيه ثلاث عربات طائرة، تربض في ذلك الهيكل المعدني الهائل في انتظار كارثة كبرى فيما يبدو.

عندما استقر اللوح الطائر تدحرج زين من عليه وتمدد على الأرض المبللة بالمياه وهو يتأوه.

وركعت تالي على ركبتيها بجانبه وهي تقول: «تحدث إليّ».

قال زين: «أنا بخير، فيما عدا ظهري فقط.»

– «ظهرك؟ ماذا ...»

– «أظن أن ذلك بسبب ركوبي للوح طائر وأنا مستلقٍ عليه.» ثم استطرد بلهجة فيها بعض التذمر: «وأنا راقد تحتك».

أمسكت بوجهه وجعلت تحدق في عينيه، لقد بدا الإرهاق واضحًا على وجهه المتسخ، ولكنه ابتسم وغمز لها بعينه في إرهاق.

فقالت تالي: «زين ...» وشعرت أنها ستبكي مرة أخرى، وأخذت الدموع تنهل ساخنة على وجنتيها بين قطرات المطر الباردة وقالت: «ماذا أصابك؟»

– «مثلما قلت: أظن أننا بحاجة إلى تناول الإفطار.»

أخذت تنتحب بشدة وهي تقول: «ولكن ...»

وضع يديه على كتفيها وقال: «أنا أعرف، علينا أن نخرج من هنا ...»

– «ولكن ماذا عن الضباب الجـ ...»

أسرع زين ووضع يده فوق فمها فخرجت بقية كلماتها مبهمة وغير واضحة، فابتعدت عنه تالي في دهشة، ونهض زين ليجلس مستندًا على أحد مرفقيه وهو يحدق بسوارها الذي انكشف أثناء هطول الأمطار، إذ خلعت قفازها لكي تجري مكالمة هاتفية عندما هاجمته تلك النوبة.

– «آه ... أنا آسفة.»

هز زين رأسه، وشدها إليه ليضمها وهو يهمس: «لا بأس».

أغمضت تالي عينيها، وحاولت أن تتذكر ما قاله في أثناء رحلتهما المجنونة وقالت: «كنا نتجادل بشأن إحضارك إلى المستشفى».

أومأ زين برأسه وهو يقف في ضعف، وقال بصوت مرتفع: «استغلالًا لفرصة مجيئنا إلى هنا». ثم استدار ولكم الجزء المعدني من مرفق عربات الإسعاف بقبضته، فارتد الهيكل المعدني بطنين مكتوم.

صاحت تالي: «زين!».

انحنى زين من فرط الألم، ثم هز رأسه ملوحًا بيده المصابة في الهواء للحظات، ونظر إلى الدماء التي لوثت مفاصل أصابعه وقال: «مثلما قلت، لما كنا قطعنا كل هذه المسافة إلى هنا فمن الأفضل أن أستغل الفرصة ليفحصوا يدي المصابة. ولكن في المرة القادمة يجب أن تسأليني، اتفقنا؟»

حدقت تالي فيه، ثم فهمت ما يعنيه في النهاية، لقد ظنت للحظات أن الجنون الذي أصاب شاي قد أصابه هو الآخر، ولكن يده المصابة تعد مبررًا منطقيًا لرحلتهما الجامحة على متن اللوح الطائر إلى هنا، كما تتماشى مع معظم ما سمعه سوار الاتصال الذي ترتديه تالي، ومن الممكن أيضًا أن تخبر تالي الحراس أنهما لم يأكلا منذ يومين، فربما يفيد تعليق محاليل الفيتامينات والسكر في ذراع زين في تخفيف آلام الصداع التي تهاجمه.

لا يزال زين يبدو في حالة سيئة وملطخًا بالوحل ومبتلًا، ولكنه يمشي بثبات، فقد بدا زين متيقظًا للغاية بعد أن أصاب يده، ربما شاي لم تكن مخبولة كما كان يبدو عليها، فهي تعرف على الأقل العلاج الناجح.

قال زين: «هيا بنا».

سألته تالي وهي تشير إلى اللوح الطائر الآخر: «أتريد أن تركب؟». كان اللوح الطائر يتجه نحوهما فوق الحشائش بعد أن تتبع الإشارة التي أصدرها السواران الواقيان من الارتطام اللذان يرتديهما زين.

قال زين: «أظن أنني سأمشي». واتجه بخطوات منهكة نحو الأنوار المتقطعة عند مدخل الطوارئ، وعندئذٍ لاحظت تالي أن يديه ترتعشان ولاحظت شحوب وجهه، فصممت على أنها ستتصل بالحراس في المرة القادمة حين تنتابه تلك الأعراض.

فحتى الدواء لا يستحق الموت في سبيله.

الفصل الثامن عشر

في المستشفى

تبين لهما أن اللكمة التي سددها زين للرف المعدني كسرت ثلاثة من عظام راحته، وتحتاج من الأطباء نصف ساعة لعلاجها.

جلست تالي في غرفة الانتظار بصحبة فتاة وفتى من الحسان الجدد ينتظران صديقًا لهما كسرت ساقه وهو يركض على السلالم الخارجية لقصر تليان راسيل بعد أن بللتها مياه الأمطار.

لقد تجاهلت تالي تفاصيل تلك القصة، وجلست تأكل بنهم قطع البسكويت والقهوة المضاف إليها الكثير من السكر واللبن، وهي تنعم بالدفء داخل مبنى المستشفى وبعيدًا عن الأمطار التي كانت تنهمر فوق رأسها بغزارة، وخفتت حدة العالم من حولها قليلًا مع إحساسها غير المعتاد بتدفق السعرات الحرارية إلى جسمها، ولكن تالي كانت سعيدة بهذه الغفوة الخفيفة من غفلة الحسان، فذكرياتها عما كانت تقوم به شاي والحسان الذين كانوا بصحبتها في حديقة كليوباترا بارك واضحة للغاية في ذهنها.

سألها الفتى في النهاية: «بربك ماذا حدث لكِ؟»، وكانت النبرة القوية التي نطق بها الكلمة الأخيرة توحي بأن ملابسها ملطخة بالوحل ومشبعة بالمياه، وأن ملامحها يبدو عليها الإرهاق الشديد، وأن منظرها بوجه عام مزرٍ، دفعت تالي بقطعة من بسكويت رقائق الشيكولاتة إلى فمها وهزت كتفيها وقالت: «كنت على سطح لوح طائر».

وكزت الفتاة الحسناء صديقها، واتسعت عيناها وهي تشير بإبهامها في حركة عصبية إلى تالي.

قال الفتى: «ماذا؟»

– «اصمت!»

– «ماذا؟»

تنهدت الفتاة الحسناء ووجهت حديثها إلى تالي: «أنا آسفة فصديقي لا يزال من الحسان الجدد، وهو شارد الذهن للغاية»، ثم همست لصديقها شارحة: «هذه هي تالي يانج بلود».

فغر الفتى فمه، ثم أطبقه مرة أخرى.

ابتسمت تالي وتناولت قطعة أخرى من البسكويت وقالت: «بالطبع»، قد يصادف المرء تالي يانج بلود في قسم الطوارئ بالمستشفى، ففي أي مكان آخر يمكن أن يلتقاها؟ هكذا كان الفتى والفتاة يفكران، وربما يتساءلان أيضًا عن المبنى الذي هوى من تحتها هذه المرة.

لحسن الحظ ظل الاثنان صامتين بفضل شهرتها، إلا أنهما ظلا يختلسان النظرات إليها. لم يكن الفتى والفتاة من الشخصيات التي يمكن أن تنضم إلى الكاترز، وهو ما كانت تالي متأكدة منه. ولكنها تعرف أيضًا أن شهرتها باعتبارها من الأشقياء تغذي مشروع شاي الذي لا يزال في بدايته، فقد أوجدت نوعًا من الحسان [illegible] لاكتشاف ضرب مؤكد من ضروب اليقظة والانتباه. ومع أن معدتها كانت ممتلئة بالقهوة واللبن وقطع البسكويت، فقد شعرت تالي بحموضة شديدة حينما تبادر إلى ذهنها تساؤل عن الزيارات إلى قسم الطوارئ: هل ستصبح هي الموضة هذا الشتاء؟

«تالي؟» نطق باسمها هذه المرة ممرض يقف عند باب غرفة الانتظار وأشار إليها بالدخول. أخيرًا سوف تخرج تالي من هذا المكان.

قالت تالي للفتى والفتاة: «انتبها إلى نفسيكما»، ثم تبعت الممرض عبر الردهة.

عندما انغلق الباب وراءها أدركت تالي أن هذا الشخص لم يأخذها إلى مركز العيادات الخارجية، بل قادها إلى غرفة صغيرة يشغل معظم مساحتها مكتب ضخم بعثرت عليه الكثير من الأشياء، به شاشة جدارية عُرض عليها منظر لملعب تكسوه الحشائش الخضراء في يوم مشمس، وكان هذا المنظر يشبه كثيرًا المشاهد التي كانت تعرض في مدرستها وهي طفلة قبل وقت القيلولة مباشرةً.

بصوت واضح وبنبرة عالية قال الممرض، وهو يخلع رداءه الأزرق الباهت الذي يميل لونه إلى الرمادي: «هل خرجتِ في المطر؟» وكان الرجل يرتدي حلة تحت ردائه، حلة نصف رسمية. هكذا هداها تفكيرها، وأدركت تالي حين رأتها أنه ليس بممرض على الإطلاق، وارتسمت على وجهه ابتسامة مشرقة، وهي تلك الابتسامة التي يفضلها السياسيون ومدرسو رياض الأطفال والأطباء النفسيون.

جلست تالي على الكرسي الموجود عند الجانب الآخر من المكتب، وأحدثت ملابسها الرطبة صوتًا حينما احتكت به، وقالت: «تمامًا مثلما توقعت».

ابتسم الرجل: «حسنًا، هناك حوادث دائمًا نتعرض لها. لقد تصرفت بحكمة حينما أحضرتِ صديقكِ إلى هنا، ومن حسن حظي أنني موجود بالمستشفى حينما حدث ذلك؛ إنني أحاول منذ فترة أن اتصل بكِ يا تالي».

– «تحاول؟»

– «بالطبع.» ابتسم الرجل مرة أخرى؛ هناك جنس من شباب الحسان يبتسمون في كل المواقف، فلديهم ابتسامة تعبر عن الفرحة وأخرى عن اليأس وثالثة توحي بأنك في مشكلة. لقد كانت ابتسامته مرحبة وهادئة ومفعمة بالحماس والثقة، ولكنها مثيرة للأعصاب من وجهة نظر تالي. كان هذا الرجل يشبه كثيرًا ذلك النوع من شباب الحسان الذي وعدت دكتورة كابل تالي أنها ستصبح منهم، فهو معتد بنفسه، وحينما يبتسم ترتسم على وجهه الوسيم خطوط الابتسامة المناسبة، أما تجاعيد العمر وعلامات الحكمة فقد رسمت بالمقدار المناسب تمامًا على ملامحه.

قال الرجل: «لم تتفقدي بريدك خلال اليومين الماضيين، أليس كذلك؟»

هزت تالي رأسها: «هناك العديد من الرسائل السخيفة تصلني بعد أن ظهرت في الأخبار، أنت تعرف؟ لقد أكسبني ذلك شهرة كبيرة».

ابتسمت تالي في فخر بعد أن أنهت حديثها. «أنا أظن أن الأمر كان مثيرًا لكِ ولأصدقائكِ.»

هزت تالي كتفيها، وتكلمت بلهجة تملؤها البساطة الزائفة: «لقد كان رائعًا في البداية، ولكنه الآن أصبح سخيفًا. إذن، من أنت؟».

– «دكتور ريمي آندرز، أنا من الفريق الطبي بالمستشفى وأعمل استشاريًا لأعراض الصدمات النفسية.»

– «الصدمات النفسية؟ هل هذا يتعلق بما حدث في الإستاد؟ لأنني وبشكل كامل ....»

– «أنا واثق يا تالي من أنكِ بخير، إني أرغب في أن أسألكِ عن إحدى صديقاتكِ. بصراحة، نحن قلقون قليلًا.»

– «عمن؟»

– «شاي»

أخفت قسماتها المليحة القلق الذي انتابها حينما نطق الرجل باسم شاي، وحاولت أن تبقي نبرة صوتها هادئة وهي تسأله: «لماذا شاي؟»

تحولت ملامح دكتور آندرز، فحل تعبير عابس محل الابتسامة القلقة ببطء شديد وكأن شخصًا يمسك بجهاز تحكم عن بعد يحرك وجهه، وقال: «منذ بضع ليالٍ تخلل حفلكم الذي أقيم حول النار في الهواء الطلق بعض الاضطراب، فقد نشأ خلاف بينكِ وبين شاي، إنه شيء مزعج».

طرفت تالي بعينيها لتكسب بعض الوقت حتى تتذكر كيف صرخت شاي بوجهها وهما واقفتان عند النار، لا بد أن السوار قد سمع شاي وهي تتحدث في ضيق وحنق حتى مع وجود كل هذه الطبقات فوقه، لقد كانت طريقة حديثها تختلف كليًا عن الطريقة الرقيقة التي يعبر بها الحسان الجدد عن خلافاتهم. حاولت تالي أن تتذكر ما قالته شاي بالضبط، ولكن الشمبانيا وإحساسها الفظيع بالذنب لم يساعدا على تنشيط ذاكرتها. هزت تالي كتفيها وهي تقول: «نعم. إنها كانت ثملة للغاية، وأنا أيضًا.

— يبدو أن ما حدث لم يكن مبهجًا على الإطلاق.

— دكتور ريمي، أتتجسس علينا؟ إن هذا سخيف.»

هز الطبيب الاستشاري رأسه، وعاد إلى ابتسامته القلقة وقال: «إننا نهتم خصوصًا بكل من تأثر بهذا الحادث المؤسف، ففي بعض الأحيان قد يكون من الصعب التغلب على آثار الأحداث المفزعة وغير المتوقعة التي نتعرض لها، ولذلك عُينت استشاريًا مساعدًا لكم للتخلص من الأعراض التي تلي التوتر العصبي».

تظاهرت تالي بأنها لم تلاحظ كيف حاول التهرب من الإجابة على سؤالها الخاص بالتجسس، فهي تعرف الإجابة، ربما لا تهتم السلطات الخاصة إذا حطم الأشقياء الأشياء في مدينة الحسان الجدد، ولكن الحراس يهتمون دائمًا بذلك، بما أن كل شيء في المدينة قد صمم ليبقي سكانها في أسر شباب الحسن، فمن المنطقي أن يعين طبيب استشاري لكل شخص يمر بتجربة قد تثير بداخله التيقظ الحقيقي، إن وظيفة دكتور آندرز هي التأكد من أن احتراق حلبة الجليد لم يبعث أية أفكار جديدة ومثيرة داخل الأشقياء.

ابتسمت تالي ابتسامة جميلة وهي تقول: «في حالة ما إذا أصابنا الجنون؟»

ضحك دكتور آندرز. «نحن لا نظن أنكم ستصابون بالجنون. أنا هنا لكي أتأكد فقط من عدم وجود أي آثار طويلة المدى لذلك الحادث. فالصداقات مثلما تعرفين يمكن أن تتأثر سلبيًا بالتوتر العصبي.»

قررت تالي أن تسايره، فقالت بعينين متسعتين: «ألذلك كانت مزعجة إلى هذا الحد في تلك الليلة؟»

تهللت أساريره وقال: «نعم، كل ذلك بسبب التوتر يا تالي، ولكن تذكري أنها في الأغلب لم تكن تقصد ما قامت به».

– «حسنًا، أنا لم أصب عليها غضبي مثلما فعلت.»

ابتسم الرجل ابتسامة مطمئنة وقال: «إن ردود الأفعال تجاه الصدمات العصبية تختلف من شخص لآخر، فلن يتحلى كل الأشخاص بصلابتك نفسها، بدلًا من أن نغضب لماذا لا نستغل ما حدث كفرصة للوقوف بجوار شاي؛ أنتما صديقتان منذ فترة طويلة، أليس كذلك؟»

– «بلى، منذ أن كنا قبيحتين، عيد ميلادنا في يوم واحد.»

– «هذا رائع، إن من جمعتهم الصداقة فترة طويلة يجب أن يساند بعضهم بعضًا في أوقات مثل هذه، ما سبب المشاجرة؟»

هزت تالي كتفيها وقالت: «لا أعرف، لا شيء في الحقيقة».

– «ألا يمكنك أن تتذكري على الإطلاق؟»

لم تكن تالي تدري إن كانت هذه الغرفة مزودة بجهاز كشف الكذب، إن كان الأمر كذلك فكم سيكون من الصعب أن تفلت بفعلة كبيرة مثل الكذب. أغمضت عينيها وركزت ذهنها على السعرات الحرارية التي تتخلل جسمها الذي يتعرض لما يشبه التجويع، وسمحت لضباب الحسن بأن يلفها.

استحثها دكتور آندرز قائلًا: «تالي».

قررت تالي أن تفضي إليه بنذر يسير من الحقيقة: «لم يكن ذلك إلا ... أحداثًا قديمة». فأومأ الطبيب برأسه وطوى يديه في ارتياح، وتساءلت تالي في نفسها عما إذا كانت أفضت إليه بأكثر مما يجب. سألها: «منذ أيام القبح؟»

هزت تالي رأسها بالنفي دون أن تتكلم، فربما كشفتها نبرة صوتها.

– «وكيف تسير الأمور بينكِ وبين شاي منذ تلك الليلة؟»

– «على نحو جيد جدًا.»

ابتسم الطبيب ابتسامة تنم عن سعادته، ولكن تالي لاحظت أنه حول نظره إلى منتصف الغرفة، ربما ينظر إلى شاشة معلوماتية شفافة مثبتة فوق عينه لا تستطيع هي أن تراها، ترى هل دكتور آندرز يتفقد جهاز الاتصال الخاص بالمدينة؟ إذا فعل ذلك فسوف يعرف أن تالي وشاي لم تبعث إحداهما إلى الأخرى بأية رسائل منذ

ليلة الحفل، ومرور ثلاثة أيام كاملة دون تبادل أية رسائل بريدية بينهما هو أمر غير معتاد في عالم الحسان، أم تراه ينظر إلى تلك الشاشة ليرى هل يرتجف صوتها وهي تجيب عليه أم لا؟

أشار إلى مصدر معلوماته الخفي هذا، أو أيًا ما كان ينظر إليه، بإيماءة صغيرة وقال: «هل يبا لكِ أن حالتها المعنوية أصبحت أفضل منذ تلك الليلة؟»

– «إنها بخير، أظن ذلك.» لم تفعل شيئًا سوى أنها تحدث جروحًا بجسدها، وتهذي بأناشيد غريبة كالمجنونة، وربما تود أن تنشئ جماعتها الجديدة التي ستثير الكثير من الاضطرابات. «لم أرها منذ أن بدأت هذه الأمطار السخيفة في الهطول، ولكننا سنظل أفضل صديقتين إلى الأبد.»

لم تبدُ كلماتها الأخيرة صادقة أو حقيقية، فقد كانت نبرة صوتها خشنة، وانتابها سعال خفيف، فاتسعت ابتسامة دكتور آندرز القلقة، وقال: «أنا سعيد لسماع ذلك يا تالي، وأنتِ تشعرين أنكِ بخير، أليس كذلك؟»

قالت تالي: «في أحسن حال، ولكني جائعة قليلًا.»

– «نعم، نعم، أنت وزين يجب أن تأكلا كمية أكبر من الطعام، إنك تبدين نحيفة قليلًا، وقد علمت أن مستوى سكر الدم كان منخفضًا جدًا لدى زين عندما وصل إلى المستشفى.»

– «سوف أقدم له قطع بسكويت ورقائق الشيكولاتة أثناء وجوده بغرفة الانتظار، إنها رائعة.»

– «إنها فكرة رائعة، أنت صديقة حقًا يا تالي.» وقف الرجل ومد يده إليها وهو يقول: «حسنًا، أنا أرى أن الأطباء قد انتهوا من معالجة إصابة زين، ولذلك لن أبقيكِ أكثر من ذلك. شكرًا على وقتكِ، ولا تترددي في أن تخبريني إذا كانت لديكِ الرغبة أنتِ أو أي من أصدقائكِ في الحديث.»

قالت وهي ترسم على وجهها أجمل ابتساماتها: «طبعًا، لقد كان ذلك رائعًا حقًا.»

بالخارج أخذت قطرات المطر الباردة تعانق تالي وكأنها صديق قديم لا تستطيع أن تتجنبه. ومع كل الإزعاج الذي سببه لها ذلك الطقس، فقد شعرت تالي بارتياح لأنها الآن بعيدة عن ابتسامات دكتور آندرز المشرقة. حدثت زين عنه وهما في طريقهما إلى

القصر، ومع أنها قد أحكمت لف سوارها مرة أخرى فقد تحدثت بصوت منخفض حتى تتناثر كلماتها مع الرياح وهما يصعدان بلوحيهما إلى السماء الرمادية.

تنهد زين حينما انتهت تالي من حديثها: «يبدو أنهم قلقون عليها مثلنا».

– «نعم، لا بد أنهم سمعوا شجارنا في هذه الليلة، لقد كانت تصرخ في وجهي بطريقة غير معهودة بالمرة للحسان.»

رد عليها زين: «رائع»، وقد كشف عن أسنانه في وجه الرياح القارصة التي تلسعه. لم يبد أن المسكنات التي أعطوها لزين حتى تخفف من آلام الكسر الذي بيده تساعد على تخفيف آلام رأسه، إنه يجر قدميه في تثاقل فوق اللوح الطائر محاولًا أن يثبتهما بصعوبة لكي يحافظ على توازنه، وأضاف: «لا أظن أنني كشفت له الكثير، فكل ما قلته هو أنها كانت ثملة وتتصرف بطريقة غير طبيعية.» هنأت تالي نفسها بابتسامة رقيقة، فهي لم تخن شاي على الأقل هذه المرة، هذا ما تأمله.

– «بالطبع أنت لم تفعلي يا تالي، ربما تحتاج شاي إلى المساعدة ولكن ليس من طبيب نفسي من الحسان الجدد. إن ما يجب علينا أن نفعله هو أن نأخذكما خارج المدينة إلى البرية ونعطيها الدواء الحقيقي بأسرع ما يمكن.»

– «نعم، فالأقراص المعالجة أفضل بكثير من أن يجرح المرء نفسه.» (إذا لم ينته الأمر بالإصابة بتلف في أنسجة المخ)، لم تضف تالي تلك الجملة إلى حديثها الذي وجهته إلى زين، فهي لم تكن تنوي أن تطلعه على قرارها بأنها ستأخذه إلى المستشفى في المرة القادمة التي تهاجمه فيها تلك الآلام، فهي تأمل ألا يصل الأمر إلى ذلك. «إذن كيف تعامل الأطباء معك؟»

– «كالمعتاد ففي الساعة الأولى ظلوا يرشدونني إلى أهمية تناول كمية أكبر من الطعام، وحينما حان الوقت أخيرًا لإصلاح عظامي تغيبت عن الوعي حوالي عشر دقائق فقط. ولكنهم لم يلاحظوا أي شيء غير معتاد سوى أنني نحيف وأحتاج إلى تناول قدر أكبر من الطعام.»

– «جيد.»

– «هذا لا يعني بالطبع أنني بخير، فهم لم يتفحصوا رأسي، ولكنها يدي وليس إلا.»

أخذت تالي نفسًا عميقًا: «إن آلام رأسك تسوء، أليس كذلك؟»

– «أنا أظن أن ذلك بسبب الجوع والبرد أكثر من أي شيء آخر.»

هزت تالي رأسها وقالت: «أنا أيضًا لم أتناول أي شيء اليوم يا زين، ولكنك لم ترني ...»

– «انسي أمر رأسي يا تالي، إن حالتي لم تسؤ ولم تتحسن. إن ما يقلقني هو ذراعي شاي.» قرب زين لوجه منها وخفض صوته وهو يستطرد: «سوف يراقبونها في الأخرى الآن منذ هذه اللحظة، وإذا ألقى دكتور ريمي هذا نظرة على ما تفعله بنفسها من قرب فسوف يختلط الحابل بالنابل».

– «نعم، أنا لا يمكنني أن أختلف معك.» استرجعت تالي صورة الندوب التي تمتد بطول ذراعي شاي، فعندما رأت هذه الندوب من بعد ظنت أنها مجموعة من نقوش الوشم، ولكن أي شخص يراها من قرب سوف يعرف حقيقة هذه الندوب. ولكن ماذا سيحدث إذا رآها دكتور آندرز، إنها لا تظن أنه سيستدعي ابتسامة تتناسب مع هذا الموقف؛ سوف تدوي صفارات الإنذار في كل أرجاء المدينة، وسوف يزداد اهتمام الحراس بجميع من اشتركوا في كارثة انهيار الحلبة فوق الإستاد ازديادًا غير طبيعي.

رفعت تالي يدها وأوقفت اللوحين، وخفضت نبرة صوتها حتى أصبح يكاد يقترب من الهمس: «إذن، ليس لدينا الكثير من الوقت، فبدءًا من هذه اللحظة قد يقرر هذا الطبيب أن يتحدث إلى شاي في أي يوم».

أخذ زين نفسًا عميقًا وقال: «عليكِ أن تتحدثي إلى شاي قبله، قولي لها إنها يجب أن تقلع عن جرح نفسها بهذه الطريقة».

– «آه، هل تمزح، ماذا لو أنها لم تكن ترغب في ذلك؟»

– «قولي لها إننا على وشك أن نرحل من المدينة، وأخبريها أننا سنحضر لها الدواء الحقيقي.»

– «نرحل؟ كيف؟»

– «سوف نرحل الليلة إذا أمكننا ذلك، سوف أحزم كل شيء نحتاج إليه، وأنتِ عليكِ أن تجعلي الأشقياء الآخرين يستعدون.»

– «وماذا عن مذين؟» كانت تالي مرهقة للغاية، فلم تستطع أن ترفع معصمها الملفوف بالملابس الثقيلة، ولكن زين فهم ما تعنيه.

– «سوف نتخلص منهما الليلة، هناك حيلة كنت أدخرها.»

– «أية حيلة، يا زين؟»

«لن أستطيع أن أخبركِ الآن، ستنجح ولكنها خطيرة قليلًا.»

قطبت تالي جبينها، لقد جربت هي وزين كل الأدوات التي خطرت ببالهما، ولكن لم تفلح أية أداة في شيء أكثر من خدش السوارين. «ما هي؟»

قال زين: «سوف أريكِ إياها الليلة»، ولم يزد على ذلك.

ابتلعت تالي ريقها. «لا بد أن خطورتها أكثر من قليلة.» حدق زين فيها بوجهه الشاحب الذي يشي بأنه يكاد يتضور جوعًا وعينيه الباهتتين اللتين أخفت النظارات الواقية بريقهما وقال: «ساعدي الفتاة».

بعدها ضحك ضحكة خافتة واستطرد: «فربما تحتاج إلى المساعدة».

وأشاحت تالي بعينيها عن ابتسامته.

الفصل التاسع عشر

الساحقة

إن مبنى ورشة الفنون والأعمال الحرفية ليس بعيدًا عن المستشفى، فهو عند نهاية مجرى النهر حيث يتحد فرعاه معًا مرة أخرى، وفي هذا الوقت المتأخر من الليل لا يوجد أحد يستخدم ماكينات الخراطة أو طاولات التصوير أو قوالب الحقن، فقد خلا المكان إلا من واحدة من شباب الحسناوات تجلس عند الطرف الآخر من الورشة حيث ينبعث الضوء الوحيد في المكان، كانت تلك الشابة تنفخ الزجاج المنصهر لكي تصنع منه بعض الأشكال.

قالت تالي: «إن الجو هنا بالداخل شديد البرودة». وعلى أضواء الوهج الأحمر المنبعث من أنوار التشغيل استطاعت تالي أن ترى بخار الماء الذي يتصاعد من فمها وهي تتكلم مشكلًا دوائر حلزونية في الهواء.

لقد توقفت الأمطار أخيرًا، حينما كانت هي وزين يقومان بإعداد الأشقياء استعدادًا للهروب من المدينة، ولكن الهواء لا يزال رطبًا وباردًا، فحتى داخل مبنى الورشة يلتف تالي وفاوستو وزين بمعاطفهم.

قال زين: «لديهم أفران انصهار دائرة غالبًا، وبعض من هذه الماكينات يستهلك طنًا من الحرارة». أشار زين إلى جانبي المبنى اللذين يظلان مفتوحين حتى الليل واستطرد: «ولكن نظام التهوية يعني عدم وجود جدران ذكية، هل توافقان على ذلك؟»

قالت تالي وهي تحكم لف سترتها حول جسدها وتضع يدها في جيبها لترفع درجة حرارة جهاز التدفئة الموجود به: «أوافق».

أشار فاوستو إلى ماكينة تشبه آلة طباعة ضخمة وقال: «هاي، أنا أتذكر أننا كنا نلعب بواحدة من هذه الماكينات عندما كنا قبحاء أثناء حصص التصميم

الصناعي بالمدرسة، كنا نصنع صواني إفطار مزودة بعجلات على سطحها السفلي حتى نستخدمها في التزلج على الجليد».

قال زين وهو يقود تالي وفاوستو عبر الأرض الإسمنتية: «هذا ما دفعني إلى إحضارك معنا».

كان الجزء السفلي من الماكينة عبارة عن طاولة معدنية، بدت وكأنه محفور عليها مليون نقطة صغيرة، وقد تدلى هذا الجزء من أعلى لوح معدني مماثل عُلِّق ليوازي الطاولة.

قال فاوستو وهو يرفع حاجبيه: «ماذا؟ أتريد أن تستخدم ساحقة؟» لم يكن زين قد أخبرهما بالخدعة التي ينوي أن يقوم بها، ولكن تالي لم يعجبها منظر الماكينة الضخمة.

ولا اسمها، ولم يرق لها استخدامها في ذلك الأمر.

أنزل زين الدلو الذي أحضره معه من يده وبداخله زجاجة شمبانيا، فسقطت بعض المياه المثلجة على الأرض، وسحب بطاقة ذاكرة من جيبه ووضعها في الفتحة الخاصة بقراءة بيانات البطاقات الموجودة في الساحقة، فبدأت الماكينة تعمل وأخذت الأضواء تومض حول حافتها، والأرض ترتجف بقوة تحت قدمي تالي. ترقرقت الطاولة ومرت موجة عبر سطحها وكأن المعدن الذي صنعت منه قد أصبح سائلًا فجأة يترقرق بوضوح فوق السطح.

عندما هدأت تلك الحركة ألقت تالي نظرة متأنية على سطح الساحقة: إن النقاط الصغيرة التي بدت وكأنها محفورة على السطح هي في الحقيقة أطراف قضبان رفيعة يمكن رفعها إلى أعلى أو إنزالها إلى أسفل من أجل صناعة الأشكال المختلفة.

مررت أصابعها فوق الطاولة ولكن القضبان كانت رفيعة للغاية ومصفوفة بعناية فائقة. فشعرت وكأنها تمرر أصابعها فوق لوح معدني أملس. «ما وظيفتها؟»

قال زين: «تشكيل الأشياء بالكبس». ضغط زين على أحد الأزرار، فدبت الحياة في الطاولة المعدنية من جديد وارتفعت بعض القمم الصغيرة المتماثلة في منتصفها ولاحظت تالي أن فجوات متماثلة الشكل ظهرت فوق سطح الساحقة العلوي.

قال فاوستو: «مرحبًا، هذه صينية الإفطار التي كنت أصنعها».

قال زين في ابتهاج: «فعلًا، هل تحسب أنني نسيت؟ إن هذه الأشياء كانت رائعة حقًا للتزلج»، ثم سحب لوحًا معدنيًا من أسفل الماكينة وساوى حوافه بحرص مع حواف الطاولة.

قال فاوستو: «نعم، لقد كنت أتساءل دائمًا لماذا لا ينتجونها بكميات هائلة».

قال زين: «لأنها تساعد على إثارة التيقظ والانتباه بدرجة كبيرة، ولكنني متأكد من أن قبيحًا يعيد اختراعها كل بضعة أعوام. انتبها، سوف أشغل الماكينة».

اتخذت تالي وفاوستو كلاهما خطوة وقائية إلى الوراء، وأمسك زين بذراعين مثبتتين عند حافة الطاولة، وضغط على كليهما في اللحظة نفسها.

اهتزت الماكينة محدثة خشخشة عالية لجزء من الثانية، ثم تحركت فجأة، فبدأ اللوح المعدني العلوي يهبط إلى أسفل حتى كاد يرتطم بنظيره السفلي محدثًا «رنينًا» صاخبًا ظلت أصداؤه تتردد داخل أذني تالي حينما ابتعد فكا الماكينة أحدهما عن الآخر ببطء ليكشفا عن اللوح المعدني.

قال زين: «رائعة، أليس كذلك؟» رفع زين اللوح المعدني — الذي تغيرت معالمه نتيجة الضغط الذي وقع عليه — من فوق طاولة الماكينة.

يبدو اللوح المعدني الآن مثل صينية غذاء لها عدة أجزاء تخص أقسام الوجبة المختلفة، وهي: السلطة، والطبق الرئيسي، وطبق التحلية. قلبها زين بيديه، ومرر إصبعه فوق التجاويف التي تركت أثرها على سطح الصينية الخلفي.

— «فوق ذرات الجليد الدقيقة بإمكان المرء أن يقطع ألف كيلومتر في الساعة باستخدام تلك الزلاجة الصغيرة».

غطى الشحوب وجه فاوستو وهو يقول: «لن ينجح ذلك يا زين».

— «لماذا؟»

— «لأن هناك الكثير من احتياطات الأمان، وحتى إذا أمكنك أن تجعل أحدنا ...»

صاحت تالي: «أتمزح يا زين؟ إنك لن تضع يدك هناك بالداخل. هذا الشيء سيقضي عليها».

ابتسم زين وقال: «لا، لن يحدث ذلك، فمثلما قال فاوستو هناك الكثير من احتياطات الأمان». سحب زين بطاقة الذاكرة من الفتحة المخصصة لقراءة البطاقات ووضع مكانها بطاقة أخرى، تموج سطح الطاولة مرة أخرى، وبقيت مجموعة من أطراف القضبان مرتفعة إلى أعلى وكأنها صف من الأسنان المعدنية. وضع زين معصمه الأيسر بجانب هذه الأسنان. قال زين: «من الصعب تخيل هذا مع وجود القفاز، ولكن هل تريان أين ستقص السوار؟»

قالت تالي: «ولكن، ماذا لو أفلتت يا زين؟» لقد جاهدت نفسها بصعوبة حتى تبقي صوتها منخفضًا. كان سواراهما ملفوفين بعدة طبقات من الملابس كالمعتاد.

ولكنها لا تريد المرأة الحسناء الشابة التي تجلس عند الطرف الآخر من الورشة أن تسمعها.

– «إنها لا تقلت يا تالي. بإمكانكِ أن تقومي بسك الأجزاء الخاصة بساعات التوقيت باستخدام تلك الأشياء».

قال فاوستو مؤكدًا: «إنها لن تعمل على الإطلاق». ووضع يده أسفل الساحقة وقال: «شغليها».

قال زين وهو يمسك بذراعي الماكينة ويضغط عليها: «أنا أعرف، أنا أعرف».

صاحت تالي في ذعر: «ماذا؟» ولكن الماكينة لم تتحرك. أضاء صف من الأنوار الصفراء بطول حافتها، وانطلق صوت صناعي رنان يقول: «أرجو الإخلاء من فضلك».

قال فاوستو: «إنها تكتشف الإنسان من حرارة الجسم».

ابتلعت تالي ريقها، كان قلبها يدق بعنف بين ضلوعها وفاوستو يرفع يده من أسفل الطاولة.

– «لا تفعل ذلك!»

قال فاوستو: «وحتى لو استطعت أن تخدع الماكينة، ما جدوى ذلك؟» ثم استطرد: «كل ما سيحدث أنها ستسحق السوار مما سيتسبب في فرم يدك».

– «ليس عند خمسين مترًا في الثانية، انظر هنا». انحنى زين فوق الطاولة، ومرر إصبعه بسرعة فوق صف الأسنان الذي صمّم البرنامج الخاص به. «سوف تقطعه هذه الحافة، أو على الأقل ستضربه بقوة لتدمر أي شيء بداخله، سوف يصبح سوارانا قطعتين من المعدن بلا حياة بعد أن يضربهما هذا الشيء».

أدخل فاوستو رأسه إلى الساحقة، حتى يلقي نظرة من قرب، أما تالي فقد حولت نظرها بعيدًا عن الفتيين اللذين وضعا رأسيهما بين الفكين المعدنيين للماكينة. «قطعتين من المعدن بلا حياة». أخذت تالي تحملق في نافخة الزجاج الجالسة في الجانب الآخر من الورشة؛ حيث كانت تجلس المرأة — التي لم يصل إلى مسامعها ذلك الحوار المجنون الذي دار بينهم — في هدوء وهي تمسك بقطعة كبيرة من الزجاج بداخل فرن صغير متوهج وتقلبها ببطء فوق اللهب.

مشت تالي نحو المرأة حتى أصبحت كلمات زين وفاوستو خارج مرمى سمعها، ثم فكت الكوفية التي تلف بها سوار الاتصال الخاص بها. «اتصل بشاي».

– «غير متاحة، أتودين ترك رسالة؟»

تجهم وجه تالي ولكنها قالت: «نعم. اسمعي يا شاي أنا أعرف أن هذه الرسالة رقم ثمانية عشر التي أتركها لكِ اليوم، ولكن عليكِ أن تجيبيني. أنا آسفة لأننا كنا نتجسس عليكِ، ولكن ...» شعرت تالي بالحيرة ولم تدرِ ما تقول، فهي تفترض أنه ربما يكون الحراس، أو حتى عملاء السلطات الخاصة، يستمعون إليها. ولذلك لا يمكنها أن تشرح لشاي أنهم سيهربون الليلة.

– «ولكننا قلقون عليكِ، ارجعي إليّ في أقرب وقت ممكن، يجب أن نتكلم ... وجهًا لوجه.»

أنهت تالي رسالتها، وأعادت لف الكوفية حول معصمها. لقد عمدت شاي وهوو وتاكس، أو جماعة الجارحين، إلى التخفي تمامًا، ورفضوا أن يجيبوا على أية رسائل اتصال تبعث إليهم. ربما كانت شاي تعبر عن غضبها لأنهم تجسسوا على المراسم السرية التي كانت تقوم بها.

ولكنها كانت تأمل في أن يتمكن أحد الأشقياء من العثور عليهم وتبليغهم بموعد الهرب الليلة. لقد قضى زين وتالي الليل في إعداد الجميع للرحيل. لقد حزم الأشقياء أمتعتهم واتخذوا مواقعهم حول الجزيرة، مستعدين للتحرك فور أن تصلهم إشارة من الورشة بتحرر زين وتالي من قيدهما.

فرغت المرأة من تسخين الزجاج، فأخرجت الكتلة المتوهجة من الفرن وبدأت تنفخ فيها من خلال أنبوب صغير، مما جعل هذه المادة المنصهرة تنتفخ مكونة أشكالًا متموجة. على مضض حولت تالي نظرها بعيدًا عن هذا المنظر وعادت من جديد تنظر إلى الساحقة.

لا يزال فاوستو يتجادل مع زين: «ولكن ماذا عن احتياطات الأمان؟»

– «أستطيع أن أتخلص من حرارة جسمي.»

– «كيف؟»

ركل زين الدلو الذي به زجاجة الشمبانيا وقال: «ثلاثون ثانية في المياه المثلجة وستصبح يدي باردة كقطعة من المعدن.»

– «نعم، ولكن يدك ليست قطعة من المعدن.» هذا ما صاحت به تالي، «ويدي أيضًا ليست كذلك، وهذه هي المشكلة.»

– «اسمعي يا تالي، أنا لا أطلب منك أن تفعلي ذلك أولًا.»

هزت تالي رأسها وهي تقول: «أنا لن أفعل ذلك مطلقًا يا زين، ولا أنت».

قال فاوستو: «إنها محقة». كان فاوستو يحدق بالأسنان المعدنية الفاتكة من سطح الطاولة ويقارنها بمثيلاتها التي تتدلى من السطح العلوي للماكينة: «إن هذا التصميم رائع، ولكن أن تضع يدك هناك بالداخل فهذا ضرب من الجنون، إذا كنت قد أخطأت في حساب سنتيمتر واحد فقط فسوف تضرب الساحقة العظم، لقد حكوا لنا عن هذا أثناء حصص الأعمال الحرفية، سوف تدخل الموجة التي ستولدها هذه الصدمة ذراعك بطوله وتحطم كل شيء في طريقها».

قال زين: «إذا أفلتت فسوف يجمعون الأجزاء التي تحطمت داخل يدي معًا مرة أخرى، ولكنها لن تفلت، لقد صممت أسنانًا مختلفة ليدك يا تالي». لوح زين ببطاقة ذاكرة أخرى واستطرد: «لأن سوارك أصغر من سواري».

قالت تالي في هدوء: «إذا حدث أي خطأ فلن يصلحوه أبدًا. فحتى طاقم مستشفى المدينة لا يمكنه أن يعيد بناء يد مسطحة».

قال فاوستو: «لن تكون مسطحة، فعظامك ستصبح سائلة يا زين، وهذا يعني أن الصدمة ستصهرها».

قال زين وهو يمد يده إلى أسفل تجاه الدلو محاولًا العثور على زجاجة الشمبانيا لكي يخرجها منه: «اسمعي يا تالي، أنا أيضًا لم أرغب في أن أفعل ذلك، ولكن هاجمتني نوبة الآلام هذا الصباح، أتتذكرين؟» ونزع زين سدادة الغطاء فأحدثت صوتًا مثل صوت الفرقعة.

قال فاوستو: «هاجمتك ماذا؟»

هزت تالي رأسها وقالت: «علينا أن نجد حلًا آخر».

قال زين وهو يفرغ كمية كبيرة من الشراب في جوفه: «ليس هناك وقت، إذن سوف تساعدني يا فاوستو؟»

قالت تالي بلهجة متسائلة: «يساعدك؟»

أومأ فاوستو برأسه ببطء ورد عليها: «تُشغَل الساحقة بكلتا اليدين، إجراء احتياطي آخر، حتى لا يتصادف وينسى أي شخص إحدى يديه داخلها، ولذلك فهو يحتاج إلى أحدنا لكي يسحب معه ذراعي التشغيل». وضع فاوستو ذراعيه أمام صدره وهما مكتوفان ووجه حديثه إلى زين: «انس هذا الأمر».

قالت تالي: «وأنا أيضًا لن أساعدك».

تنهد زين وقال: «تالي، إذا لم نترك المدينة الليلة فقد أضطر أيضًا إلى وضع رأسي هنا داخل هذه الماكينة. إن آلام الصداع تلك تداهمني كل ثلاثة أيام تقريبًا، والآن أصبح الوضع أسوأ. علينا أن نرحل».

قطب فاوستو جبينه: «عن ماذا تتحدثان؟»

التفت زين إليه وقال: «شيء ألم بي يا فاوستو، لذلك علينا أن نرحل الليلة، فنحن نظن أن سكان الضباب الجديد يمكنهم أن يساعدوني».

– «ولماذا تحتاج إليهم؟ وماذا ألم بك؟»

– «ما ألم بي هو أنني تناولت الدواء وشفيت.»

– «أعد على سمعي ما قلت؟»

أخذ زين نفسًا عميقًا وقال: «أترى، لقد تناولنا تلك الأقراص ...»

غضبت تالي وأشاحت بوجهها، فقد أدركت أن ستارًا آخر قد أزيح عن السر، في البداية كانت شاي والآن فاوستو، وتساءلت تالي كم تبقى لهم قبل أن يعرف جميع الأشقياء بأمر الدواء، وعندها يصبح الرحيل عن المدينة أمرًا عاجلًا لتالي وزين، مهما كانت المخاطرة التي يجب أن يتحملاها.

أخذت تالي تتأمل المرآة التي تنقع الزجاج ومشاعر الحزن تتصاعد بداخلها. لقد كان بإمكانها أن تشعر بأن اندهاش فاوستو وعدم قدرته على تصديق ما سمعه تقلصا شيئًا فشيئًا وزين يشرح له ما حدث له هو وتالي خلال الشهر الماضي، القرصين المعالجين، وشعورهما باليقظة الذي يزداد بعد تناول الدواء يومًا بعد يوم، وآلام الصداع التي تشل حركة زين.

قال فاوستو: «إذن، ما قالته شاي عنكما صحيح!» «لهذا أصبحتما مختلفين الآن إلى هذا الحد ...»

إن شاي هي الوحيدة التي تكلمت مع تالي في هذا الأمر، ولكن لا بد أن الأشقياء الآخرين جميعهم لاحظوا التغيرات التي حدثت وكانوا يتساءلون عما حدث، إنهم جميعًا يريدون هذا الشعور الغريب باليقظة التي لم يعهدوها من قبل، والتي حاز عليها زين وتالي. الآن وقد عرف فاوستو أن هناك علاجًا وأن كل ما يتطلبه هذا العلاج ببساطة هو تناول قرص صغير، ربما لم تعد المخاطرة بيد زين ويدها ووضعهما داخل تلك الساحقة يعد ضربًا من ضروب الجنون.

تنهدت تالي، ربما لم يكن ذلك قرارًا جنونيًا، ففي هذا الصباح قررت تالي أن تؤجل قرارها بإحضار زين إلى المستشفى وظلت تنتظر بالخارج في المطر دقائق بدت

حرجة وفاصلة، فقد كانت تالي ساعتها تخاطر بحياته وليس فقط بيده. ابتلعت تالي ريقها، ماذا قال فاوستو عن العظام؟ «ستصبح سائلة؟»

وفي تلك الأثناء كبر الشيء الزجاجي الذي تمسك به المرأة وانتفخ مكونًا العديد من الكرات المتداخلة التي بدت رقيقة للغاية، يستحيل إصلاحها إذا تهشمت، وكانت المرأة تمسك بذلك الشكل المتوهج بحرص، فبعض الأشياء لا يمكن تجميعها مرة أخرى إذا انكسرت.

تذكرت تالي آز، والد ديفيد، حينما حاولت دكتورة كابل أن تمحو ذكرياته، لقد مات. قتلته تلك العملية. إن العقل أضعف بكثير من اليد، وليس لدى أي منهم أدنى فكرة عما يحدث بداخل رأس زين.

نظرت تالي إلى القفاز الذي ترتديه فوق يدها اليسرى، وأخذت تحرك أصابعها ببطء. هل لديها الشجاعة الكافية لكي تضع يدها ما بين فكي الساحقة المعدنيين؟ ربما.

تحدث فاوستو إلى زين: «هل أنت متأكد من أننا يمكن أن نعثر على سكان الضباب الجديد؟ لقد كنت أظن أنه لم يرهم أحد منذ فترة».

– «لقد قال الشبحان اللذان قابلناهما هذا الصباح إن هناك علامات تدل على أنهم عادوا مرة أخرى».

– «وهل يمكنهم أن يعالجوك؟»

إن بإمكانها الآن أن تتبين ما ينويه فاوستو من صوته، إنه يبرر لنفسه بصوت عالٍ القيام بذلك، ومع أنه لا يندفع نحو هذا التبرير بسرعة، فهو يتقدم تجاهه بثقة، وسوف يقبل في النهاية أن يحرك ذراع تشغيل الساحقة، إنه موقف بشع، إلا أنه منطقي للغاية: فهناك علاج لحالة زين في مكان ما في البرية خارج المدينة، وإذا لم يساعداه على الوصول إليه فسوف يموت لا محالة.

وما الضير إذن من المخاطرة بيده؟

استدارت تالي وقالت: «سوف أفعلها، سوف أسحب زندي ذراعي التشغيل».

نظر الاثنان إليهما وقد عقدت الدهشة لسانهما، ثم ابتسم زين وقال: «جيد، كنت أفضل أن تكوني أنتِ من يفعل ذلك».

ابتلعت تالي ريقها وسألته: «لماذا؟»

– «لأنني أثق بكِ، أنا لا أريد أن أكون خائفًا».

أخذت تالي نفسًا عميقًا وهي تجاهد لكبح دموعها وقالت: «أظن أنني يجب أن أشكرك».

مرت لحظة من الصمت المزعج، ثم قطعها فاوستو أخيرًا وقال: «هل أنتِ متأكدة يا تالي؟ يمكنني أن أقوم بذلك».

– «لا، يجب أن أكون أنا من تقوم بذلك».

– «حسنًا، لا داعي للانتظار».

خلع زين معطفه ووضعه على الأرض وفك الكوفية الملفوفة حول معصمه وخلع قفازه الذي يغطي السوار. بدت يده اليسرى العارية ضئيلة وهشة بجانب جسم الساحقة الداكن الضخم. أطبق زين أصابعه ودفع براحته داخل الدلو الممتلئ بالثلج، وانكمشت عضلات وجهه عندما بدأت المياه المثلجة تمتص حرارة جسده. «استعدي يا تالي».

نظرت تالي إلى حقائب أمتعتهم الملقاة على الأرض وتحسست الحلقة التي ترتديها حول بطنها لتتأكد من أن جهاز الاستشعار مثبت عليها، ثم حولت بصرها إلى نهاية مبنى الورشة لكي تتفحص الألواح الطائرة الموجودة هناك مرة أخرى؛ حيث نزعت الأسلاك الموجودة أسفل الألواح وفصلتها عن الشبكة المعدنية الموجودة أسفل المدينة. إنهم بذلك مستعدون للرحيل.

بعد ذلك نظرت تالي إلى سوارها، فور أن يتحطم سوار زين سوف تنقطع إشارات التعقب التي يبعث بها إلى شبكة الاتصال، وسيكون عليهم أن يحطموا سوارها في الحال ويبدءوا التحرك، وأمامهم مسافة طويلة يجب أن يقطعوها حتى يصلوا إلى نهاية حدود المدينة.

إن أربعة وعشرين عضوًا من الأشقياء ينتظرون في أرجاء الجزيرة المختلفة، مستعدون للتفرق في أنحاء البرية حتى يشتتوا جهود أجهزة المدينة التي سيكون عليها أن تتبعهم في كل الاتجاهات. وكل منهم يحمل إحدى الألعاب النارية الملونة، التي تطلق خليطًا مميزًا من الألوان يجمع ما بين الأخضر والأرجواني، ليستخدموها في نشر الإشارة التي تعلن أن زين وتالي أصبحا أحرارًا.

أحرار.

نظرت تالي إلى ذراعي التحكم بالساحقة وابتلعت ريقها، كان الذراعان — اللذان يشبهان أذرع التوجيه في الألعاب الإلكترونية — مطليين بالبلاستيك الأصفر الزاهي، وقد زُود كل منهما بزند سميك. عندما أمسكت تالي بهما انتقلت الهزة التي تحدثها الطاقة المارة بالماكينة، التي كانت تدور ببطء شديد، (الطاقة التي تمر بالماكينة أثناء وضع الاستعداد) إلى يديها، بدا لها وكأنها تسمع صوت محرك طائرة شبه مدارية تمر فوق رأسها.

حاولت تالي أن تتخيل أنها ستسحب زنادي التشغيل ولكنها لم تستطع، ولكن لم يعد بإمكان تالي أن تدخل مع زين في جدال، ولم يعد هناك وقت للنقاش.

أخرج زين يده من الدلو بعد أن غمسها في الماء المثلج مدة ثلاثين ثانية بدت وكأنها فترة طويلة من الوقت.

«أغمضي عينيكِ، فقد تتطاير الشظايا المعدنية، فالبرودة تجعله هشًا وسريع الانكسار.» هكذا قال زين بنبرة صوت عادية جعلت تالي تدرك أنه لا يهم الآن ما الذي يسمعه السوار، فحتى يستطيع أي شخص أن يتبين موضوع الحديث، سيكونون هم محلقين بأقصى سرعة باتجاه أطلال المدينة القديمة.

وضع زين معصمه على حافة الطاولة وأطبق جفنيه بإحكام. «حسنًا، افعليها.»

أخذت تالي نفسًا عميقًا، كانت يداها المسكتان بذراعي التحكم ترتعشان، أغمضت عينيها وأخذت تنظم أفكارها ...

– «حسنًا، افعليها الآن ...»

ولكن أصابعها لم تطع ذلك الأمر.

شعرت تالي أن رأسها يدور بها، وبدأت تفكر في كل الأمور التي يمكن ألا تسير على ما يرام، لقد تخيلت نفسها وهي تطير بزين إلى المستشفى ويده اليسرى كتلة هلامية، وتخيلت عملاء السلطات الخاصة وهم يقتحمون عليهم المكان في تلك اللحظة ويوقفون ما تقوم به هي وزين بعد أن استطاعوا أن يفهموا جيدًا ما الخدعة التي دبرا القيام بها، وتساءلت عما إذا كان زين قد قام بكل الاحتياطات المناسبة، وتذكر أن السوار سينكمش قليلًا بفعل المياه المثلجة.

توقفت تالي عند تلك الفكرة، وشعرت أنه ربما ينبغي عليها أن تسأله، ففتحت تالي عينيها ورأت السوار المبتل يتلألأ بريقه في أضواء التشغيل الصفراء التي تشع من الساحقة وكأنه قطعة من الذهب.

– «تالي ... هيا.»

إن البرودة تتسبب في انكماش المعادن، ولكن الحرارة ... نظرت تالي إلى المرأة الجالسة في هدوء عند الطرف الآخر من الورشة وهي تنفخ الزجاج دون أن تدرك شيئًا عن تلك الحادثة العنيفة البشعة التي توشك أن تحدث.

قال فاوستو بصوت منخفض: «تالي!».

إن الحرارة قد تجعل السوار يتمدد ...

والمرأة تمسك بالزجاج المتقد كالجمر في يديها، وتقلبه لكي تتفحص كل جوانبه. «كيف يمكنها أن تمسك بالزجاج المنصهر؟»

قال فاوستو: «تالي، إذا كنت تودين، سوف أقوم ...»

قالت تالي وهي تسحب يديها من فوق ذراعي التحكم بالساحقة: «انتظرا».

صاح زين: «ماذا هناك؟».

– «ابقيا هنا.» سحبت تالي بطاقة الذاكرة من فتحة قراءة البطاقات الموجودة بالساحقة متجاهلة كل صيحات الاعتراض التي أطلقها زين من خلفها، وجرت نحو الجانب الآخر من الورشة متجاوزة الأفران وماكينات الخراطة الضخمة، عندما تقدمت ناحية المرأة نظرت إليها وعلى وجهها سيماء السكينة، وابتسمت في هدوء الحسان الجدد المعهود.

– «مرحبًا يا عزيزتي».

قالت تالي: «مرحبًا، إن هذا جميل».

أصبحت ابتسامة المرأة أكثر ترحيبًا وهي ترد عليها: «شكرًا لك».

كان بإمكان تالي الآن أن ترى يدي المرأة، لقد كان يغطيهما شيء فضي براق يتلألأ في الوهج الأحمر المضيء.

– «أنت ترتدين قفازين، أليس كذلك؟»

ضحكت المرأة: «بالطبع! إن درجة الحرارة شديدة السخونة داخل هذا الفرن، كما تعرفين».

– «ولكن، ألا تشعرين بها؟»

– «ليس وأنا مرتدية هذا النوع من القفازات. أعتقد أن هذه المادة أختُرِعت من أجل المكوكات الفضائية التي تعود إلى الأرض من خلال الغلاف الجوي، إنها تستطيع أن تحمي اليد من درجات حرارة تصل إلى ألفي درجة مئوية».

أومأت تالي برأسها. «وهي مادة رقيقة، أليس كذلك؟ من الجانب الآخر للغرفة لم يمكنني أن أتبين أنكِ كنتِ ترتدين القفازين».

أومأت المرأة برأسها في سرور وقالت: «هذا صحيح، يمكنني أن أشعر بملمس الزجاج من خلالهما».

قالت تالي وهي تبتسم ابتسامة جذابة: «هذا رائع»، لقد خطرت لها فكرة، فهذا النوع من القفازات يمكن ارتداؤه «تحت» السوارين. «من أين يمكنني الحصول على زوج منهما؟»

أومأت المرأة برأسها مشيرة إلى خزانة قريبة، عندما فتحت تالي الخزانة وجدت عشرات من القفازات مكومة على الأرفف، وكانت المادة الواقية التي صنعت منها تتلألأ مثل حبات الثلج التي سقطت لتوها من السماء، سحبت تالي قفازين وسألت المرأة: «أنها جميعًا قياس واحد؟»

– «نعم إنها مطاطية لتناسب قياس يدك، ويمكن أن تسحبيها فوق مرفقك، ولكن يجب أن تتخلصي منها بعد أول استخدام، فهي لا تعمل جيدًا في المرة الثانية.»

– «ليس هناك مشكلة.» استدارت تالي وهي تقبض بإحكام على القفازين، وسرى شعور بالراحة في نفسها حينما أدركت أنه لن يكون عليها أن تسحب زنادي ذراعي التشغيل، ولن تضطر إلى مشاهدة فكي الساحقة وهما يطبقان على يد زين، إن هناك خطة أخرى أفضل تتكشف أمام عقلها بسلاسة ويسر، فهي تعرف أين بالضبط يمكنهما أن يجدا فرنًا شديد الحرارة يمكن أن يأخذهما مباشرة إلى نهاية حدود المدينة.

قالت المرأة بلهجة يشوبها انزعاج ما: «انتظري لحظة يا تالي»، تجمدت تالي مكانها، لقد أدركت أن المرأة تعرفت عليها، إن كل من شاهد الأخبار يعرف جيدًا بالطبع ملامح تالي يانغ بلود، فأخذت تالي تعتصر ذهنها بحثًا عن سبب بريء لاستخدام هذين القفازين، ولكن كل ما فكرت به بدا سخيفًا للغاية. «نعم؟»

قالت المرأة: «لقد جلبت قفازين لليد اليسرى»، ثم ضحكت واستأنفت حديثها: «وهذا لن يفيدك كثيرًا، أيًا كانت الحيلة التي تنوين القيام بها».

ابتسمت تالي وسمحت لضحكة خافتة أن تتسرب من بين شفتيها. «هذا ما فكرت فيه.» واستدارت عائدة إلى الخزانة وبحثت عن قفازين لليد اليمنى، فليس هناك ضير من حماية كلتا اليدين. شكرت تالي المرأة: «شكرًا على كل ما قدمته لي من مساعدة.»

ابتسمت المرأة ابتسامة حسناء وهي تقول: «لا بأس». وانصرفت إلى قطعة الزجاج التي تمسك بها وعادت تنفخ بها لتنتفخ وتتكور.

وأردفت: «فقط خذي حذرك».

قالت تالي: «لا تقلقي، إنني دائمًا أفعل».

الفصل العشرون

اختطاف

سألها فاوستو: «أتمزحين؟ كيف يمكننا أن نطلب منطادًا واحدًا ونحن في منتصف الليل؟».

ردت عليه تالي وهي تضع إحدى حقائب الأمتعة فوق كتفها: «لا يمكننا ذلك، سوف يكون علينا أن نختطفه»، ثم طقطقت أصابعها لكي يتبعها لوحها الطائر، وأردفت: «في الحقيقة، لا بد أن نحصل على بضعة منه، فكلما ازداد عدد من يخرجون منا من المدينة بهذه الطريقة، كان ذلك أفضل».

قال زين وهو يتفقد الكوفية التي أعاد لفها حول ساعده: «اختطاف؟ أتقصدين أننا سنسرقها؟».

ابتسمت تالي ابتسامة عريضة وردت عليه: «لا، ولكن سوف نطلبها بلطف، لا تنس يا زين أننا نحن الأشقياء، وأننا مشهورون، اتبعني».

عندما خرجوا من مبنى الورشة قفزت تالي فوق سطح لوحها الطائر، وارتفعت به في اتجاه مركز الجزيرة، حيث تكون قمم أبراج الاحتفالات محاطة دائمًا بمظلات الهبوط والمناطيد والألعاب النارية.

اعتلى الفتيان سطحي لوحيهما الطائرين ليتبعاها. صاحت تالي بفاوستو: «عليك أن تنقل الأخبار إلى بقية الأشقياء، وتخبرهم بالتغيير الذي حدث في خططنا».

نظر فاوستو إلى زين ليرى هل يوافق على ذلك، ثم أومأ برأسه وهو يشعر بالارتياح لأن الخطة التي تعتمد على استخدام الساحقة قد جرى استبدالها بخطة أقل عنفًا. «كم منا تودين أن تحلقي معهم؟».

قالت تالي: «تسعة أو عشرة، من لا يخاف من المرتفعات يمكنه أن يأتي، أما البقية فيمكنهم أن يأتوا بالألواح الطائرة كما رتبنا من قبل. سوف نكون جاهزين للانطلاق خلال عشرين دقيقة، لنلتقي عند مركز المدينة».

قال فاوستو وهو ينحرف بلوحه مبتعدًا باتجاه السماء التي لفها الظلام: «سوف أكون هناك».

التفتت تالي إلى زين وقالت: «هل أنت بخير؟»

أومأ زين برأسه وهو يحرك أصابعه المغطاة بالقفاز ببطء: «سوف أكون بخير، إنني أحتاج فقط إلى بضع لحظات كي أتأقلم مع التغيير الذي حدث بالخطة».

قربت تالي لوحها من لوح زين وأمسكت يده الأخرى التي لا يرتدي فيها قفازًا وقالت: «ما كنت تود أن تقوم به ينم عن الشجاعة والإقدام». هز زين رأسه وقال: «أظن أنه ينم عن الغباء».

– «نعم، ربما، ولكن إذا لم نذهب إلى الورشة لما فكرت في هذا الأمر».

ابتسم زين وقال: «بصراحة، أنا سعيد لأنكِ فكرتِ في ذلك». وأطبق أصابعه بحركة عصبية مرة أخرى، ثم أشار إلى الأمام: «هناك اثنان». تبعت تالي نظراته التي تتعلق بوسط الجزيرة حيث يحلق منطادان فوق قمة أحد أبراج الاحتفالات وبدا كل منهما مثل رأس كبير أصلع، والأضواء المرتعشة التي تنطلق من الألعاب النارية الآمنة تنعكس على الحبلين اللذين يبقيانهما في مكانهما.

قالت تالي: «رائع».

قال زين: «هناك مشكلة واحدة، كيف سنصل إلى هذا الارتفاع ونحن على متن لوحين طائرين».

فكرت تالي لحظة وقالت: «بحذر شديد».

حلقت هي وزين حتى وصل لوحاهما إلى نقطة تفوق أي ارتفاع وصلت له تالي من قبل، وأخذا يرتفعان ببطء بمحاذاة برج الاحتفالات، لقد كانا قريبين من جسم البرج حتى إنهما يمكنهما أن يمدا أيديهما ويلمسا جدرانه الإسمنتية.

وكان المعدن الموجود بمبنى البرج يعطي دفعة طفيفة للروافع المزود بها اللوحان الطائران، والتي تكاد تكفيها بصعوبة، وشعرت تالي بهزة مزعجة تحت قدميها أثارت أعصابها وذكرتها بالوقوف على طرف أعلى ألواح القفز في المياه عندما كانت طفلة

صغيرة، وبعد دقيقة مرت ببطء شديد وصلا إلى المنطقة التي شد إليها أحد المناطيد، ولمست تالي الحبل بيدها العارية، وتحسست حلقاته التي كانت مبتلة بمياه المطر.

– «ليس هناك مشكلة، فهو من المعدن.»

سألها زين: «نعم، ولكن أبه ما يكفي من المعدن؟» هزت تالي كتفيها.

أدار زين عينيه في أرجاء المكان وقال: «وكنتِ تظنين أن خطتي كانت خطيرة. حسنًا سوف آخذ ذلك ذي المنظر المضحك.» لف زين حول جسم البرج حتى وصل إلى النقطة التي شد إليها المنطاد الآخر الذي يتمايل مع النسيم. ابتسمت تالي ابتسامة عريضة حينما رأت أن المنطاد على شكل رأس خنزير ضخمة له أذنان بارزتان وعينان كبيرتان مرسومتان على غلافه الوردي المصنوع من النايلون.

إن منطادها على الأقل لونه مألوف، ولونه الفضي — الذي يقطعه من المنتصف خط أزرق يحيط بالغلاف المفتوح — يعكس الأضواء من حوله. وترامى إلى سمعها صوت آتٍ من صندوق المنطاد الذي يعلوها، صوت لا يمكن أن تخطئه أذنها، إنه صوت فرقعة أحدثته سدادة زجاجة شمبانيا بعد فتحها، تبع هذا الصوت أصوات ضحكات مختلفة. لم تكن السلة تعلوها بكثير ولكن الصعود إليها سيكون صعبًا.

تبعت تالي بعينيها الحبل الذي يتدلى إلى أسفل ثم يعود ويصعد متقوسًا إلى أعلى ليُربط في صندوق المنطاد، هذا الحبل المتعرج يذكرها بقضبان لعبة القطار الأفعواني الموجودة في أطلال المدينة القديمة.

كانت قضبان القطار الأفعواني تحتوي بالطبع على كمية أكبر بكثير من المعدن وكأنه كان مصممًا خصوصًا لدعم الألواح الطائرة. إن قصر طول هذه السلسلة التي تربط المنطاد إلى البرج لن يتيح أمام الروافع المغناطيسية للوحها الطائر الكثير من الخيارات.

بالإضافة إلى أن هذا الحبل ليس ثابتًا مثل قضبان القطار الأفعواني، ولكنه يتحرك باستمرار مع المنطاد الذي يهبط ببطء إلى أسفل كلما برد الهواء الموجود في غلافه، ولكن تالي تعرف أنه سيقفز فجأة إلى أعلى ويشد الحبل عن آخره إذا ما أوقدت شعلة المنطاد، والأسوأ من ذلك أن راكبي المنطاد قد يشعرون بالملل من بقاء المنطاد معلقًا هكذا في الهواء، ويقررون الذهاب به في جولة ليلية تاركين لوح تالي مكشوفًا دون غطاء معدني بينه وبين الأرض.

كان زين محقًا، ليست هذه أسهل طريقة للحصول على منطاد، ولكن ليس هناك وقت لطلب منطاد بطريقة سليمة، أو لانتظار راكبي المنطاد حتى يشعروا

بالملل ويهبطوا به، وإذا كانوا يرغبون في الوصول إلى أطلال المدينة القديمة قبل الفجر فعليهم أن يبدءوا رحلة هروبهم سريعًا، وربما يتمكن أحد من العثور على شاي بينما تتكشف هذه الخطة الجديدة.

زحفت تالي إلى أعلى بمحاذاة جدار البرج، وظل لوحها يرتفع حتى أصبحت حلقة الحبل تحت مركزه تمامًا، ثم دفعت نفسها بعيدًا عن برج الاحتفالات، وأصبحت تحلق فوق الفضاء المفتوح وهي تحاول أن تحافظ على توازن لوحها الطائر الذي يتحرك فوق الحبل، وكأنها بهلوان يمشي على لوح خشبي رفيع.

تحركت تالي ببطء إلى الأمام، فالروافع التي تحمل لوحها ترتعش وهي تعمل بكامل طاقتها من أجل أن تدفع مؤشراتها المغناطيسية غير المرئية السلسلة التي تربط المنطاد إلى أسفل، واحتك سطح المنطاد السفلي بحلقات الحبل مرة أو مرتين، فاهتز جسد تالي مع هذا الاحتكاك؛ فرأت تالي المنطاد وهو يهبط قليلًا بسبب الخلل الذي أحدثه وزنها في التوازن الضعيف ما بين الهواء الساخن والجاذبية.

ظلت تالي تهبط حتى وصلت إلى منتصف الطريق، ثم بدأت بعد ذلك تصعد باتجاه المنطاد، وكلما ابتعدت عن برج الاحتفالات ازدادت شدة اهتزاز لوحها الطائر، حتى أصبحت تالي متيقنة من أن الروافع توشك أن تتوقف عن العمل وتلقي بها من ارتفاع خمسين مترًا. واستخدام السوارين الواقيين من الارتطام من هذا الارتفاع هو أسوأ بكثير من استخدام سترة القفز، فالتوقف فجأة عند السقوط من هذا الارتفاع بفعل الروافع المغناطيسية الموجودة بالسوارين المثبتين حول معصميها قد يتسبب في خلع أي من مفصلي كتفيها.

ولكن خطورة هذا الأمر لا يمكن أن تقارن بالطبع بالخسائر التي كان يمكن للساحقة أن تسببها إذا استخدماها في تحطيم سواري الاتصال.

ولكن الروافع لم تتوقف عن العمل، وظل اللوح يرتفع باتجاه صندوق المنطاد، وتراءى إلى سمع تالي بعض الصيحات الآتية من خلفها من شرفة برج الاحتفالات، تعرفت أن أمرها هي وزين قد انكشف. ما هذه اللعبة الجديدة المثيرة للانتباه؟

ومن حافة صندوق المنطاد ظهر وجه شخص يطل برأسه إلى أسفل وعلامات الدهشة تكسو ملامحه.

- انظروا! هناك شخص قادم إلينا!

- ماذا؟! كيف ذلك؟

تزاحم الحسان الثلاث الآخرون عند جانب الصندوق القريب منهم ليطلوا عليها، فتسبب انتقال أوزانهم وتركزها عند هذا الجانب في اهتزاز الحبل، وشعرت تالي بضيق شديد حينما بدأ لوحها الطائر يتمايل تحت قدميها على نحو خطير.

صاحت تالي: «لا تتحركوا هناك عندكم أيها الرفاق! ولا تشدوا سلسلة الإشعال!». قابل الحسان تلك الأوامر التي صاحت بها تالي بصوت عالٍ بدهشة عقدت ألسنتهم، ولكن تلك الأوامر قد أبقتهم، على الأقل، في أماكنهم دون حراك.

بعد دقيقة واحدة اقترب لوح تالي الطائر الذي يهتز تحت قدميها من صندوق المنطاد حتى إنها كادت أن تصل إليه. ثنت تالي ركبتيها وقفزت من اللوح الطائر، وللحظة حملها الهواء دون أية حماية مضادة للجاذبية التي تسحبها إلى أسفل، ثم أمسكت بسور السلة، وكم كانت تلك اللحظة صعبة.

مد راكبو المنطاد أيديهم إليها ليساعدوها على أن ترفع جسدها، وسرعان ما تمكنت تالي من الصعود إلى داخل السلة. أخذ ركاب المنطاد الأربعة يحملقون فيها وقد اتسعت عيونهم، وتبعها لوحها الطائر إلى صندوق المنطاد، بعد أن انزاح حمل وزنها من عليه، فسحبته إلى الداخل.

– «يا إلهي، كيف فعلتِ ذلك؟!»

– «لم أكن أعرف أن الألواح الطائرة يمكن أن تصل إلى هذه الارتفاعات البعيدة!»

– «مرحبًا، أنتِ تالي يانج بلود!»

قالت تالي وهي تبتسم ابتسامة عريضة: «ومن غيرها؟»، ثم انحنت فوق جانب السلة، فرأت أن الأرض تقترب منهم، فوزنها هي ولوحها الطائر يدفع بالمنطاد إلى أسفل. «الآن، أتمنى ألا يكون لديكم مانع من أن نهبط بهذا الشيء، فأنا وأصدقائي نحتاج للقيام بجولة قصيرة به».

عندما كان المنطاد يستقر فوق الحشائش الخضراء أمام قصر جاربو وصلت مجموعة من الأشقياء يعتلون الألواح الطائرة وعلى رأسهم فاوستو.

رأت تالي منطاد زين الوردي الذي اتخذ غلافه شكل رأس خنزير يقترب ليستقر قريبًا منهم، وظلت سلته ترتد في الهواء ببطء حينما تلامس الحشائش حتى توقف المنطاد تمامًا. وجهت تالي حديثها إلى راكبي المنطاد الذي اقتحمته: «لا تتركوا المنطاد الآن، فنحن لا نريده أن يرتفع عاليًا في الهواء دون أن يمتلئ بالركاب. انتظر راكبو المنطاد حتى صعد بريس وفاوستو إلى أعلى ووصلا إلى صندوق المنطاد.

قال فاوستو: «كم هي حمولة هذا الشيء، يا تالي؟»

كان صندوق المنطاد مصنوعًا من الأغصان الرفيعة، ومررت تالي يدها فوق أغصان الخيزران المجدولة، التي لا تزال هي أفضل مادة يمكن استخدامها إذا كان المرء يريد أن يصنع شيئًا خفيفًا وقويًا ومرنًا في الوقت ذاته، وقالت: «لنحمل أربعة في كل منطاد».

استجمع واحد من راكبي المنطاد شجاعته وسألهم: «إذن ماذا تفعلون يا شباب؟»

قالت تالي: «انتظر وسوف ترى، وعندما يجرون معك مقابلة في برامج الأخبار لا تتحرج من أن تخبرهم بكل ما حدث».

حملق الأربعة فيها وقد اتسعت عيونهم، فقد أدركوا أنهم سيصبحون من المشاهير.

– «ولكن لا يجب أن تتحدثوا بأي شيء خلال الساعة القادمة، حتى لا تفشل حيلتنا البسيطة، وتصبح غير رائعة بما يكفي لأن تكون قصة من القصص التي تتناقلها الأخبار».

أومئوا برءوسهم موافقين على كلامها.

سألتهم تالي: «كيف تفكون الحبل الذي يشد المنطاد إلى البرج؟» فمع كل هذه الخطط التي وضعتها تالي للقيام بهذا الأمر لم تكن قد استقلت من قبل أيًا من المناطيد.

أجابها أحد راكبي المنطاد: «اسحبي هذا الرباط لينفك الحبل، واضغطي على هذا الزر عندما تريدين أن تطلبي إحدى العربات الطائرة لتحضرك».

ابتسمت تالي، فهذا هو أحد الخيارات التي لن تحتاجها. عندما رأى أحد راكبي المنطاد تعبيرات وجهها سألها: «أنتم ذاهبون إلى مكان بعيد حقًا، أليس كذلك؟»

سكتت تالي لبرهة، فهي تعرف أن ما ستقوله سوف يصبح في النهاية خبرًا تتناقله نشرات الأخبار، وسيظل يعاد على أسماع أجيال عدة من القبحاء وصغار الحسان، وهذا يستحق منها أن تخاطر وتخبرهم بالحقيقة. إن هؤلاء الحسان الأربعة لن يودوا بالطبع أن يقطعوا صلتهم بحدث إجرامي سيجلب لهم الشهرة، ولذلك فهم لن يتحدثوا إلى السلطات إلا بعد أن يكون الأوان قد فات. «نحن ذاهبون إلى الضباب الجديد.» كانت تالي تتحدث ببطء ونبرة واضحة، فحملق الأربعة فيها وهم لا يصدقون ما سمعوه. غمرتها السعادة حينما خطر لها كيف ستُنهك تلك المعلومة التي ألقت بها تالي في وجه دكتورة كابل السلطات الخاصة.

اهتز صندوق المنطاد فاستدارت تالي لتجد أن زين قد قفز بالداخل. «هل تسمحون لي بالانضمام إليكم؟ هناك أربعة في بالوني، وهناك مجموعة أخرى يستقلون بالونًا آخر».

قال فاوستو: «إن من تبقى منا مستعدون للخروج عندما تصلهم إشارتنا».

أومأت تالي برأسها، فما دامت هي وزين قد هربا ببالون هواء ساخن فلا يهم كيف سيذهب الآخرون.

نظرت تالي إلى أعلى باتجاه الشعلة المعلقة فوق رءوسهم وهي تنتظر لحظة إشعالها لإعادة تسخين الهواء الموجود في غلاف المنطاد، وكانت الشعلة تطلق خريرًا يشبه صوت محرك نفاث يدور ببطء. كانت تالي تأمل في أن تكون تلك الشعلة قوية بما يكفي لكي تجعل السوارين يتمددان ليصبحا أكبر من محيط معصمها هي وزين، أو على الأقل تدمر أجهزة الإرسال الموجودة بهما.

أخرجت تالي القفازات المقاومة لحرارة النار من جيبها وأعطت زين زوجًا منها.

قال زين وهو ينظر إلى الشعلة ذات اللهب الكامل: «إن هذه خطة أفضل بكثير يا تالي، فزين بإمكانه أن يطير. عندما نصل إلى نهاية حدود المدينة سنكون قد تحررنا من أساورنا».

ابتسمت تالي له، ثم وجهت حديثها إلى راكبي المنطاد: «حسنًا، يمكنكم أن تغادروا المنطاد الآن يا شباب، شكرًا على كل ما قدمتم لنا، ولكن تذكروا ألا تذكروا ما حدث لأي شخص قبل أن تمر ساعة على الأقل».

أومأ الأربعة برءوسهم، وقفزوا من صندوق المنطاد واحدًا تلو الآخر، ثم تراجعوا بضعة أمتار إلى الوراء ليفسحوا المجال أمام المنطاد الذي بدأ يطفو في الهواء ويتمايل مع النسيم وكأنه يستعجلهم لكي يتركوه يحلق عاليًا.

«مستعدون؟» هكذا صاحت تالي بالمنطاد الآخر الذي رسم على غلافه وجه خنزير، فرفع كل فرد من الأشقياء الموجودين بالمنطاد إبهامه إلى أعلى، وكان هناك منطاد ثالث يهبط على مسافة ليست ببعيدة، وسوف يلحق بهم أفراده بعد قليل، فكلما تفرقت المناطيد كان ذلك أفضل، فإذا تركوا جميعهم خواتم الاتصال الخاصة بهم في سلال المناطيد عندما يقفزون منها، فسوف يقضي الحراس ليلة مليئة بالعمل.

قال زين بصوت منخفض: «نحن جميعًا مستعدون، فلننطلق». مسحت تالي الأفق بعينيها، بداية من قصر جاربو ومرورًا بأبراج الاحتفالات وأضواء مدينة الحسان

الجدد، إن هذا هو العالم الذي قضت عمرها كله عندما كانت قبيحة تتطلع إليه، ترى هل ستقع عيناها على هذه المدينة مرة أخرى.

سيكون عليها بالطبع أن تعود إذا لم يكن خبر هروب الأشقياء قد وصل إلى شاي حتى الآن، فالجروح التي تحدثها شاي بذراعيها هي في الحقيقة محاولات جاهدة منها لكي تشفى من ضباب الحسن؛ إن تالي لن تترك شاي خلفها إلى الأبد، سواء أكانت شاي تكرهها أم لا.

قالت تالي: «حسنًا، لننطلق»، ثم همست: «أنا آسفة يا شاي، سوف أعود إليك مرة أخرى».

رفعت تالي يدها وسحبت سلسلة الإشعال التي تعلوهم، فدوى زئير الشعلة واندفعت من فوق رءوسهم حرارة شديدة السخونة. فبدأ غلاف المنطاد ينتفخ وبدأ المنطاد يرتفع في الهواء.

صاح بريس: «يا إلهي، لقد خرجنا من هنا!»، وهتف فاوستو وهو يسحب الرباط الذي يحرر المنطاد من قيده، فارتفع صندوق المنطاد في الهواء عندما فك من الحبل الذي يربطه ببرج الاحتفالات.

ظلت عينا تالي معلقتين بزين، وارتفع المنطاد بهم الآن بسرعة متجاوزًا قمة برج الاحتفالات الذي أطل من شرفته نحو اثني عشر من الحسان الثملين ليحيوهم. قال زين بصوت منخفض: «أنا أغادر المدينة فعلًا، أخيرًا».

ابتسمت تالي ابتسامة عريضة؛ فلن يتراجع زين عن عزمه هذه المرة، ولن تدعه تالي يفعل ذلك. وسرعان ما خلف المنطاد قمة البرج وراءه وارتفع متجاوزًا كل المباني في مدينة الحسان الجدد.

بإمكان تالي أن ترى ضفة النهر الذي يحيط بهم وقد انعكس عليها ضوء القمر الفضي، وكذلك رأت أيضًا الظلام الذي كان يلف مدينة القبحاء، والأضواء الخافتة التي تنبعث من الضواحي في كل الاتجاهات، فلن يمر كثير من الوقت حتى يصلوا إلى ارتفاع يسمح لهم برؤية البحر.

فكت تالي السلسلة التي تعلوهم، وأخمدت الشعلة، فهم لا يرغبون في أن يرتفعوا كثيرًا بالمنطاد، فالمناطيد ليست سريعة بما يكفي للهروب من عربات الحراس الطائرة، ولذلك سيحتاجون ألواحهم الطائرة، بعد قليل سيكون عليهم أن يقفزوا دون أن يحميهم شيء من تأثير الجاذبية الأرضية، إلى أن تتمكن الألواح من الاتصال مع الشبكة المغناطيسية للمدينة وتلحق بهم.

إن الأمر ليس في بساطة القفز باستخدام سترة قفز، ولكنها كانت تأمل ألا يكون خطيرًا للغاية. عندما نظرت إلى أسفل هزت تالي رأسها وهي تتنهد، ففي بعض الأحيان تشعر أنها قضت حياتها وهي تنتقل من سقطة إلى أخرى، وفي كل مرة يزداد الارتفاع الذي تقفز منه.

لقد أدركت تالي أن المنطاد يبحر الآن سريعًا في الهواء الذي يدفعه بعيدًا عن البحر، لقد بدا لها ذلك غريبًا، فهي تشعر بأن الهواء الذي يحيط بهم لا يتحرك.

إنها تعرف بالطبع أن حركة المنطاد مع تيارات الهواء تجعلها تشعر وكأنها ثابتة في مكانها لا تتحرك، في حين ينزلق العالم من تحت قدميها.

اندفع المنطاد مخلفًا منطقة الأطلال القديمة وراءه، ولكن المدينة محاطة بكثير من الأنهار التي تحتوي ضفافها على رواسب معدنية يمكنها أن تدعم لوحًا طائرًا.

وكان الأشقياء ينوون أن يخرجوا متفرقين في الاتجاهات المختلفة، فكل منهم يعرف كيف سيعود مرة أخرى إلى الأطلال القديمة مهما يكن المكان الذي ستحملهم إليه الرياح.

خلعت تالي سترتها وسواريها الواقيين من الارتطام وقفازيها ووضعتهم على أرضية السلة، ولكن الدفء الذي نشرته الشعلة المتوهجة جعلها لا تشعر كثيرًا بالبرودة.

بعد ذلك ارتدت قفازيها المقاومين للحرارة، ومررت القفاز الأيسر تحت سوار الاتصال وسحبته أعلى مرفقها حتى كاد يقترب من إبطها. وعلى الجانب الآخر كان زين يستعد أيضًا.

نظرت إلى أعلى لترى كيف يمكن أن يوصلا سواريهما إلى اللهب، حيث كانت الشعلة تتصل بصندوق المنطاد من خلال إطار له ثماني أذرع يمتد فوقهم وكأنه عنكبوت معدني ضخم.

وضعت تالي قدمها على السور، وتمسكت جيدًا بإطار الشعلة ورفعت جسدها. من مكانها العالي الذي خاطرت بالصعود إليه نظرت تالي إلى أسفل تجاه المدينة التي تتحرك من تحتها، وتمنت ألا يهب تيار مفاجئ من الهواء يجعل المنطاد يتأرجح.

أخذت تالي نفسًا عميقًا وقالت: «فاوستو، الإشارة».

أومأ فاوستو برأسه وأشعل السهم الناري الملون الذي بدأ حسيسه يسمع وانطلق منه وهج يجمع ما بين اللونين الأخضر والأرجواني.

شاهدت تالي الأشقياء الذين كانوا قريبين منهم وهم يكررون هذه الإشارة نفسها، ثم انتشرت تلك الإشارة في أرجاء المدينة على شكل سلسلة من الوهج الملون يحملها الهواء عاليًا. إنهم الآن ملتزمون بالتحرر من قيديهما.

قالت تالي: «حسنًا يا زين، هيا نتخلص من هذين الشيئين».

الفصل الحادي والعشرون

الموقد

لم يكن يفصل الفوهات الأربعة للشعلة عن وجهها سوى متر واحد، وهي لا تزال متوهجة تشع الحرارة في هواء الليل البارد. رفعت تالي يدها ونقرت على إحداها بحذر، لقد كانت المرأة التي التقت بها في الورشة صادقة، فقد شعرت تالي بحواف الموقد من خلال المادة المقاومة للحرارة التي صنع منها قفازها، وأخذت تتحسس بأطراف أصابعها بعض النتوءات المتفرقة التي تمثل مواضع لحام هذه الحواف بعضها ببعض، ولكن تالي لم تشعر بالحرارة على الإطلاق: فلم تشعر أن الموقد ساخن أو حتى بارد ... لا شيء»، كان إحساسها غريبًا حقًا، وكأنها غمست يدها في مياه تماثل في درجة حرارتها درجة حرارة جسمها.

نظرت تالي صوب الناحية المقابلة حيث كان زين يقف فوجدته قد رفع جسده عند الجانب الآخر من الموقد، وقالت له: «هذه القفازات تعمل فعلًا يا زين، فأنا لا أشعر بأي شيء».

نظر زين إلى يده اليسرى التي يكسوها القفاز وقد بدا عليه عدم الاقتناع وقال: «أقلت ألفي درجة مئوية؟»

– «نعم، هذا صحيح.» ما دام المرء يصدق أية معلومة إحصائية تلقي بها إليه فتاة من شباب الحسان تنفخ الزجاج في منتصف الليل. قالت تالي مقترحة: «سوف أبدأ أنا».

– «لا يمكن، سوف نقوم بذلك معًا.»

– «لا تكن عاطفيًا أكثر من اللازم.» وخفضت تالي عينيها وتطلعت إلى فاوستو فلاحظت أن وجهه شاحب، فذكرها شحوب وجهه بشحوب يد زين عندما وضعها داخل الساحقة، وأضافت: «عندما أشير لك شد حبل الإشعال قليلًا، شده إلى مسافة قصيرة قدر استطاعتك.»

قال بيريس: «انتظروا! ماذا تفعلون؟»

أدركت تالي أن بيريس لم يطلعه أحد على آخر تطورات الخطة، فأخذ يحدق فيها في ارتباك بالغ، ولكن لم يعد أمامها وقت الآن لكي تشرح له. قالت تالي وهي تضع يدها اليسرى على الموقد: «لا تقلق، فنحن نرتدي قفازات».

تساءل بيريس: «قفازات؟»

صاحت تالي: «نعم ... قفازات خاصة. هيا ابدأ يا فاوستو».

اندفعت موجة حرارة من الموقد، وسطع اللهب الأزرق الصافي الذي ينبعث منه بوهج يكاد يعمي الأبصار، فأغمضت تالي عينيها بسرعة، فقد شعرت بالحرارة الشديدة تلفح وجهها مثل رياح الصحراء، وأحنت رأسها أسفل هيكل الموقد، وترامت إلى سمعها الصيحة التي ندتها شفتا بيريس في فزع ودهشة.

وبعد نصف ثانية توقف الموقد.

وفتحت تالي عينيها فوجدت البقع الصفراء للوهج تحجب عنها الرؤية، ولكنها رأت أصابعها تنثني أمام عينيها دون أن يصيبها سوء.

صاحت تالي: «أنا لم أشعر بأي شيء في يدي»، ثم طرفت بعينيها لكي تزيح البقع الصفراء التي تتراقص أمامهما، ولاحظت أن المعدن المصنوع منه سوارها يتوهج قليلًا، ولكن لم يبد عليه أنه أصبح أكبر حجمًا.

صاح بيريس: «ماذا تفعلين؟»، ولكن فاوستو أسكته.

قال زين وهو يدفع بيده فوق الموقد: «فلنسرع؛ فلا بد أنهم عرفوا أننا الآن ندبر شيئًا».

أومأت تالي برأسها، فلا بد أن السوار قد شعر باللهب اللافح، ففي الأغلب هذا السوار — مثله مثل القلادة التي أعطتها دكتورة كابل لتالي قبل أن تذهب إلى الضباب — قد صمم بحيث يبعث بإشارة معينة في حالة إصابته بضرر. أخذت تالي نفسًا عميقًا من هواء الليل، وهي تضع يدها فوق الموقد مرة أخرى وتحني رأسها أسفل الهيكل، وقالت: «حسنًا يا فاوستو، أشعلها حتى أطلب منك أن تتوقف!»

تدفق وابل آخر من الحرارة الشديدة فوق رأس تالي، وأخذ بيريس يحملق فيها وقد تحول تعبير الارتياع على وجهه إلى هيئة مخيفة بفعل النار القوية، فاضطرت تالي لأن تشيح بوجهها عنه. بدأ الغلاف ينتفخ من فوقهم، وبدأ المنطاد يرتفع بفعل شحنة الهواء الساخن جدًا، وتأرجح صندوق المنطاد فاضطرت تالي للتشبث بهيكل الموقد.

كانت كتفها اليسرى — التي لم يكن يغطيها شيء سوى قميصها — تتعرض للجانب الأشد من الهجير، شعرت تالي بحكة في جلدها في المنطقة التي تتجاوز المنطقة التي يحميها القفاز، وكأنها مصابة بحرق شمسي شديد، وتصبب ظهرها عرقًا بسبب الحرارة الشديدة.

ومن الغريب أن أكثر جزء لم يتأثر بالحرارة الشديدة هو يداهما اللتان غطياهما بزوج من القفازات الواقية من الحرارة، خاصة يدها اليسرى التي كانت تضعها في وسط الموقد الملتهب، وأخذت تتخيل السوار وذلك اللهب يحيط به، ولونه يتحول إلى الأحمر، ثم الأبيض ... ويأخذ في التمدد تدريجيًا.

مرت دقيقة بدت طويلة للغاية، ثم صاحت تالي: «حسنًا، أطفئها».

خبت نار الموقد، وعاد الهواء من حولها باردًا في الحال، وعاد الليل حالك الظلمة فجأة، رفعت تالي رأسها من أسفل الهيكل، وقدماها لا تزالان مستندتين على سور السلة، وطرفت بعينيها وهي مندهشة من الهدوء الذي ساد المكان حينما انطفأ اللهب الثائر وخبا هديره.

أخرجت تالي يدها من الموقد وهي تتوقع أن تكون قد تحولت إلى كتلة سوداء، بصرف النظر عما تخبرها به النهايات العصبية في يدها، ولكنها وجدت أصابعها الخمس تتحرك أمامها، وسوارها يتوهج بلون أبيض، وتتطاير من حوله ومضات زرقاء باهرة، واقتحمت رائحة المعدن المنصهر أنفها.

هتف زين إليها وهو يقفز هابطًا إلى داخل السلة: «أسرعي يا تالي!»، وبدأ يشد سواره ليخلعه من يده واستطرد: «قبل أن يبرد».

قفزت تالي من فوق السور إلى صندوق المنطاد وبدأت تشد السوار لتنزعه، وسَرَّها أنها أحضرت قفازين لكل منهما، فانزلق السوار عبر ذراعها، ولكنه علق في الجزء نفسه كما يحدث دومًا، فتطلعت إلى السوار المتوهج وهي تضيق عينيها في محاولة منها لأن ترى ما إذا كان حجم السوار قد ازداد أم لا، فبدا لها أنه صار أكبر حجمًا، ولكن ربما كان القفاز المقاوم للحرارة أكثر سمكًا مما توقعت، وهو ما يفسر الفرق الذي لاحظته.

ضمت تالي أصابع يدها اليسرى وشدت السوار مرة أخرى؛ فتزحزح سنتيمترًا آخر إلى الأمام، وكانت الحرارة لا تزال تنبعث من الحلقة المعدنية ولكن لونها يتحول ببطء إلى اللون الأحمر الباهت، وبدأ بريقها يخبو ... تُرى هل سينكمش السوار حول يدها وهو يبرد ويحطم معصمها؟

صرت تالي على أسنانها، وشدت السوار من يدها مرة أخرى بكل ما أوتيت من قوة ... تمكنت من خلع السوار وسقط على أرضية صندوق المنطاد وكأنه جمرة متوهجة.

«حمدًا لله» أخيرًا، تحررت منه.

نظرت تالي إلى الآخرين، حيث لا يزال زين يحاول جاهدًا أن يخلع سواره، أما فاوستو وبيريس فيتدافعان في ذعر لتفادي السوار المتوهج وهو يتدحرج على أرضية الصندوق ويطلق فحيحًا والدخان يتصاعد منه. قالت تالي بهدوء: «لقد نجحت وخلعته»

قال زين في تذمر: «ولكنني لم أتمكن من خلع سواري بعد». كان السوار عالقًا حول أعرض جزء من معصمه، وقد خبا وهجه وتحول لونه إلى الأحمر الباهت، فشتمه وصعد مرة أخرى على سور الصندوق، وأردف: «أشعلها مرة أخرى»

أومأ فاوستو برأسه، وأوقد نار الموقد مرة أخرى.

ابتعدت تالي عن حرارة الموقد، وأخذت تنظر إلى أسفل باتجاه المدينة، وهي تحاول أن تتخلص من البقع الصفراء التي تتراقص أمام عينيها. لقد تجاوز منطادهم الآن الحزام الأخضر، ويحلق فوق ضواحي المدينة، ولاحظت أنهم يشارفون الآن على بلوغ المنطقة الصناعية، إذ تميزها أضواء التشغيل الصناعية برتقالية اللون المتناثرة، ويلي المنطقة الصناعية الظلام الدامس الذي يميز أطراف المدينة.

بعد قليل سيضطرون إلى القفز من المنطاد، إذ سيتجاوزون الشبكة المعدنية التي تقع تحت سطح المدينة في خلال دقائق قليلة، فبدون هذه الشبكة لن تتمكن ألواحهم من الطيران أو حتى تخفيف سقوطهم، وسوف يضطرون إلى الهبوط بالمنطاد هبوطًا اضطراريًا بدلًا من أن يقفزوا منه بالمظلات.

رفعت تالي عينيها نحو غلاف المنطاد المنتفخ، وأخذت تفكر في قدر الوقت الذي سيستغرقه الأمر من المنطاد الذي لا يزال يرتفع حتى يهبط ثانيةً على الأرض، ربما يتمكنون من ذلك لو شقوا الغلاف بطريقة ما حتى يهبطوا أسرع ... ولكن ما مدى خطورة الهبوط الاضطراري بمنطاد ممزق الغلاف؟ ذلك علاوة على أنه في ظل عدم إمكانية تشغيل الألواح الطائرة سيضطرون هم الأربعة إلى قطع مسافة طويلة مشيًا على الأقدام إلى أن يصلوا إلى أي نهر، مما سيعطي للحراس فسحة من الوقت لكي يعثروا على حطام المنطاد ومن ثم يتعقبونهم.

قالت تالي: «هيا يا زين، لا بد أن نسرع».

– «إنني أحاول أن أسرع! أسمعتِ؟»

قال فاوستو: «ما تلك الرائحة؟»

عادت تالي بنظرها إلى صندوق المنطاد مرة أخرى وهي تقول: «ماذا؟»، وأخذت تتشمم الهواء الساخن الراكد.

كانت هناك رائحة شيء يحترق.

الفصل الثاني والعشرون

أطراف المدينة

صاح فاوستو وهو يقفز إلى الوراء تاركًا كابل الموقد: «إنه منطادنا الذي يحترق!» وأخذ يحملق في أرضية السلة.

تمكنت تالي حينئذ من التعرف على الرائحة، إنها رائحة أعواد خيزران تحترق، فهي تشبه رائحة الأغصان الجافة التي كانت تلقى في نيران المعسكرات في الشباب. ففي مكان ما تحت أقدامهم أشعل السوار الذي يتوهج بلون أحمر أعواد الخيزران التي صنعت منها صندوق المنطاد.

نظرت تالي إلى زين الذي لا يزال يقف فوق السور، ولم يعبأ بصيحات الذعر التي أطلقها الآخرون، وأخذ يشد سواره المتوهج بعنف. كان بيريس وفاوستو يتخبطان في أرجاء المكان ويحاولان التوصل إلى مصدر الرائحة.

قالت تالي: «اهدءوا، فأنا أقترح أن نقفز!».

صاح زين وهو لا يزال يحاول جاهدًا أن يخلع سواره: «لا يمكنني ذلك، ليس بعده»، وبدا بيريس وكأنه على وشك أن يقفز من المتطاد دون أن يعبأ باصطحاب لوحه الطائر معه.

حينئذ بدأ وهج الموقد يتلاشى أخيرًا من مجال رؤية تالي، فتطلعت نحو قدميها ورأت زجاجة تركها هواة المناطيد، فمدت يديها المغلفتين بالقفازات وأمسكت بها، فوجدتها ممتلئة.

قالت تالي «انتظروا»، وبحركة بارعة نزعت الرقاقة المعدنية من فوق الزجاجة ووضعت إبهاميها تحت السدادة حتى نزعتها بفرقعة عالية، وأخذت تشاهدها وهي تطير في الفراغ المظلم، وقالت: «كل شيء على ما يرام».

تدفقت الرغوة من الزجاجة، ووضعت تالي إبهامها على فوهتها، ثم رجت الزجاجة وأخذت ترش الشمبانيا على أرضية السلة، فتصاعد صوت أزيز غاضب من اللهب الخامد.

في تلك اللحظة صاح زين: «لقد نجحت!». فقد تمكن من خلع سواره وسقط السوار وتدحرج تحت قدميه، وسكبت تالي ما تبقى من الشراب فوقه في هدوء، وتصاعدت من حولها رائحة المعدن المنصهر وقد امتزجت معها رائحة زكية غير معتادة، وهي رائحة الشمبانيا المغلية.

كان زين يحملق في يده اليسرى في دهشة بعد أن تحررت من السوار، وخلع فردتي قفازه المقاوم للحرارة وألقاهما من المنطاد. قال زين وهو يضم تالي إليه: «لقد نجحت الخطة!».

ضحكت تالي وتركت زجاجة الشمبانيا تسقط على الأرض، ثم خلعت قفازيها وهي تقول: «فيما بعد، هيا نبتعد من هنا».

قال زين: «حسنًا». ووضع لوحه الطائر على سور الصندوق وهو يطل بناظريه إلى أسفل وقال: «تبًا، سنسقط من علوٍ شاهق».

[illegible] فاوستو حبلًا كان مثبتًا وهو يقول: «سوف أصرف بعض الهواء الساخن، ربما نتمكن هكذا من تخفيض ارتفاعنا بعض الشيء».

صاحت تالي: «ليس لدينا وقت، إننا نوشك أن نقترب من نهاية المدينة، إذا تفرقنا فسوف نلتقي عند أعلى مبنى في الأطلال القديمة، وتذكروا لا تتركوا ألواحكم أثناء الهبوط!».

سارعوا جميعًا بارتداء حقائب الظهر، وأخذوا يتخبطون ببعضهم ببعض لضيق الحيز، وانهمك زين وتالي في ارتداء معطفيهما والأساور الواقية من الارتطام مرة أخرى.

خلع فاوستو خاتم الاتصال الخاص به، وألقاه على أرضية السلة، ثم أمسك بلوحه الطائر وقفز من المنطاد مطلقًا شهقة، فارتفع المنطاد في الجو عندما خف حمله بعد قفز فاوستو منه.

عندما أصبح زين مستعدًا استدار وقبل تالي وقال: «لقد نجحنا يا تالي، وأصبحنا أحرارًا».

نظرت تالي إلى عينيه وشعرت بدوار حينما أدركت أنهما أخيرًا وصلا إلى هنا، إلى نهاية أطراف المدينة، على مشارف طريق الحرية، وقالت: «نعم، لقد نجحنا».

قال زين وهو ينظر خلفه تجاه الأرض البعيدة: «أراكِ هناك»، ثم استدار إليها مرة أخرى وقال: «أحبكِ».

قالت تالي: «سأراك هناك ...»، ولكنها لم تستطع أن تكمل فقد هربت الكلمات من شفتيها، ولبرهة ظلت تعيد في ذهنها ما قاله زين، وفي آخر الأمر نطقت بصعوبة: «آه، وأنا أيضًا».

ضحك زين، ثم أطلق صيحة لم ينطق فيها بشيء وهو يقفز من فوق السور، فارتفع الصندوق مرة أخرى براكبيه اللذين لا يزالان بداخله.

طرفت تالي بعينيها، فقد شعرت بالارتباك لبرهة لسماع كلمات زين التي لم تتوقعها، ولكنها هزت رأسها لتنفض عنها هذا الشعور، فليس هذا هو الوقت المناسب للاستسلام للتشوش العقلي الذي يصيب الحسان، فعليها أن تقفز الآن.

شدت تالي أحزمة حقيبة ظهرها جيدًا، وأمسكت بلوحها الطائر ورفعته بصعوبة فوق السور، وهتفت بيريس: «أسرع!».

كان بيريس يقف وهو يحدق من فوق حافة الصندوق.

صاحت تالي: «ما الذي تنتظره؟».

هز بيريس رأسه: «لا أستطيع».

صاحت تالي بصوت عالٍ: «يمكنك أن تفعلها، سيعمل اللوح على تخفيف سقوطك، كل ما عليك فعله هو أن تتمسك به! ما عليك سوى أن تقفز! وستتكفل الجاذبية ببقية المهمة».

قال بيريس: «أنا لا أخشى السقوط يا تالي»، ثم استدار إليها مستطردًا: «أنا لا أريد أن أرحل».

– «ماذا؟».

– «أنا لا أود أن أرحل عن المدينة.»

– «ولكن هذا هو ما كنا نتمناه!»

هز بيريس كتفيه وقال: «لم أكن أتمنى ذلك، لقد راق لي أن أكون من الأشقياء وأن أكون منتبهًا ومتيقظًا، ولكنني لم أتوقع أن يصل الأمر إلى هذا الحد، أقصد إلى حد أن نترك وطننا إلى الأبد».

– «بيريس ...»

– «أنا أعرف أنكِ عشتِ خارج المدينة من قبل أنتِ وشاي، وزين وفاوستو كانا دائمًا يتحدثان عن الهروب، ولكنني لست مثلكم».

– «ولكن أنا وأنت، نحن ...» وتعثرت الكلمات في حلقها، حيث كانت على وشك أن تقول: «خير صديقين إلى الأبد»، ولكنها لم تعد قادرة على نطق ما تعودت على قوله. لم يسبق لبيريس العيش في الضباب من قبل، ولم يشتبك مع السلطات الخاصة، بل لم يسبق له الوقوع في مأزق من قبل. إن كل شيء في حياته كان يسير دون عراقيل. إن حياة كلٍّ منهما مختلفة منذ زمن بعيد.

– «أأنت متأكد أنك تفضل البقاء هنا؟»

أومأ بيريس برأسه ببطء: «أجل. ولكن لا يزال بإمكاني أن أساعدكم. سوف أشغلهم عنكم، سأبقى في الجو لأطول فترة ممكنة، ويمكنني بعد ذلك أن أضغط على زر الاستدعاء لأطلب عربة طائرة، وسيضطرون لأن يأتوا ويأخذوني».

بدأت تالي تجادله، ولكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من تذكر كيف تسللت عبر النهر بعد أن خضع بيريس لعملية التحول وذهبت لتزوره في قصر جاربو، وسرعان ما تأقلم بيريس مع وضعه الجديد، وتملكه حب مدينة الحسان الجدد منذ بداية إقامته، ربما كانت فكرة مجابهة الأشياء بأكملها مزحة فقط عنده ...

ولكنها لم تقوَ على تركه وحده هنا في المدينة، وقالت له: «فكر جيدًا يا بيريس، فبدون وجود أي منبه حولك لن تبقى منتبهًا ومتيقظًا، وستصاب ثانية بالتشوش العقلي الذي يصيب الحسان».

ابتسم بيريس في حزن وقال: «لا يهم يا تالي، فأنا لست بحاجة إلى أن أكون منتبهًا ومتيقظًا».

– «حقًا؟ ولكن ألا تلاحظ إلى أي مدى تصبح ... في حال أفضل حين تكون هكذا؟»

هز بيريس كتفيه وهو يقول: «إنها تجربة شيقة، ولكن لا يمكن أن يظل المرء يقاوم الظروف القائمة إلى الأبد، فعند مرحلة معينة يضطر أن ...»

– «يتراجع ويكف عن المحاولة؟»

أومأ بيريس برأسه، وهو لا يزال مبتسمًا، وكأن التراجع ليس أمرًا سيئًا إلى ذلك الحد، وكأن المقاومة لا تستحق أن نبذل الجهد في سبيلها إلا إذا كانت مسلية.

قالت تالي: «حسنًا، فلتبق إذن». وأشاحت عنه بوجهها، فلم تشأ أن تزيد حرفًا، ولكن عندما نظرت تالي إلى أسفل لم تر شيئًا سوى الظلام الحالك. قالت تالي في خفوت: «تبًّا».

فقد تجاوز المنطاد المدينة، لقد فات الأوان ولم يعد باستطاعتها أن تقفز من المنطاد.

وقف الاثنان جنبًا إلى جنب يحملقان في الظلام، والرياح تحملهما أبعد وأبعد.

بدد بيريس الصمت الذي خيم عليهما أخيرًا وقال: «سوف نهبط في النهاية، أليس كذلك؟»

تنهدت تالي وقالت: «ليس إلا بعد مدة طويلة، فأغلب الظن أن الحراس يعرفون من الآن أن سواري وسوار زين قد أصبحا في خبر كان، وسرعان ما سيأتون للبحث عنا. ووجودنا هنا سيجعلنا فريسة سهلة لهم».

– «آه، أنا لم أقصد حقًا أن أفسد لكِ الأمور هكذا».

– «إنه ليس خطأك، لقد انتظرت أكثر من اللازم.» ابتلعت تالي ريقها وهي تفكر فيما إذا كان زين سيكتشف ما حدث لها، هل سيظن أنها سقطت ولقيت حتفها؟ أم سيظن أنها خافت من الهروب، مثل بيريس؟

أيًا كان ما سيظنه فقد أصبحت تالي ترى مستقبلهما معًا يخبو مثل الأضواء البعيدة التي تنبعث من المدينة التي ابتعد المنطاد عنها. من يدري ماذا يمكن أن تفعل السلطات الخاصة بحثها حينما يمسكون بها مرة أخرى؟

نظرت تالي إلى بيريس وقالت: «لقد كنت أظن حقًا أنك تود أن تأتي».

– «اسمعي يا تالي، لقد تورطت بكل شيء، وأعجبني أن أكون من الأشقياء، وأنتم أصدقائي وعصبتي، ماذا كان ينبغي علي أن أفعل؟ أن أجادلكم وأحاول إقناعكم بالعدول عن عن الهروب؟ إن الجدال شيء سخيف».

هزت تالي رأسها وقالت: «لقد كنت أظن أنك يقظ ومتنبه يا بيريس».

– «أنا هكذا فعلًا يا تالي، ولكن أحداث الليلة تجعلني متيقظًا بالقدر الذي أصبو إليه تقريبًا، أنا أحب مخالفة القواعد، ولكن ليس العيش خارج المدينة هناك.» ولوح بيده نحو القفار التي تمتد تحت المنطاد، فبدت كبحر من الظلام تكسوه الوحشة والبرودة.

– «لماذا لم تخبرني من قبل؟»

– «لا أعرف، أظن أنني لم أدرك أنكم جادون فعلًا بشأن ... عدم العودة أبدًا، إلا عندما صعدنا على متن هذا المنطاد، وارتفع بنا.»

أغمضت تالي عينيها، وحاولت أن تتذكر كيف كان عقلها يفكر عندما يلفه التشوش العقلي الذي يصيب الحسان، كل شيء يبدو مبهمًا ومشوشًا، ولم يكن العالم سوى منبع للمتعة والترفيه، ولم يكن المستقبل إلا صورة ضبابية. إن القيام ببضع حيل لا يكفي كي يجعل الجميع متيقظين ومتنبهين؛ فلا بد أن «يرغب» المرء في أن

يتغير عقله، ربما كان المصابون بالتشوش العقلي موجودين حتى قبل اختراع عملية التحول.

وربما يكون البعض أسعد حالًا هكذا.

قال بيريس وهو يلف ذراعه حولها: «ولكن الآن يمكنكِ أن تبقي معي، سوف تسير الأمور كما كان من المفترض أن تسير، فسنظل أنت وأنا من الحسان، ونظل خير صديقين إلى الأبد».

هزت تالي رأسها، وانتابها إحساس بالضيق الشديد، وقالت: «لا، أنا لن أبقى يا بيريس، وحتى لو أمسكوا بي مرة أخرى الليلة، فسأبحث عن طريقة للهرب».

– «لماذا أنتِ حزينة هكذا هناك؟»

تنهدت تالي وهي تتطلع من فوق السور على الظلام، لا بد أن زين وفاوستو في طريقهما الآن إلى الأطلال وهما يظنان أنها تتبعهما بمسافة غير بعيدة. كيف سمحت لهذه الفرصة أن تضيع من بين يديها؟ لطالما أحست أن المدينة تجذبها فتعود إليها، ترى أتكون حقًا مثل بيريس في قرارة نفسها؟

كررت تالي ما قاله بيريس في خفوت: «لماذا أنا حزينة؟» «لأن المدينة تشكلك على النحو الذي يريدونك هم أن تكون عليه يا بيريس، وأنا أرغب في أن أكون نفسي، هذا هو السبب.»

ضغط بيريس على كتفها وهو ينظر إليها في حزن وقال: «ولكن الناس الآن أفضل مما كانوا عليه في الماضي، ربما يكون لديهم أسباب وجيهة لتغييرنا يا تالي».

– «لا قيمة لأسبابهم إلا إذا سمحوا لي بالاختيار، وهم لا يسمحون لأحد بالاختيار يا بيريس.» أبعدت تالي يده عن كتفها وأخذت ترنو إلى المدينة البعيدة، ورأت مجموعة من الأنوار التي تضيء وتنطفئ وهي ترتفع في الجو، هناك أسطول من العربات الطائرة يحتشد، تذكرت تالي أن عربات السلطات الخاصة تبقى مرتفعة في الهواء من خلال مجموعة من الريش التي تدور حول نفسها، مثل الطائرات المروحية التي كان سكان العصر القديم يستخدمونها، حتى تتمكن من الطيران خارج حدود الشبكة المغناطيسية، لا بد أنهم يتوجهون في هذا الطريق متبعين آخر الإشارات التي أرسلها سوارها وسوار زين.

عليها أن تخرج من هذا المنطاد الآن.

قبل أن يقفز فاوستو ربط حزام الهبوط، ولذلك يتسرب الهواء الساخن من الغلاف في كل لحظة، ولكن الهواء الموجود داخل الغلاف كان قد أصبح ساخنًا جدًّا

فيما كان زين وتالي يسخنان السوارين، ولذلك كان المنطاد يهبط ببطء شديد، ولم يبد لها أن الأرض تقترب منهما، ولكن تالي رأت حينذاك النهر.

إنه يمتد خارج المدينة تحتهما، وضوء القمر ينعكس على صفحته، فبدا مثل ثعبان فضي يتلوى خارجًا من بين الجبال الغنية بالمعادن الخام في طريقه ليصب في البحر، إن ضفته عامرة بالرواسب المعدنية التي تكونت عبر القرون والتي تكفي لدعم لوحها لكي يطير، وربما تكفي لوقف سقوط تالي قبل أن تصل إلى الأرض وتصطدم بها.

ربما يمكنها أن تستعيد مستقبلها مرة أخرى.

سحبت تالي لوحها ووضعته على السور مرة أخرى وهي تقول: «أنا ذاهبة».

– «ولكن يا تالي، لا يمكنك ...»

– «النهر.» نظر بيريس إلى أسفل، واتسعت عيناه. «إنه يبدو صغيرًا للغاية؟ أخشى أن يعجز اللوح الطائر عن حملك.»

قالت وهي تضغط على أسنانها: «لن يحدث ذلك، أرأيت هؤلاء الذين يزاولون القفز بالحبال؟ إن كل ما يساعدهم على النزول هو أذرعهم وأقدامهم، أما أنا فلدي لوح طائر، سيكون ذلك وكأن لدي أجنحة!»

– «لقد جننتِ!»

– «أنا ذاهبة.» قبلت تالي بيريس سريعًا ووضعت ساقها فوق سور صندوق المنطاد.

قال وهو يقبض على يدها: «تالي! قد تموتين! أنا لا أريد أن أخسركِ ...»

دفعته تالي بعنف، فتراجع بيريس خطوة في فزع، فالحسان لا يحبون الصراع، الحسان لا يقدمون على المخاطرة، الحسان لا يقولون لا.

ولكن تالي لم تعد من الحسان، وقالت: «لقد خسرتني من الآن».

ألقت تالي بنفسها في الفراغ المظلم وهي تمسك بلوحها الطائر.

الجزء الثالث

خارج المدينة

«لجمال العالم ... وجهان: وجه ضاحك وآخر يعتصره الألم، والقلب ممزق بينهما.»

فرجينيا وولف،
«غرفة خاصة»

الفصل الثالث والعشرون

الهبوط

كانت تالي تهوي والصمت يلف الفراغ من حولها، وقد فقدت القدرة على التحكم بحركتها.

وبعد أن كان الهواء حولها ساكنًا وهي في المنطاد، اندفع الهواء الذي تمر به نحوها وأحاطها من كل جانب، لم تكن تتخيل أن الرياح ستكون قوية إلى هذا الحد، لقد كادت أن تنتزع اللوح الطائر من بين يديها، فضمته تالي إلى صدرها بقوة، ولكن أصابع الرياح ظلت تبحث عن أية وسيلة لكي تنتزع منها أملها الوحيد في النجاة. لفت تالي ذراعيها حول اللوح الطائر وتشبثت بسطحه السفلي، وأخذت تركل الهواء بقدميها حتى تتحكم في دورانها العشوائي، وبدأ الأفق المظلم يستقر رويدًا رويدًا.

ولكن تالي انقلبت رأسًا على عقب، وتدلت من اللوح الطائر وأخذت تنظر إلى أعلى تجاه النجوم، استطاعت أن ترى غلاف المنطاد الكروي المظلم يحلق فوقها، ثم أوقدت شعلته، فتوهج الغلاف ببريق فضي في الظلام وبدا مثل قمر ضخم تظلله الغيوم في السماء، فخمنت أن بيريس يتجه بالمنطاد إلى أعلى، ليدرأ عنهم خطر ملاحقة الحراس أو السلطات الخاصة لهم، إنه يحاول أن يساعدهم على الأقل.

لقد آلمها التغير الذي حدث بمشاعره، ولكن لم يكن لديها وقت لتستسلم لمخاوفها وقلقها بشأن ذلك الأمر، ليس وهي تهوي تجاه الأرض.

حاولت تالي أن تعدل من وضعها وتستدير إلى أعلى، ولكن ذلك كان صعبًا للغاية، فعرض اللوح الطائر أكبر بكثير منها، إنه يستقبل الهواء وكأنه شراع مهدد بالإفلات من قبضتها، لقد كانت تالي مثل شخص يحمل طائرة ورقية كبيرة وسط رياح قوية، إلا أنها إذا فقدت السيطرة على تلك الطائرة الورقية فسوف تصطدم بالأرض في خلال ستين ثانية.

حاولت تالي أن تسترخي، وتترك نفسها معلقة في هذا الفراغ، ولكنها شعرت بأن شيئًا ما يجذب معصميها، فأدركت أنه رغم انعدام قدرة الروافع الموجودة بلوحها على الطيران هنا بأعلى في هذا الفراغ، فلا تزال تلك الروافع تتفاعل مع المعدن الموجود بسواريها الواقيين من الارتطام.

عدلت تالي من وضع سوارها الأيسر حتى تزيد الاتصال بينه وبين لوحها الطائر إلى أقصى درجة ممكنة، وعندما أصبحت قبضتها على اللوح أكثر إحكامًا، مدت ذراعها الأيمن في الهواء الذي يندفع نحوها، مثلما كانت تفعل عندما تستقل سيارة أبويها الأرضية وهي طفلة صغيرة وتخرج ذراعها من نافذة السيارة. بسطت تالي راحتها فتزايدت مقاومة الروافع للمعدن، ووجدت نفسها تستدير إلى أعلى ببطء.

وبعد بضع ثوانٍ أصبح اللوح الطائر تحتها.

ابتلعت تالي ريقها حينما رأت الأرض تتمدد أسفل لوحها الطائر شاسعة ومظلمة ومتعطشة لاستقبالها، والبرودة المحيطة بها تخترق سترتها.

أحست وكأنها ظلت تهوي زمنًا طويلًا، ولم يبدُ أن الأرض تقترب. إن المقياس الوحيد الذي يمكنها من أن تعرف إن كانت الأرض تقترب أم لا هو النهر المتعرج الذي لا يزال عرضه في حجم شريط زينة. حركت تالي راحتها الممتدة في الهواء بزوايا مختلفة، لترى ماذا سيحدث، فرأت منعطف المياه الفضية الذي يمتد تحتها يتحول إلى اتجاه عقارب الساعة، وسحبت ذراعها إلى الداخل فتوقفت حركة النهر.

علت ابتسامة عريضة شفتي تالي، فقد استطاعت على الأقل أن تسيطر «بعض الشيء» على هبوطها الجامح هذا.

بدأ عرض مياه النهر الفضية يتسع وتالي تهوي باتجاه الأرض، واتسع النهر ببطء في البداية ثم بعد ذلك ازدادت سرعة اتساعه، وكانت الأرض المظلمة تتمدد تحتها وكأنها حيوان مفترس يقترب منها حاجبًا ضوء النجوم التي تنير السماء. ولأنها كانت تتشبث بكلتا يديها بلوحها الطائر اكتشفت أن ساقيها المتمددتين يمكن أن تساعداها على أن تبقي النهر تحتها مباشرة أثناء الهبوط.

في الثواني العشرة الأخيرة بدأت تالي تدرك كم هو كبير هذا النهر، فصفحته المتسعة مكسوة بالأمواج، ورأت أشياء تتحرك بداخله.

النهر يتسع بسرعة تزداد أكثر فأكثر ...

عندما بدأت روافع اللوح الطائر تعمل شعرت تالي وكأن أحدًا قد صفع بابًا بوجهها، فقد ضغط سطح اللوح بعنف على أنفها، وجُرحت شفتها السفلية، فتدفق

الدم إلى فمها في الحال، و انثنى معصماها بقوة بفعل السوارين الواقيين من الارتطام، أما القوة الدافعة لجسدها المتهاوي فقد ضغطت عليها بعنف حتى كاد جسدها يلتصق بسطح اللوح الطائر الذي يفقد سرعته، فاندفع الهواء خارجًا من رئتيها وكأنهما بين فكي ملزمة يعتصرانهما، وجاهدت تالي لكي تدخل الهواء إليهما.

كانت سرعة اللوح الطائر تهدأ بسرعة، ولكن سطح النهر يزداد اتساعًا وتمددًا في كل الاتجاهات، وبدا مثل مرآة ضخمة يعكس كل مكان على سطحها أضواء النجوم، حتى ...

سُمِع صوت ارتطام!

لقد ارتطم اللوح الطائر بسطح المياه وكأنه راحة يد ضخمة مسطحة، فاصطدم جسدها باللوح بقوة مرة أخرى، وغمر رأسها وابل من الضوء والصوت، ثم بعد ذلك غطست تالي تحت المياه، يرن في أذنيها خرير خافت. تركت تالي لوحها الطائر، وجعلت تحرك ذراعيها حتى تصل إلى السطح، وقد أفرغت الصدمة رئتيها. أجبرت تالي نفسها على أن تفتح عينيها، ولكن كل ما رأته كان أكثر أشعة الضوء خفوتًا التي مرت عبر سطح النهر المظلم إلى أسفل. ظل ذراعاها يتحركان وقد خارت قواهما، والضوء يقترب منها ببطء، وفي النهاية اخترقت تالي سطح النهر وأخرجت رأسها إلى الهواء وهي تلهث وتسعل.

وكانت الأمواج تتلاطم فوق سطح النهر الغاضب من حولها، والتيار السريع يحرك الأمواج التي يعلوها الزبد من كل اتجاه. ركنت تالي إلى تحريك أطرافها سريعًا، ووزن حقيبة الأمتعة التي تحملها على ظهرها يهدد بسحبها مرة أخرى تحت سطح الماء. وكانت رئتاها تجذبان الهواء كالمغناطيس، وظلت تالي تسعل بقوة وهي تستشعر مذاق الدم في فمها.

ظلت تالي تتقلب من جنب إلى آخر، حتى أدركت أنها ضربت علامتها جيدًا، إنها في منتصف النهر تمامًا يفصلها عن كل ضفة من ضفتيه خمسون مترًا. شعرت تالي بضيق شديد، ولكنها استمرت في السباحة وهي تنتظر أن يسحبها سواراها الواقيان من الارتطام.

أين لوحها الطائر؟ كان من المفترض أن يكون قد وجدها من قبل.

لقد مرت فترة طويلة من الوقت ولم تبدأ الروافع في العمل بعد، لقد توقعت تالي أن تُسحب إلى أعلى في الهواء لا أن تصطدم بالنهر عند هذه السرعة. ظلت تالي تفكر للحظات قليلة، ثم أدركت ماذا حدث؛ إن عمق النهر أكبر بكثير من العمق

حتى توقفت تالي. ولذلك تبعد المعادن الموجودة بقاعه عن قدميها اللتين تركلان بعد. تذكرت تالي كيف كانت الألواح الطائرة تهتز وتتأرجح في بعض الأحيان عند مرورها فوق منتصف النهر الموجود بالمدينة، لابتعادها عن الرواسب المعدنية بمسافة لا تسمح للروافع بأن تعمل بكامل قوتها.

إنها محظوظة لأن اللوح الطائر استطاع أن يبطئ من سرعة سقوطها.

نظرت تالي حولها، لا بد أن لوحها الطائر نزل إلى القاع، لأن وزنه الثقيل لن يسمح له بأن يطفو، وظل التيار بأمواجه المتلاطمة يحملها بعيدًا عنه. وركنت تالي إلى توسيع مجال الاستدعاء الخاص بسواريها الواقيين من الارتطام ليصبح كيلومتر كامل، وانتظرت ن يشق طرف لوحها الطائر سطح الماء.

امتلأ سطح النهر من حول تالي بأشياء كثيرة متشابكة وغير واضحة المعالم تتحرك بسرعة مع الأمواج، مثل قطيع من التماسيح التي تسبح في التيار السريع، ترى ما تلك الأشياء؟

وكزها شيء ...

استدارت تالي بسرعة لتنظر خلفها، كان ما وكزها هو جذع شجرة قديم، وليس تمساحًا. وليس لوحها الطائر، ولكن تالي تمسكت به في رضا، فقد أنهكتها السباحة، وهناك المزيد من جذوع الأشجار وأغصانها التي تطفو حولها في كل الاتجاهات، وقد حمل سطح الماء أيضًا أكوامًا من أعواد الخيزران والأوراق المتحللة، كان النهر يحمل على سطحه كل ما يمكن أن يحمل.

«إنها الأمطار»، هكذا هداها تفكيرها، لا بد أن مياه الأمطار التي ظلت تنهمر بغزارة طيلة ثلاثة أيام قد غمرت التلال، وانحدرت إلى النهر جارفة معها كل الأشياء المتناثرة من سطح التلال، مما زاد حجم المياه في النهر ومن تيار الأمواج به. كان الجذع الذي تعلقت به تالي قديمًا ومتحللاً، ولكن ثمة بعض الخطوط الرفيعة التي ظهرت عند موضع كسر تخلل الخشب الذي بدا جديدًا (الخشب الأخضر)، ترى هل انتزعه الفيضان حيًا من الأرض؟

تحسست تالي بأصابعها الموضع الذي كسر عنده الجزع، فتبينت أن هناك شيئًا صناعيًا مستقيمًا قد ارتطم به.

شيئًا مثل حافة لوح طائر.

على بعد أمتار قليلة طفا على سطح النهر لوح من الخشب مقطوع بنفس هذه الحافة الحادة، لقد ارتطم لوحها بالجذع أثناء هبوطها العنيف وقسمه نصفين، كان

وجهها ينزف من صدمة هذا الارتطام ولا تزال تشعر بطعم الدم في فمها، إذن ما الأضرار التي لحقت باللوح الطائر؟

أدارت تالي أزرار التحكم بمجال الاستدعاء في السوارين الواقيين من الارتطام، لكي تزيد من هذا المجال، وضبطت السوارين ليستهلكا طاقة بطارياتهما بالكامل، إن التيار يبعدها كل ثانية عن المكان الذي هبطت فيه.

لم يطف اللوح الطائر على السطح، ولم تشعر تالي بالسوارين يجذبانها من معصميها، ومع مرور الدقائق بدأت تالي تواجه نفسها بأن اللوح قد تلف تمامًا وأصبح قطعة من الخردة تقبع في قاع النهر.

أغلقت تالي سواريها، وبدأت تركل المياه بقدميها وهي متعلقة بجذع الشجرة حتى تصل إلى الشاطئ.

وعلى الشاطئ كانت قدماها تتزلقان فوق ضفة النهر الموحلة، وقد امتلأت الأرض بمياه الأمطار ومياه النهر التي فاضت على ضفته. أخذت تالي تشق طريقها بصعوبة إلى الشاطئ خلال خليج صغير وسط الأغصان وأعواد الخيزران التي ملأت المياه والتي وصلت إلى ردفيها، لقد بدا لها أن الفيضان قد جمع كل شيء يطفو فوق سطح الماء وألقاه في هذه البقعة.

ومن ضمن هذه الأشياء تالي يانج بلود.

صعدت تالي بخطوات متعثرة إلى ضفة النهر، متعطشة للوصول إلى أرض جافة، فكل غرائزها تدفعها للتحرك بعيدًا عن اندفاع المياه. شعرت تالي بأن جسدها المنهك ثقيل للغاية، فانزلقت إلى أسفل على المنحدر فغطاها الوحل، وفي النهاية استسلمت تالي واستلقت على الأرض الموحلة وهي ترتعد من شدة البرودة حولها، لم تستطع تالي أن تتذكر أنها شعرت بالتعب بهذا الشكل منذ أن أصبحت من صغار الحسناوات، وكأن النهر قد سلبها حيويتها.

أخرجت تالي عود ثقاب من الحقيبة التي تحملها على ظهرها، وبأصابع مرتعشة جمعت كومة من الأغصان الصغيرة التي جرفتها المياه، ولكن أخشاب هذه الأغصان تشبعت بمياه الأمطار التي ظلت تنهمر طيلة ثلاثة أيام، فلم يفلح اللهب الصغير الذي انطلق من جهاز الإشعال في أن يفعل شيئًا سوى إثارة حسيس خافت لتلك الأغصان.

إن سترتها على الأقل لا تزال تعمل، فضبطت جهاز التدفئة الموجود بها ليعمل بكامل طاقته، غير عابئة ببطارياته، ثم تكورت على نفسها.

وانتظرت أن يأتي النوم، ولكن جسدها ظل يرتعد دون توقف، كما كان يحدث عندما تصاب بأعراض الحمى في أيام القبح، ولكن الحسان الجدد لا يمرضون أبدًا، ولكنها أيضًا استنزفت الكثير من طاقتها خلال الشهر الماضي، فهي لم تكد تأكل شيئًا، وكانت تخرج في الجو البارد وتتناول كميات كبيرة من القهوة والأدرينالين، ولم تمر عليها ساعة واحدة خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية إلا وجسمها قد تشبع بالمياه.

أم تراها بدأت تعاني أخيرًا من آثار الدواء التي عاناها زين؟ هل يكون القرص قد بدأ يدمر أنسجة مخها، الآن وقد فقدت كل أملها في أن تحصل على أية رعاية طبية؟

كان رأسها يدق بعنف، وأخذت الأفكار التي أثارتها الحمى تطوف بها: إنها الآن بلا لوح طائر وليس أمامها أية وسيلة للذهاب إلى أطلال المدينة القديمة سوى أن تسير على قدميها، ولا يعرف أي أحد مكانها، لقد خلا العالم من كل شيء سوى البرية والبرودة القارسة وتالي [illegible]، حتى غياب سوار الاتصال عن معصمها بدا غريبًا، فقد بدا لها أن هذا السوار قد خلف وراءه فراغا يشبه الفجوة التي تنشأ عند انتزاع إحدى الأسنان.

ولكن الأسوأ هو افتقادها لوجود زين بجانبها، لقد كانت معه في كل ليلة من ليالي الشهر الماضي، وكانا يقضيان معًا أغلب ساعات النهار كل يوم، حتى وهما مجبوران على الصمت، فقد اعتادت تالي على وجوده معها باستمرار، ولمساته الرقيقة، وحواراته التي خلت من الكلمات، ولكنه اختفى فجأة، شعرت تالي وكأن جزءًا منها قد فُقِدَ أثناء سقوطها من المنطاد.

لطالما تخيلت هذه اللحظة، لحظة الوصول إلى البرية والتحرر من المدينة، ولكنها لم تتخيل قط وجودها هنا دون زين.

ومع ذلك هي الآن هنا وحيدة تمامًا.

ظلت تالي مستيقظة فترة طويلة تعيد على نفسها الدقائق الأخيرة في المنطاد المشحونة بالتوتر والقلق، لو كانت قد قفزت أسرع من ذلك، لو خطر إليها أن تلقي نظرة إلى أسفل قبل أن يجتاز المنطاد شبكة المدينة المغناطيسية، فبعد أن قال زين ما قاله لم يكن يجدر بها أن تتردد، وهي تعرف أن هذا الهروب هو فرصتهما الوحيدة للعيش معًا وهما ينعمان بالحرية.

مرة أخرى تتعقد الأمور، وتفسد بسبب خطئها هي.

في النهاية تغلب الإرهاق الذي تشعر به تالي على مخاوفها واستسلمت للنوم، ولكن نومها ملأته الخواطر المزعجة.

وحدها

كانت هناك تلك الأميرة الجميلة.

محبوسة في برج عالٍ، تمتلئ جدرانه الذكية بثقوب بارعة يمكنها أن تخرج إليها أي شيء: الطعام، وجماعة من الأصدقاء الرائعين، وملابس أنيقة. وأجمل ما في الأمر هو تلك المرآة المعلقة على الجدار حتى تتمكن الأميرة من رؤية صورتها الجميلة طوال اليوم.

المشكلة الوحيدة هي أنه لم يكن هناك مخرج لذلك البرج، فقد نسي من شيدوه أن يزودوه بمصعد أو حتى سلم، ولذلك فالأميرة عالقة هناك في أعلى البرج.

في أحد الأيام أدركت الأميرة أنها تشعر بالملل، وأسرها المنظر الذي يطل عليه البرج: التلال غير الوعرة، والمراعي التي تعج بالزهور البيضاء، والغابة العميقة المظلمة. فبدأت تقضي وقتًا أطول وهي تنظر من شرفتها على هذا المنظر أكثر مما تتطلع إلى صورتها في المرآة، مثلما هو الحال دائمًا مع الفتيات اللاتي يثرن المشاكل.

ولكن بدا لها أنه لن يظهر أمير، أو ربما سيتأخر عليها.

ولم يكن أمامها سوى أن تقفز من البرج.

ألقت إليها الكوة الذكية الموجودة بالحائط بمظلة رائعة لتمسك بها وهي تسقط، وفستان جديد رائع لكي ترتديه في المراعي والغابة، ومفتاح نحاسي لتتمكن من العودة إلى البرج مرة أخرى إذا احتاجت إلى ذلك. ولكن الأميرة ضحكت في فخر وألقت بالمفتاح في نار المدفأة، فهي مقتنعة أنها لن تحتاج أبدًا إلى العودة إلى البرج مرة أخرى، ودون أن تنظر مرة أخرى في المرآة وقفت على حافة الشرفة ودفعت بنفسها إلى الهواء.

كان طريق النزول طويلاً، أبعد بكثير مما تخيلت الأميرة، ولم تفلح المظلة في أن تمسك بها، أدركت الأميرة وهي تسقط أنه كان عليها أن تطلب سترة قفز أو باراشوت أو «أي شيء» يعمل أفضل من المظلة.

ارتطمت الأميرة بالأرض بعنف، وظلت مستلقية عليها في حيرة وألم عاجزة عن الحراك، وهي في حيرة من سير الأمور على هذا النحو، لا يوجد أمير بجوارها لكي ينقذها، وقد فقد فستانها الجديد رونقه، وفقدت بسبب غرورها الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تعود بها إلى البرج.

والأسوأ هو أنه لم يكن هناك مرآة في البرية، ولذلك ظلت الأميرة لا تدري إن كانت لا تزال جميلة أم أن سقوطها من أعلى قد قلب الموازين تمامًا.

عندما استيقظت تالي من هذا الحلم المزعج كانت الشمس في كبد السماء.

حاولت تالي أن تقف على قدميها ولكنها عانت كثيرًا لكي تخلص نفسها من الوحل الذي يحيط بها من كل جانب ويشدها إلى أسفل. لقد فرغ شحن بطاريات سترتها في وقت ما في الليلة الماضية، وبدونها لا تعدو السترة سوى شيء بارد معلق على جسدها، وكانت تنبعث منها رائحة غريبة حيث لا تزال رطبة من مياه النهر. خلعت تالي السترة التي كانت ملتصقة بجسدها وبسطتها فوق سطح صخرة كبيرة وهي تأمل أن تجففها الشمس.

لأول مرة منذ أيام خلت السماء من السحب، ولكن مع غياب السحب أصبح الهواء باردًا وحادًا، فالدفء الذي جاء مع الأمطار رحل معها أيضًا، ولمع بريق الصقيع الذي يغطي الأشجار، وتلألأت الأرض الموحلة، وتشققت طبقة الجليد الرقيقة التي تغطي الأرض تحت قدميها.

مرت الحمى بسلام، ولكن شعرت تالي بدوار في رأسها، فلم تستطع أن تظل واقفة، فجثت تالي على ركبتيها بجانب حقيبة أمتعتها التي تحملها على ظهرها لتتفقد ما بها، إنه كل ما تمتلكه الآن. لقد نجح فاوستو في أن يجمع بتلك الحقيبة بعضًا من الأدوات التي ستساعدهم على البقاء في الضباب: سكين، ومنقي مياه، وجهاز لتحديد المواقع، وعود ثقاب، وبعض الألعاب النارية الآمنة، ونحو اثنتي عشرة قطعة من الصابون. ولما كانت تالي تعرف جيدًا أهمية وجود الطعام المجفف معهم في الضباب، حملت معها كمية تكفي ثلاثة أشهر، كلها ملفوفة — لحسن الحظ — ببلاستيك مقاوم للمياه، ولكن صعقها منظر بكرتي الورق النشاف اللتين أحضرتهما معها.

فقد تحولتا إلى كتلتين بيضاوين منتفختين ومشبعتين بالمياه، وضعتهما تالي على الصخور بجانب سترتها، ولكنها رأت أنهما لا يستحقان منها أن تجففهما.

تنهدت تالي، فحتى في الماضي لم تعتد قط على استخدام ذلك الورق عندما كانت تعيش في الضباب.

وجدت تالي كومة من الأغصان الرثة التي حاولت أن تشعلها ليلة أمس، فقد كانت متأثرة بالحمى ولم تستطع أن تتبين كم سيكون «ذلك» غبيًا، فمن السهل للغاية أن تحدد عربات السلطات الخاصة الطائرة التي تتبعت المنطاد مكان النيران وسط ظلام الليل.

لم تر تالي أية عربات في السماء جاءت لتتبع المنطاد، ولكنها قررت أن تبتعد عن النهر، فبعد أن فرغت بطاريات جهاز التدفئة بسترتها ستحتاج إلى النار الليلة.

ولكن عليها أن تنجز الأهم فالمهم، والأهم الآن هو الطعام.

اجتازت تالي الأرض الموحلة حتى وصلت إلى النهر لكي تملأ منقي المياه منه، وكلما خطت خطوة تساقط الطين الجاف من فوق بشرتها وملابسها، فلم يسبق لها أن وصلت من قبل إلى هذه الدرجة من الاتساخ، ولكنها لم تكن على استعداد للاستحمام في المياه قارسة البرودة، دون أن يكون هناك نار تدفئها بعد أن تخرج منها. لقد مرت الحمى في الليلة الماضية بسلام، بفضل مقاومة جهازها المناعي الذي زودتها به عملية التحول إلى واحدة من الحسان الجدد، ولكنها لا تريد أن تخاطر بصحتها وهي هنا خارج المدينة.

كانت تالي تدرك بالطبع أن صحتها ليست هي المسألة التي تستحق قلقها، فزين موجود بمكان ما خارج المدينة، وربما يكون وحيدًا مثلها تمامًا، لقد قفز هو وفاوستو في اللحظة نفسها، ولكن ربما قد هبطا في مكانين تفصلهما عدة كيلومترات، ماذا يحدث إذا أصيب زين بإحدى نوبات الآلام التي تهاجمه وهو في طريقه إلى الأطلال دون أن يكون معه أحد ليساعده ...

نفضت تالي هذه الفكرة عن ذهنها، فكل ما يمكنها أن تفعله الآن لزين أو لأي شخص آخر هو أن تصل هي إلى الأطلال، وهذا يعني أن عليها أن تحضر طعامًا، وليس أن تستسلم لقلقها بشأن الأشياء الخارجة عن نطاق سيطرتها.

ملأت تالي منقي المياه مرتين من الخليج الصغير ذي المياه الموحلة، حتى تحصل على كمية من المياه النقية تكفي لإعداد وجبة. انتقت مغلفًا من مغلفات الشعيرية التايلندية وضبطت المنقي على درجة الغليان، وسرعان ما فاحت رائحة الشعيرية

التي بدأت تنتفخ عندما تخللتها المياه وحمل بخار المياه التي تغلي بداخل الجهاز رائحة التوابل.

عندما أصدر الجهاز الصفارة التي تشير إلى أن الوجبة أصبحت جاهزة انقضت عليها تالي بشراهة.

وعندما فرغت تالي من وجبتها أدركت أنه لا يوجد ما يدعوها لأن تظل جائعة، وعلى الفور وضعت مغلف شعيرية بالكاري في الماء المغلي، لقد كانت تجوع نفسها حتى تستطيع أن تخلع سوار الاتصال وحتى تظل يقظة ومتنبهة، ولكنها قد تخلصت الآن من السوار، ولديها الآن مخاطر البرية وبرودة جوها لكي يبقياها متيقظة ومنتبهة، إنه من الصعب أن تقع في أسر ضباب الحسن وهي هنا خارج المدينة.

بعد أن تناولت إفطارها تلقت أخبارًا سيئة من الجهاز المحدد للمواقع، وقد حسبت حساباتها مرتين، فهي لا تصدق أنها قطعت كل هذه المسافة في الليلة الماضية؛ فالرياح الآتية من المحيط دفعت المنط مسافة بعيدة تجاه الشرق، أي في عكس الاتجاه المؤدي إلى أطلال المدينة القديمة، ثم حملها تيار النهر مسافة بعيدة تجاه الجنوب، وهذا يعني أن رحلتها إلى الأطلال سيرًا على الأقدام ستكون مدتها أسبوعًا إذا مشت في خط مستقيم، وهذا لن يكون ممكنًا، فعليها أن تلف حول المدينة مسافات طويلة لتختبئ في الغابة بعيدًا عن أعين متبعيها الذين يجوبون السماء بحثًا عنها.

تساءلت تالي عن قدر الوقت الذي ستنشغل السلطات الخاصة فيه بالبحث عنها، لحسن الحظ أنهم لا يعرفون أن لوحها الطائر قد اختفى في مياه النهر، ولذلك سوف يفترضون أنها تطير فوق سطحه، لا أنها تسير ماشية على قدميها، وعلى حد علمهم سيكون على تالي أن تبقى قريبة من النهر أو أي شريان طبيعي يحتوي على رواسب معدنية.

ولذلك فكلما أسرعت بالابتعاد عن ضفة النهر كان ذلك أفضل.

حملت تالي على ظهرها معسكرها المتنقل الصغير ويداخلها شعور بالحزن، فلديها في حقيبتها من الطعام ما يفيض عن حاجتها أثناء الرحلة إلى الأطلال القديمة، أما المياه فلا بد أنها تملأ السهول بعد أيام الأمطار الطويلة تلك، ومع ذلك داخلها شعور بأن الفشل حل على رحلتها بالفعل، فقد عرفت من حديث سوسي وديكس

إليها هي وزين أن سكان الضباب الجديد لم يقيموا معسكرًا دائمًا بالأطلال، وربما يرحلون في أي يوم بدءًا من الآن، وهي على بعد أسبوع منهم.

إن أملها الوحيد هو أن يبقى زين وفاوستو في انتظارها حتى تصل، إلا إذا ظنا أن السلطات الخاصة قد أمسكت بها، أو أنها لقيت حتفها وهي تسقط من المنطاد، أو أنها ببساطة قد وقعت فريسة للجبن.

لا، هكذا قالت تالي لنفسها، لن يخطر ببال زين هذا الاحتمال الأخير، ربما يداخله بعض القلق، ولكنه سينتظرها مهما طالت الفترة.

تنهدت تالي وهي تحكم سترتها التي لا تزال رطبة حول خصرها وترفع حقيبة أمتعتها على كتفيها، ليس هناك جدوى من محاولة تخمين مكان الآخرين، فالخيار الوحيد الذي أمامها الآن هو أن تسير باتجاه الأطلال القديمة وهي تثق أن أحدهم سيكون بانتظارها حينما تصل إلى هناك.

فليس هناك مكان آخر يمكن أن تذهب إليه.

كان الطريق عبر الغابة وعرًا وصعبًا، وعليها أن تحاذر تلك الوعورة في كل خطوة تجتازها، وعندما كانت تالي تعيش في الضباب فيما مضى كانت تسافر باللوح الطائر في أغلب الأوقات، وعندما اضطرت لأن تسير على أقدامها في البرية ما بين المدن، كانت تمشي في المسالك التي شقت بين الأشجار، ولكنها الآن تواجه الطبيعة وقد كشفت عن وجهها الحقيقي المليء بالعدوانية والقسوة. وها هي الشجيرات المتشابكة الكثيفة تشدها من قدميها محاولة أن تسقطها على الأرض، وتطل من بينها الأدغال الكثيفة والجذور التي يغطيها حائط منيع من الأشواك يمكن أن تلتف حول كاحلها فتلويه.

وكانت أصداء قطرات المطر لا تزال تتردد بين الأشجار، في حين أخذت أوراق شجر الصنوبر المستدقة تتلألأ بغطائها المتألق من الصقيع البراق الذي بدأت حرارة النهار تُذيبه شيئًا فشيئًا، فأخذ رذاذ المياه الباردة البراق يتساقط باستمرار، وكانت الغابة أشبه بقصر ثلجي رائع الجمال، تتخلله سهام أشعة الشمس التي تتسرب من بين الأشجار، وكان باستطاعة تالي أن ترى أشعة الشمس من بين رذاذ المياه المتساقط، فكانت أشبه بأشعة ليزر تتخلل سحابة من الدخان، ولكن كلما سولت لها نفسها أن تحرك أحد الأغصان أفرغ ذلك الغصن المياه المتجمدة التي يحملها فوق رأسها.

تذكرت تالي رحلتها إلى الضباب التي عبرت خلالها الغابة القديمة التي دمرها سكان العصر القديم بأزهارها وأعشابها المعدلة وراثيًا. لقد كان السير هناك فوق الأرض الطبيعية المسطحة أسهل بكثير من السير فوق أرض تلك الغابة المليئة بالشجيرات المتشابكة الكثيفة، وهنا في بعض الأحيان يمكن أن يجد المرء تفسيرًا لمحاولات سكان العصر القديم المستميتة لتدمير الطبيعة.

فالطبيعة يمكن أن تكون عبئًا ضخمًا.

شعرت تالي وهي تسير أن الصراع بينها وبين الغابة يتحول أكثر وأكثر إلى صراع شخصي، فقد بدا لها أن الأشجار الشائكة التي تعلق بقدميها تعرفها جيدًا؛ إذ تتوجه في الطريق الذي ترغب هي فيه غير مكترثة بما يقوله جهاز تحديد المواقع الذي تحمله عن الطريق الذي ينبغي أن تسير فيه، وكذلك غالبًا ما تنشق الشجيرات الكثيفة المتشابكة لتفسح الطريق أمامها لكي تمشي في مسارات معبدة تتعرج مبتعدة بها عن طريقها، والسير في خط مستقيم مستحيل وهي تشق طريقها وسط الطبيعة الحية وليس عبر طريق سريع من طرق العصر القديم التي تمر عبر الجبال أو الصحاري؛ طريق يمكنها من السير دون أن تكترث بالأرض التي تحيط بها.

ولكن مع حلول الأصيل بدأت تالي تتأكد شيئًا فشيئًا أنها تتبع مسارًا حقيقيًا يشبه الطرق الطبيعية التي كان يستخدمها سكان ما قبل العصر القديم قبل ألف سنة من الآن.

وتذكرت ما قاله لها ديفيد عندما كانا في الضباب حول المسالك التي استخدمها سكان العصر القديم وأن معظمها شقته في الأساس الحيوانات، فحتى الغزلان والذئاب والكلاب البرية لم تكن تفضل أن تسلك المناطق المزروعة البكر، ومثلها مثل البشر كانت الحيوانات تتبع مسارًا واحدًا لأجيال وأجيال، وبذلك تكونت الطرق والمسالك عبر الغابة.

لطالما تخيلت تالي أن ديفيد وحده بالطبع هو الذي يستطيع أن يتعرف على هذه المسالك التي صنعتها الحيوانات، إنه شب وترعرع في البرية وهذا جعله تقريبًا من سكان ما قبل العصر القديم. ولكن عندما بدأت أطوال الظلال التي تنعكس على الأرض من حولها تزيد، وجدت أن المسار الذي تتبعه أصبح أقرب إلى الاستقامة، وأنها تشق طريقها خلاله على نحو أسهل، وكأن أحدًا شق الشجيرات الطبيعية في تلك المنطقة التي وصلت إليها قدماها.

بدأ القلق يسيطر عليها، وأثارت أصوات المياه التي تتقاطر من الأشجار خواطر عدة بعقلها، وسرت بجسدها قشعريرة إذ شعرت أن هناك أحدًا يراقبها.

ربما كل ما في الأمر هو أن قدرتها الحادة على الإبصار التي حصلت عليها بفضل عملية التحول قد ساعدتها على أن تكتشف العلامات الدقيقة لهذا الممر الذي صنعته الحيوانات. لا بد أنها اكتسبت مهارات أكثر من التي كانت تعرفها عندما ذهبت إلى الضباب. إن هذا المسار صنعته الحيوانات، ولا يمكن لأحد من «البشر» أن يعيش هنا بالخارج، لا شك في ذلك، ليس بالقرب من المدينة هكذا. لو كانوا هنا لعثرت السلطات الخاصة عليهم منذ زمن بعيد، وحتى في منطقة الضباب لا أحد يعرف أي مجتمع آخر يعيش خارج المدن، فقد قررت البشرية منذ قرنين من الزمان ألا تتدخل في الطبيعة.

«أنتِ وحدكِ»، هكذا ظلت تالي تذكر نفسها، ولكن الغريب هو أنها لم تستطع أن تحدد ما إذا كان كونها الشخص الوحيد في هذه الغابة يزيد من خوفها أم يحد منه.

بدأت السماء تتحول إلى اللون القرنفلي، فقررت تالي أن تتوقف عن السير، ووجدت منطقة مكشوفة خالية من الأشجار، انعكست عليها أشعة الشمس مباشرة طوال النهار، وربما جففت هذه الأشعة من الخشب ما يكفي لإشعال النار. ولأن السير في البرية جعلها تعرق، فقد التصق القميص الذي ترتديه ببشرتها، فهي لم ترتدِ سترتها مرة أخرى منذ أن خلعتها، ولكنها تعرف أنه ما إن يحل الغروب حتى يصبح الهواء قارس البرودة مرة أخرى.

لم تضطر لبذل مجهود كبير لكي تعثر على أغصان جافة، وأخذت تزن بضعة أغصان صغيرة بيدها لكي تنتقي أخفها وزنًا، إذ سيكون أقلها من حيث كمية المياه التي تشربها. كل ما تعلمته في الضباب يعود إليها مرة أخرى، فقد تلاشى كل ما تبقى من التشوش العقلي الذي يصيب الحسان بعد الهروب، فالآن وقد خرجت تالي من المدينة بات تأثير الدواء مستقرًا حول عقلها على الدوام.

ولكنها ترددت قبل أن تضع جهاز الإشعال في كومة الأغصان، فقد سكن الخوف يدها. فالغابة لا تزال تبعث بأصواتها إلى مسامعها؛ حيث المياه التي تتقاطر من الأشجار وأصوات الطيور وأصوات الحيوانات الصغيرة وهي تتحرك بسرعة بين أوراق الشجر المبتلة، كان من السهل جدًا أن تتخيل أن هناك من يختبئ في الفراغات المظلمة بين الأشجار ليراقبها.

تنهدت تالي، ربما لا تزال متأثرة بالتشوش العقلي الذي يصيب الحسان، مما يدفع عقلها لاختراع حكايات غير منطقية حول الغابة الخاوية، وكلما قضت وقتًا

أكبر هنا بالخارج بدأت تتفهم أكثر لماذا كان سكان العصر القديم وأسلافهم يؤمنون بالكائنات غير المرئية، ويبتهلون لكي يرضوا الأرواح وهم يحطمون العالم من حولهم.

إن تالي لا تؤمن بوجود الأرواح، إن ما يثير قلقها فقط هم عملاء السلطات الخاصة، وهل سيقطعون كيلومترات عدة بمحاذاة النهر بحثًا عنها. عندما حل الظلام كانت تالي قد انتهت من رص كومة الأغصان التي ستشعل بها النار، وداهمتها البرودة الشديدة، فدرجة الحرارة من حولها تقترب من الصفر، لا يمكن أن تخاطر بصحتها وتعرض نفسها للإصابة بحمى أخرى هنا وهي في البرية وحدها.

شغلت تالي عود الثقاب وقربته من الأغصان حتى اشتعل اللهب بها، ثم زودت النار بالأغصان الأكبر حجمًا حتى أصبح اللهب قويًا بما يكفي لإشعال الأغصان الأخف وزنًا التي انتقتها، ثم وضعت بعض الأغصان حول النار لكي تجففها من مياه الأمطار.

ولكن سرعان ما ساعدها اللهب الساخن على استعادة قواها، فقد شعرت بأن الدفء يتسرب إلى عظامها، وقد بدا لها أن هذه أول مرة يتخلل الدفء جسدها منذ أيام.

ابتسمت تالي وهي تنظر إلى اللهب، إن الطبيعة قاسية، وقد تكون خطرة، إلا أنها تحمل بين طياتها العقلانية. على عكس ما هو الحال مع دكتورة كابل أو شاي أو بيريس، بل على عكس البشر بوجه عام، فما تُلْقِيه بوجه الإنسان من مشاكل يستطيع أن يحله من خلال المنطق؛ إذا شعر بالبرودة أمكنه أن يشعل نارًا، وإذا احتاج إلى أن يذهب إلى أي مكان سار حتى يصل إليه. إنها تعرف أنها ستتمكن من الوصول إلى الأطلال سواء كان لوحها الطائر تحت قدميها أم لا، ومن هناك يمكنها في النهاية أن تعثر على زين وعلى الضباب الجديد، وكل شيء سيكون على ما يرام.

شعرت بسعادة غامرة حينما أدركت أنها ستنام جيدًا الليلة حتى إن لم يكن زين بجانبها، فقد اجتازت يومها الأول وهي حرة طليقة في البرية، ولا تزال متنبهة ولم يصبها أي سوء.

استلقت تالي على الأرض وهي تشاهد الجمرات المشتعلة تتوهج بجانبها وتبعث بالدفء وكأنها صديق حميم، وبعد فترة بدأت تطرف بعينيها ثم انسدل جفناها عليهما.

غطت تالي في نوم عميق مليء بالأحلام السعيدة، إلى أن أيقظتها صيحة عالية.

الفصل الخامس والعشرون

الصيادون

في البداية ظنت تالي أن الغابة تحترق.

فألسنة من اللهب كانت تتحرك خلال الأشجار وتلقي بظلالها الغاضبة التي تتحرك بسرعة عبر الهواء على المنطقة الخالية من الأشجار مثل حشرات برية محترقة، وتعالت الصيحات من جميع الاتجاهات حولها، صرخات غير بشرية أطلقت في الهواء تصاحبها كلمات بلا معنى.

حاولت تالي أن تقف على قدميها ولكنها كانت تترنح، فتعثرت في بقايا الأغصان المحترقة التي أشعلت بها النار وتوهجت الجمرات مرة أخرى عندما ركلتها تالي فتدافعت في كل الاتجاهات، شعرت تالي من خلال نعليها بسخونة ووخز، وكادت تسقط على يديها وركبتيها بين الجمرات المتوهجة، وترامت إلى سمعها صيحة أخرى انطلقت بالقرب منها، كانت صيحة غاضبة حادة، فقد ركض نحوها كائن له هيئة بشرية يحمل في يده شعلة، كلما خطا ذلك الكائن خطوة تطاير الشرر من الشعلة وتعالى حسيس لهيبها وكأنه شيء حي يدفع حامله إلى الأمام.

كان هذا الكائن يلوح وهو يسير في طريقه بعصا طويلة ملساء، تلمع في ضوء النار، انحنت تالي إلى الخلف في الوقت المناسب لتتفادى ذلك السلاح الذي شق الهواء بسرعة فُسمع صفيره. وقعت تالي على ظهرها وتدحرجت على الأرض وشعرت بالجمرات المتناثرة تلسع منتصف ظهرها، فقفزت واقفة على قدميها، واستدارت مبتعدة وهي تندفع تجاه الأشجار، ولكن كائنًا آخر ذا هيئة بشرية اعترض طريقها، وقد أمسك هو الآخر بعصا وأخذ يلوح بها.

كانت لحيته تغطي ملامح وجهه، ولكن حتى مع اهتزاز ضوء الشعلة استطاعت أن تتبين أنه كان قبيحًا بدينًا وله أنف منتفخ، وقد غطت البثور بشرة جبهته الشاحبة، وكانت ردود أفعاله المنعكسة قبيحة أيضًا، فهو يهز العصا ببطء وبنمط يسهل

توقعه. تدحرجت تالي من أسفل السلاح المتأرجح، وهي تركل هذا الكائن لكي تطرحه أرضًا على وجهه.

عندما سمعت تالي صوت ارتطام جسده بالأرض نهضت وأخذت تركض مرة أخرى، وهي تشق طريقها بين أغصان الشجر متجهة إلى أشد مناطق الغابة ظلمة.

حينئذ اندلعت عاصفة من الصيحات خلفها، وانعكست الظلال المتوهجة على الأشجار أمامها في ضوء شعلات متبعيها، واصطدمت تالي بالشجيرات المتشابكة تحت قدميها، التي لم تكد تراها، وكادت تسقط على الأرض وهي تركض والأغصان المبتلة ترتطم بوجهها فتلسعها. والتف إحدى سيقان نباتات الكرمة حول قدمها، فاضطربت وفقدت توازنها، وتهاوى جسدها ناحية الأرض، فبسطت كلتا يديها لكي تمتصا صدمة ارتطامها بالأرض، فالتوى أحد معصميها إلى الوراء بشدة، وشعرت بألم شديد عند التوائه.

أسعفت تالي بديهة الصيادة للحظة، وهي تنظر إلى الخلف باتجاه الصيادين القبحاء. لم يكونوا يركضون بالسرعة نفسها التي كانت تالي تركض بها، ولكنهم يشقون طريقهم وسط الغابة بمهارة متفادين الارتطام بالشجيرات والأغصان، ويعرفون جيدًا المسارات بين الأشجار حتى في الظلام، وتدفق ضوء الشعلات التي رفعوها عاليًا في الهواء إلى المكان الذي تستلقي فيه، وأحاطت بها ضوضاء الصيحات العالية مرة أخرى.

ولكن ماذا «يكونون»؟ إنهم يبدون قصار القامة، وعندما يتحركون ذهابًا وإيابًا يصرخون متحدثين بلغة لا تفهمها، مثلهم مثل أشباح ما قبل العصر القديم الذين يخرجون من القبور ...

أيًا كانت هويتهم فإن هذا ليس هو الوقت المناسب للتفكير في هذا السؤال. نهضت تالي على قدميها واندفعت مسرعة مرة أخرى تجاه المنطقة المظلمة من الغابة وهي تبحث عن فجوة ما بين شعلتين.

اقترب صيادان منها وهي تتقدم إلى الأمام، إنهما قبيحان، لكل منهما لحية، وتظهر على وجهيهما الندوب والتقرحات. شقت تالي طريقها بينهما، وهي على مقربة منهما جعلتها تشعر بحرارة نيران الشعلتين، ولكن عصا تهتز في وحشية أوقفتها عندما ارتطمت بكتفها، ومع ذلك نجحت في أن تتفادى السقوط على الأرض، ووجدت نفسها تهبط أحد التلال باتجاه الظلام وهي تترنح.

تعالت صيحات الصيادين وهما يتبعانها، مسبوقة بالمزيد من الصيحات الآتية من فوق التل. ترى كم عددهم؟ فقد بدا لها أنهم ينبتون من الأرض.

فجأة، شعرت تالي بقدميها تخوضان في مياه باردة، ووجدت نفسها تنزلق وتسقط وسط جدول ضحل. أما الصيادان اللذان اقتربا منها أكثر من بقية المجموعة فقد تعثرا وهما يتتبعانها وسقطا أسفل المنحدر، وراح الشرر يتطاير من شعلتيهما وهما ترتطمان بالأشجار وأغصانها. كم كان غريبًا ألا تندلع النيران في الغابة كلها.

وقفت تالي على قدميها وأخذت تجري فوق قاع مجرى الجدول، وهي تشعر بامتنان شديد له لأنه شق هذا الطريق وسط الشجيرات الكثيفة المتشابكة، وكادت تتعثر وتفقد توازنها وهي تجري فوق قاع الجدول الصخري الزلق، ولكنها اكتشفت أنها تجري أسرع من العيون الغاضبة التي يتطاير الشرر منها وأصحابها يندفعون مسرعين بمحاذاة ضفتي الجدول. تمنت تالي أن تتمكن من الوصول إلى أرض مفتوحة، فهي تعرف أنها يمكن أن تسبق هؤلاء القبحاء قصار القامة لأنها تفوقهم في السرعة.

ترامى إلى سمعها صوت أقدام تخوض في الماء وراءها، ثم سمعت صوت شخص يتألم، وانهال بعد ذلك على أذنيها وابل من اللعنات بلغتهم المجهولة، لقد سقط أحدهم، ربما يمكنها أن تنجح في اجتيازهم.

وكان طعامها وجهاز تنقية المياه موجودان بالطبع في حقيبة أمتعتها في المنطقة الخالية من الأشجار التي يحيط بها القبحاء الذين يلوحون بعصيهم ويطلقون صيحات عالية في الهواء، وهذا معناه أنها فقدت الطعام والجهاز.

نفضت تالي هذه الفكرة عن ذهنها وظلت تركض، ومعصمها لا يزال يرتجف بشدة منذ أن التوى وهي تسقط، ولم تدرِ تالي أكُسِر أم لا.

سمعت تالي صوت هدير عالٍ آتٍ من أمامها، وأخذت المياه تفور حول كاحليها والأرض تهتز من تحت قدميها، ثم خُيل لها فجأة أن الأرض اختفت من تحت قدميها وهي تجري ...

أدركت تالي متأخرًا، وهي تتأرجح في الهواء، أن صوت الهدير أصبح وراءها الآن، لقد كانت تجري فوق قمة أحد الشلالات، ولم تظل تالي محلقة في الفراغ كثيرًا، فما هي إلا لحظة حتى اصطدمت تالي بالمياه التي كانت عميقة وهائجة ولفت ستارًا من البرودة حول تالي، وفجأة تحول الهدير في أذنيها إلى صوت خرير، وشعرت أنها تندفع بسرعة إلى أسفل باتجاه الصمت والظلام، وتنقلب ببطء في الماء.

لامست كتفها قاع المياه، فسحبت تالي نفسها إلى أعلى، وطفت فوق السطح وهي تلهث وتبحث بأصابعها عن أي شيء تتشبث به حتى وجدت حافة صخرية فتعلقت بها وجذبت نفسها إلى المياه الضحلة وهي تزحف على يديها وركبتيها، أخذت تالي تسعل، وراح جسدها ينتفض.

لقد أمسكوا بها.

كانت الشعلات تطل برأسها في الهواء حولها في كل مكان، وقد انعكست نيرانها فوق سطح المياه الهائجة فبدت مثل أسراب من الحباحب المضيئة. رفعت تالي بصرها إلى أعلى فوجدت على الأقل اثني عشر صيادًا يبعثون إليها بنظراتهم الغاضبة من فوق الضفتين شديدتي الانحدار، وقد تجلت بشاعة وجوههم القبيحة الشاحبة أكثر وأكثر في ضوء الشعلات.

وقف أمامها رجل وسط المياه، وقد عرفت تالي من أنفه الكبير وبطنه الممتلئ أنه هو الصياد الذي أوقعها على الأرض في المنطقة الخالية من الأشجار، فركبته العارية التي ركلتها تالي كانت تنزف دمًا، لم يتكلم الرجل ولكنه أطلق صيحة عالية، ورفع عصاه المعدنية في الهواء.

رفعت تالي وجهها وحملقت فيه في ذهول، ترى أحقًا سيضربها؟ هل هؤلاء الناس يقتلون الغرباء بلا أي أسباب؟

ولكن لم يضربها الرجل، فقد بدأ الخوف يرتسم على ملامحه شيئًا فشيئًا وهو يحملق فيها، قرب الرجل شعلته منها، ولكنها ارتدت إلى الوراء وغطت وجهها بيديها، ثم جثا الرجل على ركبته أمامها، لينظر إليها من قرب وأبعدت يديها عن وجهها.

ضيق الرجل عينيه الخائفتين، وأخذ يحدق فيها في ضوء الشعلة والارتباك يكسو ملامحه.

تُرى هل «تعرف عليها»؟

أخذت تالي تراقب بحرص الأفكار التي تدافعت إلى ملامحه المشحونة بمشاعر عدة، الخوف المتزايد والقلق، ثم إدراكه فجأة بأن شيئًا مفزعًا قد حدث ...

وقعت الشعلة من يده وسقطت في الماء، فانطفأت مصدرة حسيسًا خافتًا وسحابة من الدخان الداكن. أطلق الرجل صيحة عالية مرة أخرى، ولكن هذه المرة بدا وكأنه يتألم، هناك كلمة واحدة تتكرر مرات ومرات. انحنى الرجل إلى الأمام، خافضًا رأسه حتى كاد وجهه يلامس الماء.

ثم تبعه الآخرون، فجثوا على ركبهم وأيديهم وأسقطوا الشعلات فتطاير منها الشرر حينما وقعت على الأرض، ثم أطلقوا جميعهم الصيحة الباكية نفسها التي أطلقها الرجل، حتى كاد هدير المياه المنحدرة من أعلى الشلال يختفي بين أصواتهم.

نهضت تالي وجلست على ركبتيها، وهي تسعل سعالًا خفيفًا وتتساءل في ذهول ماذا يدور حولها.

نظرت حولها، وتبينت للمرة الأولى أن الصيادين كلهم رجال، وقد ارتدوا ملابس غريبة، بدائية أكثر من ملابس سكان منطقة الضباب التي يصنعونها بأيديهم، وظهرت علامات مرضية على وجوههم وأذرعهم، وكل منهم لديه لحية طويلة كثيفة، ويبدو أنهم لم يمشطوا شعورهم قط من قبل، وكان لون بشرتهم أكثر شحوبًا من المعدل المعتاد للحسان، وكان لون جلدهم ورديًا يتناثر عليه نمش كالذي يتناثر على وجوه النسبة العرضية من الأطفال الذين يولدون ولديهم حساسية مفرطة من الشمس.

لم يحدق أحد بها فهم يدفنون وجوههم إما بين أيديهم أو على الأرض.

في النهاية تقدم أحدهم ببطء، كان نحيفًا وقد امتلأ جلده بالتجاعيد، وكان لون شعر لحيته ورأسه أبيض، تذكرت تالي أنها عرفت حينما كانت في الضباب أن شكل القبحاء يكون هكذا عندما «يتقدمون في العمر»، فبدون العملية تتداعى صحتهم الجسمانية وتصبح مثل الأطلال القديمة التي هجرها بناؤها، كان جسده يرتعد وهو يتحرك، ربما من الخوف أو نتيجة لصحته المتدهورة، وأخذ الرجل يحملق فيها من قرب لفترة طويلة حتى بدا لها أنه سيظل يحملق فيها إلى الأبد.

أخيرًا تكلم في النهاية، وكان صوته المرتعش يعلو بالكاد فوق صوت المياه المنحدرة من الشلال: «أنا أعرف القليل عن لغة الآلهة».

طرفت تالي بعينيها وقالت: «أنت تعرف ماذا؟»

– «لقد رأينا النار فظننا أن هناك غريبًا، وليس أحد الآلهة».

خيم الصمت على الآخرين جميعهم وباتوا يترقبون في خوف ما سيحدث غير عابئين بنيران شعلاتهم التي ترتعش فوق الأرض، رأت تالي النار تشتعل في أحد الأغصان مرة أخرى، ولكن الرجل الذي كان جاثيًا بجانبه بدا خائفًا للغاية حتى إنه لم يستطع أن يتحرك.

إذن هل ارتعب الجميع من تالي فجأة؟ هل هؤلاء الأشخاص مصابون بالجنون؟

– «لم يستخدم الآلهة النار من قبل، أرجوكِ أن تتفهمي.» وكانت عيناه تتوسلان إليها لكي تسامحهم.

نهضت تالي وجسدها يتأرجح وقالت: «حسنًا، ليست هناك مشكلة».

نهض القبيح العجوز الذي كان منحنيًا على الأرض بغتة، فتراجعت تالي إلى الوراء وكادت تسقط مرة أخرى في المياه التي تفور من حولها. نطق الرجل بكلمة واحدة بصوت عالٍ، ثم كررها الصيادون، بدا لها أن هذه الصيحة قد حررتهم من خوفهم، فقد هبوا واقفين وأخمدوا بأقدامهم النيران الصغيرة التي اشتعلت وسط شعلاتهم التي أسقطوها على الأرض.

شعرت تالي فجأة بالخوف مرة أخرى من عددهم الكبير، فقالت للرجل: «ولكن، فقط لا تستخدموا العصي مرة أخرى، اتفقنا؟»

استمع الرجل العجوز إليها وانحنى، ثم صاح ببضع كلمات أخرى بلغتهم المجهولة، فهب الصيادون إلى العمل، فقد سند بعضهم عصيهم على جذوع الأشجار وركلوها حتى انقسمت نصفين، وبعضهم ظل يضرب بها الأرض حتى تحطمت، والبعض الآخر ألقوا بأسلحتهم في الظلام.

استدار الرجل العجوز تجاه تالي مرة أخرى وهو يبسط يديه الخاويتين، وبدا عليه أنه ينتظر منها إشارة تبدي رضاءها، فقد كانت عصاه ملقاة تحت قدميها وقد انشطرت نصفين، أما الآخرون فقد رفعوا أيديهم التي خلت من العصي إلى الأعلى.

قالت تالي: «نعم، هذا أفضل».

فابتسم الرجل العجوز.

ثم رأت تالي في عينيه الوجلتين، اللتين بدا عليهما آثار تقدمه بالعمر، ذلك البريق المعهود، تلك النظرات نفسها التي رأتها في عيون ديكس وسوسي حينما شاهدا حسن وجهها لأول مرة، تلك الهيبة نفسها، وذلك التلهف على إرضائها، وذلك الشعور الفطري بالانبهار، إنها النتيجة الحتمية لآثار مائة عام من الهندسة التجميلية ومليون عام من التطور والتقدم.

نظرت تالي إلى الآخرين فوجدتهم جميعًا يهربون من نظراتها، فهم لا يستطيعون أن ينظروا إلى عينيها الواسعتين المتشحتين بالنقاط النحاسية، ولا يمكنهم أن يتحملوا مواجهة جمالها.

«إلهة»، هكذا قال الرجل، هذه هي الكلمة التي كان سكان العصر القديم الأولون يطلقونها على أبطالهم غير المرئيين الموجودين في السماء والذين يمتلكون قدرات خارقة تفوق قدرات البشر.

هذا هو عالمهم الذي يعيشون فيه بعيدًا عن المدن، فهم يعيشون وسط الحياة البرية القاسية والبدائية بكل ما فيها من عنف ومرض وصراع حيواني للبقاء، فالعالم من حولهم قبيح مثلهم، لذا حينما يسكن الحسن والبهاء وجه شخص، فهذا معناه أنه آتٍ من مكان خارج نطاق هذا العالم القبيح.

هنا بالخارج أصبحت تالي إلهة.

الفصل السادس والعشرون

يانج بلود

استغرق الطريق إلى معسكر الصيادين حوالي ساعة، وبعد أن انطفأت أضواء شعلاتهم صار الصيادون يقطعون الممرات فاحمة السواد ويخوضون الجداول المتجمدة دون أن ينطق أحدهم بكلمة واحدة.

جمع مرشدو تالي بين البدائية والمهارة في مزيج غريب، فبنيتهم ضئيلة وحركتهم بطيئة، وعدد منهم اعترته تشوهات جسدية، يمشون في تثاقل ويحمل المرء منهم وزنه كله على ساق واحدة، رائحتهم كانت كريهة وكأنهم لم يغتسلوا من قبل، وكانت الأحذية التي يرتدونها ضيقة للغاية حتى إن أقدامهم كانت مليئة بالندوب، ولكنهم يعرفون الغابة جيدًا، ويتحركون برشاقة خلال الشجيرات المتشابكة ويرشدون تالي وسط الظلام دون أن يخطئوا المسار، ولم يستخدم الصيادون أي أجهزة لكشف المواقع، ولم يتوقفوا حتى ليتفقدوا النجوم.

لقد كانت الشكوك التي ساورت تالي بالأمس في محلها، فهذه التلال متصلة بعضها ببعض عن طريق ممرات من صنع البشر، فالمسارات التي لم تستطع رؤيتها بأكملها في ضوء النهار تتفتح أمامها في الظلام وكأن هناك عصا ساحر تلمسها فتنشق، فمرشدها العجوز ينعطف مع تلك الطرق ويتبع تعرجاتها الحادة دون أدنى تردد. وسار الجمع في صف واحد دون أن يصدر منهم أي صوت سوى صوت أقدامهم، وكأنهم ثعبان يزحف بين أوراق الشجر.

كان لهؤلاء الصيادين أعداء، هذا هو ما بدا لتالي، فبعد أن هاجموها بصيحاتهم العالية وصراخهم لم تكن تتخيل أن هؤلاء القوم قادرون على التسلل أو استخدام الدهاء والمكر، ولكنهم الآن يبعثون بالإشارات من أول الصف إلى آخره والعكس عن طريق أصوات مثل الطقطقة وأصوات تشبه زقزقة العصافير بدلًا من الكلمات. واعترت وجوههم الحيرة حينما كانت تتعثر قدمها في أحد الجذور المختبئة أو إحدى

نباتات الكرمة، واستحوذ عليهم القلق حينما تطلق سيلًا من اللعنات عند تعثرها، لقد أدركت أنهم لا يحبون أن يسيروا عُزلًا، ربما ندموا على أنهم حطموا أسلحتهم حينما أبدت تالي أولى علامات عدم الارتياح.

ولكن هذا كان من حسن حظها، فبصرف النظر عن تودد الصيادين إليها فقد شعرت بالراحة لأنهم تخلصوا من عصيهم حتى لا يكون معهم أسلحة إذا غيروا رأيهم، ولولا أنها سقطت في الماء الذي غسل الوحل والوسخ عن وجهها الجميل لما ظلت حية إلى الآن، ومهما يكن أمداء الصيادين فيبدو أن العداوة بينهم شديدة.

اشتمت تالي رائحة القرية قبل أن يصلوا إليها، وسدت أنفها في ضيق.

لم تكن فقط رائحة الدخان المتصاعد من الأخشاب المحترقة هي التي تزعجها، أو الرائحة المحملة بنكهة الحيوانات التي تذبح من أجل الطعام والتي عرفتها منذ أن رأت الأرانب والدجاجات تذبح في الضباب لاستخدامها كطعام، صحيح أنها كانت تكره تلك الرائحة أكثر من رائحة الدخان، ولكن الرائحة التي انبعثت من الأطراف المحيطة بمعسكر الصيادين كانت أسوأ بكثير، فقد ذكرتها برائحة المراحيض الخارجية التي كان سكان الضباب يستخدمونها، تلك صفة من صفات حياة المعسكرات التي لم تتمكن قط من الاعتياد عليها، ولكن لحسن الحظ اختفت تلك الرائحة عندما ظهرت القرية في الأفق.

لم يكن المعسكر كبيرًا، فهو يتكون من اثني عشر كوخًا مبنيًا من الطين وأعواد الخيزران، وقد ربطت بضع نعجات نائمة أمام كل كوخ، وانعكست ظلال شقوق الأرض المحروثة المزروعة بالخضراوات في ضوء النجوم فبدت وكأنها زخارف تزدان بها الأرض. وفي منتصف كل شيء موجود على أرض المعسكر مخزن كبير، ولكن لم تر تالي أي مبانٍ كبيرة أخرى.

كانت حدود القرية تحددها نيران المراقبة التي أشعلت عند هذه الحدود والحراس المسلحين الذين وقفوا عندها، وأحس الصيادون بالأمان عندما وصلوا إلى منازلهم، فرفعوا أصواتهم مبلغين خبر وصول ... زائر معهم إلى القرية.

بدأ الناس يخرجون من أكواخهم، وتعالت الجلبة، واستيقظ أهل القرية واحدًا تلو الآخر، فوجدت تالي نفسها تقف وسط جمهرة من وجوه تتطلع إليها في فضول، فقد تجمع أهل القرية في دائرة حولها، ولكن لم يجسر الكبار على الاقتراب منها،

وكأن جمالها قد شكل مجالًا مغنطيسيًا منيعًا لم يستطع أحد أن يخترقه، فقد كانوا يشيحون بأبصارهم عنها.

أما الأطفال فكانوا أكثر شجاعة، فتجرأ بعضهم على لمسها، مندفعين بسرعة خارج الدائرة ليضعوا أيديهم على سترتها الفضية قبل أن يتراجعوا مرة أخرى عائدين إلى الأهالي المتجمهرين حولها. كم كان غريبًا أن ترى الأطفال هنا في البرية، فعلى عكس الكبار لاحظت أن الأطفال طبيعيون تقريبًا، فآثار المرض وسوء التغذية لم تكن قد اتضحت بعد على بشرتهم الصغيرة، بالإضافة إلى أنه في المدينة لا يخضع أحد لعملية التحول قبل سن السادسة عشرة، ولذلك فقد تعودت تالي على رؤية وجوه الأطفال ذات الملامح غير المتناسقة والعيون الحولاء، ولكن على أية حال كانت وجوههم جذابة.

ركعت تالي على ركبتيها، وبسطت يدها، لكي تدع أشجعهم يندفع بسرعة ويلمس راحتها.

رأت تالي لأول مرة النساء بين أهل القرية، واستطاعت أن تميزهن بسهولة حيث إن كل لدى رجل لحية، في حين وقفت النساء في الصفوف الأخيرة تعتنين بأصغر الأطفال سنًا، ولم تتجرأن على النظر إليها. كان هناك بضع نساء يضعن الأخشاب في حفرة سوداء في وسط القرية لكي يشعلن فيها النار، ولكنها لاحظت أنه لم يعبأ أحد من الرجال بمساعدتهن.

تذكرت تالي قليلًا مما تعلمته في المدرسة عن عادات سكان ما قبل العصر القديم بتكليف الرجال والنساء بمهام مختلفة، وتذكرت أن النساء دائمًا يُكلفن بالمهام الوضيعة، حتى إن بعضًا من سكان العصر القديم قد أصروا على الاستمرار في هذه الحيلة. وأصابتها تلك الفكرة بالغثيان وتمنت ألا تكون هذه القواعد تنطبق على الآلهة أيضًا.

تساءلت من أين نبعت تحديدًا فكرة الإله. استعادت أعواد الثقاب وغيرها مما حملته حقيبة أمتعتها قبل أن تبدأ هي والصيادون رحلتهم إلى هنا، ولكن لم يكن أحد قد اطلع بعد على ما تحويه هذه الحقيبة من معجزات خارقة، فكل ما تطلبه الأمر هو نظرة واحدة. لقد عرفت من الأساطير التي قرأتها أن صفة الألوهية لا تقتصر فقط على حسن الوجه.

إنها بالطبع ليست أول حسناء يقابلها الصيادون، فبعضهم على الأقل يعرف لغتها، وربما يعرفون أيضًا شيئًا عن التكنولوجيا الحديثة.

صرخ شخص من خارج الصفوف المتجمهرة، فتفرقت تلك الصفوف من أمام تالي وخيم عليها الصمت، ومر رجل إلى داخل الدائرة، ومع أن الجو بارد فهو الوحيد الذي لا يرتدي قميصًا، بدت عليه في سيره سيماء الكبرياء، والسلطة واضحة جلية لا شك فيها، فهو يمشي بخطى سريعة داخل المجال المنيع الذي لفه الحسن حول تالي، حتى لم يبق بينه وبينها سوى ذراع، كان طوله يقترب من طولها، فيبدو كالعملاق وسط هؤلاء الأشخاص، ويبدو أيضًا قويًا مفتول العضلات، ولكنها خمنت أن ردود أفعاله المنعكسة لا تضاهي ردود أفعالها المنعكسة، وفي ضوء النار التمعت عيناه بنظرات الفضول لا الخوف.

لم تستطع تالي أن تخمن سنه، فقد بدت على وجهه بعض التجاعيد التي تظهر على وجوه شباب الحسان، ولكن بشرته كانت أفضل حالًا من أغلب الآخرين، هل هو يصغرهم؟ أم كل ما في الأمر أن صحته أفضل؟

لاحظت تالي أنه يحمل سكينًا، وهي أول أداة معدنية تراها هنا، يدها مصنوعة من بلاستيك أسود غير لامع، رفعت تالي حاجبيها في دهشة، لا بد أن هذه السكين قد صنعت في المدينة.

قال لها الرجل: «مرحبًا».

إذن فهو يتكلم أيضًا بلغة الآلهة. «شكرًا. أنا أعني ... إني أشكرك.»

– «لم نعرف أنكِ قادمة، ليس قبل عدة أيام.» هل تتصل الآلهة بهم قبل أن تبادر بالزيارة؟

– «آه، آسفة.» هكذا تمتمت تالي، ولكن إجابتها لم تفعل شيئًا سوى أنها حيرته، ربما لا يجدر بالآلهة أن تعتذر.

قال الرجل: «لقد ارتبكنا، عندما رأينا النار التي أشعلتها وظنناكِ أحد الغرباء».

– «نعم، فهمت ذلك، لا بأس».

حاول الرجل أن يبتسم، ولكنه قطب جبينه وهز رأسه وقال: «إننا لم نفهم بعد.»

– «كلانا لم يفهم بعد.»

إن لهجة الرجل بدت غير معتادة قليلًا، مثل لهجة شخص ينتمي إلى مدينة أخرى من القارة، وليس رجلًا ينتمي إلى حضارة مختلفة تمامًا، ولم يكن يعرف الكلمات التي يجب أن يقولها لكي يسألها عما يريد، وكأنه غير معتاد على الدخول

في حوارات قصيرة مع الآلهة، ربما يبحث عن صيغة مناسبة لطرح هذا السؤال: «ما الذي تفعلينه هنا بريك؟»

بصرف النظر عن مفهوم هؤلاء الأشخاص للألوهية، فمن الواضح أنه لا ينطبق جيدًا على تالي، وقد شعرت تالي أنهم إذا قرروا إنها ليست من الآلهة حقًا فلن يكون هناك احتمال آخر سوى أنها من الغرباء.

والغرباء يُضربون على رءوسهم.

قال الرجل: «سامحينا، فنحن لا نعرف اسمكِ، أنا أندرو سيمبسون سميث».

كان ذكر مثل هذا الاسم في ذلك الموقف غريبًا عليها، ردت: «وأنا تالي يانغ بلود».

قال الرجل وقد تهللت أساريره قليلًا: «يانغ بلود، إذن فأنتِ إلهة صغيرة».

– «آه، نعم، أظن ذلك، فأنا لا أزال في السادسة عشرة من عمري».

أغمض أندرو سيمبسون سميث عينيه وقد بدا عليه الارتياح، وتساءلت تالي هل هو نفسه ليس كبيرًا في السن إلى حد بعيد، فلم تعد سيماء الكبرياء التي بدت عليه في البداية ترافقه في لحظات الارتباك والحيرة، ولم يكن شعر لحيته قد نما بعد، وفيما عدا الخطوط وآثار البثور التي تبدو على بشرته، بدا وجهه مثل وجه شخص قبيح في عمر ديفيد، ربما في الثامنة عشرة من عمره.

قالت تالي: «هل أنت ... القائد هنا؟»

– «لا، هذا هو الزعيم.» هكذا رد عليها أندرو وهو يشير إلى الصياد البدين ذي الأنف المنتفخ الذي كان الدم يقطر من ركبته، إنه الصياد الذي أوقعته على الأرض أثناء المطاردة، وهو أيضًا الصياد الذي كاد أن يضربها على رأسها، هذا عظيم.

واستأنف أندرو حديثه: «وأنا الراهب، لقد تعلمت لغة الآلهة من أبي».

– «أنت تتحدثها بإتقان».

ابتسم أندرو فكشف عن أسنانه المعوجة وقال وهو يضحك: «أنا ... أشكركِ».

ولكن ملامح وجهه بدا عليها تعبير ماكر وهو يسألها: «لقد سقطتِ، أليس كذلك؟»

أمسكت تالي بمعصمها المصاب وقالت: «نعم، أثناء المطاردة».

– «من السماء!» نظر أندرو حوله وهو يصطنع الذهول والارتباك، وبسط يديه الخاويتين. «ليس لديكِ عربة طائرة، إذن لا بد أنكِ سقطتِ!»

«عربة طائرة؟» يا لغرابة هذا الأمر، هزت تالي كتفيها وقالت: «في الحقيقة، أظن أنكم وجدتموني هناك، فقد سقطت بالفعل من السماء».

«آها!» هكذا تنهد أندرو في ارتياح، وكأن الأمر أصبح منطقيًا مرة أخرى، ثم قال بضع كلمات للجمع المحتشد حولها، وتمتم أهل القرية بأصوات تدل على أنهم تفهموا الأمر.

بدأت تالي تشعر بالهدوء، فقد شعر الجميع بالبهجة لأن وجودها على الأرض له تفسير منطقي تمامًا، إنهم يستطيعون أن يتقبلوا فكرة سقوطها من السماء، فهي تأمل أن تكون التصرفات المتوقعة من الآلهة الصغار مختلفة عن المعتاد.

أمسك الشرر بالأخشاب المرصوصة وراء أندرو واشتعلت النيران فيها، واشتمت تالي رائحة الطعام، وسمعت صيحات الدجاجات التي أمسك بها الأهالي ليذبحوها، إنها تعرف تلك الصيحات العالية جيدًا ولا يمكن أن تخطئها أذنها، إنه من الواضح أن تلك الزيارة الإلهية هي سبب جيد لإعداد وليمة في منتصف الليل.

أشار أندرو بذراعه تجاه النار فتفرقت الجموع المحتشدة لتفتح لهما الطريق.

– «أيمكنك أن تخبرينا بقصة سقوطك؟ وسوف أنقل كلماتك إلى لغتنا».

تنهدت تالي، فقد كانت متعبة للغاية، ومرتبكة ومصابة، ومعصمها لا يزال يرتجف، إن كل ما تريده الآن هو أن تتكور على نفسها وتنام. وكان منظر النيران والدفء الذي تذكره في المكان ليبعث في نفسها البهجة بعد أن تشبعت ملابسها وجسمها بالمياه المنحدرة من الشلال، ولم تستطع أن تقاوم التعبير الذي بدا على وجه أندرو.

ولم يكن بإمكانها أن تخذل أهالي القرية جميعهم، فهنا ليس لديهم شاشات جدارية ولا نشرات أخبار ولا حزم فضائية، أما مباريات كرة القدم فهي شيء نادر الحدوث هنا، إن الوضع يشبه تمامًا العيش في الضباب، ولذلك فالقصص والحكايات شيء ثمين للغاية، وليس من المعتاد أن يسقط كل يوم غريب من السماء ويحكي لهم قصته.

قالت تالي: «حسنًا، قصة واحدة، ولكن بعدها سأنام».

تجمع أهالي القرية كلهم حول النار.

فاحت رائحة الشواء من الأسياخ الحديدية الطويلة التي وضعت بها الدجاجات والتي علقت فوق ألسنة اللهب، ووضعت الأواني الفخارية وسط الجمرات المشتعلة، وفاحت رائحة التخمر من الطعام الأبيض الذي يفور بداخلها. جلس الرجال في الصف الأول يأكلون محدثين ضجيجًا وجلبة، يمسحون أيديهم

المليئة بالشحوم في لحاهم حتى أصبحت تبرق في ضوء النيران، أما النساء فكن يعتنين بأمور طهي الطعام، وكان الأطفال الصغار يركضون باندفاع تحت الأقدام، أما الأطفال الأكبر سنًا فكانوا يمدون النيران بالأغصان التي يجلبونها معهم وهم يركضون في الظلام. وعندما صدرت الإشارة بأن تالي ستتكلم، هدأ الجميع.

تشجع معظم أهالي القرية على النظر إليها دون خوف، ربما لأنها ستقاسمهم الطعام، وربما لأن الآلهة الصغار لا يبثون الرعب الشديد في النفوس، حتى إن بعضهم أخذ يحملق في وجهها الجميل في انتظار سماع قصتها دون أن تبدو عليهم ملامح الخجل أو الندم.

جلس أندرو سيمبسون سميث بجانبها، والزهو يملؤه، لكي يترجم ما ستقوله لأهالي القرية.

تنحنحت تالي، وهي لا تدري كيف يمكنها أن تسرد أحداث رحلة قدومها إلى هنا على نحو يبدو منطقيًا لهؤلاء القوم، من الواضح أنهم يعرفون العربات الطائرة والحسان، ولكن هل يعرفون بأمر السلطات الخاصة؟

وماذا عن عملية التحول؟ والأشقياء؟ والضباب؟

والفرق بين الروعة والجمال واليقظة والسخف والقبح والغفلة؟

حينئذ داخلها الشك في احتمال أن يفهم هؤلاء قصتها، فتنحنحت مرة أخرى، وهي تنظر إلى الأرض لكي تهرب من عيونهم التي تحملق فيها في انتظار ما ستحكيه، وشعرت بالتعب، وأن التشوش العقلي الذي يصيب الحسان يكاد يلف ذهنها مرة أخرى نتيجة لنومها المتقطع في الليلة الماضية، لقد بدت لها رحلتها من المدينة إلى هذه القرية التي تجلس بها الآن حول النار بكل ما فيها من أحداث وكأنها حلم.

حلم، يا لها من فكرة، ابتسمت تالي، ورويدًا رويدًا بدأت الكلمات تتدفق على شفتيها لكي تحكي قصتها.

قالت تالي: «يحكى أنه كانت هناك إلهة جميلة صغيرة»، ثم انتظرت حتى يترجم أندرو كلماتها إلى لغة أهل القرية. وبدت المقاطع التي جاءت على لسان أندرو غريبة على تالي، وتلك الغرابة جعلتها تشعر وهي تجلس وسط القرية التي يضيئها لهب النيران أنها في حلم فعلًا، حتى صارت الأحداث تتدفق من بين شفتيها دون عناء أو جهد.

«عاشت الإلهة الصغيرة في برج عالٍ في السماء، كان البرج جميلًا ومريحًا، ولكن لم يكن به أي سبيل تستطيع أن تخرج منه وتهبط إلى العالم، وفي يوم من الأيام أدركت الإلهة أن هناك أشياء كثيرة أفضل يمكنها أن تفعلها سوى النظر إلى صورتها في المرآة ...»

الفصل السابع والعشرون

الانتقام

استيقظت تالي على روائح وأصوات غير مألوفة: رائحة العرق، ورائحة أنفاس كريهة، وأصوات شخير وخنخنة خافتة، إضافةً إلى رطوبة ودفء ينبعثان من مكان صغير مزدحم.

تقلبت تالي في الظلام فسرت موجة من الحركات بفعل حركتها، إذ أخذت مجموعة متلاحمة من الأجساد في التململ لتستوعب بعضها بعضًا، وانبعث شعور مريح بالدفء من أسفل الأغطية المصنوعة من الفراء عبر حواسها، فشعرت وكأنها في حلم جميل لا يعكر صفوه سوى رائحة نفاذة لأجساد بشرية لم يغتسل أصحابها، وإحساسها المؤكد بأنها تريد التبول.

فتحت عينيها، وكان الضوء يتسرب من المدخنة، وهي ثقب صغير في السقف يسمح بخروج الدخان، وقد قدرت تالي من زاوية انعكاس أشعة الشمس أن الضحى قد حل ولا يزال الجميع نائمين، وهذا ليس غريبًا، فقد استمرت الوليمة حتى الفجر، إذ أخذوا يقصون الحكايات بعد أن فرغت تالي، وأخذوا يتنافسون لكي يروا من منهم سيتمكن من تسلية الإلهة الناعسة حتى تظل مستيقظة، وظل أندرو سيمبسون سميث يترجم لها طوال الوقت دون كلل.

وعندما سمحوا لها في النهاية بالتوجه إلى الفراش اكتشفت أن «الفراش» بمعناه المعتاد لا وجود له هنا، فقد انتهى بها الأمر إلى مشاركة ذلك الكوخ مع عشرين آخرين، فمن الواضح أن مفهوم التماس الدفء في ليالي الشتاء لدى هذه القرية يتمثل في النوم في مجموعات تغطيها أغطية من الفراء، كان الأمر غريبًا عليها، ولكن لم تمنعها غرابة الأمر من الاستغراق في النوم نظرًا لشدة تعبها.

هذا الصباح وجدت حولها أجسادًا يغط أصحابها في نوم عميق، يرتدون بعض الملابس وهم راقدون متلاحمون بعضهم مع بعض ومع جلود الحيوانات التي يرتدونها، ولكنه التماس عفوي لا يتسم بأي طابع جنسي على الإطلاق، فلا يعدو أن يكون طريقة لالتماس الدفء، على طريقة القطيطات حين تنام متكومة بعضها فوق بعض.

حاولت تالي أن تنهض جالسة ولكنها وجدت ذراعًا يحيط بجسدها، إنه ذراع أندرو سيمبسون سميث، الذي كان يطلق شخيرًا خافتًا وفمه نصف مفتوح، فأزاحت ذراعه عنها، فاستدار أندرو دون أن يستيقظ ووضع ذراعه فوق جسد الرجل العجوز الذي ينام على الناحية الأخرى بجانبه.

بدأ ينتاب تالي شعور بالدوار وهي تتجول في الكوخ المزدحم شبه المعتم، أدركت أن هؤلاء الأشخاص لم يتوصلوا إلى اختراع العربات الطائرة أو الشاشات الجدارية أو المراحيض المزودة بصناديق طرد، ولا حتى الآلات المعدنية، ولكن لم يخطر ببالها من قبل أن هناك من يعيش في أية بقعة على وجه الأرض لم يتوصل بعد إلى معرفة «الخصوصية».

شقت تالي طريقها وسط الأجساد الغافية، وأخذت تتعثر في الأذرع والأرجل وأجزاء أخرى لم تتبينها حتى وصلت إلى الباب، فانحنت وخرجت ببطء إلى الشمس الساطعة والهواء النقي.

اقشعر ذراعاها العاريان ووجهها في الهواء قارس البرودة، وشعرت بأن رئتيها تتجمدان كلما أخذت نفسًا، وتذكرت أنها نسيت سترتها في الكوخ، ولكنها لفت ذراعيها حول جسدها، وفضلت أن ترتجف بردًا على أن تعود وتشق طريقها وسط الأجساد النائمة المتكدسة داخل الكوخ مرة أخرى، فوقفت في الجو البارد خارج الكوخ، وشعرت بخفقان في معصمها من أثر سقوطها الليلة الماضية، وكذا ألم في عضلاتها بعد أن قطعت تلك المسافة الطويلة سيرًا على الأقدام في الليلة الماضية، ربما لم يكن الدفء المنبعث من الأجساد البشرية داخل الكوخ سيئًا، ولكن الأهم فالمهم.

اضطرت تالي لأن تستعين بحاسة الشم فحسب للعثور على المرحاض. لم يكن المرحاض إلا حفرة كبيرة تفوح منها رائحة قوية، مما جعلها تشعر بالسعادة لأول مرة لأنها هربت في الشتاء. كيف يعيش هؤلاء هنا في الصيف؟

لم تكن هذه هي أول مرة تستخدم فيها تالي المراحيض الخارجية، ولكن سكان الضباب كانوا يعالجون الفضلات باستخدام جزيئات نانو دقيقة تتكاثر ذاتيًا

استعاروها من محطات إعادة التدوير الموجودة بالمدن، وكانتهذه الجزيئات الدقيقة تحلل مياه الصرف وتعيدها إلى التربة مباشرة، مما يساعد على إنتاج أفضل طماطم تذوقتها تالي في حياتها، والأهم من ذلك أنهم كانوا يحرصون على عدم انبعاث روائح كريهة منها، فمعظم الضبابيين ولدوا في المدن، ومهما بلغ حبهم للطبيعة فهم قد نشئوا في ظل حضارة تكنولوجية، وهم ينفرون من الروائح الكريهة.

ولكن الحياة في هذه القرية مختلفة تمامًا، تكاد تشبه حياة سكان ما قبل العصر القديم الأسطوريين الذين عاشوا على الأرض قبل ظهور التكنولوجيا الحديثة، إلى أية ثقافة ينتمي هؤلاء؟ لقد تعلمت تالي في المدرسة أن سكان العصر القديم أدمجوا الجميع في إطار نشاطهم الاقتصادي، وتخلصوا من كل أساليب الحياة الأخرى، وكانت تعرف أيضًا أن السلطات الخاصة تفعل الشيء نفسه تقريبًا، مع أن أحدًا لم يخبرها بذلك قط. إذن فمن أين جاء هؤلاء؟ هل عادوا إلى أسلوب حياتهم هذا بعد انهيار حضارة سكان العصر القديم؟ أم تراهم يعيشون في البرية قبل انهيار هذه الحضارة؟ ولماذا تركتهم السلطات الخاصة وشأنهم دون تدخل؟

أيًا كانت الإجابة عن هذه التساؤلات فقد أدركت تالي أنه لا يمكنها أن تستخدم هذه الحفرة كمرحاض خارجي، فقد غلبها تحضرها ونشأتها في المدينة، مما منعها من استخدامه، فأخذت تتوغل في أعماق الغابة، كانت تعرف أن هذا التصرف غير مسموح به في الضباب، ولكنها تأمل في أن يحظى الآلهة الصغار بإعفاء من بعض القواعد المعمول بها هنا.

عندما لوحت تالي لخفيرين يحرسان أحد حدود القرية، رد كلٌّ منهما التحية بإيماءة برأسه بشيء من التوتر، وأشاحا ببصرهما عنها وكل منهما يخفي الهراوة التي يحملها وراء ظهره بطريقة تعوزها البراعة، فلا يزال الصيادون يتعاملون معها بحذر، وكأنهم يشعرون بالحيرة لعدم تلقيهم أي عقاب جزاء لمحاولتهم ضربها.

وما إن توغلت داخل الأشجار بضعة كيلومترات فقط حتى اختفت القرية من مجال رؤيتها، ولكن لم يكن يشغلها أن تضل طريقها إلى القرية، فالرياح لا تزال تهب وتحمل إلى أنفها الروائح النفاذة المنبعثة من حفرة المرحاض، فهي لا تزال على مقربة من المكان ويمكنها أن تنادي على الخفيرين إذا ضلت طريقها في نهاية المطاف.

أذابت أشعة الشمس الساطعة الصقيع الذي تكون ليلًا، وتحول إلى ضباب كثيف، وانبعثت من الغابة أصوات متغيرة تشبه تلك التي كانت تسمعها في بيت

والديها القديم حينما لا يكون هناك أحد سواها، وبددت ظلال الأوراق حدود الأشجار الخارجية، حتى صار كل شيء من حولها غير واضح المعالم، وكلما عصفت الرياح رأت بركن عينها أشياء تتحرك. وعاد من جديد الإحساس الذي انتابها أمس بأن هناك من يراقبها، وعثرت على مكان مناسب، وقضت حاجتها بسرعة.

ولكنها لم تعد مباشرة إلى القرية، فمن الحماقة أن تدع خيالها يهرب معها، فالتمتع بلحظات قليلة من الخصوصية يعد ضربًا من الرفاهية هنا، وتساءلت عما يفعله العشاق إذا أراد أحدهم الاختلاء بالآخر، وهل من الممكن أن يخفي أحدٌ سرًا لفترة طويلة في هذه القرية.

لقد تعودت على أن تقضي كل دقيقة تقريبًا على مدار الشهر الماضي مع زين، وشعرت بغيابه الآن، إنها تفتقد الشعور بدفء جسده بالقرب منها، ولكن مشاركة مكان النوم مع ما يقرب من عشرين شخصًا من الغرباء كان بديلًا غريبًا لم تتوقعه.

انتفضت تالي فجأة ثم تجمدت في مكانها، فقد رأت بركن عينها شيئًا يتحرك، شيئًا لا يمت بصلة للتفاعل الطبيعي لضوء الشمس والرياح وأوراق الشجر، فأخذت تمعن النظر في الأشجار.

وترامت إلى سمعها ضحكة انطلقت من قلب الغابة.

إنه أندرو سيمبسون سميث، يسير على الشجيرات المتشابكة فيسحقها بصوت مسموع، وعلى وجهه ابتسامة عريضة.

سألته تالي: «أكنت تتجسس علي؟»

– «أتجسس؟» قالها وكأنه لم يسمع هذه الكلمة من قبل، واستبعدت تالي أن يكون هناك من توصل أصلًا إلى مفهوم التجسس في ظل هذا القدر الضئيل من الخصوصية، وأردف: «لقد استيقظت عندما تركتنا يا يانج بلود، وظننت أنني ربما أتمكن من أن أراكِ ....»

قالت تالي وهي ترفع حاجبًا: «تراني وأنا أفعل ماذا؟»

رد عليها أندرو في خجل: «وأنتِ تطيرين.»

لم تستطع تالي أن تكتم ضحكتها، فمع أنها حاولت كثيرًا أن تشرح لأندرو في الليلة الماضية، هو لم يستوعب مفهوم استخدام الألواح الطائرة، فقد شرحت له أن الآلهة الصغار لا تستخدم العربات الطائرة كثيرًا، ولكنه شعر بالحيرة حيال فكرة وجود أنواع مختلفة من المركبات الطائرة.

بدا عليه أنه تأذى لضحكها، ربما ظن أنها تخفي قدراتها الخاصة عنه فقط لتضايقه.

– «أنا آسفة يا أندرو، ولكنني ظللت أقول لك في الليلة الماضية: إنني لا أطير.»

– «ولكنكِ ذكرتِ في قصتكِ أنكِ كنتِ ستلحقين بأصدقائكِ.»

– «نعم، لكن مثلما قلت لك، لقد تحطم لوحي وهو الآن تحت الماء. وللأسف لم يعد أمامي سوى السير.»

بدا عليه الارتباك للحظة، ربما أدهشته أن الآلات التي تستخدمها الآلهة يمكن أن تتحطم، ثم ابتسم فجأة فبدت أسنانه غير كاملة وتنقصها سن، فبدا كطفل صغير، وقال: «إذن سأساعدك، سوف نسير إلى هناك معًا.»

– «حقًا؟»

أومأ أندرو برأسه وقال: «كل أفراد أسرتي من الرهبان، وأنا خادم الآلهة، مثلما كان أبي.»

كان يتحدث بنبرة محايدة لا تحمل أي انفعالات وهو يقول جملته الأخيرة، وتعجبت تالي من مدى سهولة قراءة وجه أندرو وتحليل تعبيراته، إذ شعرت أن جميع أهل القرية تنعكس مشاعرهم بوضوح على وجوههم، وكأنهم يفتقدون الخصوصية في خواطرهم وأفكارهم مثلما يفتقدونها في طريقة نومهم، وودت أن تعرف هل سبق لهم أن كذب بعضهم على بعض.

بعض الحسان كانوا يكذبون عليهم في مرحلة ما.

– «متى توفي والدك يا أندرو؟ ليس من فترة طويلة، أليس كذلك؟»

رفع أندرو عينيه إليها باندهاش، وكأنها تمكنت من قراءة خواطره بفضل موهبة خارقة، وقال: «منذ شهر مضى فقط، قبيل أطول الليالي.»

ودت تالي لو عرفت ما كان يقصده بقوله أطول الليالي، ولكنها لم تقاطعه.

– «كنت أبحث معه عن مكان به أطلال، فالآلهة الأكبر سنًا تريدنا أن نبحث لها عن أماكن قديمة لكي تعتكف فيها على التأمل، فوجدنا في طريقنا مجموعة من الغرباء.»

– «غرباء؟ مثلما ظننتموني في البداية؟»

– «نعم، ولكننا في تلك المرة لم نجد إلهًا صغيرًا مثلك، بل كانوا عصبة من المغيرين يبحثون عن فريسة، لقد رأيناهم أولًا، ولكن كلابهم اقتفت أثرنا بحاسة الشم، وكان والدي عجوزًا، إذ كان يبلغ الأربعين حين توفي.» وحملت هذه الكلمات شعور أندرو بالفخر.

زفرت تالي ببطء، فأجدادها الثمانية جميعهم لا يزالون أحياء، وجميعهم تجاوزوا المائة بأحد عشر عامًا أو أكثر.

استطرد أندرو كلامه في خفوت يكاد يقترب من الهمس: «لقد وهنت عظامه، التوى كاحله وهو يعبر أحد الغدران ركضًا، واضطررت لأن أتركه وأمضي».

ابتلعت تالي ريقها وانتابها دوار من فكرة أن يفقد المرء حياته لأن كاحله قد التوى فقط، وقالت: «آه، يؤسفني ذلك».

قال أندرو وهو يسحب سكينًا من حزامه: «لقد أعطاني سكينه قبل أن أتركه»، وتمكنت تالي من رؤية السكين عن قرب هذه المرة عكس ما حدث الليلة الماضية، إنها من سكاكين المطبخ ذات الاستخدام الواحد، لها نصل مسنن. وأردف أندرو: «والآن أصبحت راميًا».

أومأت تالي برأسها ببطء، وذكرها منظر السكين الرخيصة التي يحملها أندرو في يده بالطريقة التي كاد أن ينتهي بها أول لقاء لها مع هؤلاء القوم، لقد كادت أن تلقى مصير والد أندرو نفسه. وقالت: «ولكن لماذا؟»

– «تتساءلين عن السبب يا يانج بلود؟ لأنني ابنه».

قالت تالي: «لا، لا أقصد ذلك، لماذا كان الغرباء يريدون قتل والدك؟ أو أي شخص آخر؟»

تعجب أندرو، وكأنها طرحت سؤالًا غريبًا، وقال: «لأن هذا كان دورهم».

– «كان ماذا؟»

هز أندرو كتفيه وهو يرد عليها: «لقد قتلنا واحدًا منهم في الصيف، انتقامًا منهم».

– «قتلتم ... واحدًا منهم؟»

– «لكي ننتقم بعد أن قُتل أحدنا في أوائل الربيع.» ابتسم أندرو ببرود واستطرد: «لقد كنت في تلك المجموعة التي أغارت عليهم».

– «إذن هذا نوع من الثأر؟ ولكن متى بدأ كل ذلك؟»

– «بدأ؟» أخذ أندرو يحملق في سطح نصل السكين المستوي وكأنه يحاول أن يقرأ شيئًا انعكس على معدنها الكليل، وأردف: «لقد ظل الأمر هكذا دائمًا. إنهم غرباء». ابتسم أندرو مستطردًا: «لقد سررت حين علمت أنهم أحضروكِ أنتِ إلى القرية، وليس قتيلًا. فلا يزال هذا هو دورنا ولا يزال أمامي فرصة لأن أتوجه إلى هناك لكي أنتقم لأبي».

وجدت تالي نفسها عاجزة عن الكلام، فقد تحول أندرو في ثوانٍ من ابن حزين على فقد أبيه إلى شخص ... «همجي»، حتى أصابعه أصبحت أكثر شحوبًا عندما أحكم لفها حول السكين فهرب الدم منها.

أشاحت بعينيها عن السكين وهزت رأسها؛ فليس من العدل أن تفكر في أندرو على أنه شخص غير متحضر، إن ما يتكلم عنه أندرو قديم قدم الحضارة نفسها. في مدرستها كانوا يتحدثون عن عادة الثأر، وقد ازداد الأمر سوءًا على يد سكان العصر القديم، الذين اخترعوا أسلحة دمار شامل استخدموها في الحروب، وابتدعوا المزيد من الابتكارات الفتاكة حتى كادوا يدمروا العالم.

ولكن تالي لم تستطع أن تغفل أن هؤلاء الأشخاص مختلفون عن كل من عرفته من قبل، وأجبرت نفسها على التحديق في ملامح أندرو المتجهمة، وسعادته الغريبة بثقل السكين التي في يده.

ثم تذكرت كلمات دكتورة كابل: «إن البشرية سرطان ينتشر بجسد العالم، ولكننا نحن الدواء.» إن العنف هو ما بُنيت المدن بهدف القضاء عليه، وهو من بين عدة أشياء ألغتها العملية الجراحية في أمخاخ الحسان، والعالم الذي نشأت فيه تالي يعد حاجز نار يصد أهوال هذه الحلقة المفرغة، ولكن ها هي الآن تقف أمام الفطرة البشرية ذاتها، وربما هذا بالذات هو ما تهرب إليه.

إلا إذا كانت دكتورة كابل مخطئة، وهناك طريق آخر.

رفع أندرو بصره عن السكين وأعادها إلى حزامه مرة أخرى، وبسط يديه الخاويتين، ثم قال وهو يضحك وقد تهللت أساريره فجأة مرة أخرى: «ولكن ليس اليوم، فاليوم سأساعدكِ في العثور على أصدقائكِ».

زفرت تالي ببطء، وودت للحظة أن ترفض مساعدته، ولكن لم يكن هناك أي شخص آخر يمكن أن تلجأ إليه، والغابات التي تفصلها عن أطلال المدينة القديمة تعج بالممرات الخفية والأخطار الطبيعية وربما بعض الأشخاص الذين قد يرونها من «الغرباء»، حتى لو لم تطاردها أية زمرة مغيرة متعطشة لسفك الدماء، فإصابتها بالتواء في الكاحل فقط وهي في البرية قارسة البرودة قد يودي بحياتها.

إنها بكل بساطة تحتاج إلى أندرو سيمبسون سميث، وهو قد قضى حياته يتعلم كيف يساعد أمثالها، أي الآلهة.

– «حسنًا يا أندرو، ولكن لنرحل اليوم، فأنا في عجلة من أمري.»

– «بالطبع، اليوم.» ومرر أندرو يده فوق الموضع الذي بدأت لحيته تنبت فيه وقال: «هذه الأطلال التي ينتظر بها أصدقاؤكِ؟ أين هي؟»

رفعت تالي عينيها باتجاه الشمس وكانت لا تزال منخفضة في السماء بما يكفي لتدل على الاتجاه الشرقي، وأخذت تجري بعض العمليات الحسابية للحظات ثم

أشارت إلى الشمال الغربي باتجاه المدينة ومن ورائها الأطلال القديمة وقالت: «على بعد أسبوع سيرًا على الأقدام في ذلك الاتجاه».

– «أسبوع؟».

– «ذلك معناه سبعة أيام».

قال أندرو بشيء من التذمر: «نعم، أنا أعرف التقويم الذي تستخدمه الآلهة»، ثم سألها: «ولكن أسبوع كامل؟».

– «نعم، لا يعتبر المكان بعيدًا جدًا، أليس كذلك؟» فالصيادون كانوا يقطعون مسافات شاسعة سيرًا على الأقدام دون كلل الليلة الماضية.

هز أندرو رأسه، وقال وقد ارتسم على وجهه تعبير مفعم بالرهبة: «ولكن ذلك المكان وراء حافة العالم».

الفصل الثامن والعشرون

طعام الآلهة

رحلت تالي هي وأندرو في الظهيرة.

وخرج أهالي القرية بأكملها لكي يودعوهما، مقدمين العطايا والقرابين لتلك الرحلة، ولكن معظم الهدايا كانت ثقيلة مما يحول دون إمكانية حملها، فرفضاها بأدب، ولكن أندرو ملأ حقيبة أمتعته بشرائح اللحم القديد سيئة المنظر التي قدمها لهما الأهالي، وعندما أدركت تالي أن هذه الأشياء البشعة طعام يؤكل، لم تستطع أن تخفي رعبها. والهدية الوحيدة التي قبلتها تالي هي نبلة مصنوعة من الخشب والجلد قدمها إليها أحد الأطفال كان من بين أوائل من انضموا إلى نادي مشجعيها، وتذكرت أنها كانت في صغرها بارعة في استخدام النبال.

أعلن الزعيم مباركته للرحلة علنًا، وقدم اعتذارًا أخيرًا — ترجمه أندرو لتالي — عن إقدامه على ضرب رأس إلهة صغيرة وجميلة مثل تالي بعصاه حتى كاد يحطمها، ولكن تالي أكدت له أن الآلهة الأكبر سنًا لن تعلم شيئًا عن سوء الفهم الذي حدث، فبدت على وجهه أمارات الارتياح المشوب بالحذر، ثم قدم سوارًا مصنوعًا من النحاس المطروق إلى أندرو، اعترافًا بفضل الراهب الصغير في مساعدة الصيادين على تدارك خطئهم.

تورد وجه أندرو فخرًا وهو يتسلم الهدية، وهلل الأهالي المحتشدون وهو يرفعها عاليًا. وأدركت تالي أن وجودها هنا قد سبب مشاكل، فزيارتها المفاجئة أفسدت الأمور شأنها شأن ارتداء زي نصف رسمي في حفلة تنكرية، ولكن مساعدة أندرو لها هدأت من روع الجميع قليلًا، فمن الواضح أن استرضاء الآلهة أهم مهام الراهب، فودت أن تعرف كم عدد الحسان القادمين من المدينة الذين ضايقوا أهل هذه القرية.

ما إن تخطت هي وأندرو حدود القرية، وعاد مرافقوهم من الصغار إلى أمهاتهم اللاتي كن ينادينهم في قلق، حتى قررت أن تسأل بعض الأسئلة المهمة، فقالت: «إذن، كم عدد الآلهة التي تعرفها أنت يا أندرو ... شخصيًا؟»

أخذ أندرو يتحسس ذقنه التي لم تنمُ بعد، وقد بدا عليه الاستغراق في التفكير وقال: «منذ موت أبي لم يأت إلينا أحد من الآلهة سواكِ. لا أحد يعرفني كراهب.»

أومأت تالي برأسها، فقد كان ظنها في محله، فهو لا يزال يحاول أن يحل محل أبيه، وقالت: «نعم، ولكن لهجتك جيدة جيدًا، وأظن أنك لم تتعلم لغتي من أبيك فقط، أليس كذلك؟»

ابتسم أندرو ابتسامة ماكرة وقال: «لم يكن مسموحًا لي قط أن أتحدث مع الآلهة، كنت أستمع فقط وأبي يقوم على خدمتها، ولكن في بعض الأحيان كنت أتكلم معها حينما أرشد أحدها إلى أحد الأطلال أو إلى عش طائر غريب علينا.»

– «أحسنت، إذن ... فيما كنتم تتحدثون؟»

صمت أندرو للحظة، وكأنه ينتقي ما سيقوله بعناية، وأجاب: «كنا نتحدث عن الحيوانات، وأوقات تزاوجها وأنواع الطعام الذي تأكله.»

– «فهمت.» فأي عالم متخصص في علم الحيوان من المدينة سيرحب بأن يكون تحت يده جيش خاص من سكان ما قبل العصر القديم لمساعدته بعمله الميداني، وأردفت: «هل كنتم تتحدثون في أي شيء آخر؟»

– «بعض الآلهة كانت ترغب في معرفة المزيد عن أماكن الأطلال، كما أخبرتكِ، فكنت آخذهم إلى هناك.»

– «بالطبع.» لا بد أن هؤلاء هم علماء الآثار ولا بد أنهم سيحذون حذو المتخصصين في علم الحيوان. قالت تالي: «بالطبع.»

– «والتقيت أيضًا بالدكتور.»

تجمدت تالي في مكانها وقالت: «من؟ الدكتور؟» «قل لي يا أندرو، هل يبدو من يدعى الدكتور ... مخيفًا؟»

قطب أندرو جبينه، ثم ضحك: «مخيفًا؟ لا، فهو جميل مثلكِ، يكاد يصعب النظر إليه.»

تملكها الارتياح، ثم ابتسمت ورفعت حاجبها وقالت: «لا يبدو أنه يصعب عليك النظر إليّ على الإطلاق.»

غض أندرو بصره وقال: «أنا آسف، يا يانج بلود.»

أمسكت تالي بكتفه برفق وقالت: «كف عن هذا، أنا لم أقصد شيئًا يا أندرو، كنت أمزح معك فقط، انظر إليَّ كما ... آآ ... أيًا كان الأمر، وناديني بتالي، اتفقنا؟».

قال أندرو مجربًا ترديد اسمها: «تالي». أنزلت تالي يدها من فوق كتفه، ونظر أندرو إلى الموضع الذي وضعت يدها عليه ثم قال: «أنتِ مختلفة عن باقي الآلهة».

قالت تالي: «أنا آمل أن أكون كذلك بالتأكيد»، ثم سألته: «قل لي، هل هذا الدكتور يبدو طبيعيًا؟ أعني جميلًا؟ أم هل يبدو مثل الآلهة، من أية ناحية من النواحي؟».

– «نعم، إنه يأتي إلى هنا أكثر من الآخرين، ولكنه لا يهتم بالحيوانات أو الأطلال، ولا يسأل إلا عن الأحوال في القرية، من يغازل من، ومن أصبحت حاملًا، وأي من الصيادين يمكن أن يتحدى الزعيم ويبارزه».

– «نعم» حاولت تالي أن تتذكر مسمى تخصص هذا العالم: «عالم إنسا ...»

قال أندرو: «عالم إنسانيات، هكذا يطلقون عليه».

رفعت تالي حاجبها.

وارتسمت ابتسامة عريضة على وجه أندرو. «كان أبي دائمًا يقول إن لي أذنًا جيدة. لقد كانت الآلهة الأخرى أحيانًا تتهكم من الدكتور».

«آها». يبدو أن أهل القرية كانوا يعرفون عن زوارهم من الآلهة أكثر مما كانت الآلهة تعرف عن نفسها. «إذن، لم يحدث أن التقيت بآلهة تبدو ... مخيفة حقًا، أليس كذلك؟».

ضيق أندرو عينيه، وعاد يستأنف سيره، في بعض الأحيان كان أندرو يستغرق وقتًا طويلًا حتى يجيب عن أسئلتها، وكأن التعجل من الأشياء التي لم يعبأ أهالي القرية بها، أجابها: «لا، لم يحدث ذلك، ولكن جد أبي كان يحكي لنا قصصًا عن مخلوقات بحوزتها أسلحة غريبة ووجوهها تشبه وجوه الصقور، وكانت تنفذ إرادة الآلهة، وتشبه البشر، ولكنها تتحرك بطريقة غريبة».

– «مثل الحشرات؟ بسرعة وحركات متوترة؟»

اتسعت عينا أندرو وقال: «إذن، فهم موجودون فعلًا؟ المتميزون؟»

– «المتميزون؟ آه، نحن نسميهم عملاء السلطات الخاصة».

– «إنهم يدمرون أي شخص يتحدى الآلهة».

أومأت تالي برأسها وقالت: «هذا من طبعهم فعلًا».

– «وعندما يختفي الناس يقولون أحيانًا إن المتميزون هم الذين أخذوهم».

رددت تالي وراءه: «أخذوهم؟» ترى إلى أين؟

صمتت تالي وأخذت تحملق في الممر الذي يشق الغابة أمامها. إذا كان جد أندرو الأكبر قد التقى مصادفة بالسلطات الخاصة، إذن فالقائمون على المدينة يعرفون بأمر هذه القرية منذ عشرات السنين، وربما منذ فترة أطول من ذلك. فيبدو أن العلماء الذين استغلوا هؤلاء الناس ظلوا يقومون بذلك منذ فترة طويلة، وليس من المستبعد أن يكون هؤلاء العلماء قد أحضروا عملاء السلطات الخاصة إلى هنا لتعزيز نفوذهم.

فعلى ما يبدو أن تحدي الآلهة أمر ينطوي على مخاطرة.

قضت تالي وقتًا طيبًا وهي تجوب التلال بصحبة أندرو طوال اليوم، وبدأت تتبين آثار أهالي القرية وسط الغابة دون أن يساعدها أندرو، وكأن عينيها قد تعلمتا كيف تريان الغابة بطريقة أفضل.

وعندما حل الليل وجدا كهفًا يمكن أن يقضيا فيه ليلتهما، وبدأت تالي تجمع الأخشاب لإشعال النار، ولكنها توقفت عندما وجدت أندرو ينظر إليها والارتباك يغطي ملامحه. «ماذا هنالك؟»

– «نار؟ سوف يراها الغرباء».

– «نعم، معك حقك، أنا آسفة.» تنهدت تالي وهي تفرك يديها معًا لكي تدفئ أصابعها الباردة. «سوف تجعلنا مسألة الانتقام تلك نقضي بعض الليالي الباردة ونحن نسير في طريق رحلتنا، أليس كذلك؟»

قال أندرو: «إن الشعور بالبرودة أفضل من الموت يا تالي»، ثم هز كتفيه واستأنف حديثه: «وربما لن تستمر رحلتنا طويلًا، فسوف نصل إلى حافة العالم غدًا».

– «نعم، طبعًا.» في النهار عندما كانا يسيران وسط التلال لم تفلح تالي في أن تقنع أندرو أن العالم كوكب محيطه ٤٠٠٠٠ كيلومتر معلق في فراغ لا هواء فيه، وله جاذبية تجعل الجميع يبقون على سطحه، فهذا بالطبع من وجهة نظره جنون، لقد قالوا لها عندما كانت في المدرسة إن الأشخاص الذين كانوا يعتقدون أن العالم كروي يقبض عليهم، وكان الرهبان يقبضون عليهم دائمًا.

تناولت تالي مغلفين من مغلفات كرات اللحم. «على الأقل لن يكون علينا أن نشعل نارًا لكي نحصل على طعام ساخن.»

اقترب أندرو منها، وأخذ يراقبها وهي تملأ منقي المياه. لقد ظل أندرو يتناول اللحم المجفف طوال النهار، كان يتوق لتذوق «طعام الآلهة». أصدر الجهاز صفارة

عندما انتهت مهمة تحضير كرات اللحم، فرفعت تالي الغطاء، وتملكت الدهشة أندرو حينما رأى الأبخرة المتصاعدة من كرات اللحم بعد أن انتفخت حينما تخللها الماء الساخن، ناولته تالي الجهاز. «هيا، لتبدأ أنت.»

لم تضطر تالي لأن تلح في طلبها، فحينما كانت في القرية كان الرجال يأكلون أولًا، والنساء والأطفال يتناولون ما تبقى منهم، ولكن كون تالي إلهة جعلهم يعاملونهما بالطبع على أنها رجل من أشراف القرية، ولكن بعض العادات تندثر تمامًا، فتناول أندرو منقي المياه منها، ومد يده داخله لكي يمسك بواحدة من كرات اللحم، ولكن حينما لامست يده سطح الجهاز انتزعها بسرعة وهو يصيح متألمًا.

قالت تالي: «انتبه، لا تحرق يدك.»

سألها أندرو بصوت منخفض وهو يمص إصبعه: «ولكن أين النار؟»، ورفع منقي المياه بيده ليرى اللهب الذي يشتعل تحته.

– «إنه لهب إلكتروني ... صغير للغاية، هل أنت متأكد من أنك لا تود أن تجرب هذين العودين في تناول الطعام؟»

ظل يحاول أن يلتقط كرات اللحم بالعودين لفترة حتى بردت تلك الكرات، ولكنه تناولها بيده في النهاية حينما فشل في التقاطها بعودي الطعام، وحينما علت وجهه مسحة من خيبة الأمل وهو يمضغها بين أسنانه.

– «ماذا هناك؟»

– «ظننت أن طعام الآلهة سيكون ... أفضل إلى حد ما.»

– «إن هذا هو طعام الآلهة المجفف.»

بعد أن فرغ أندرو تناولت تالي طعامها، ولكن مذاق الشعيرية بالكاري لم يبد شهيًا حينما قارنته بالطعام الذي أكلته في الوليمة ليلة أمس، وتذكرت تالي كيف كانت البرية تضفي على الطعام مذاقًا أفضل بكثير حينما كانت في الضباب، فحتى المحاصيل الطازجة لم تكن تبدو غريبة حينما كانت تُجنى من الأحواض المائية، كان عليها أن توافق أندرو الرأي، فالأطعمة المجففة لا يمكن أن تكون أطعمة إلهية بأية حال من الأحوال.

اندهش الراهب الصغير حينما رفضت تالي أن تنام وجسدها متكور على جسده، فهما في فصل الشتاء، أوضحت له أن الخصوصية سمة من سمات الآلهة، ولكنه لم يستطع أن يتفهم ذلك، وظل يحملق فيها في حزن وهي تمضغ قرص المعجون المنظف للأسنان وتبحث عن ركن بالكهف لتنام فيه وحدها.

استيقظت تالي في منتصف الليل، وشعرت بالندم على غلظة ردها على أندرو، فهي على وشك التجمد من البرودة، وبعد جلسة طويلة وصامتة فندت تالي خلالها موقفها السابق، وتنهدت وزحفت تجاه أندرو لتأوي إلى النوم وهي مستندة إلى ظهره، إنه ليس زين، ولكن الدفء الذي قد يبعث به جسد شخص يستلقي بجانبها أفضل من أن تستلقي وحدها في حزن على الأرض الحجرية وجسدها يرتعد من البرودة.

عندما استيقظت تالي مرة أخرى عند الفجر كانت رائحة الدخان تملأ أرجاء الكهف.

الفصل التاسع والعشرون

حافة العالم

حاولت تالي أن تصرخ، ولكن يدًا وُضِعت بإحكام فوق فمها كتمت صرختها.

وكادت تالي أن تضرب صاحب تلك اليد بقبضتيها في ظل الضوء الخافت الذي لم يمح الظلمة عن الكهف، ولكن شيئًا ما بداخلها أثناها عن ذلك، لقد أدركت أن أندرو هو من يمسك بها، فقد استطاعت أن تشتم رائحته، فبعد ليلتين من النوم بجانبه استطاعت أن تخزن رائحته بذاكرتها وبإمكانها أن تميزها.

هدأت تالي، فأرسلها أندرو.

همست له مستفسرة: «ماذا هناك؟»

– «غرباء، عدد كبير منهم يكفي لإشعال النار.» بدت عليها الحيرة للحظة ثم أومأت برأسها، فلا يمكن أن يتجرأ أحد منهم على إشعال النار خارج قريتهم الآمنة خوفًا من الثأر إلا إذا كانوا مجموعة كبيرة ومسلحة من الرجال.

اشتمت تالي رائحة الهواء الممتلئ بالدخان، فوصلت إلى أنفها رائحة لحم يحترق، وطرقت أذنيها أصوات خشنة منهمكة في بعض الأحاديث، لا بد أن هؤلاء الرجال قد عسكروا بالقرب منهما بعد أن خلدت تالي وأندرو إلى النوم، وهم الآن يطهون طعام الإفطار.

– «ماذا نفعل؟»

– «ابقي أنتِ هنا، وأنا سأرى هل بإمكاني أن أجد أحدهم بمفرده.»

سألته تالي هامسة: «ماذا ستفعل؟»

أجابها أندرو وهو يستل سكين والده: «هذه فرصتي لكي أرد الضربة، وأسجل هدفًا.»

همست تالي: «هدف؟ ما هذا، أهي مباراة كرة قدم؟ سوف تُقتل! فكما قلت لا بد أن هناك الكثير منهم».

قال أندرو متجهمًا: «لن أهاجم إلا واحدًا يكون بمفرده، أنا لست أحمق».

– «انس ذلك الأمر.» أمسكت تالي بأندرو، ولفت أصابعها بإحكام حول معصمه، فحاول أن يسحب يده من بينها ولكن عضلاته المفتولة لم تكن في قوة العضلات التي زودتها بها عملية التحول.

حملق أندرو بها في غضب، ثم تكلم بصوت عالٍ: «إذا تشاجرنا فسوف يسمعوننا.»

– «أنا لا أمزح، اصمت!»

ارتفع صوته مرة أخرى وقال لها: «دعيني أذهب!» فأدركت تالي أنه لن يتردد في أن يصرخ بها إذا اضطر إلى ذلك.

فالشرف يحتم عليه أن يقتل عدوه، حتى إن عرض حياتهما كليهما للخطر. لن يقدم الغرباء في الكهف على قتلها فور رؤيتهم لوجهها الجميل، ولكن أندرو سيقتل إذا أمسكوا بهما، وهو ما سيحدث إذا لم يصمت، لم يكن أمامها سوى أن ترخي قبضتها من حول معصمه.

استدار أندرو مبتعدًا عنها دون أن ينطق بكلمة واحدة وتسلل خارجًا من الكهف وهو يمسك بالسكين في يده.

جلست تالي في الظلام وقد تملكتها الدهشة، وأخذت تعيد في ذهنها المشادة التي دارت بينهما، ماذا كان يمكنها أن تقول له؟

وأي نقاش ذلك الذي يمكنه أن يتغلب على شهوة الثأر تلك الموجودة منذ عقود طويلة؟ لم يكن هناك أمل من هذا النقاش، فربما كانت تلك الشهوة أعمق بكثير من نقاشها معه. تذكرت تالي مرة أخرى حوارها مع دكتورة كابل التي زعمت أن البشر دائمًا يعيدون اكتشاف الحرب، وسوف ينتهي بهم الأمر إلى خوض الطريق الذي خاضه سكان العصر القديم نفسه، إن الجنس البشري هو الوباء الذي أفرزه هذا الكوكب، سواء أكانوا يعرفون ما الكوكب أم لا. إذن ماذا يمكن أن يعالج ذلك سوى عملية التحول؟

ربما يكون مبدأ السلطات الخاصة هو المبدأ الصحيح.

ثنت تالي ركبتيها إلى أعلى ناحية جسدها وجلست داخل الكهف في حزن وهي تشعر بالجوع والعطش، فقد فرغت المياه التي يحملها أندرو بوعائه الجلدي، وليس

أمامها سوى أن تنتظره حتى يأتي، إلا إذا لم يكن سيأتي مرة أخرى، كيف يمكنه أن «يتركها» هنا هكذا؟

لقد كان عليه بالطبع أن يترك أباه مستلقيًا على ظهره داخل أحد جداول المياه الباردة وهو مصاب ومهدد بالقتل المحقق، وأي شخص مر بتجربة مثل تلك ربما كان سيرغب في الانتقام، ولكن أندرو لم يكن يبحث عن الرجال الذين قتلوا أباه، لقد خرج من الكهف ليقتل أيًا من الغرباء، فقتل أي شخص سيرضيه، وهذا ليس منطقيًا على الإطلاق.

بدأت رائحة طهي الطعام تنحسر حتى تراجعت إلى فتحة الكهف، ولم تعد تالي تسمع أي أصوات قادمة من معسكر الغرباء، لم يكن هناك ما يصل إلى أذنيها سوى حفيف الأشجار التي تحركها الرياح.

رأت تالي شخصًا قادمًا من بين الأشجار ...

كان ذلك هو أندرو وقد غطاه الوحل وكأنه كان يزحف على بطنه، ولكن كان نصل السكين التي أمسك بها نظيفًا، ولم تر تالي آثارًا للدماء على يديه، وعندما اقترب منها رأت على وجهه خيبة الأمل، فتملكها الارتياح: «لم يحالفك الحظ؟»

هز أندرو رأسه وقال: «لم أنتقم لوالدي بعد».

- «هيا نرحل أيها العنيد».

قطب أندرو جبينه وقال: «ألن نتناول إفطارنا؟»

تجهمت تالي، فمنذ لحظة كان لا يرغب في شيء سوى أن يترصد لأي من الغرباء حتى يقتله، والآن يبدو كطفل صغير وعدته بتناول الآيس كريم ثم أخذته منه.

- «لقد تأخرنا كثيرًا على الإفطار». هكذا قالت وهي ترفع حقيبة أمتعتها على كتفيها، «أي الطرق يؤدي إلى حافة العالم؟»

سار الاثنان في صمت حتى تجاوز الوقت الظهيرة، وحينما شعرت تالي أخيرًا بالجوع يقرص معدتها توقفت وجهزت أرزًا بالخضراوات لكليهما، فلم تكن في حالة تسمح لها بأن تتحمل مذاق الشرائح المجففة التي لم تقتنع بكونها لحمًا.

حاول أندرو أن يسترضيها فقد ظل يحاول تناول الأرز بعودي الطعام وهو يمزح ويؤلف النكات حول حماقته، ولكنها لم تستطع أن تبتسم، فالبرودة التي تسللت إلى عظامها عندما كان بالخارج محاولاً أن ينتقم لوالده لم تكن قد تبخرت من جسدها بعد.

ليس من العدل بالطبع أن تغضب من أندرو، فهو لا يستطيع في الأغلب أن يتفهم كراهيتها لهذا القتل العشوائي، فقد نشأ وتربى داخل دائرة الانتقام تلك، إنها جزء من حياته التي تعود تقاليدها إلى ما قبل العصر القديم، مثلها مثل النوم وسط أكوام من الأجساد المتكدسة، وقطع الأشجار، وهو لا يستطيع أن يتفهم ما الخطأ في أن يأخذ ثأره، مثلما لا يمكنه أن يرى ما الذي يشعرها بالنفور الشديد من حفرة المرحاض الموجودة على حدود القرية.

إنها مختلفة عن أهل القرية، على الأقل بقدر التغيير الذي حدث بمسار التاريخ البشري، ربما لا يزال هناك أمل.

ولكنها لم تكن ترغب في أن تناقش هذا الأمر مع أندرو، ولا ترغب أيضًا في أن تبتسم في وجهه.

أخيرًا خرجت عن صمتها: «إذن ماذا يوجد وراء حافة العالم؟»

هز أندرو كتفيه وقال: «لا شيء».

– «لا بد أن يكون هناك شيء».

– «إن العالم ينتهي هناك».

– «هل ذهبت إلى هناك من قبل؟»

– «بالطبع، فكل الفتيان يذهبون إلى هناك قبل أن يصبحوا رجالًا بعام واحد».

تجهمت تالي؛ فهذه هي إحدى الصفات الأخرى التي يختصون بها الفتيان دون غيرهم. «إذن كيف يبدو هذا المكان؟ هل هو نهر واسع؟ أم منحدر من المنحدرات؟»

هز أندرو رأسه وقال: «لا، إنه يبدو مثل الغابة، مثل أي مكان آخر، ولكنها النهاية، هناك يقف الأقزام ليتأكدوا من أن أحدًا لن يسير إلى أبعد من ذلك».

– «الأقزام، ما هذا؟»

تذكرت تالي خريطة قديمة كانت معلقة على الحائط في مكتبة مدرستها وهي قبيحة، وقد كتبت عبارة «هنا التنانين» بحروف مزخرفة على كل الفراغات البيضاء الموجودة بها. ربما ليست حافة العالم سوى الخط الحدودي الذي تنتهي عنده خريطة العالم التي يرسمونها في أذهانهم، فهم لا يستطيعون أن يروا شيئًا بعدها، مثلها مثل حاجتهم للانتقام. «حسنًا، لن تكون هذه النهاية بالنسبة لي».

هز أندرو كتفيه وقال: «أنت إلهة».

– «نعم، هذه أنا. كم نبعد عنها الآن؟»

نظر أندرو إلى أعلى نحو الشمس وقال: «سوف نصل إلى هناك قبل حلول الليل».

– «جيد.» فهي لم تكن تود أن تقضي ليلة أخرى باردة وهي ملتصقة بأندرو، إذا أمكنها ذلك.

استمرا في السير لبضع ساعات، لم يريا خلالها أية علامات تدل على وجود غرباء، ولكنهما بدآ يعتادان الصمت، فحتى بعد أن قررت تالي أن تتخلى عن غضبها من أندرو، وجدت نفسها تسير كيلومترات عدة دون أن تنطق بكلمة واحدة. بدا وجه أندرو حزينًا، ربما أحزنه صمتها، أو ربما لا يزال مهمومًا لأنه في الصباح لم يتمكن من قتل أي من الغرباء.

إنه يوم سيئ على كل الأحوال.

قال أندرو «لقد صرنا قريبين الآن.» حينما بدأت أطوال الظلال المنعكسة على الأرض خلفهما تزداد عند اقتراب الغروب.

توقفت تالي عن السير لتشرب، وأدارت بصرها في الأفق، لم تر أي اختلاف بين معالم المكان من حولهما ومعالم الغابة التي كانت تراها كل يوم منذ أن سقطت من السماء. ربما الأشجار هنا أقل كثافة إلى حد ما والمناطق الخالية منها أكثر اتساعًا ويكاد يكون سطحها خاليًا من الحشائش بسبب ازدياد برودة الشتاء، ولكن لم يعد من معالم المكان أنها يمكن أن توحي لأي شخص بأن العالم ينتهي هنا.

حينما واصلا السير كان أندرو يمشي ببطء وكأنه يبحث عن علامات ما بين الأشجار، وينظر أحيانًا إلى التلال البعيدة لكي يسترشد بها، وأخيرًا توقف أندرو وظل يحملق بعينين متسعتين في الغابة.

ركزت تالي بصرها على الغابة لحظة، ثم رأت شيئًا يتدلى من إحدى الأشجار، إنه يشبه دمية على شكل إنسان في حجم قبضة اليد مصنوعة من الأغصان والأزهار المجففة، تتمايل مع النسيم، حتى بدت مثل قزم راقص، بوسع تالي أن ترى المزيد منها على مرمى البصر.

لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تبتسم: «إذن هؤلاء هم الأقزام؟»

– «نعم.»

– «وهذه هي حافة العالم عندك؟» لم يبد المكان مختلفًا لها على الإطلاق، شجيرات متشابكة كثيفة وأشجار تمتلئ أغصانها بالطيور المغردة.

– «ليست هذه نهاية العالم بالنسبة لي، فلم يستطع أحد أن يتجاوزها على الإطلاق.»

– «نعم، صحيح،» هزت رأسها، ربما تكون هذه الدمى هي علامات تحدد بداية منطقة تسكنها قبيلة أخرى فقط. لاحظت أن طائرًا حط بالقرب من واحدة من هذه الدمى وبدأ ينظر إليها بفضول، ربما يتساءل أشيء هي يمكن أن يؤكل.

تنهدت تالي وعدلت من وضع حقيبة أمتعتها التي تحملها على كتفيها، وتقدمت بخطى واسعة في اتجاه الدمية الأقرب، لم يتبعها أندرو، ولكنه سيلحق بها عندما يتبين أن ما يفكر فيه ما هو إلا خرافات لا أساس لها من الصحة. لقد تذكرت أنه منذ قرون بعيدة كان البحارة يخافون من التوغل بمراكبهم في المحيط خوفًا من أن يسقطوا من حافته التي سينتهي حتمًا عندها، حتى حاول أحدهم أن يقوم بذلك، واكتشف أن هناك المزيد من القارات على الجانب الآخر منه.

وعلى الجانب الآخر قد يكون من الأفضل ألا يتبعها أندرو، فآخر شيء تحتاج إليه هو أن تسافر بصحبة شخص مصمم على الانتقام بأي ثمن، إن الأشخاص الذين يعيشون وراء حافة العالم تلك ليسوا مسئولين بالتأكيد عن موت أبيه، ولكن الغرباء جميعهم متساوون عنده، فهو يبتغي قتل أي منهم.

عندما اقتربت تالي أكثر رأت المزيد من الدمى، ما بين الدمية والأخرى بضعة أمتار قليلة. فقد رصت هذه الدمى – التي بدت مثل زينات ذات زخارف رديئة الشكل علقت في إحدى الحفلات الخلوية – لتشكل نوعًا من الحدود الفاصلة. كانت رءوس تلك الدمى معلقة بزوايا غريبة، فجميعها علقت من رقابها، وقد التفت حلقات من الحبال الخشنة المجدولة حول كل واحدة منها، لقد استطاعت أن تفهم لماذا قد يثير هؤلاء الأقزام الخوف في نفوس أهل القرية، وشعرت تالي بقشعريرة خفيفة تسري في أوصالها ...

ثم شعرت بوخز خفيف في أصابعها.

في البداية اعتقدت أن ذراعها قد خدر، فالوخز يمتد من كتفها إلى أسفل ذراعها وكأن هناك إبرًا تنخزها، فعدلت من وضع حقيبة الأمتعة التي تحملها على كتفيها حتى تسمح للدورة الدموية بأن تصل إلى ذراعها، ولكن شعورها بذلك الوخز لم يتوقف.

عندما تقدمت بضع خطوات إلى الأمام بدأت تسمع صوتًا بأذنيها، وبدا لها أن الأرض تضطرب تحت قدميها محدثة رنة داخلية، حتى إنها شعرت بصداها في عظامها، ثم انتشرت عبر جلدها، فالعالم يهتز من حولها، وخيمت على بصرها غشاوة، وكأن عينيها تهتزان على أنغام تلك الرنة التي تسري في جسدها.

تقدمت تالي خطوة أخرى إلى الأمام، علا الصوت وكأن هناك سربًا كاملًا من النحل يطن داخل رأسها.

هنا شيء ما خطأ تمامًا.

حاولت تالي أن تستدير للخلف، ولكنها وجدت أن قوتها تخور وكأن عضلاتها قد انصهرت، وشعرت فجأة أن الحقيبة التي تحملها على كتفيها ثقيلة جدًا وكأنها مملوءة بالأحجار، وأن الأرض تموج من تحت قدميها، فحاولت بصعوبة أن تتراجع خطوة إلى الوراء وهي تترنح، فخفت الصوت قليلًا عندما ابتعدت.

رفعت تالي يدها أمام وجهها، فرأتها ترتعش، ربما عادت الحمى إليها.

أم تراه هذا المكان؟

بسطت تالي ذراعها أكثر، فازدادت الذبذبات التي تشعر بها في أطراف أصابعها، وشعرت بحكة شديدة في بشرتها كما لو كانت أصيبت بحرق شمسي وأهملت علاجه، وكان الهواء نفسه له طنين يعلو أكثر كلما اقتربت يدها سنتيمترًا واحدًا من الدمى، وكأن تلك الدمى تدفع بكم جسدها بعيدًا.

ضغطت على أسنانها، وتقدمت خطوة أخرى إلى الأمام في تحدٍّ، لكن الطنين علا داخل رأسها، وخيمت على بصرها تلك الغشاوة مرة أخرى. شعرت تالي أن الطريق أمام الهواء الذي تتنفسه داخل حلقها مسدود، وكأنه امتلأ بشحنات كهربية جعلت من مروره إلى رئتيها أمرًا مستحيلًا، ف تراجعت تالي مبتعدة عن الدمى وهي تترنح، وسقطت على ركبتيها فور أن خبا صوت الطنين من حولها، ولكنها لا تزال تشعر بوخز شديد بجلدها على امتداد جسدها، وكأن سربًا كاملًا من النمل يجري تحت ملابسها، حاولت تالي أن تتحرك إلى الأمام، ولكن لم يطعها جسدها.

ثم اشتمت رائحة أندرو مرة أخرى، فقد رفعتها يداه القويتان من الأرض وسحبها بعيدًا عن خط الدمى وهو يسندها بيديه، وبدأت العاصفة التي اجتاحت حواسها تخف شيئًا فشيئًا كلما ابتعدت عن الدمى.

هزت تالي رأسها لكي تتخلص من أصداء الذبذبات التي تسمعها، بينما كان جسدها ينتفض من الداخل: «هذا الطنين يا أندرو ... لقد كنت أشعر وكأنني ابتلعت خلية نحل كاملة».

أومأ أندرو برأسه وهو يحملق في يديه: «نعم، إنها تطن مثل النحل».

صاحت تالي: «لماذا لم تخبرني؟»

– «لقد فعلت، فقد أخبرتك عن الأقزام، وقلت لك إنك لن تستطيعي المرور».

تجهم وجه تالي وقالت: «كان يمكن أن تكون أكثر تحديدًا».

قطب أندرو جبينه ثم هز كتفيه وقال: «إنها حافة العالم، لقد كانت دائمًا هكذا، كيف لا تعرفين؟»

تأوهت تالي في يأس ثم تنهدت، فعندما نظرت إلى أقرب دمية إليها لاحظت شيئًا لم تتنبه من قبل؛ فعلى الرغم من أنها بدت مصنوعة من أغصان الأشجار والأزهار الجافة، وهي مواد طبيعية، فلم يبد عليها أي آثار للعوامل الجوية أو تقلبات الطقس، لقد كانت كل الدمى التي رأتها تبدو جديدة تمامًا، لا كدمى يدوية ظلت الأمطار تنهمر فوقها بغزارة لأيام، إلا إذا كان هناك من استبدل كل دمية بأخرى جديدة بعد أن توقف المطر، إن الدمى مصنوعة من مادة أكثر صلابة من الأغصان، ربما من مادة تشبه البلاستيك.

وبداخلها شيء أكثر تعقيدًا من شكلها الخارجي البسيط، هو نظام أمني قوي يستطيع أن يشل حركة البشر، ولكنه في الوقت ذاته نظام ذكي لا يؤذي الأشجار أو الطيور، إنه يهاجم الجهاز العصبي لدى الإنسان ليضرب حدًا فاصلًا حول عالم أهل القرية لا يمكن اختراقه أو عبوره.

لقد صار بإمكان تالي أن تفهم الآن لماذا تركت السلطات الخاصة هذه القرية ولم تتعرض لأهلها، إنهم ليسوا أشخاصًا ضلوا طريقهم إلى الحضارة فسكنوا البرية فقط، إنهم فئران تجارب لمشروع علمي لأحد علماء الإنسانيات، منطقة محاطة بنوع من الحماية، أو ... ماذا كان سكان العصر القديم يطلقون عليها؟

إنها محمية طبيعية، وتالي محتجزة بداخلها.

الفصل الثلاثون

اليوم المقدس

أخيرًا سأل أندرو تالي: «هل لديك طريقة للعبور؟»

تنهدت وهزت رأسها بالنفي، فقد بسطت أصابعها — حيث كانت تقف — وهي لا تزال تشعر فيها بذلك الوخز الذي شعرت به في كل بقعة حاولت أن تقف بها خلال الساعة الماضية، وعلى مرمى بصرها امتد دون انقطاع صف كامل من الدمى التي بدت جميعها تعمل بحالة جيدة.

تراجعت تالي إلى الوراء مبتعدة عن حافة العالم، فخف الوخز الذي تشعر به في يديها. بعد أول تجربة لها لم تكن جربت مرحلة أخرى من مراحل تأثير هذا العائق سوى مرحلة الوخز الذي ينتشر بجسدها — ومرة واحدة تكفيها — ولكنها متأكدة من أن تأثير بقية الدمى لم يكن يقل عن قوة تلك الدمية التي جعلتها تسقط على ركبتيها. إن الآلات الخاصة بالمدينة يمكنها أن تعمل لفترات طويلة، بالإضافة إلى أن قمم الأشجار ستوفر لها كميات هائلة من الطاقة الشمسية.

– «لا. ليس هناك طريقة.»

قال أندرو: «لم أظن أن الأمر سيكون كذلك».

– «تبدو محبطًا.»

– «كنت آمل أن تخبريني ... بما يوجد خلفها.»

قطبت تالي جبينها وقالت: «كنت أظن أنك لا تصدقني بشأن وجود المزيد وراء ذلك المكان».

هز أندرو رأسه بعنف: «لا يا تالي أنا أصدقكِ. حسنًا، ليس فيما يخص الفراغ الذي لا هواء فيه والجاذبية، ولكن لا بد أن يكون هناك شيء ما وراء تلك الدمى، ولا بد أن تكون مدينتكِ التي تعيشين فيها حقيقية».

– «كنت أعيش بها.» هكذا صححت له تالي المعلومة، وهي تبسط أصابعها مرة أخرى، فقد كان الوخز ينتقل خلالها بطريقة غريبة وكأنها ظلت جالسة مستندة على راحة يدها ساعة تقريبًا. تراجعت تالي إلى الوراء وفركت ذراعها، فهي لم تكن تعرف التقنية المستخدمة في هذا العائق، ولكن ربما لا يكون من الجيد لصحتها أن تظل تختبره هكذا، فهي لن تستفيد شيئًا إذا أصيبت بتلف دائم في الخلايا العصبية.

وكانت الدمى الصغيرة التي تدلت من الأشجار تتمايل راقصة مع نسمات الهواء وكأنها تسخر من تالي، فقد حبستها هنا داخل عالم أندرو.

حينئذ تذكرت تالي الحيل التي كانت تقوم بها عندما كانت قبيحة حينما كانت تتسلل من عنبرها لتعبر النهر ليلًا، لقد وصل بها الأمر إلى أنها اقتحمت إحدى الحفلات التي أقيمت في القصر الذي سكن به بيريس بعد أن أصبح من الحسان، ولكن تلك المهارات التي كانت تتمتع بها أيام القبح ليس بالضرورة أن تفيدها هنا، فمثلما أخبرتها دكتورة كابل أثناء الحوار الذي دار بينهما، المدينة مكان يسهل فيه القيام بالحيل والخدع، فنظام الأمن هناك مصمم بحيث يسحق القدرة الإبداعية لدى القبحاء، وليس لكي يدمر الجهاز العصبي لأي شخص.

ولكن هذا العائق صمم من أجل أن يقي المدينة خطر أهل القرية الذين ينتمون إلى حضارة ما قبل العصر القديم، ولكي يحمي أيًا من الأشخاص الذين قد يتجولون بالأماكن الطبيعية المحيطة بالمدينة ويقيمون بها المعسكرات، ومن ثم فلن تخضع تلك الدمى للحيل البسيطة التي تعرفها تالي، وعندما استعادت ذكرى تلك الحيل القبيحة التي كانت تقوم بها، وجدت نفسها تلتقط النبلة التي أعطاها لها أحد أطفال القرية من جيبها الخلفي. وعلى الرغم من أن احتمال نجاح هذه الطريقة في خداع العائق الذي يحيط بحافة العالم ربما يبدو بعيدًا فالتعامل المباشر مع تلك الدمى أمر يستحق التجربة.

وجدت تالي حجرًا مسطحًا أملس، فوضعته في النبلة، وترامى إلى سمعها أزيز الحبل الجلدي وهي تشده إلى الوراء ثم أرسلته في الهواء، ولكن الحجر سقط على مسافة متر تقريبًا قبل أن يصل إلى أقرب دمية لها.

– «أترى، ذلك لأنني لم أستخدمها منذ فترة.»

قال أندرو: «يانج بلود، هل هذا تصرف حكيم؟»

ابتسمت وقالت: «هل تخشى أن ينكسر العالم؟»

– «الروايات تقول إن الآلهة وضعت تلك العلامات هنا لتحدد الحافة التي ينتهي عندها عفوها عن أخطائنا.»

– «نعم، حسنًا. إن هذه العلامات تشبه لافتات كتب عليها «ممنوع الدخول» أو بالأحرى «ممنوع الخروج»، لكي تبقيكم داخل مكانكم هذا. إن العالم يمتد مسافات شاسعة بعد تلك الحافة، صدقني يا أندرو ولكن هذه خدعة لكي لا تعرفون ذلك.»

حول أندرو نظره بعيدًا، وظنت تالي أنه سيستمر في جداله معها، ولكنه بدلًا من أن يفعل ذلك جثا على ركبته والتقط صخرة بحجم قبضته، وسحب ذراعه إلى الوراء، وحدد هدفه ثم قذفها تجاه الدمى، عرفت تالي أن تلك الصخرة ستصيب هدفها منذ أن فارقت قبضة يد أندرو، وبالفعل ارتطمت الصخرة بأقرب الدمى إليهما، فجعلتها تدور مما ضيق الحبل حول رقبتها، ثم دارت الدمية في الاتجاه الآخر، وهي تلف مثل دمية النحلة البلاستيكية.

علقت تالي على تصرفه: «لقد كان ذلك تصرفًا شجاعًا».

هز أندرو كتفيه وقال: «كما قلت يا يانج بلود أنا أصدق ما تقولين، ربما هذا المكان ليس هو حافة العالم فعلًا، وأنا أريد أن أرى ماذا وراءه».

«عظيم». تقدمت تالي وبسطت يدها أمامها، ولكن لم يكن هناك أي تغيير فتحركت الذبذبات بأطراف أصابعها نتيجة الطاقة الكامنة في الهواء، وبدأ الوخز يتنقل أعلى ذراعها، وكان هناك سربًا من النمل يزحف فوقه، حتى اضطرت أن تسحب ذراعها بعيدًا، فمن المؤكد أن نظامًا أمنيًا مصممًا لكي يعمل عشرات السنين في البرية، ويصمد أمام العواصف الثلجية والحيوانات الجائعة وشحنات البرق؛ لم يكن ليتأثر إذا ضرب ببضع صخور.

قالت وهي تفرك أصابعها لكي تعيد إليها الحيوية: «إن الأقزام لا يزالون يقومون بمهمتهم، أنا لا أعرف كيف أعبر هذا المكان يا أندرو، ولكن محاولتك جيدة».

كان أندرو يحملق في يده الخاوية، وكأنه مندهش بعض الشيء من إقدامه على تحدي شيء صنعته الآلهة.

– «إنه شيء غريب أن يرغب أحد في أن يعبر حافة العالم، أليس كذلك؟»

ضحكت تالي: «مرحبًا بك في عالمي، ولكنني آسفة يا أندرو لأنني جعلتك تقطع كل هذه المسافة دون فائدة».

– «لا عليك يا تالي، فقد سررت لرؤية ذلك.»

حاولت تالي أن تقرأ تعبيرات وجهه، إنها تحمل مزيجًا من الارتباك والانفعال، «سررت لرؤية ماذا؟ أن تراني وأنا أتعرض إلى خطر الإصابة بتلف خطير بالخلايا العصبية؟»

هز أندرو رأسه وقال: «لا، النبلة التي بحوزتك».

– «معذرة؟ ماذا قلت؟»

– «عندما أتيت إلى هنا وأنا فتى، شعرت وكأن الأقزام يزحفون بداخلي، ووددت أن أهرب عائدًا إلى البيت.» نظر أندرو إليها واستأنف حديثه ومعالم الحيرة لا تزال تكسو وجهه: «ولكنكِ أردتِ أن ترميهم بصخرة. وأنتِ لا تعرفين بعض الأشياء التي يعرفها أي طفل، ولكنكِ متأكدة للغاية من شكل هذا ... الكوكب، وتتصرفين وكأنكِ ...» بدأ صوته يخفت شيئًا فشيئًا وهو ينطق بكلماته الأخيرة ثم صمت، فما يعرفه من لغة المدينة لم يكن يصلح للتعبير عما أراده.

– «وكأنني أرى العالم مختلفًا؟»

«نعم»، هكذا رد عليها أندرو، كان يتكلم بلهجة خافتة. وقد ازدادت المشاعر التي عبأت ملامحه عمقًا. ودار في خلد تالي أن هذه هي أول مرة يكتشف فيها أندرو أن الناس قد يرون الحقيقة من أوجه مختلفة تمامًا. فحياة أهل القرية، التي يقضونها في مواجهة الهجمات التي يشنها الغرباء والحصول على ما يقيم أودهم، لا يتوفر بها الكثير من الوقت لتلك الخلافات الفلسفية.

– «هكذا سيكون إدراكك العالم فور أن ترحل من هذه الحمية، أعني ما إن تعبر إلى ما وراء حافة العالم ... بالمناسبة هل أنت متأكد من أن هؤلاء الأقزام سيعترضون طريقنا في أي اتجاه نسير فيه؟»

أومأ أندرو برأسه: «كان أبي يرى أن العالم دائرة يمكننا أن نقطع محيطها في سبعة أيام، هذه هي أقرب حافة إلى قريتنا، ولكن أبي أكمل السير في إحدى المرات حول محيط العالم».

– «عظيم، هل تظن أنه كان يبحث عن مخرج؟»

قطب أندرو جبينه وقال: «لم يقل ذلك قط».

– «حسنًا، أعتقد أنه لم يعثر على طريقة للخروج. إذن كيف يمكن أن أهرب من عالمك وأصل إلى أطلال المدينة القديمة؟»

صمت أندرو لحظة، ولكن تالي كان بإمكانها الآن أن تفهم أنه يفكر، وبعد أن أخذ أندرو كعادته مهلة طويلة للتفكير في سؤالها، قال في النهاية: «عليكِ أن تنتظري حتى قدوم اليوم المقدس التالي».

– «حتى ماذا؟»

– «الأيام المقدسة هي الأيام التي يزورنا فيها الآلهة، وهم يأتون في عربات طائرة.»

قالت تالي وهي تتنهد: «أحقًا ذلك؟ أنا لا أعرف هل اكتشفت ذلك بعد أم لا، ولكن ليس من المفترض أن أكون هنا، وإذا رآني من يكبرني سنًا من الآلهة، فسوف يُقبض عليّ».

ضحك أندرو وقال: «أتظنين أنني أحمق يا تالي يانج بلود؟ لقد استمعت إلى الحكاية التي قصصتها عن البرج، وفهمت أنكِ طردتِ».

– «طردت؟»

قال أندرو وهو يتحسس حاجبها الأيسر: «نعم، يا يانج بلود، فأنتِ تحملين هذه العلامة».

«علامة؟ آه، نعم ...» هذه هي أول مرة تتذكر فيها تالي الوشم المنقوش على جبهتها منذ أن قابلت أهل القرية.

– «وهل تظن أنها تعني شيئًا؟»

عض أندرو على شفته، وأرخى بصره عن حاجبيها وقال: «لست متأكدًا، بالطبع، فوالدي لم يعلمني شيئًا عن هذه الأمور، ولكن في قريتي نضع علامات على أجساد السارقين فقط».

– «نعم، جيد، وهل تظن أنني على الأرجح ... ممن يحملون تلك العلامات؟»

فبدا الإحراج على وجه أندرو وأشاحت تالي بوجهها عنه، ليس غريبًا هذا الارتباك الذي أصاب أهل القرية عندما رأوها، فقد ظنوا أن الوشم المنقوش على جبهتها هو وصمة عار. «اسمع يا أندرو، هذا فقط من باب مسايرة الموضة، دعني أوضح لك بعبارة أخرى، إنه شيء فعلته أنا وأصدقائي لكي نتسلى به، هل لاحظت أن تلك النقوش تدور في بعض الأحيان».

– «نعم، عندما تكونين غاضبة، أو عندما تبتسمين أو تكونين منهمكة في التفكير».

– «هذا صحيح، حسنًا هذا يسمى «تيقظًا». على أية حال، لقد هربت ولم يطردني أحد».

– «وهم سيرغبون في إعادتك إلى وطنك، لقد فهمت. اسمعي، عندما يأتي الآلهة يتركون عرباتهم الطائرة عندما يسيرون على أقدامهم في الغابة ...»

طرفت تالي بعينيها، ثم ارتسمت على وجهها ابتسامة.

– «وأنت سوف تساعدني على أن أسرق إحداها من الآلهة الأكبر سنًا».

لم يجبها أندرو، ولكن هز كتفيه فحسب.

– «ألن يغضبوا منك؟»

تنهد أندرو وهو يتحسس ذقنه التي لم تكن لحيته قد نبتت فيها بعد وأخذ يفكر فيما قالته له، وقال: «علينا أن نكون حذرين، ولكنني لاحظت أن الآلهة ليسوا من ... الأخيار، فلقد هربتِ أنتِ من برجهم على أية حال».

«حسنًا، حسنًا، إنهم آلهة أشرار.» ضحكت تالي ضحكة خافتة وقالت: «ماذا سيقول والدك يا أندرو بشأن ذلك؟»

هز أندرو رأسه: «لست متأكدًا، ولكنه ليس هنا، فأنا الراهب الآن».

عسكر أندرو وتالي في تلك الليلة بالقرب من العائق الأمني، فقد قال أندرو إنه لن يخاطر أحد بالاقتراب من الدمى ليلاً، سواء من الغرباء أو غيرهم، فهناك الكثير من الأساطير المرعبة حول هذا المكان، وقبل كل هذا لن يرغب أحد في أن يلحق الأذى بخلايا مخه حينما يستيقظ ويتعثر في الظلام ليقضي حاجته.

وفي الصباح بدأ أندرو وتالي رحلة العودة إلى القرية، ولكنهما لم يتخذا طريقًا مباشرًا، فقد ترويا الغابة أثناء هذه الرحلة وحاولا تفادي الأراضي التي يصطاد بها الغرباء. استغرقت هذه الرحلة ثلاثة أيام، عرض خلالها أندرو على تالي معرفته بالغابة، التي جمعت بين الأشياء التقليدية التي يعرفها رجل القرية العادي والمعرفة العلمية التي اكتسبها من الآلهة، فقد كان يفهم ما هي دورة المياه، ويعرف القليل عن السلسلة الغذائية، وظلت تالي تجادله حول فكرة وجود الجاذبية طيلة يوم كامل، ولكنها تراجعت في النهاية.

عندما اقتربا من القرية كان لا يزال أمامهما أسبوع على موعد اليوم المقدس القادم، فطلبت تالي من أندرو أن يبحث لها عن كهف، على أن يكون قريبًا من المنطقة الخالية من الأشجار التي يوقف الآلهة عرباتهم الطائرة بها، لكي تختبئ فيه، فقد قررت أن تبقى بعيدًا عن أنظار أهل القرية، فإذا لم يعرف أحد منهم أنها عادت فلن يتمكنوا من إفشاء سرها إلى الآلهة الأكبر سنًا، وهي لا تود أن يتحمل أي منهم مسئولية إيواء أحد الهاربين.

أما أندرو فقد توجه إلى القرية، وهو يعتزم أن يخبر أهلها كيف عبرت يانج بلود حافة العالم وذهبت إلى ما وراءها، من الواضح أن أهل القرية يعرفون كيف يمكن أن يكذبوا، أو على الأقل بإمكان الرهبان أن يقوموا بذلك.

والقصة التي سيرويها ستتحول إلى حقيقة فور أن تضع تالي يدها على عربة طائرة، إنها لا تستطيع أن تقودها بمهارة، ولكنها تلقت الدورة التدريبية نفسها التي يتلقاها كل القبحاء في سن الخامسة عشرة عن معلومات الأمن والسلامة، والتي تعلموا فيها كيف يطيرون في اتجاه مستقيم، وكيف يوجهون عرباتهم الطائرة، وكيف يهبطون هبوطًا اضطراريًا، وهي تعرف أن بعض القبحاء كانوا يذهبون إلى قيادة العربات الطائرة متحايلين بحيلهم على القواعد التي تمنع ذلك، وقد أقروا بسهولة قيادة تلك العربات، إنها تعرف بالطبع أن كل ما فعلوه هو أنهم كانوا يسرقون عربات مزودة بنظام خاص بغير المتخصصين يرشد العربة إلى الطيران فوق الشبكة المعدنية الموجودة تحت المدينة فقط.

ومع ذلك إلى أي حد يمكن أن تكون قيادة العربات الطائرة أكثر صعوبة من الطيران باستخدام الألواح؟

لم تستطع تالي أن تمنع نفسها من التفكير في أحوال الأشقياء الآخرين وهي تنتظر بالكهف خارج القرية، كان من السهل عليها أن تنسى أمرهم أثناء تلك المحاولات الصعبة التي قامت بها لكي تنجو بنفسها، ولكنها الآن لا تفعل شيئًا طوال اليوم سوى أن تجلس وتنظر إلى السماء، وكاد القلق يفقدها صوابها، هل استطاع الأشقياء أن يهربوا من عملاء السلطات الخاصة الذين تعقبوهم؟ وهل عثروا على سكان الضباب الجديد بعد؟ والأهم من ذلك، كيف حال زين؟ كل ما يمكنها فعله هو أن تأمل أن تكون مادي قد تمكنت من علاج ذلك الخلل الذي طرأ على صحته.

تذكرت تالي الدقائق الأخيرة حينما كانا معًا قبل أن يقفز من المنطاد، والكلمات الأخيرة التي قالها لها. لم يكن هناك مثيل لتلك اللحظة بين ذكرياتها مبعثرة الشتات، فقد شعرت بأن ما يجيش بداخلها شيء أبعد من التيقظ، وأن ما فعلوه أكثر بكثير من مجرد حيلة تتحايل على القواعد، لقد كانت تشعر وكأن العالم سيتغير إلى الأبد.

ولكنها الآن لا تعرف حتى هل لا يزال زين على قيد الحياة أم لا. ساءت حالتها أكثر حينما فكرت في أن الأشقياء قد يكونون قلقين بشأنها مثلما هي قلقة عليهم، يتساءلون هل أمسكت السلطات بها مرة أخرى، أم أنها لقيت حتفها عندما قفزت من المنطاد، لقد كانوا يتوقعون أن يقابلونها في الأطلال منذ أسبوع مضى، لا بد أنه قد خطر ببالهم الآن أسوأ ما يمكن أن يحدث لها. ترى بعد كم من الوقت سيستسلم زين، ويقرر أنها قد ماتت؟ وماذا لو أنها فشلت في أن تخرج من هذه المحمية؟ فلا يمكن أن تبقى الثقة في مجيئها حية بداخل أي منهم إلى الأبد.

عندما كانت تالي تحاول أن تستريح من حالة القلق تلك التي كادت تفقدها عقلها، كانت تمضي بعض الوقت في التفكير في عالم أندرو المحاط بحاجز منيع. كيف خرج هذا العالم إلى الوجود؟ ولماذا سمحت السلطات لأهل القرية بالعيش هنا خارج المدينة، في حين دمرت الضباب بلا شفقة ولا رحمة؟ ربما لأن أهل القرية قد حبسوا داخل خرافات قديمة يصدقونها، وعلقوا بدوامات الثأر التي تعود جذورها إلى الماضي، في حين عرف الضبابيون حقيقة المدن وعمليات التحول. ولكن لماذا تترك السلطات مثل هذه الثقافة الهمجية موجودة على وجه الأرض، إذا كان الهدف الأوحد من الحضارة هو كبح جماح العنف والنزعات التدميرية داخل النفس البشرية؟

كان أندرو يزورها كل يوم ويحضر معه بعض حبات الجوز والخضراوات الجذرية لكي تتماشى مع طعام الآلهة المجفف الذي تتناوله، وظل أندرو يجلب معه شرائح اللحم المقدد حتى قررت أن تجربها، لم يكن مذاقها يختلف عما كانت تبدو عليه، مالحة مثل عشب البحر وأكثر صلابة من نعل حذاء قديم، ولكنها كانت تقدر [illegible] الأخرى وتقبلها.

وفي المقابل كانت تالي تقص عليه حكايات عن وطنها، وخاصة تلك التي كانت تبين كيف أن كل شيء في مدينة الآلهة لم يكن مثاليًا كما تقتضي المنزلة الإلهية المثالية. فقد شرحت له الأمور التي تخص القبحاء وعملية التحول، وكيف أن جمال الآلهة ما هو إلا خدعة تكنولوجية. لم يستطع أندرو أن يفهم الفرق بين السحر والتكنولوجيا، ولكنه كان يستمع بانتباه. لقد ورث أندرو عن أبيه ميله إلى التشكك الإيجابي، وقد اتضح لها أن تجارب والده مع الآلهة لم تخلف راهبًا عجوزًا مفعمًا بالاحترام.

كانت رفقة أندرو في بعض الأحيان تصيبها بالإحباط، فأحيانًا يقفز ببصيرته وفهمه للأمور إلى حدود بعيدة، وأحيانًا أخرى يبدو لها في غباء شخص يرى أن العالم مسطح، وخاصة حينما يكون الأمر متعلقًا بسلطة الفتيان المطلقة، وهو ما تضيق به ذرعًا. كانت تعرف أن عليها أن تتفهم الوضع وتقدره أكثر، ولكن كل ما كانت ترغب فيه هو أن تقلل من تكاسل أندرو الزائد عن الحد، فكونه نشأ وسط معتقدات ثقافية تعد النساء من الخدم لا يتفق مع الخطة المرسومة، فهي نفسها قد أدارت ظهرها إلى كل الأشياء التي نشأت على وجودها، على غرار الحياة الخالية من أي عناء أو جهد، والجمال المطلق والكامل، والحصار الذي يضرب حول عقول الحسان فيسلبها التيقظ والقدرة على التفكير الجاد.

فقد بدا لها أن بإمكان أندرو أن يتعلم كيف يطهو الدجاج الذي سيأكله.

ربما لم تكن العوائق التي أحاطت بعالم تالي واضحة مثل أولئك الأقزام المعلقين بالأشجار، ولكن الهروب منها على القدر نفسه من الصعوبة. تذكرت كيف ارتعب بيريس عندما نظر إلى البرية وهو داخل المنطاد، وأصبح فجأة لا يرغب في أن يقفز منه ويخلف وراءه كل ما عرفه طوال حياته. حيثما نولد تتقولب عقولنا وتطوقنا معتقداتنا من كل جانب، ولكن على كل منا أن «يحاول» على الأقل أن ينمي عقله بطريقته الخاصة، وإلا سينتهي بنا الحال إلى العيش داخل منطقة محمية محاصرة بالحواجز يعبد أهلها مجموعة من الآلهة السخفاء.

جاءوا في الفجر في ميعادهم تمامًا.

سمعت تالي هدير عربتين مارتين من فوقها، إنهما من الطراز الذي تستخدمه السلطات الخاصة نفسه، كل منها مزود بأربع مراوح رافعة تحملها عبر الهواء، وهذه العربات تسبب كثيرًا من الضجة أثناء الطيران، لقد هاجت الرياح وعصفت بأغصان الشجر بعنف وكأن هناك عاصفة، وتصاعدت سحابة من الغبار حول مكان هبوط العربات، والتي استطاعت تالي أن تراها من قمة الكهف الذي تختبئ به، ثم بعد ذلك بدأت أصوات طنين المراوح الرافعة تخبو لترتفع صيحات الطيور المذعورة.

لقد بدت أصوات الماكينات القوية غريبة على أذني تالي بعد أن قضت أسبوعين تقريبًا بالبرية لم تسمع خلالهما سوى صوت الطبيعة، فقد خيل إليها أنها أصوات محركات آتية من عالم آخر.

تسللت تالي نحو المنطقة الخالية من الأشجار في ضوء الفجر، وكانت تتحرك في سكون تام، لقد كانت تتدرب على السير في الطريق المؤدي إلى تلك المنطقة كل صباح، حتى صارت تعرف كل شجرة ستقابلها في الطريق، هذه هي المرة الوحيدة التي سيقابل فيها الآلهة الأكبر سنًا شخصًا يعرف كل حيلهم.

اختبأت تالي وأخذت تراقب حافة المنطقة الخالية من الأشجار، لقد كان هناك أربعة من شباب الحسان يفرغون حمولة مخازن العربات، ويخرجون أدوات حفر وكاميرات طائرة وأقفاصًا بها حيوانات التجارب، ثم وضعوا كل الأشياء في عربات يد. بدا العلماء مثل أشخاص في معسكر، يرتدون ملابس شتوية ثقيلة، ويعلقون مناظير حول رقابهم، وتتدلى من أحزمتهم زجاجات المياه. وكان أندرو قد أخبرها

أنهم لا يقضون أكثر من يوم واحد، ولكنهم بدوا وكأنهم مستعدين للبقاء لأسابيع، تساءلت أيهم يكون «الدكتور».

كان أندرو يعمل مع الحسان الأربعة، ويساعدهم وهم يرتبون معداتهم، فهو راهب متعاون. عندما انتهى تحميل المعدات على العربات جميعها دفعها أندرو معهم إلى الغابة مخلفين تالي وحدها مع العربات الطائرة. رفعت تالي حقيبة الأمتعة على ظهرها، وتقدمت نحو المنطقة الخالية من الأشجار بحذر، هذا هو أصعب جزء في الخطة، فهي لم تكن تعلم أنظمة الحماية الملحقة بالعربات الطائرة. إنها تأمل ألا يكون العلماء قد استخدموا نظامًا آخر سوى أنظمة الإشراف الخاصة بالأطفال، تلك التي تستخدم الشفرات البسيطة التي تمنع الأطفال من الطيران بالعربة، فالعلماء لن يظنوا بالطبع أن أهل القرية سيعرفون الحيل نفسها التي تعرفها فتاة نشأت في المدينة مثل تالي.

إلا إذا كانوا قد تلقوا تحذيرات بشأن وجود أشخاص هاربين بالمنطقة ...

هذا [illegible]، لا أحد يعرف أن التيار قد دفع تالي إلى هنا من دون لوحها الطائر، وهي لم تر مركبة طائرة واحدة منذ الليلة التي غادرت فيها المدينة. إذا كان عملاء السلطات الخاصة يبحثون عنها فلن يبحثوا هنا.

وصلت تالي إلى إحدى العربات الطائرة وكان باب مخزن المعدات مفتوحًا، فألقت نظرة خاطفة على المخزن من الداخل، ولكنها لم تجد شيئًا سوى بعض القطع من الإسفنج الخاص بالتعبئة تتحرك مع النسيم الهادئ، وتقدمت بضع خطوات قليلة فوجدت نفسها عند نافذة كابينة الركاب التي كانت خالية هي الأخرى، فرفعت يدها وأمسكت بمقبض الباب.

حينئذ سمعت صوت رجل ينادي من الخلف.

تجمدت تالي في مكانها، فبعد أسبوعين من النوم في العراء، تمزقت ملابسها وتراكمت عليها الأوساخ، ولذلك قد يظن من يراها من بعيد أنها من أهل القرية، ولكنها إذا استدارت فسيفضح وجهها الجميل أمرها.

ناداها الصوت مرة أخرى بلغة أهل القرية، ولكن طبقة ذلك الصوت بدا بها كبرياء السلطة، ويتضح من خشونة الصوت أن صاحبه من قدامى الحسان الذين تقدم بهم العمر.

واقترب صوت وقع أقدامه منها، هل ينبغي أن تدفع بنفسها داخل العربة الطائرة وتحاول أن تهرب بها مبتعدة عنه؟

خبت الكلمات عندما اقترب منها الرجل أكثر، فقد تبين أن ملابسها المتسخة هي ملابس سكان المدينة.

استدارت تالي خلفها.

كان الرجل يعلق منظارًا حول رقبته وزجاجة مياه في حزامه، مثله مثل الآخرين، وقد انطبعت علامات الدهشة على وجهه الذي بدت عليه علامات السن. لا بد أنه كان يجلس داخل عربة طائرة أخرى، ويتحرك بسرعة أبطأ من الآخرين، ولذلك أمسك بها.

صرخ الرجل وقد عاد إلى لغة المدينة: «يا إلهي! ماذا تفعلين هنا بالخارج؟»

رمشت تالي بعينيها، وظلت صامتة لحظة وملامح وجهها الجميل خالية من أي تعبيرات: «كنا في المنطاد».

– «منطاد؟»

– «تعرضنا لحادث ما، ولكنني لا أتذكر بالضبط ...»

تقدم الرجل بخطوة إلى الأمام، وحرك أرنبة أنفه ليشمها، فعلى الرغم من ملامح وجهها الجميل كانت رائحتها تشبه رائحة الهمج، وقال: «أظن أنني رأيت بعض النشرات الإخبارية التي تتحدث عن مناطيد ضلت طريقها، ولكن ذلك كان منذ أسبوعين، لا يمكن أن تكوني مكثتِ هنا كل ...» نظر الرجل إلى ملابسها الممزقة وحرك أرنبة أنفه مرة أخرى.

– «ولكنني أظن أنكِ مكثتِ هذه المدة بالفعل.»

هزت تالي رأسها. «أنا لا أعرف كم من الوقت مر».

– «يا لكِ من مسكينة». أفاق الرجل من الدهشة التي أصابته، وتحول إلى رجل من مسني الحسان مفعم بالاهتمام نحوها. «أنتِ بخير الآن، أنا دكتور فالين.»

ابتسمت تالي ابتسامة حسناء، فقد أدركت أن هذا الرجل هو «الدكتور». فلو كان معنيًا بمراقبة سلوك الطيور لما عرف غالبًا لغة أهل القرية، إنه الرجل الذي يملك في يده زمام الأمور.

قالت: «إني أشعر كأنني أتخفى هنا بالخارج منذ زمن بعيد، فالكثير من هؤلاء الأشخاص المجانين هنا بالخارج.»

هز الرجل رأسه وكأنه لا يزال عاجزًا عن أن يصدق كيف استطاعت فتاة صغيرة من المدينة أن تبقى على قيد الحياة كل هذه الفترة في ذلك المكان. «نعم، فمن الممكن أن يكونوا خطرين فعلًا.»

– «من حسن حظك أنك لم تصادفيهم.»

– «من يكونون؟»

– «إنهم ... جزء من دراسة مهمة جدًا.»

– «دراسة؟ عن ماذا؟»

ضحك الرجل ضحكة خافتة وقال: «حسنًا، هذا موضوع معقد للغاية. ربما ينبغي أن أخبر أحدًا أننا عثرنا عليكِ، فأنا متأكد من أن الجميع متلهفون للاطمئنان عليكِ. ما اسمكِ؟»

– «ماذا تدرسون هنا خارج المدينة؟»

رمش الرجل بعينيه، وقد تملكته الحيرة من أن واحدة من صغار الحسناوات تطرح عليه الأسئلة بدلًا من أن تبكي تلهفًا على العودة إلى منزلها.

– «حسنًا، إننا ندرس مبادئ معينة تخص ... الطبيعة البشرية.»

– «بالطبع، مثل العنف؟ الرغبة في الانتقام؟»

قطب الرجل جبينه وقال: «نعم، يمكن القول بذلك، ولكن كيف ...؟»

– «لقد ظننت ذلك.» كل شيء تكشف أمامها فجأة. «إنكم تدرسون العنف، ولذلك ستحتاجون إلى مجموعة من الأشخاص الذين يحيون حياة وحشية يملؤها العنف. أليس كذلك؟ هل أنت عالم إنسانيات؟»

كان الارتباك لا يزال يعلو وجهه وهو يجيبها: «نعم، ولكنني أيضًا طبيب، طبيب بشري. ألَتِ واثقة من أنكِ بخير؟»

تكشفت أمامها فجأة حقيقة ساطعة: «أنت طبيب مختص بالمخ.»

– «في الحقيقة يطلقون علينا أطباء الأمراض العصبية.» استدار دكتور فالين بحذر لكي يمسك بمقبض باب العربة الطائرة وقال: «ولكني ربما ينبغي أن أقوم بتلك المكالمة، أنا لم أحصل على اسمكِ.»

– «أنا لم أبلغك به.» وألجمته نبرة حديثها تمامًا.

قالت: «لا تلمس هذا الباب.»

استدار الرجل لكي يواجهها مرة أخرى، وبدأ يفقد اتزان ورزانة كبار الحسان: «ولكنكِ ...»

– «حسناء؟ فكر مرة أخرى.» ابتسمت واستأنفت حديثها: «أنا تالي يانج بلود، وعقلي قبيح للغاية، وسوف آخذ عربتك.»

من الواضح أن «الدكتور» يخشى الهمج غير المتمدنين، حتى إن كانوا من الحسان.

فقد سمح باحتجازه داخل مخزن إحدى العربات الطائرة، وأرسل شفرات الإقلاع إلى العربة الأخرى، وقد كان نظام الحماية الملحق بالعربة بسيطًا للغاية، وبإمكانها أن تتحايل عليه دون مساعدة أحد، ولكن ذلك وفر عليها الوقت. بالطبع كان التعبير الذي علا وجه دكتور ڤالين وهو يعطي تالي شفرات الإقلاع ممتلئًا بالليونة والمهادنة اللتين يتصف بهما الحسان، لقد كان يتعامل مع أهل القرية من وراء هالة الألوهية التي كانت تبث فيهم الخشية والرهبة، ولكنه فور النظر إلى السكين التي مع تالي أدرك مَن منهما يصدر الأوامر.

أجاب الرجل عن بعض الأسئلة الأخرى التي سألتها تالي، حتى ذهبت كل الشكوك التي كانت تراودها بشأن الهدف من هذه المحمية. لقد كان هذا هو المكان الذي طورت فيه عملية التحول، ومنه حصل العلماء على أول من خضعوا للاختبارات الطبية. إن الهدف من الجروح التي يحدثونها بأنسجة المخ هو تقويض نزعات العنف، فمن سيكون أصلح لتجاربهم من أشخاص يدورون في حلقة دموية مفرغة من أجل الأخذ بالثأر؟ فالقبائل المحتجزة داخل الحلقة التي تحيط بها الأقزام — وكأنهم أعداء محتجزون داخل غرفة واحدة ويتعطشون للفتك بعضهم البعض — سيكشفون عن كل شيء يود أن يعرفه العلماء حول أصل تلك النزعة لسفك الدماء في الطبيعة البشرية.

هزت تالي رأسها، يا له من مسكين أندرو، فالعالم الذي يعيش فيه بأكمله ليس إلا تجربة، وقتل والده في الصراع لا يعني شيئًا.

توقفت تالي للحظة وهي داخل العربة الطائرة قبل أن تقلع بها، لكي تعود نفسها على استخدام أزرار التحكم، ولم تختلف عن تلك الموجودة بعربات المدينة، ولكن عليها أن تتذكر أن تلك العربة ليست لغير المتخصصين، فقد تطير نحو أحد الجبال، إذا طلبت منها الإشارات ذلك، ولهذا يجب أن تتوخى الحذر عند الطيران فوق الأبراج العالية الموجودة بأطلال المدينة القديمة.

أول شيء فعلته هو أنها عطلت نظام الاتصال قبل أن تقلع من الغابة، فهي لم تكن ترغب في أن تخبر العربة السلطات بالمدينة عن مكانها.

– «تالي!»

حملقت تالي عندما سمعت تلك الصيحة وهي تطل من الزجاج الأمامي للعربة، لقد كان ذلك هو أندرو، وقد جاء بمفرده.

خرجت تالي متسللة من الباب الخاص بالسائق وهي تلوح لأندرو بيدها ليصمت مشيرة إلى العربة الأخرى.

وهمست له وهي تتحدث على عجل: «لقد احتجزت الدكتور، لا تجعله يسمع صوتك. ماذا تفعل هنا؟»

نظر أندرو إلى العربة الطائرة الأخرى بعينين متسعتين وقد أدهشته فكرة أن هناك إلهًا محتجزًا داخل العربة، وهمس: «لقد أرسلوني لأرى أين هو، لقد قال إنه سيلحق بنا في الحال».

– «حسنًا، هو لن يأتي، وأنا على وشك الرحيل.»

أومأ أندرو برأسه: «طبعًا، إلى اللقاء يا يانج بلود».

ابتسمت وقالت: «إلى اللقاء، لن أنسى أبدًا كل ما قدمته لي».

كان أندرو يحدق بعينيها، وقد كست وجهه ملامح الرهبة المعتادة من الحسان. «وأنا أيضًا لن أنساك.»

– «لا تنظر إليّ هكذا.»

– «هكذا، كيف ذلك يا تالي؟»

– «وكأنني ... [illegible] بشر. لسنا إلا أشخاصًا يا أندرو.»

أرخى أندرو بصره وهو يومئ برأسه ببطء قائلًا: «أنا أعرف».

– «لسنا بشرًا مثاليين للغاية، فبعضنا أسوأ مما يمكنك أن تتخيل، منذ وقت طويل ونحن نؤذي أهلك إيذاءً شديدًا، لقد استخدمناكم من أجل مصالحنا.»

هز أندرو كتفه وقال: «وماذا يمكننا أن نفعل؟ أنتم أقوياء للغاية».

– «نعم، نحن كذلك.» أمسكت تالي بيده وقالت: «ولكن لا تتوقف عن محاولة اجتياز الأتزام، فالعالم الحقيقي فسيح للغاية، ربما تتمكن من الذهاب بعيدًا فتتوقف السلطات الخاصة عن البحث عنك، وأنا سأحاول ...» ولكن تالي لم تكمل وعدها، ستحاول أن تفعل ماذا؟

ارتسمت ابتسامة على وجه أندرو ورفع يده لكي يلمس الوشم المنقوش على جبهتها. «أنت الآن يقظة.»

أومأت تالي برأسها وهي تبتلع ريقها.

– «سوف ننتظركِ يا يانج بلود.»

رمشت تالي بعينيها، ثم احتضنته دون أن تنطق بكلمة واحدة، وتسللت عائدة إلى العربة الطائرة وأدارت مراوحها الرافعة، وعندما علا طنين المحركات، شاهدت

الطيور وهي تتفرق مبتعدة عن المنطقة الخالية من الأشجار؛ إذ تملكها الرعب من الزئير الذي أطلقته ماكينة الآلهة.

عاد أندرو للوراء مبتعدًا عن العربة.

بدأت العربة تعلو في الهواء فور أن لمست تالي أزرار التحكم، وسرت الهزة التي انبعثت من المحركات الممتلئة بالطاقة إلى جسدها، فارتعدت عظامها. وكانت المراوح الرافعة تصفع قمم الأشجار من حولها فتهيج الأغصان، ولكن العربة ارتفعت في الهواء بانتظام، وظلت تحت سيطرتها.

نظرت تالي إلى أسفل حينما تجاوزت العربة الأشجار، فرأت أندرو يلوح لها وقد ابتسم كاشفًا عن أسنانه المعوجة التي بدت الفراغات بينها واضحة، وابتسامته لا تزال تحمل بين طياتها الأمل. إنها تعرف أن عليها أن تعود مثلما قال أندرو، فليس أمامها أي خيار آخر، فلا بد أن يساعد أحدٌ الأهالي لكي يغادروا هذه المنطقة المحمية، وليس هناك أحد يمكن أن يفعل لهم ذلك سوى تالي.

أطلقت تالي تنهيدة، فهناك على الأقل صفة واحدة لحياتها لم تتغير، وهي أنها دائمًا تزداد تعقيدًا.

الفصل الحادي والثلاثون

الأطلال

عندما وصلت تالي إلى البحر، كانت الشمس لا تزال تشق طريقها لترتفع من بين السحب المنخفضة التي ملأت الأفق، وقد انعكس ضوؤها من بين تلك السحب على صفحة المياه مضفيًا عليها لونًا ورديًا.

انعطفت تالي تجاه الشمال بجهازها الطائر مستديرة ببطء واعتدال، مثلما توقعت هذه العربة القادرة على الطيران خارج حدود الشبكة المعدنية للمدينة لديها قابلية عالية لتنفيذ أي شيء تطلبه منها تنفيذًا قد يثير الذعر، فقد فاجأتها السرعة التي استدارت بها العربة عندما انعطفت بها أول مرة، حيث اصطدمت رأسها بالنافذة الجانبية للسائق من شدة قوة الانعطاف، أما هذه المرة فقد تنعطف بهدوء.

رويدًا رويدًا ارتفعت العربة، فاستطاعت تالي أن ترى أطراف المدينة القديمة وأطلالها، لقد قطعت الطريق إلى الأطلال في أقل من ساعة واحدة وهي تطوي السماء طيًا بعربيتها، في حين أنها كانت ستحتاج إلى أسبوع كامل إذا كانت لتقطع تلك المسافة سيرًا على الأقدام.

حينما لاح لها الهيكل القديم المتعرج للعبة القطار الأفعواني انعطفت بعربيتها، وهي تميل إلى داخل المدينة.

كان الهبوط أسهل جزء في تلك المهمة، فقد جذبت تالي ذراع الطوارئ، تلك الذراع التي يخبرون الأطفال بأن عليهم استخدامها إذا أصيب السائق بأزمة قلبية أو توفي أثناء القيادة، توقفت العربة أوتوماتيكيًا وبدأت تهبط إلى أسفل، واختارت منطقة مستوية، وهي إحدى ساحات الانتظار الإسمنتية العملاقة التي أنشأ سكان المدينة القديمة العديد منها من أجل عرباتهم الأرضية. استقرت العربة فوق الأرض الممتلئة بالحشائش، وفتحت تالي باب العربة في اللحظة نفسها التي اصطدمت فيها

بالأرض وتوقفت: فلو أن العلماء الآخرين عثروا على «الدكتور» وأجروا مكالمة طارئة إلى أجهزة المدينة فستكون القوات الخاصة قد خرجت بالفعل للبحث عنها، وكلما كانت المسافة التي تفصلها عن العربة المسروقة أكبر كان ذلك أفضل.

بدت أطلال أبراج المدينة القديمة أمامها، وأعلاها كانت على بعد ساعة إن قطعت تالي الطريق سيرًا على الأقدام. من المفترض أن الآخرين سبقوها إلى هنا منذ أسبوعين تقريبًا، ولكنها تأمل ألا يكونوا قد فقدوا الأمل في وصولها أو أن يكونوا قد تركوا لها رسالة بأية طريقة.

من المؤكد أن زين سيكون في انتظارها في أعلى بناية بالمدينة، فإذا كان احتمال ظهورها لا يزال قائمًا، فلن يختار زين الرحيل.

إلا إذا كان الهروب قد جاء متأخرًا.

حملت تالي حقيبة الأمتعة على كتفيها وبدأت السير.

كانت الشوارع الخربة مليئة بالأشباح.

لم تكن تالي قد تجولت في المدينة من قبل، فقد كانت دائمًا تجوبها مستقلة أحد الألواح الطائرة على ارتفاع عشرة أمتار على الأقل، مما كان يجنبها رؤية العربات المحترقة على الأرض. ففي آخر أيام الحضارة القديمة انتشر وباء مُصنع في كافة أرجاء العالم، لم يكن يصيب البشر ولا الحيوانات، بل يهاجم النفط فقط، فقد كان يتكاثر داخل خزانات الوقود الخاصة بالعربات الأرضية والطائرات النفاثة، فتبدأ خصائص النفط المصاب في التحول ببطء، فيشتعل النفط المتحول بفعل هذا الوباء عندما يلامس الأكسجين، وتنتشر خلايا البكتيريا الجرثومية في الهواء بفعل الدخان المنبعث من حرائق النفط المفاجئة تلك، لتصل إلى المزيد من خزانات الوقود وحقول البترول حتى أصبحت كل ماكينات العصر القديم الموجودة على وجه الأرض مصابة بذلك الوباء.

على ما يبدو لم يكن سكان العصر القديم يحبون السير على الأقدام فعلًا، فحتى بعد أن اكتشفوا تأثير الوباء على النفط، لجأ المواطنون المذعورون إلى عرباتهم الأرضية الغريبة المحمولة على عجلات مطاطية لكي يهربوا إلى البرية، فإذا دققت تالي النظر فسيكون بإمكانها أن ترى الهياكل العظمية المفتتة من بين بقع الزيت التي لطخت زجاج نوافذ العربات المتكدسة فوق حطام شوارع المدينة. وعدد قليل فقط من الأشخاص هداهم تفكيرهم السليم إلى الخروج من المدينة «سيرًا على أقدامهم»

ومكنتهم قوتهم من تحمل كارثة انهيار العالم الذي كانوا يعيشون به. أيًا كان الشخص الذي صنّع هذا الوباء، فقد كان يعرف بالتأكيد مواطن ضعف سكان العصر القديم.

تمتمت تالي إلى الهياكل القابعة وراء نوافذ العربات: «يا لكم من أغبياء!»، ولكن إقدامها على سبهم لم يقلل من إحساسها بأن مكروهًا ما بات وشيكًا، تبعثه فيها تلك الهياكل المتهالكة لموتى العصر القديم، فالجماجم القليلة التي لم تتحطم تحملق فيها بتعبيرات صماء.

وكلما توغلت تالي في المدينة الهامدة أكثر تزايدت أطوال البنايات أكثر وأكثر، فقد كانت هياكل تلك البنايات المصنوعة من الصلب ترتفع منتصبة أمامها وكأنها هياكل عظمية لمخلوقات ضخمة انقرضت منذ زمن بعيد. انعطفت تالي مع أحد الطرق المتعرجة عبر الشوارع الضيقة بحثًا عن أطول بناية في المدينة، فقد كان من السهل عليها أن تتعرف على موضع هذا البرج الضخم من فوق سطح لوحها الطائر، أما من فوق الأرض فالمدينة تبدو مثل متاهة متداخلة الطرق. انعطفت تالي فرأته أمامها، كتل إسمنتية قديمة ملتصقة بعوارض فولاذية صُفّت معًا لتشكل برجًا شاهق الارتفاع، وكانت النوافذ الخالية تحملق بها من أعلى وبدت من خلالها قطع من السماء التي لمع بها ضوء الشمس، إن هذا بالتأكيد هو المكان الذي تبحث عنه، فقد تذكرت كيف أخذتها شاي إلى قمته في أول مرة خرجت معها إلى أطلال المدينة القديمة، ولكن أمامها مشكلة واحدة فقط.

كيف ستصعد؟

فقد بليت الأجزاء الداخلية من المبنى مع مرور الوقت، فلم يعد هناك درجات سلم يمكن الصعود عليها، وحتى الأدوار الداخلية للمبنى انمحت معالمها تقريبًا. إن الهيكل الفولاذي للمبنى كان يعمل بتناغم ممتاز مع الروافع المغناطيسية للألواح الطائرة، ولكن بدون هذه الألواح لا يستطيع المرء أن يتسلق مبنى كهذا من دون أدوات حقيقية لتسلق الجبال. إذا كان زين أو سكان الضباب الجديد قد تركوا لها رسالة فسوف تكون هناك أعلى البرج، ولكن ليس أمامها أية طريقة للوصول إليها.

حينئذ باغتها الشعور بالإرهاق فجلست على الأرض، إن هذه البناية مثلها مثل البرج الذي كان يراودها في أحلامها، بلا سلالم ولا مصاعد، ومثلما فقدت تالي مفتاح البرج في حلمها فقدت لوحها الطائر الذي كان هو مفتاحها الوحيد للوصول إلى قمة هذه البناية، كل ما استطاعت أن تفكر فيه هو أن تعود سيرًا إلى العربة المسروقة

وتطير بها إلى هنا، ربما تتمكن من أن تقترب بها من المبنى مسافة تمكنها من أن تتشبث بالهيكل الفولاذي وتتسلقه، ولكن من الذي سيمسك بالعربة لكي تظل معلقة في الهواء في وضع ثابت حتى تقوم بذلك؟ وللمرة المليون تتمنى تالي لو أن لوحها الطائر لم يتحطم. نظرت إلى أعلى وأخذت تحملق في البرج الشاهق، ربما لا يوجد أحد هناك بالأعلى؟ ماذا لو وجدت نفسها بعد أن قطعت كل هذا الطريق لا تزال وحدها!

هبت على قدميها وصرخت بأعلى صوتها: «مرحبًا!»

ترددت أصداء صيحتها عبر الأطلال، ففزعت مجموعة من الطيور تقف فوق أحد الأسطح البعيدة وطارت في الهواء.

«مرحبًا! هذه أنا!»

خبت أصداء صوتها، ولكنها لم تسمع أية إجابة عن ندائها، وعندما بح صوتها من الصياح جثت على ركبتيها لتخرج شعلة آمنة من حقيبة أمتعتها، فالنار ستكون واضحة للغاية بين ظلال البنايات المفرغة من الداخل. أضاءت تالي الشعلة وأمسكت بها مبعدة حسيس لهيبها عن وجهها، ثم صاحت مرة أخرى: «هذه أنا... تالي يانج بلود!»

تحرك شيء فوقها في السماء.

طرفت بعينيها حتى تختفي البقع المضيئة التي خلفها الوهج أمامهما، ثم حملقت في السماء الزرقاء التي سطعت فيها الشمس. كان الهواء يحمل جسمًا بيضاويًا صغيرًا مبتعدًا به عن المبنى الشاهق، ثم بدأ حجم هذا الجسم البيضاوي يكبر شيئًا فشيئًا، إنه سطح سفلي لأحد الألواح الطائرة. هناك شخص يهبط إلى أسفل!

ألقت تالي بالشعلة فوق كومة من الأحجار، وبدأ قلبها يخفق بعنف، ثم أدركت فجأة أنها لا تعرف أي شيء عن هوية هذا الشخص الذي هو الآن في طريقه إلى أسفل لكي يلتقي بها. يا لها من بلهاء، ربما يكون أي شخص قد استقل هذا اللوح الطائر الذي يهبط من أعلى.

إذا كان عملاء السلطات الخاصة قد أمسكوا بالأشقياء الآخرين وجعلوهم يتحدثون فسوف يعرفون أن هذا هو المكان الذي خططوا لأن يلتقوا فيه، وهذا يعني أن هروبها الأخير من المدينة على وشك أن ينتهي في لحظة خاطفة.

حاولت أن تهدأ من روع نفسها، ففي النهاية هذا «هو» لوح طائر، ولوح واحد فقط. فإذا كان عملاء السلطات الخاصة سيقبعون فوق قمة البرج بانتظارها كانوا سيندفعون بلا شك من كل حدب وصوب، مستخدمين مجموعة كاملة من الألواح الطائرة، وفي كل الأحوال ليس هناك جدوى من هلعها هذا، فهي لن تتمكن الآن من الهروب على قدميها، كل ما يمكنها فعله هو أن تنتظر. في أثناء هبوط اللوح الطائر ببطء على مسافة قريبة من الهيكل المعدني للمبنى انبعث أزيز مسموع من الشعلة الآمنة ثم خبت تمامًا، حينئذ ظنت أنها رأت وجهًا يحدق فيها من فوق حافة اللوح الطائر مرة أو مرتين، ولكن ضوء الشمس الذي سطع في السماء جعل ملامحه غير واضحة، فلم تستطع أن تتعرف عليه.

لم يعد يفصل بينها وبين اللوح الطائر سوى عشرة أمتار فقط، حينها استجمعت شجاعتها وصاحت مرة أخرى: «مرحبًا؟» ولكن صوتها بدا مرتعشًا حينما وصل إلى أذنيها.

سمعت شخصًا يرد عليها: «تالي ...» إنها تعرف ذلك الصوت.

استقر اللوح الطائر على الأرض بجانبها، لتجد نفسها تتطلع إلى وجه في منتهى القبح: جبهة بارزة للغاية وابتسامة تكشف عن أسنان معوجة، وندبة صغيرة على هيئة خط أبيض يمر بأحد الحاجبين، حملقت تالي في تلك الملامح وهي تطرف بعينيها في ظلال المدينة المهدمة القاتمة التي تحيط بها.

قالت بصوت خافت «ديفيد؟»

الفصل الثاني والثلاثون

وجوه

بالطبع، كان يحدق بها.

حتى لو لم تكن قد صرخت باسمها عاليًا، فديفيد يعرف صوت تالي، وقد كان ينتظرها، فلا بد أنه عرف مَن كان هنا بالأسفل من أول صيحة أطلقتها، ولكنه يحدق بها وكأنه يرى أمامه شخصًا آخر.

نادته تالي مرة أخرى: «ديفيد، هذه أنا».

أومأ ديفيد برأسه، وهو لا يزال عاجزًا عن الكلام، ولكن تالي عرفت أن هيبة حسنها لم تكن هي ما عقدت لسانه، فعيناه المثبتتان على وجهها بدتا وكأنهما يبحثان عن شيء ما، وكأنهما يحاولان أن يعرفا ماذا تركت عملية التحول من ملامحها القديمة، ولكن التردد والحيرة ظلا عالقين بملامحه التي بدت عليها مسحة من الحزن.

كان وجه ديفيد أكثر قبحًا من الصورة التي تتذكرها، فذلك الأمير القبيح الذي كان يراودها في أحلامها لم تكن ملامحه غير المتناسقة شديدة التنافر هكذا، ولا أسنانه التي لم تصلحها أي من جراحات التجميل معوجة إلى هذا الحد، ولم تكن البقع اللونية التي أخفت بياضها واضحة مثلما ترى الآن. بالطبع لم تكن العيوب التي بدت على وجه ديفيد صارخة مثل تلك البادية على وجه أندرو، ولم يكن أكثر قبحًا من سوسي أو ديكس، وهما من أطفال المدينة الذين توافرت لهم منذ الصغر أقراص المعجون المنظف للأسنان واللاصقات الواقية من الشمس.

ولكن، مع كل شيء هذا هو «ديفيد».

حتى بعد تلك المدة التي قضتها مع أهل القرية، الذين تنتشر الندوب على وجوه الكثير منهم وتختفي الأسنان من أفواه كثيرين أيضًا، كانت ملامح وجهه مصدمة

لها، ليس لأنه بشع أو منفر، فهو لم يكن كذلك، ولكن لأنه ببساطة لم يكن مثيرًا للإعجاب.

ليس أميرًا قبيحًا، بل هو قبيح فقط.

والغريب أنه مع توارد تلك الخواطر على ذهنها فقد تدافعت أخيرًا الذكريات التي خمدت طويلًا بداخلها إلى رأسها مرة أخرى، فهذا هو «ديفيد»، الذي علمها كيف تشعل نارًا، وكيف تنظف الأسماك وتطهيها، وكيف تهتدي بالنجوم في سفرها، لقد عملا معًا جنبًا إلى جنب، وسافرا معًا وحدهما طيلة أسابيع، وهو من ضحت تالي بحياتها في المدينة من أجل أن تبقى معه بالضباب. كانت تود أن تعيش معه إلى الأبد.

كل هذه الذكريات لم تمحها عملية التحول، بل ظلت كامنة بداخلها، مختبئة في مكان ما بعقلها. ولكن لا بد أن الحياة التي عاشتها وسط الحسان قد غيرت بداخلها شيئًا أعمق بكثير من تلك الذكريات: نظرتها له، وكأن من يقف أمامها لم يعد هو ديفيد الذي عرفته.

ظل الاثنان صامتين للحظة.

وفي النهاية تنحنح ديفيد وقال: «ربما ينبغي علينا أن نبدأ بالتحرك، ففي بعض الأحيان يرسلون بالدوريات الاستكشافية في هذا الوقت من اليوم».

أجابته تالي وهي تنظر إلى الأرض: «حسنًا».

– «يجب أن أفعل شيئًا أولًا.» أخرج ديفيد من جيبه جهازًا يشبه العصا ومرره بسرعة فوق ملابسها، فلم يصدر أي صوت.

قالت: «ما من أي أجهزة تعقب دقيقة مختبئة بملابسي؟».

هز ديفيد كتفيه وقال: «لا بد أن نكون حريصين جدًا، ليس لديك لوح طائر؟».

هزت تالي رأسها وقالت: «لقد تحطم أثناء الهروب».

– «يا إلهي، إن تحطم لوح طائر يحتاج إلى صدمة قوية».

– «لقد سقطت من مسافة بعيدة.»

ابتسم ديفيد وقال: «هذه هي تالي التي أعرفها. كنت أعرف أنكِ ستظهرين رغم كل شيء، لقد قالت أمي إنكِ غالبًا ...» ولم يكمل ديفيد حديثه.

– «أنا بخير.» رفعت رأسها ونظرت إليه وهي لا تعرف كم الكلمات التي يجب أن تقولها. «شكرًا على انتظارك.»

استقل الاثنان لوحه الطائر، إن تالي الآن أطول من ديفيد، ولذلك وقفت وراءه واضعة يديها حول خصره.

كانت تخلت عن سواريها الثقيلين الواقيين من الارتطام قبل رحلتها الشاقة التي صحبها فيها أندرو سيمبسون سميث سيرًا على الأقدام، ولكن جهاز الاستشعار الخاص بها لا يزال معلقًا حول حلقة البطن، ولذلك بإمكان اللوح الطائر أن يستشعر مركز الجاذبية الخاص بها ويتوازن تحت ثقل الوزن الزائد المحمل عليه، ومع ذلك فقد حلقا ببطء في البداية.

إن ملمس جسده مألوف لها، وطريقة انحنائه عند الانعطاف باللوح الطائر لم تبد لها غريبة، حتى رائحته توقظ ذكرياتها وتعيدها إلى الحياة بكل قوة (لم تكن تالي ترغب في أن تفكر في رائحتها هي، ولكن لم يبد على ديفيد أنه لاحظ ذلك.)، واندهشت تالي من كم الذكريات المتدافعة إلى رأسها، وكأن ذكرياتها عنه كانت تنتظر لحظة وقوفه معها لكي تتدفع كلها كالسيل إلى ذهنها. هنا على سطح هذا اللوح الطائر عندما كان ديفيد يستدير مبتعدًا عنها، كان جسدها يصرخ بها لكي تتشبث به أكثر. كانت تود أن تسترجع كل الأفكار السخيفة الحسان التي راودتها حينما لمحت وجهه أول مرة، ولكن هل كان ذلك فقط لأنه قبيح؟ إن كل الأمور قد تغيرت أيضًا.

تالي تعرف أن عليها أن تسأل عن الآخرين، وخاصة عن زين. ولكنها لم تستطع أن تخرج اسمه من بين شفتيها، إنها عاجزة عن أن تنطق بأية كلمة. فالوقوف فقط مع ديفيد فوق سطح اللوح الطائر كان أكثر مما تستطيع أن تتحمل.

ظلت تالي تتساءل لماذا كان كروي هو من أحضر لها الدواء، ففي الرسالة التي كتبتها تالي، كانت على يقين من أن ديفيد هو من سينقذها. فمع كل ما حدث كان «هو» أمير أحلامها.

هل لا يزال غاضبًا من خيانتها للضبابيين؟ هل يلقي بمسئولية موت والده عليها هي؟ لقد عادت إلى المدينة من أجل أن تصبح من الحسان حتى تتمكن من اختبار فاعلية الدواء في تلك الليلة نفسها التي اعترفت فيها لديفيد بكل شيء، لم تتح أمامها الفرصة لكي تعبر له عن كم الأسف الذي حملته بداخلها، إنهما حتى لم يودع أحدهما الآخر، ولكن إذا كان ديفيد يكرهها فلماذا هو من ينتظرها بالأطلال؟ وليس كروي، وليس زين.

عاد دوار التشوش العقلي الذي يصيب الحسان إليها مرة أخرى، ولكن دون أن تشعر بتلك النشوة التي كانت تنتابها أيام الحسن.

قال ديفيد: «إن المكان ليس بعيدًا، ربما على بعد ثلاث ساعات من الطيران بلوح محمل باثنين هكذا»

لم تجبه تالي.

– «لم أفكر في أن أحضر لوحًا آخر، كان ينبغي أن أعرف أنه لن يكون معكِ واحد ما دمتِ استغرقتِ كثيرًا من الوقت حتى تصلي إلى هنا.»

– «أنا آسفة.»

– «هذه ليست مشكلة كبيرة، سيكون علينا فقط أن نحلق بسرعة أقل.»

– «لا، أنا آسفة على ما قمت به.» صمتت تالي ولم تزد عن ذلك، فقد أرهقتها كثيرًا تلك الكلمات الأخيرة حتى استطاعت أن تخرجها من بين شفتيها.

توقف ديفيد عن تسيير اللوح فهدأت سرعته حتى توقف تمامًا بين كتلتين من المعدن والإسمنت يشكلان الإطار الخارجي لمبنيين مفرغين من الداخل، وقفا هناك فترة ليست قصيرة، ولا يزال ديفيد يعطيها ظهره، وضعت تالي وجنتها فوق كتفه وشعرت بسخونة شديدة في عينيها.

في النهاية تحدث إليها: «كنت أظن أنني سأعرف ما ينبغي أن أقوله فور أن أراكِ»

– «نسيت أمر هذا الوجه الجديد، أليس كذلك؟»

– «لم أنس ذلك تمامًا، ولكنني لم أظن أنه سيكون إلى هذا الحد ... ليس أنتِ.»

– «وأنا أيضًا» هكذا قالت تالي، ثم أدركت أن كلماتها لن تبدو منطقية له، فمع كل ما حدث لم يتغير وجه ديفيد.

استدار خلفه بحرص وهو يقف على سطح اللوح الطائر ولمس حاجبها، حاولت تالي أن تنظر إليه ولكنها لم تستطع.

شعرت بالوشم فوق حاجبها ينبض تحت أصابعه.

«هل يقلقك ذلك؟ إنها ليست إلا علامة خاصة بالأشقياء، تدلنا على المتيقظين.»

– «نعم، وشم يتحرك مع ضربات القلب، لقد أخبروني عن ذلك، ولكنني لم أتخيل أن على جبهتك واحدًا، إنه شديد ... الغرابة.»

– «ولكنني لا أزال كما أنا من داخلي»

– «أنا أشعر بذلك ونحن نطير معًا.» استدار ديفيد، فمال اللوح إلى الأمام ثم بدأ يتحرك مرة أخرى، كانت تالي الآن تتمسك به بقوة أكبر، فهي لم تكن تريده أن يستدير ليواجهها مرة أخرى، فحتى من دون تلك المشاعر المتضاربة التي تهيج بداخلها كلما نظرت إليه، كان الموقف صعبًا عليها، وربما كان هو أيضًا لا يحب النظر إلى ملامح وجهها المرسومة بالمدينة مع عينيها الواسعتين والوشم المتحرك المنقوش على جبهتها. «فقط أخبرني يا ديفيد، لماذا أحضر كروي الدواء إليّ بدلًا منك؟»

– «لقد تعقدت الأمور، كنت أنوي أن آتي إليك حينما أعود.»

– «تعود؟ من أين؟»

– «كنت أستطلع الأمور في مدينة أخرى، بحثًا عن مزيد من القبحاء لينضموا إلينا، حينما هاجمتنا السلطات الخاصة. وبدءوا يمشطون مساحات ضخمة من أطلال المدينة القديمة بحثًا عنا.» أمسك ديفيد بيدها وضمها إلى صدره بقوة. «قررت أمي أن تخرج من المدينة فترة، ومنذ ذلك الوقت ونحن نختبئ بالبرية.»

تنهدت تالي وقالت: «وتركتموني عالقة بالمدينة، أظن أن ذلك لم يمثل أية مشكلة عادي.» كانت تالي لا تزال تشك بعض الشيء في أن أم ديفيد لا تزال تحملها مسئولية كل ما حدث من تدمير الضباب ووفاة آز.

قال ديفيد معترضًا: «لم يكن لديها أي اختيار آخر، فلم يسبق أن هاجمت السلطات الخاصة بمثل هذه الأعداد، والبقاء هنا كان أمرًا في غاية الخطورة.»

أخذت تالي نفسًا عميقًا وتذكرت حوارها القصير مع دكتورة كابل. «أظن أن السلطات الخاصة كانت تعين عملاء جددًا في الفترة الأخيرة.»

– «ولكنني لم أنس أمركِ يا تالي، فقد جعلت كروي يتعهد بأن يحضر إليك القرصين ورسالتكِ التي كتبتها إذا أصابني أي مكروه، حتى أتأكد من أنه ستتاح أمامكِ فرصة للهروب، وعندما بدءوا يحزمون أمتعتهم مخفين ملامح الضباب الجديد قبل أن يغادروا ظن أننا لن نعود لفترة، فتسلل إلى المدينة.»

– «طلبت منه أن يأتي؟»

– «بالطبع، لقد كان يحل محلي، فلم أكن لأتركك هناك بمفردكِ أبدًا يا تالي.»

– «يا إلهي.» داهمها الدوار مرة أخرى، وكأن اللوح يلف في الهواء مثل ريشة تهوي إلى الأرض، أغمضت عينيها وتشبثت بديفيد بقوة أكبر، وهي تشعر أخيرًا بكتلة

جسده الحية تحت أصابعها، أقوى بكثير من أية ذكريات تراودها بخصوصه، شيء ما بداخلها يخبو، وشعور بانزعاج لم تعرفه من قبل يتخللها.

لقد جمع هذا الشعور بين أحلامها المزعجة، ومخاوفها التي أثارها تخلي ديفيد عنها، وكان ما أثارها في الحقيقة هو مجرد خطأ في خطة انحرفت عن المسار المرسوم لها، كما في الحكايات القديمة عندما يتأخر وصول رسالة ما طويلًا، أو ترسل إلى الشخص الخطأ، ولم تكن الحيلة من النوع الذي يضحي المرء من أجلها.

فقد اتضح لها أن ديفيد كان يرغب في أن يأتي إليها بنفسه.

قال ديفيد بصوت خافت: «لم تكوني بمفردكِ، بالطبع».

تجمدت أوصالها، لا بد أنه الآن قد عرف بأمر زين، كيف يمكن أن تشرح لديفيد أنها ببساطة قد «نسيته»؟ إن الإصابات التي تحدثها عملية التحول بأنسجة المخ لن تبدو عذرًا مقبولًا في هذه الحالة لمعظم الأشخاص، ولكنه يعرف كل شيء عنها، وقد كشف والداه له منذ الصغر حقيقة العقول الحسناء وما الذي يعنيه أن يكون شخص من هذه الفئة، ينبغي عليه أن يفهم.

ولكن، في الحقيقة، الأمر ليس بهذه البساطة، فهي لم تنس زين، ومع كل ما حدث بإمكانها أن تستحضر صورة وجهه النحيل وملامحه الجميلة ذات مسحة الضعف، إنها لا تزال تذكر كيف لمعت عيناه الذهبيتان قبل أن يقفز من المنطاد، لقد أعطتها القبلة التي منحها إياها القوة لكي تعثر على القرصين المعالجين، وتقاسم معها الدواء، إذن ماذا يفترض أن تقول؟

كان أسهل شيء هو هذا السؤال: «كيف حاله؟»

هز ديفيد كتفيه وقال: «وضعه ليس ممتازًا، ولكن مع وضع كل الأمور في الاعتبار وضعه ليس سيئًا للغاية، من حسن الحظ أنكِ لم تكوني في مكانه يا تالي»

– «الدواء له تأثير خطير، أليس كذلك؟ فهو لا يعمل بفاعلية مع بعض الأشخاص.»

«إن فاعليته ممتازة، لقد تناوله أصدقاؤكِ كلهم، وهم بخير.»

– «ولكن آلام الصداع التي تصيب زين ....»

– «إنها أكثر من آلام بالرأس»، تنهد ديفيد ثم استطرد وقال: «سوف أدع أمي تشرح لكِ ذلك الأمر.»

– «ولكن ماذا ....» صمتت تالي وتركت سؤالها يخبو بين طيات صمتها، فهي لا تستطيع أن تلوم ديفيد لأنه لا يود أن يتحدث عن زين، لقد أجابها على الأقل عن

كل الأسئلة التي كانت تدور برأسها ولم تطرحها عليه، فالأشقياء الآخرون وصلوا إلى هنا ولحقوا بالضبابيين، وقد تمكنت مادي من أن تساعد زين، وقد نجحت خطة الهروب نجاحًا باهرًا، والآن وصلت هي نفسها إلى الأطلال، إن كل الأمور تسير على نحو غاية في الروعة.

شكرته تالي مرة أخرى قائلة بصوت خافت: «شكرًا لأنك انتظرتني»

لم يجبها ديفيد، وحلق الاثنان طوال تلك المسافة المتبقية دون أن يتبادلا النظر ولو مرة واحدة.

الفصل الثالث والثلاثون

الحد من الخسائر

كان الطريق إلى المكان الذي يختبئ فيه سكان الضباب الجديد يعج بالتعرجات، فهما ينعطفان باللوح الطائر ليحلق بمحاذاة ضفاف الأنهار، والطبقات السفلية لخطوط السكك الحديدية القديمة، وأي مكان يحتوي على كمية من المعادن تتيح للوح الطائر التحليق في الجو، وفي النهاية وصلا إلى جبل صغير يبعد عن أطلال المدينة القديمة، وارتفع اللوح الطائر تجاه قمة الجبل بفعل اقتراب الروافع من بقايا طريق خاص بعربات التلفريك تدلى من أعلى الجبل، وعلى قمة الجبل استقرت قبة إسمنتية ضخمة، تخللت الشقوق سقفها بفعل القرون الطويلة، ولاحت السماء من ورائها.

سألته تالي: «ما هذا المكان؟»، وبينما نطقت بهذه الكلمات شعرت بأن حلقها جاف بعد ثلاث ساعات من الصمت التام.

– «مرصد فلكي، كان هناك تليسكوب ضخم في هذه القبة، ولكن سكان العصر القديم أخرجوه منها، عندما وصل التلوث بالمدينة إلى معدل مرتفع للغاية.»

كانت تالي قد رأت من قبل صورًا للسماء وهي مليئة بالدخان والأتربة، فقد كانوا يعرضونها عليهم كثيرًا في المدرسة، ولكنها لم تستطع أن تتخيل أن سكان العصر القديم قد نجحوا في تغيير لون الهواء نفسه. هزت تالي رأسها، فكل صفات سكان العصر القديم التي ظنت أن مدرسيها قد بالغوا في حقيقتها، اتضح لها أنها صحيحة. كانت الحرارة تنخفض انخفاضًا منتظمًا وهما يرتفعان باتجاه القمة، وبدت أمامها السماء التي تخللها ضوء الأصيل صافية تمامًا. «بعدما عجز العلماء عن رؤية النجوم من هذا المكان أصبحت القبة مزارًا للسياح، ولذلك أنشئت كل هذه الطرق من أجل عربات التلفريك، هناك العديد من الطرق يمكن اتباعها للهبوط

بالألواح الطائرة، إذا أردنا أن نخرج من هنا بسرعة، ويمكننا أن نرى أمامنا لأميال في كل الاتجاهات.»

– «حصن ضبابي، أليس كذلك؟»

– «أظن ذلك، إذا حدث وتوصلت السلطات الخاصة إلينا فسيكون أمامنا على الأقل فرصة.»

بدأ الناس يتدافعون خارجين من المرصد المتهدم واللوح الطائر يستقر على الأرض. لعل ما يبدو أن أحد الأشخاص المكلفين بالمراقبة رآهما وهما في طريقهما للأعلى. رأت تالي بعض سكان الضباب الجديد — كروي ورايدي ومادي — وسط مجموعة صغيرة من القبحاء لا تعرفهم، وهناك بضع عشرات من الأشقياء الذين أتوا إلى هذا المكان أثناء رحلة الهروب، بحثت بين هذا الجمع المحتشد عن وجه زين ولكنها لم تجده.

قفزت من فوق اللوح الطائر لتعانق فاوستو، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة عندما رآها، وعرفت تالي من ملامحه متزايدة الحدة أنه تناول الأقراص المعالجة، إنه لم يعد يقظًا ولا متنبهًا فقط، بل شفي تمامًا من التشوش العقلي الذي بسبب الحسان.

قال فاوستو وابتسامته العريضة لا تزال مرتسمة على شفتيه: «تالي، إن رائحتكِ كريهة.»

– «آه، نعم، إنها رحلة طويلة، وحكاية طويلة.»

– «كنت أعرف أنكِ ستجتازينها، ولكن أين بيريس؟»

ملأت تالي رئتيها بهواء الجبل البارد.

قال فاوستو قبل أن تتمكن من أن تجيبه: «خاف أن يهرب، أليس كذلك؟» واستطرد وهي تومئ برأسها: «دائمًا كنت أظن أنه سيتصرف هكذا.»

– «خذني إلى زين.» استدار فاوستو وهو يومئ تجاه المرصد الفلكي، كان الآخرون يحلقون على مقربة منها، ولكن الوحل الذي يغطيها والرائحة الكريهة المنبعثة منها جعلتهم يتجنبونها قليلًا. أطلق الأشقياء صيحات الترحيب، ولاحظت تالي تأثير ملامح وجهها باعتبارها من الحسان الجدد على القبحاء، فمع أن وجهها متسخ فقد اتسعت عيونهم إعجابًا بملامحها. إن تأثير تلك الملامح لا يخبو أبدًا، حتى إن لم يظن الناس أن صاحبتها من الآلهة.

توقفت تالي وأومأت برأسها إلى كروي وقالت: «لم تتح لي الفرصة لكي أشكرك».

رفع حاجبه وهو يجيبها: «تشكرينني على ماذا، لقد فعلتها بنفسك».

قطبت تالي جبينها، ولاحظت أن مادي تحملق فيها بطريقة غريبة، ولكنها تجاهلت نظراتها، غير مكترثة بما تفكر به والدة ديفيد، وتبعت فاوستو إلى القبة المتهدمة.

ساد الظلام بالداخل، وقد تناثرت بعض فتحات الإضاءة حول حافة القبة نصف الكروية الضخمة ذات السقف المشقوق، وإلى الداخل تخلل شعاع رفيع من ضوء الشمس كان يعمي الأبصار، إذ كان أكبر الشقوق الموجودة بسقف القبة، وقد ألقت النار التي قاموا بإشعالها ظلالًا تتحرك حركة غير منتظمة، ودخانها يتصاعد في تؤدة عبر الشق الموجود بالسقف.

كان زين يستلقي مغمض العينين بجانب النار فوق كومة من البطاطين، وقد بدا نحيفًا أكثر مما كان عليه حينما كان يجوع نفسه هو وتالي حتى يتمكنا من خلع سواري الاتصال، حتى إن عينيه صارتا غائرتين.

وكانت الأغطية ترتفع وتهبط بهدوء مع أنفاسه.

ابتلعت تالي ريقها وقالت: «ولكن ديفيد قال إنه بخير...».

أجابها فاوستو: «إن حالته مستقرة، وهذا جيد، إذا وضعنا الأمر في الاعتبار».

- «وضعنا ماذا في الاعتبار؟»

بسط فاوستو كفيه في عجز وقال: «مخه».

سرت قشعريرة في جسدها، وللحظة رأت بطرف عينيها الظلال تتموج، سألته بصوت خافت: «ماذا حل به؟»

ترامى إلى سمعها صوت آتٍ من الظلام: «كان عليكِ أن تجربي، أليس كذلك يا تالي؟»، وتقدمت مادي نحو الضوء وديفيد بجوارها.

صمدت تالي أمام نظراتها الجامدة التي تحملق فيها وسألتها: «عما تتحدثين؟»

- «القرصان اللذان أعطيتهما لكِ، كان من المفترض أن تتناولي كليهما».

- «أنا أعرف، ولكننا كنا اثنين ...» وبدأ صوتها يخفت شيئًا فشيئًا عندما لمحت التعبير المرتسم على وجه ديفيد ثم توقفت عن الكلام، «وقد كنت خائفة من أفعل ذلك وحدي»، هكذا أضافت تالي محدثة نفسها، وهي تتذكر تلك اللحظات المخيفة التي مرت بهما وهما داخل فالانتينو ٣١٧.

هزت مادي رأسها وهي تقول: «كان من المفترض أن أعرف ذلك، إنها دائمًا مخاطرة؛ ترك واحدة من أصحاب العقول الحسناء تعالج نفسها».

– «ماذا تقولين؟».

قالت مادي: «لم أشرح قط الطريقة التي يعمل بها الدواء، أليس كذلك؟ وكيف تزيل جزيئات النانو الدقيقة الإصابات من أنسجة مخك؟ إنها تكسر تلك الخلايا، مثل الأقراص التي تعالج الخلايا السرطانية».

– «إذن ما الخطأ الذي حدث؟».

«لم تتوقف جزيئات النانو الدقيقة عن العمل، لقد ظلت تتكاثر وهي تعمل على تكسير أنسجة مخ زين».

استدارت تالي لتنظر إلى الجسد المستلقي أمامها على الفراش، وبدت أنفاسه ضعيفة فقد كانت تلحظ حركة صدره بصعوبة شديدة.

نظرت إلى ديفيد وقالت: «ولكنك قلت إن الدواء مفعوله ممتاز».

أومأ ديفيد برأسه وقال: «إنه كذلك بالفعل، فجميع أصدقائك الآخرين بخير، ولكن القرصين مختلفان، القرص الثاني الذي تناولته هو الدواء الذي يعالج تأثير الدواء المضاد للدواء، فهو يجعل جزيئات النانو الدقيقة تدمر نفسها بعدما تقضي على الإصابات الموجودة بأنسجة المخ، وبدون تناول ذلك القرص، ظلت جزيئات النانو تتكاثر داخل مخ زين وظلت تعمل على تآكل أنسجة المخ. لقد قالت أمي إنها توقفت عند نقطة ما، ولكن ليس قبل أن تخلف ... كمًا معينًا من التلف».

ازداد شعور تالي بالغثيان مرة أخرى حينما تجمعت أجزاء الصورة أمامها وأدركت حقيقة الأمر: إن هذا هو خطؤها «هي»، فقد ابتلعت القرص الذي كان سيحمي زين من هذا المصير، الدواء المضاد للدواء. «ما حجم هذا التلف؟».

ردت مادي: «لا نعلم حتى الآن، كان لدي ما يكفي من الأنسجة الجذعية من أجل تجديد الأجزاء التالفة في مخه، ولكن الموصلات التي كونها زين والتي تربط بين تلك الخلايا قد دمرت. وداخل تلك الموصلات تختزن الذكريات والمهارات الحركية وتجري عملية الإدراك، إن بعض الأجزاء من عقله قد باتت الآن مثل صفحة بيضاء بلا حروف».

– «صفحة بيضاء؟ هل تقصدين أنه ... قضي عليه؟».

أجابها فاوستو نافيًا ظنها: «لا، إن الضرر لحق بمواضع قليلة فقط، وبإمكان خلايا مخه أن تعيد مسارات الاتصال بينها من جديد يا تالي، فخلاياه العصبية تبني

موصلات جديدة، هذا هو ما يفعله الآن، كان زين يقوم بذلك طوال الوقت، لقد حلق بلوحه الطائر طوال الطريق إلى هنا بمفرده قبل أن ينهار هكذا».

قالت مادي وهي تهز رأسها ببطء: «إنه من المذهل أنه صمد كل هذه الفترة، أظن أن امتناعه عن الطعام هو ما أنقذه، فتجويعه لنفسه أدى في النهاية إلى تجويع جزيئات النانو، فعلى ما يبدو أن هذه الجزيئات قد تحللت».

– «إنه لم يفقد قدرته على الحديث وغيره من الأشياء، إنه فقط ... متعب قليلًا الآن.»

– «كان من الممكن أن تكوني أنتِ من يستلقي على هذا الفراش يا تالي، فاحتمالات النجاة والإصابة كانت متساوية، لقد حالفكِ الحظ.» هكذا قالت مادي.

ردت تالي بصوت خافت: «هذه أنا، الفتاة الصغيرة المحظوظة».

بالطبع كان عليها أن تعترف لنفسها بأن هذا صحيح، فقد تقاسمت القرصين مع زين عشوائيًا وهما يظنان أن تأثيرهما واحد، وكان من الممكن أن تكون أنسجة مخها هي التي تتعرض للتآكل بفعل جزيئات النانو طوال هذا الوقت بدلًا من زين، كم هي محظوظة.

أغمضت تالي عينيها، وقد أدركت أخيرًا كم كان شاقًا ذلك المجهود الذي بذله زين لكي يخفي ما كان يحدث له، فكل هذه الفترات الطويلة التي كان يلتزم خلالها زين الصمت حينما كانا يرتديان سواري الاتصال لم تكن إلا فترات من المقاومة والجهاد لكي يلملم شتات عقله، وهو لا يعرف بالضبط ماذا يحدث له، ولكنه كان يخاطر بكل شيء حتى لا يقع مرة أخرى تحت تأثير التشوش العقلي الذي يصيب الحسان.

حملقت تالي فيه، وتمنت لحظة أن تكون مكانه، فأي شيء أفضل من أن تراه هكذا، يا ليتها هي التي تناولت القرص الذي يحتوي على جزيئات النانو، وتناول هو ذلك الذي يفعل ... ماذا؟ «انتظروا لحظة، إذا كان زين تناول قرص جزيئات النانو فكيف عالجني القرص الذي تناولته؟»

قالت مادي: «إنه لم يفعل، فبدون القرص الآخر لا تحدث مضادات جزيئات النانو التي تناولتها أي تأثير على الإطلاق».

– «ولكن ...»

رد عليها صوت خافت آتٍ من الفراش: «لقد كنتِ أنتِ، يا تالي». فتح زين عينيه قليلًا، فقد شعر بأشعة الشمس وكأنها حواف عملات ذهبية. ابتسم لها والتعب يكسو ملامحه وقال: «أنتِ من شققت طريقكِ إلى الصحوة والتيقظ».

- «ولكنني شعرت باختلاف كبير بعدما كنا ...» صمتت تالي وأخذت تتذكر ذلك اليوم، كيف قبل أحدهما الآخر، ثم تسللا إلى قصر فالانتينو وتسلقا البرج، ولكن كل هذه الأشياء حدثت بالطبع «قبل» أن يتناولا الأقراص، إن وجودها مع زين غيرها من البداية، منذ أول قبلة.

تذكرت تالي كيف كان «التأثير العلاجي» يتصاعد بداخلها ثم يخبو مرة أخرى، كان عليها أن تعمل من أجل الإبقاء على انتباهها ويقظتها، كانت حالتها أقرب إلى الأشقياء الآخرين أكثر منها إلى زين.

قالت مادي: «إنه محق يا تالي، فيبدو أنك أنتِ التي عالجتِ نفسكِ».

الفصل الرابع والثلاثون

المياه الباردة

ظلت تالي بجانب زين وتركهما الآخرون وحدهما، إنه الآن مستيقظ ويتحدث إليها، ووجودها هنا أسهل بكثير من قيامها بإنهاء كل الأمور التي لا تزال معلقة بينها وبين ديفيد.

– «هل كنت تعرف ماذا يحدث لك؟».

ظل زين صامتًا لبرهة قبل أن يجيبها، ولاحظت أن حديثه الآن يتخلله فترات طويلة من الصمت، مثلما كان أندرو يصمت طويلًا قبل أن يستأنف حديثه مرة أخرى. وأجابها: «كنت أعرف أن كل شيء يزداد صعوبة، ففي بعض الأحيان كان علي أن أستجمع تركيزي حتى أتمكن من السير. ولكنني لم أشعر بأن ذهني متقد وواعٍ بهذه الدرجة من قبل منذ أن أصبحت من الحسان، لقد كان ذلك يستحق ما حدث، أن أشعر بتلك الصحوة وأنا معكِ، وكنت أظن أننا حالما نعثر على الضباب الجديد فسوف يتمكن سكانه من مساعدتي».

– «إنهم يساعدونك بالفعل، لقد قالت مادي إنها زرعت بعض ....» ابتلعت تالي ريقها.

«أنسجة المخ الجديدة؟» هكذا أكمل لها زين المعلومة ثم ابتسم واستطرد: «بالطبع خلايا عصبية جديدة لا يوجد أي شيء مسجل عليها، كل ما علينا فعله هو أن نملأها».

وعدته تالي: «حتمًا سنفعل ذلك، سوف نقوم بالكثير من الأشياء التي تشحذ انتباهنا ويقظتنا». ولكن الكلمات بدت لها غريبة وهي تنطقها، فقد كانت تقصد بكلمة «نفعل»، هي وزين، وكأن ديفيد لم يكن له وجود.

رد عليها زين في تعب: «هذا إذا تبقى مني شيء لتلك اليقظة، إن الأمر لا يبدو وكأن كل ذكرياتي قد انمحت، إن أكثر ما تأثر هو مراكز الإدراك وبعض المهارات الحركية».

– «الإدراك؟ أتعني أنه شيء مثل التفكير؟»

– «نعم، والمهارات الحركية مثل المشي،» هز زين كتفيه ثم استطرد: «ولكن المخ مصمم بحيث يتحمل التلف يا تالي، فخلاياه يتصل بعضها ببعض بحيث تخزّن كل شيء في كل مكان، فعندما يتلف جزء منه لا تمحى الأشياء المخزنة به، إنه يصبح فقط مشتتًا، مثلما يصيبك الصداع إذا أفرطتِ في الشراب». ضحك زين مستطردًا: «صداع شديد للغاية، والأسوأ من ذلك هو أنني أصبت بالتقرحات نتيجة بقائي في الفراش طوال اليوم، ويبدو أنني أعاني آلامًا بأسناني نتيجة هذا الطعام الذي يتناولونه هنا بالضباب، وتقول مادي إنها آلام وهمية أشعر بها نتيجة التلف الذي حدث بخلايا المخ». تجهم وجه زين وهو يفرك وجنته.

أمسكت تالي بيده وقالت: «أنا لا أصدق كم الشجاعة التي تحليت بها تجاه هذا الأمر، إن ذلك لا يمكن تصوره».

– «أنتِ من تقولين ذلك يا تالي؟» وبحركات واهنة وجسد مرتعش، ظل زين يجاهد بصعوبة حتى تمكن من أن يجلس في فراشه ثم استأنف حديثه: «لقد نجحتِ في أن تعالجي نفسكِ دون أن تتآكل أنسجة مخكِ، هذا هو ما أسميه أمرًا لا يمكن تصوره».

نظرت تالي إلى يديهما اللتين تشابكت أصابعهما، ولم تشعر بروعة، لقد كانت تشعر بأن الأوساخ تغطيها وأن رائحة كريهة تفوح منها، وأنها شخص «غاية في السوء» لأنها لم تملك الشجاعة الكافية لتناول القرصين، مما كان سيجنب زين كل ما حدث، إنها حتى لم تملك الشجاعة الكافية لكي تحدث زين بأمر ديفيد، أو تخبر ديفيد عن زين.

إنها فقط فتاة بائسة مثيرة للشفقة.

– «هل أدهشتكِ رؤيتكِ إياه؟»

نظرت تالي إلى زين الذي أطلق ضحكة خافتة عندما رأى تعبيرات المفاجأة ترتسم على وجهها. «هيا يا تالي، أنا لا أقرأ أفكاركِ، ولكنكِ نبهتني إلى هذا الأمر أكثر من مرة، لقد أخبرتني عن الفتى في أول مرة تبادلنا فيها قبلة، أتذكرين؟»

– «آه، نعم،» إذن فزين كان يتوقع ذلك من البداية، وكان على تالي أن تتوقعه أيضًا، ربما لم تكن ترغب في أن تواجه الحقيقة الواضحة أمامها. «نعم، إنه من المثير للدهشة أن أراه، فأنا لم أتوقع بالتأكيد أن أجده في انتظاري بالأطلال، أنا وهو فقط بمفردنا.»

أومأ زين برأسه. «كان انتظارك مثيرًا حقًا، لقد قالت والدته إنكِ لن تأتي أبدًا، فلا بد أنكِ قد جبنتِ، لأنكِ لم تتناولي الدواء الحقيقي، وكأنكِ كنتِ فقط تتلاعبين بي طوال الوقت، وتقلدين يقظتي وانتباهي.»

أدارت تالي عينيها في محجريهما وقالت: «إنها لا تحبني كثيرًا».

رد عليها زين بابتسامة عريضة: «أحقًا ذلك؟» ثم استأنف: «ولكنني أنا وديفيد كنا نعتقد أنكِ ستظهرين إن عاجلًا أو آجلًا، كنا نعتقد أن ...»

قالت تالي في تذمر: «إذن هل أنتما أيها الفتيان أصبحتما صديقين الآن؟»

بعد واحدة من فترات الصمت الطويلة الموجعة، قال زين: «أظن ذلك. لقد سألني عنكِ كثيرًا عندما وصلنا إلى هنا، أظن أنه كان يود أن يعرف كيف عبرتِ الانتقال إلى عالم الحسن.»

– «حقًا؟»

– «نعم، حقًا، لقد كان هو من قابلنا في الأطلال، هو وكروي كانا يعسكران بالخارج ويترقبان ظهور الإشارات الضوئية. لقد عرفنا أنهما من تركا المجلات بالأطلال لكي يعثر القبحاء الموجودون بالمدينة عليها، ويعرفوا أن الضبابيين يذهبون لزيارة الأطلال.» أصبح صوت زين حالمًا وكأنه يستسلم للنوم. «لقد نجحت على الأقل في أن أراه مرة أخرى بعد أن تملكني الرعب طوال كل هذه الأشهر الماضية.» استدار زين ونظر إليها وقال: «أتعرفين، لقد افتقدكِ ديفيد حقًا.»

قالت تالي بصوت خافت: «لقد دمرت حياته».

– «إنكِ لم تفعلي أي شيء عن قصد يا تالي، وديفيد يفهم ذلك الآن، لقد أخبرته كيف أن عملاء السلطات الخاصة هددوكِ بأن يبقوكِ قبيحة إلى الأبد، ولذلك خططتِ لخيانة الضبابيين.»

– «هل قلت له ذلك؟» تنهدت تالي ببطء واستطردت: «شكرًا لك، إنني لم أستطع قط أن أحصل على فرصة لكي أشرح له لماذا جئت إلى الضباب، وكيف أجبروني على ذلك، لقد أجبرتني مادي على الرحيل في الليلة نفسها التي اعترفت فيها بكل شيء».

– «نعم، لم يكن ديفيد راضيًا عن تصرفها، لقد أراد أن يتحدث معكِ مرة أخرى.»

قالت تالي: «آه»، لقد ظلت بالطبع الكثير من الأمور معلقة بين ديفيد وتالي، وبالطبع لم تكن راضية قط حين عرفت أن ديفيد وزين تحدثا عن تفاصيل ما حدث لها بالماضي، ولكن على الأقل يعرف ديفيد الآن تفاصيل القصة كلها. تنهدت تالي وقالت: «شكرًا لأنك أخبرتني بكل ذلك. لا بد أن ذلك كان غريبًا».

– «إلى حد ما، ولكن لا يجب أن تشعري بأنكِ فتاة سيئة، بخصوص ما حدث في تلك الأيام.»

– «ولم لا؟ لقد دمرت الضباب، وفقد والد ديفيد حياته بسببي.»

– «إن السلطات تتلاعب بالجميع في المدينة يا تالي، والهدف من كل شيء قاموا بتعليمنا إياه هو أن نصبح خائفين من التغيير، لقد كنت أحاول أن أشرح ذلك لديفيد، كيف أنه منذ أن نولد يصبح المكان بأكمله ماكينة تبقينا تحت السيطرة.»

هزت تالي رأسها وقالت: «هذا لا يبرر خيانتنا لأصدقائنا.»

– «نعم، لقد فعلت ذلك قبل أن تلتقي بشاي بوقت طويل. فيما يخص ما حدث بالضباب أنا مخطئ بالدرجة نفسها مثلك تمامًا.»

نظرت تالي إليه في دهشة: «أنت؟ كيف؟»

– «هل حدث وأخبرتكِ من قبل كيف قابلت دكتورة كابل؟»

نظرت تالي إليه، وقد أدركت أنهما سيخوضان في حديث لم تتح لهما الفرصة من قبل لإتمامه. «لا، لم تفعل.»

– «لقد ذهب معظم أصدقائي إلى الضباب، بعد تلك الليلة التي ارتعبت فيها أنا وشاي من الهروب، عرف مشرفو العنبر أنني أنا القائد. فسألوني عن المكان الذي هرب إليه الجميع، ولكنني تمالكت نفسي جيدًا ولم أنطق بكلمة واحدة، ولذلك جاء عملاء السلطات الخاصة إليّ.» أصبح صوته خافتًا بدرجة أكبر وكأن سوار الاتصال لا يزال يحيط بمعصمه. «لقد أخذوني إلى مبناهم الرئيسي هذا الموجود بالمنطقة الصناعية، مثلما فعلوا معكِ، حاولت أن أصمد ولكنهم هددوني، لقد قالوا إنهم سيحولونني إلى واحد منهم.»

– «واحد منهم؟ عميل للسلطات الخاصة؟» ابتلعت تالي ريقها.

– «نعم، بعد ذلك لم يعد التحول إلى واحد من الحسان أمرًا سيئًا من وجهة نظري، ولذلك أخبرتهم بكل شيء أعرفه، قلت لهم إنني أنا وشاي خططنا للهرب

ولكننا ارتعبنا من تنفيذ خطتنا، ولذلك عرفت السلطات بأمرها، وغالبًا هذا هو ما دفعهم لكي يبدءوا في مراقبة ...» خفت صوته شيئًا فشيئًا ثم صمت تمامًا.

– «مراقبتي، حينما أصبحت أنا وهي صديقتين.»

أومأ زين برأسه وعلامات التعب تبدو عليه. «إذن، أترين؟ أنا من بدأت هذا الأمر كله، عندما بقيت حينما كان عليّ أن أرحل. أنا لن أحكم عليكِ أبدًا يا تالي وفقًا لما حدث في الضباب، لقد كان خطئي بقدر ما كان خطئك.»

أمسكت تالي بيده وهي تهز رأسها، إنه لا يستطيع أن يتقبل أي لوم، بعد كل ما مر به: «لا يا زين، لا يمكن أن يكون هذا هو خطؤك، لقد كان ذلك منذ فترة طويلة للغاية». تنهدت تالي واستطردت: «ربما لا يكون أي منا مسئولًا عن هذا».

ظلا صامتين للحظة، وأصداء كلماتها تتردد بداخلها. إن زين يرقد أمامها، وقد فقد نصف مهاراته العقلية، فما جدوى الخوض في خطايا الماضي، سواء أكانت هي أم هو من ارتكبها، أو أي شخص آخر؟ ربما كانت العداوة بينها وبين مادي لا تعني شيئًا مثلها مثل الثأر الذي تود قرية أمبرو أن تأخذه من الغرباء. إذا كانوا سيعيشون هنا في الضباب الجديد معًا فينبغي عليهم أن يدعوا الماضي بكل ما فيه.

ولكن لا تزال الأمور بالطبع معقدة.

تنفست تالي ببطء ثم قالت: «إذن ما رأيك في ديفيد؟»

نظر زين إلى القبة التي تعلوهما وعلى وجهه تعبير حالم وقال: «إنه يتوهج حماسًا، جاد للغاية، ليس متيقظًا مثلنا، أتعرفين؟»

ابتسمت تالي وهي تضغط على يده. «نعم، أعرف.» «وهو إلى حد ما ... قبيح.»

أومأت تالي برأسها، وقد تذكرت كيف كان ديفيد ينظر دائمًا إليها، حينما كانا معًا في الضباب، وكأنها حسناء. وفي بعض الأحيان كانت تشعر بأن النظر في وجهه يشبه النظر في الوجوه الحسان، ربما تعود إليها تلك المشاعر عندما تتناول الدواء الحقيقي، وربما لن تعود إليها أبدًا، لأنها لم تذهب بسبب عملية التحول، ولكنها خبت مع مرور الوقت، ومع ما حدث بينها هي وزين.

عندما خلد زين إلى النوم قررت تالي أن تغتسل، إذا أخبرها فاوستو بطريق يؤدي إلى نبع مياه في أقصى الجبل، يمتلئ في هذا الوقت من العام بعناقيد الثلج المذيبة، ولكن مياهه عميقة بما يكفي لكي تغمر جسدها بالكامل. «فقط خذي معك سترة بها

جهاز تدفئة، وإلا ستتجمدين وينتهي أمرك قبل أن تعودي إلى هنا.» هكذا حذرها ناوستو. ولكنها كانت ترى أن الموت أهون من كم الأوساخ التي تغطيها، وهي تحتاج إلى أكثر من أن تدلك جسدها بقطعة قماش مبللة لكي تستعيد نظافته، وتحتاج أيضًا إلى أن تبقى بمفردها لفترة، ربما حينما تلقي بجسدها في المياه قارسة البرودة، تجعلها الصدمة تستجمع شجاعتها وتتحدث إلى ديفيد.

استقلت تالي لوحًا طائرًا لكي تهبط أسفل الجبل، وكانت الشمس قد أوشكت على الغروب، والهواء شديد، وأذهلها كيف يبدو كل شيء ساطعًا وواضحًا. إنها حتى الآن لا تستطيع أن تصدق أنها لم تتناول الدواء فعلًا، فهي تشعر باليقظة والانتباه طوال الوقت. لقد سمعت مادي تذكر شيئًا عن «تأثير العلاج بالدواء الوهمي»، وكأن إيمان الشخص بأنه قد تناول الدواء يكفي لعلاج أنسجة المخ، ولكن تالي تعرف أن الأمر أكبر من ذلك.

لقد غيرها زين منذ المرة الأولى التي قبلها فيها، وحتى قبل أن يتناول هو نفسه الدواء، كانت عصبيته تثير تيقظها وانتباهها. أتراها تحتاج الآن إلى هذا الدواء أم أن باستطاعتها أن تظل هكذا إلى الأبد؟ إن فكرة ابتلاع هذا القرص الذي عمل على تآكل أنسجة مخ زين لا تتركها تعمل مع وجود القرص الإضافي المضاد لجزيئات النانو. ربما يمكنها أن تستغني عن ذلك كله، وتعتمد على تأثير زين الساحر. إن بإمكانهما الآن أن يساعد أحدهما الآخر، فهو يحتاج إلى أن يعيد بناء الموصلات العصبية بخلايا المخ في حين تحارب هي في الوقت نفسه الوقوع مرة أخرى تحت تأثير التشوش العقلي الذي يصيب الحسان.

فمع كل شيء، فقد تقدما معًا من قبل حتى وصلا إلى هذه المرحلة، حتى قبل أن يتناولا القرصين، لقد غيّر كل منهما الآخر.

إنها على يقين من أن ديفيد غيرها أيضًا، فحينما كانت في الضباب كان هو من أقنعها بأن تبقى بالبرية، حتى لو ظلت قبيحة وتنازلت عن مستقبلها بالمدينة. إن واقعها قد تحول بفعل هذين الأسبوعين اللذين قضتهما في الضباب، بدءًا من ... متى؟ منذ أول مرة قبلها فيها ديفيد.

تمتمت تالي لنفسها: «يا لها من محظوظة، تلك الأميرة النائمة التي تتلقى قبلة الحياة من أميرين». ماذا ينبغي عليها أن تفعل؟ «تختار» ما بين زين وديفيد؟ وخاصة الآن وثلاثتهم يعيشون هنا في هذا الحصن الضبابي؟ لقد بدا لها أنه ليس

من تمام العدل أن تجد نفسها في هذا الموقف، فبالكاد كانت تتذكر ديفيد عندما قابلت زين، ولكنها، مع كل شيء لم تكن «ترغب» في أن تُمحى ذكرياتها.

هكذا قالت تالي: «شكرًا لكِ مرة أخرى، يا دكتورة كابل».

بدت المياه باردة للغاية، لقد تكسرت طبقة الجليد الرقيقة التي تكونت على السطح بسهولة، حينما ركلتها بقدمها، ووقفت تحملق في مياه النبع التي تدفقت من خلال بقايا طبقة الثلج الرقيقة، وقد ملأها الرعب. ربما لم تكن الرائحة الكريهة التي تنبعث منها هي أسوأ شيء في الحياة، فالربيع سيأتي، في النهاية، بعد ثلاثة أو أربعة أشهر ...

ارتعدت تالي، ورفعت درجة حرارة جهاز التدفئة الموجود بالسترة التي استعارتها، ثم تنهدت وبدأت تخلع ثيابها، فعلى الأقل سيثير هذا الحمام القصير يقظتها وانتباهها ...

دهنت جسمها بمعظم من الصابون قبل أن تقفز إلى المياه، ودلكت شعرها ببعض منه أيضًا. فقد قدرت المدة التي ستقضيها داخل هذا النبع الذي أوشكت مياهه على التجمد بعشر ثوان تقريبًا. كانت تعرف أن عليها أن تقفز إلى المياه، فلن تدلي قدمها في النبع أو تنزل ببطء إلى مياهه، فقوانين الجاذبية هي وحدها التي ستجبرها على الاستمرار فور أن يرتطم جسدها العاري بالماء البارد.

أخذت تالي نفسًا وحبسته داخل رئتيها ثم قفزت إلى النبع.

سحقتها المياه المثلجة التي أحاطت بها مثل فكي ملزمة يطبقان على جسدها، فاندفع الهواء خارجًا من رئتيها وتصلبت كل عضلات جسمها. لفت تالي ذراعيها حول جسدها وتكورت على نفسها داخل مياه النبع الضحلة، ولكن كانت السهام الباردة تخترق لحمها لتضرب عظمها مباشرة. فحاولت بصعوبة أن تتنفس، ولكنها لم تنجح إلا في اجتذاب كمية ضئيلة من الهواء وهي تلهث، وارتعد جسدها بأكمله وكأنه سيتمزق إلى أشلاء متناثرة.

استجمعت تالي شجاعتها ودفعت برأسها تحت سطح المياه، فاختفت كل الأصوات التي تسمعها، وتحول صرير أنفاسها وخرير النبع إلى طنين المياه التي تتحرك من حولها، فدلكت شعرها بقوة بيديها المرتعشتين.

وعندما دفعت برأسها إلى الهواء مرة أخرى استطاعت أن تجتذب كمية كبيرة من الهواء إلى رئتيها، ووجدت نفسها تضحك، فكل شيء أصبح ساطع الوضوح إلى

حد بعيد، فإدراكها للعالم من حولها بات أشد وضوحًا من أية مرة شربت فيها فنجانًا من القهوة أو كأسًا من الشمبانيا، وإحساسها به أصبح أكثر حدة منه عندما كانت تهبط نحو الأرض بلوحها الطائر.

ظلت تالي داخل النبع لحظة، وقد أدهشها كل شيء من حولها، صفاء السماء، وحدة وضوح إحدى الأشجار القريبة التي خلت من الأوراق.

تذكرت تالي أول مرة اغتسلت في جدول مياه باردة وهي في طريقها إلى الضباب منذ عدة أشهر، كيف غيرت هذه التجربة رؤيتها للعالم حتى قبل أن تحدث عملية التحول هذه الإصابات بأنسجة المخ لديها، قبل أن تلتقي بديفيد وزين، لقد بدأ تفكيرها يتغير في تلك اللحظة، فقد أدركت أن الطبيعة لم تكن تحتاج إلى عملية جراحية لتجعلها أجمل، لأنها كانت جميلة بالفعل.

ربما هي ليست بحاجة إلى أمير وسيم لكي تبقى متيقظة، ولا إلى أمير قبيح لكي يمنحها تلك الصحوة.

بالرغم من كل ما حدث تمكنت تالي من أن تعالج نفسها من دون القرص وتقطع كل هذا الطريق إلى هنا بمفردها، إنها لم تسمع عن أحد من قبل هرب من المدينة «[illegible]».

ربما كانت تالي دائمًا هكذا، متيقظة ومنتبهة في مكان ما بداخلها، وكل ما تحتاجه تلك اليقظة لكي تُبعث من جديد هو أن تتحرك مشاعر الحب بداخلها تجاه شخص ما أو تخرج إلى البرية أو حتى تغمر نفسها بالمياه قارسة البرودة.

كانت تالي لا تزال داخل النبع حينما سمعت صيحة بصوت أجش آتية من الهواء، فخرجت بسرعة إلى الضفة، والرياح ترشق سهامها في جسدها ببرودة تفوق برودة الماء، لتجد المناشف التي أحضرتها قد تحولت إلى ألواح من الجليد بفعل الهواء قارس البرودة، كانت لا تزال تجفف جسدها حينما رأت لوحًا طائرًا يندفع بسرعة وهو يميل نحو أحد جانبيه لكي يتوقف على بعد أمتار قليلة منها.

لم يلحظ ديفيد أنها لم تكن قد ارتدت ملابسها بعد.

قفز من اللوح الطائر وركض نحوها وهو يمسك بشيء في يده، احتكت قدماه بالأرض وهو يتوقف عند حقيبة أمتعتها ويحرك الجهاز فوقها، عرفت تالي أنه كان يفحصها بحثًا عن أجهزة تعقب دقيقة.

هكذا قال ديفيد: «لستِ أنتِ، كنت أعرف ذلك».

كانت تالي ترتدي ثيابها وهي ترد عليه: «ولكنك قمت من قبل ...».

– «انطلقت إشارة من مكان مجهول، تبلغ عن موقعنا، لقد التقطناها عن الراديو ولكننا لم نحدد مصدرها بعد.» نظر ديفيد إلى حقيبة أمتعتها في ارتياح واستطرد: «ولكنكِ لم تجلبيها معكِ.»

– «بالطبع لا.» جلست تالي على الأرض لكي ترتدي حذاءها الطويل، وقد بدأ قلبها، الذي اجتذب البرودة من جسدها، يدق بعنف، سألته: «ولكن ألا تفحص كل من ينضم إليك؟»

– «بلى، ولكن لا بد أن جهاز التعقب كان متوقفًا عن العمل، لقد بدأ في الإرسال حينما شغله شخص، أو ربما كان مضبوطًا بحيث يبدأ العمل في وقت معين.»

أدار ديفيد عينيه في الأفق وقال: «سرعان ما ستصل السلطات الخاصة إلى هنا».

نهضت تالي وقالت: «إذن نهرب».

– «لا يمكن أن نذهب إلى أي مكان قبل أن نجده».

– «ولم لا؟» هكذا ردت عليه تالي وهي ترتدي السوارين الواقيين من الارتطام.

– «لقد استغرق الأمر منا شهورًا لكي نكون هذا المخزون من المواد والطعام الذي لدينا الآن، لا يمكننا أن نترك كل هذا وراءنا بعد أن انضم إلينا كل هذا العدد منكم أيها الأشقياء، ولكننا لن نتمكن من معرفة الأشياء الآمنة التي يمكن أن نأخذها معنا حتى نعرف من أين تأتي هذه الإشارة، إن مصدرها لا يظهر أمامنا على الإطلاق.»

رفعت تالي حقيبة الأمتعة على ظهرها وطقطقت أصابعها، فارتفع لوحها في الهواء. عندما اعتلت سطحه كانت الأفكار لا تزال تتدافع إلى رأسها بعد أن اغتسلت في هذه المياه المتجمدة، فتذكرت شيئًا حدث في أول اليوم. «ألم بالأسنان.» هكذا قالت.

– «ماذا؟»

– «كان زين بالمستشفى منذ أسبوعين، إنه بداخله.»

الفصل الخامس والثلاثون

شريحة التعقب

صعدا مرة أخرى أعلى الجبل مندفعين بسرعة، ولوحاهما يميلان جانبًا بقوة أثناء الانعطاف لأنهما يستديران بشدة، ظلت تالي في المقدمة، كانت على يقين من صحة ظنها، فقد أفقد الأطباء زين الوعي لدقائق قليلة وهم يصلحون عظام يده المكسورة أثناء وجوده بالمستشفى، فلا بد أنهم أخفوا شريحة تعقب بأسنانه في ذلك الوقت. إن أطباء المدينة العاديين لم يفعلوا ذلك متطوعين، لا بد أن هذا هو ترتيب السلطات الخاصة.

سادت حالة من الفوضى المعسكر عندما وصلا إلى هناك، واندفع بعض سكان الضباب الجديد والأشقياء خارجين من المرصد والبعض الآخر اندفع داخله والجميع يمسك بالأدوات والملابس والطعام ويضعونها في كومتين بجانب مادي وكروي، وقد أمسك الاثنان بأجهزة مسح وظلا يمررانها فوق كل شيء بحركات عصبية، وآخرون يعيدون حزم الأشياء التي فُحصت بأجهزة المسح، وهم في عجلة من أمرهم، استعدادًا للهروب فور أن يعثروا على جهاز التعقب الدقيق الذي يبعث بتلك الإشارة.

أنزلت تالي مؤخرة لوحها إلى أسفل ودفعته إلى أقصى ارتفاع يمكن أن يبلغه، فارتفعت فوق سكان المعسكر المضطربين واتجهت مباشرة إلى القبة ذات السقف المشقوق، عندما وصل اللوح الطائر إلى أعلى نقطة بها بدأت الروافع تهتز ولكنها ثبتت مرة أخرى حينما التقطت قوتها المغناطيسية الإطار الفولاذي للمرصد، وكان الشق الموجود بالقبة عريضًا ليسمح لها بالمرور بلوحها من خلاله، نزلت تالي إلى أسفل مباشرة عبر الدخان المتصاعد من سقف القبة وقفزت من فوق سطح لوحها لتستقر بجانب الفراش الذي يستلقي زين فوقه مؤقتًا.

نظر زين إليها وعلى وجهه ابتسامة واهنة.

- «طريقة رائعة لدخول المرصد يا تالي».

جثت تالي بجانبه وقالت: «أين هي السن التي تؤلمك؟».

– «ماذا يحدث؟ الجميع أصابهم الذعر والفوضى».

– «أين هي السن التي تؤلمك يا زين؟ عليك أن تريني إياها».

قطب زين جبينه، ولكنه أدخل إصبعه المرتعش إلى فمه وجس برفق الأسنان الواقعة على الجانب الأيمن.

دفعت تالي يده بعيدًا، وفتحت فمه أكثر فتأوه زين محتجًا.

– «اصمت، سوف أشرح لك حالًا».

مع أن الضوء المنبعث من النار كان باهتًا فقد استطاعت تالي أن تراه، تلك السن التي بدا بياضها الداكن مختلفًا عن بقية الأسنان اختلافًا واضحًا، بالطبع بسبب تعجل طبيب الأسنان.

إن مصدر الإشارة داخل زين.

سمعت «صوت» جهاز مسح يُفتح بجانب أذنها، فقد تبعها ديفيد عبر الثقب الموجود بسقف القبة، وحرك ديفيد جهاز المسح فوق وجه زين، فعلا طنينه، «هل هو في فمه؟» هكذا سألها ديفيد.

– «في سنه! أحضر [illegible]»

– «ولكن، يا تالي ...»

– «أحضرها، لا يمكنني أنا وأنت أن نخلع سنًا».

وضع ديفيد يده على كتفها وقال: «ولا هي أيضًا، ليس في دقائق قليلة».

نهضت تالي وهي تحملق في وجه ديفيد القبيح وسألته: «ماذا تقول يا ديفيد؟»

«سيكون علينا أن نتركه، سوف يصلون إلى هنا سريعًا».

قالت تالي وهي تصرخ: «لا، اذهب وأحضرها!»

استدار ديفيد في تذمر وركض نحو باب المرصد.

نظرت تالي إلى زين مرة أخرى، فسألها: «ماذا يحدث؟»

– «لقد زرعوا شريحة تعقب بداخلك يا زين، في المستشفى».

رد عليها زين وهو يفرك وجهه: «أوه، لم أكن أعلم يا تالي، صدقيني لقد ظننت أن أسناني تؤلمني بسبب طعام البرية هذا».

– «إنك لم تكن تعلم بالطبع، فقد كنت فاقدًا للوعي أثناء تلك الدقائق التي قضيتها في المستشفى، أتتذكر؟»

– «هل سيتركونني هنا حقًا؟»

– «لن أدعهم يفعلون ذلك، أعدك.»

قال زين بصوت واهن: «لا يمكنني أن أعود يا تالي، فأنا لا أريد أن أصبح أسير التشوش العقلي للحسان مرة أخرى».

ابتلعت تالي ريقها، إذا أعيد زين إلى المدينة الآن فسوف يحدث الأطباء إصابات بأنسجة المخ الجديدة التي زرعتها له مادي والتي تخلو من أية مهارات عقلية أو فكرية، وسوف يعيد المخ بناء الموصلات العصبية حولها ...

أية فرصة هذه التي ستتاح أمامه لكي يبقى متيقظًا ومنتبهًا؟

لا يمكن أن تدع ذلك يحدث.

– «سوف آخذك على سطح لوحي الطائر يا زين، ونهرب بمفردنا إذا كان علينا أن نفعل ذلك.» تدافعت الأفكار إلى رأسها، لا يزال عليها أن تتخلص من شريحة التعقب بطريقة ما. لا يمكنها أن تسحق سنه بصخرة، نظرت تالي حولها لتبحث عن أية أداة تساعدها، ولكن سكان الضباب الجديد أخرجوا كل الأشياء المفيدة من المرصد لكي يجري فحصها.

سمعت أصواتًا آتية من الظلام، إنها مادي قادمة وبصحبتها ديفيد وكروي، رأت تالي شيئًا يشبه الكماشة في يد مادي، فتسارعت دقات قلبها واضطربت.

جثت مادي بجانب زين وفتحت فمه بالقوة، فتأوه من الألم مرة أخرى حينما لمست الآلة المعدنية سنه.

قالت تالي متوسلة برفق «احترسي».

– «أمسكي هذا.» ناولتها مادي الكشاف الصغير الذي تمسك به، وعندما وجهت تالي الضوء المنبعث منه إلى داخل فم زين بدت السن ذات البياض المعكر واضحًا.

وبعد لحظة قالت مادي: «هذا سيئ»، ثم أرسلت رأس زين الذي استلقى مرة أخرى فوق الأغطية مغمضًا عينيه وهو يتألم.

– «فقط أخرجيها!»

– «لقد زرعوها داخل العظم.» استدارت مادي موجهة حديثها إلى كروي وقالت: «لتنتبه من حزم الأمتعة، علينا أن نهرب».

صاحت تالي: «افعلي شيئًا من أجله».

أخذت مادي الكشاف منها وقالت: «إنها مزروعة بداخل عظامه، سيكون عليَّ أن أحطم فكه لكي أخرجها».

«إذن لا تخرجيها، اجعليها تتوقف عن الإرسال! اسحقي السن! فهو يستطيع أن يتحمل ذلك!»

هزت مادي رأسها وقالت: «أسنان الحسان تصنع من المادة نفسها المستخدمة في صنع أجنحة الطائرات، لا يمكنكِ أن تسحقيها، فأنا أحتاج إلى جزيئات نانو خاصة يمكنها أن تعمل على تكسير المادة المكونة للأسنان».

أضاءت مادي الكشاف الصغير ورفعت يدها لكي تمسك بفم تالي. لوت تالي عنقها إلى الوراء مبتعدة عن مادي وقالت: «ماذا تفعلين؟»

– «فقط أتأكد منكِ».

– «ولكنني لم أذهب إلى المستـ ...» هكذا بدأت تالي تتكلم، ولكن مادي جذبت فكها إلى أسفل لكي تفتح فمها، أصدرت تالي هديرًا متذمرًا من حلقها ولكنها تركت مادي تبحث في فمها لحظة، انتهت مادي من مهمتها قبل أن تعود تالي إلى مجادلتها.

أرسلتها مادي وهي تهمهم، فسألتها: «هل اطمأننت؟»

– «مؤقتًا، ولكن علينا أن نترك زين».

صرخت تالي فيها: «انسي هذا الأمر!»

قال ديفيد: «سوف يصلون إلى هنا في خلال عشر دقائق».

ردت عليه مادي وهي تنهض: «أقل».

تدافعت أمام عينيها البقع الضوئية التي خلفها الكشاف الصغير، فلا تكاد ترى وجوههم في ضوء النار. ألا يفهمون كم الأشياء التي تحملها زين من أجل أن يصل إلى هنا، وما الذي ضحى به من أجل الدواء؟ «أنا لن أتركه».

«تالي ...» هكذا بدأ ديفيد يوجه حديثه إليها، ولكن مادي قاطعته: «لا يهم، من الناحية الفنية لا تزال خاضعة للتشوش العقلي الذي يصيب الحسان».

– «أنا لست كذلك!»

«إنكِ حتى لم تتناولي القرص الصحيح.» وضعت مادي يدها على كتف ديفيد وقالت: «لا تزال أنسجة مخ تالي تحتوي على الإصابات التي تحدثها العملية، عندما يفحصونه لن يضعوها على طاولة الجراحة، سوف يظنون أنها جاءت هنا فقط لتشارك أصدقاءها رحلتهم».

صاح ديفيد: «أماه، نحن لن نتركها!»

– «وأنا لن آتي».

هزت مادي رأسها وقالت: «ربما هذه الإصابات ليست خطيرة كما ظننا، لقد كان والدك دائمًا يظن أن التشوش العقلي الذي يصيب الحسان هو الحالة الطبيعية التي يكون عليها معظم الناس، فهم يرغبون في أن يكونوا تافهين وكسالى ومختالين

بأنفسهم». نظرت مادي إلى تالي واستطردت: «وأنانيين، كل ما يحتاجه هؤلاء لكي يعطلوا هذه الصفات هو تحول بسيط. كان يظن دائمًا أن بعض الأشخاص يمكنهم أن يجدوا مخرجًا من هذا الضباب بأنفسهم».

قالت تالي بصوت خافت: «إن آز كان محقًا، فأنا قد شفيت».

قال ديفيد في تذمر: «سواء شفيت أم لا يا تالي، لا يمكنكِ أن تبقي هنا. أنا لا أريد أن أخسركِ مرة أخرى، افعلي شيئًا يا أمي». كان صوته يحمل مسحة من الألم.

استدارت مادي ومشت تجاه مدخل المرصد بخطوات واسعة وقالت: «أتريد أن تتناقش معها؟ فلتفعل»، ثم استطردت دون أن تستدير خلفها: «سوف نرحل خلال دقيقتين معكما أو بدونكما».

ظل ديفيد وتالي صامتين لحظات قليلة، كما حدث في أول مرة التقيا فيها بالأطلال، لم يكن أي منهما يعرف ماذا يمكن أن يقول. ولكن تالي أدركت الآن أن وجه ديفيد لم يعد مصدومًا لها، ربما الرعب الذي تثيره هذه اللحظة أو الاغتسال في الماء قارس البرودة قد ذهبا ببقية أفكار الحسان أو ربما كانت تحتاج إلى بضع ساعات لكي تتوازى ذكرياتها وأحلامها مع الحقيقة ...

لم يكن ديفيد أميرًا، سواء قبيحًا أم غير ذلك، إنه أول فتى تقع في حبه، ولكنه ليس الأخير، فمرور وقت طويل على تجربتهما معًا قد غير ما كان بينهما.

والأهم من ذلك أن هناك شخصًا آخر تهتم به تالي الآن، لم يكن من العدل أن تنحي ذكرياتها عن ديفيد، ولكن لدى تالي الآن باقة جديدة من الذكريات، ولا يمكنها أن تستبدل ذكرياتها القديمة بها، هكذا بكل بساطة، فهي وزين ساعد كل منهما الآخر لكي يحافظا على يقظتهما، وكلاهما سجن داخل السوارين المعدنيين اللذين طوقا معصميهما، وهربا معًا من المدينة. لا يمكنها أن تتخلى عنه الآن، لأنه سُلب جزءًا من عقله.

إن تالي تعرف جيدًا هذا الشعور، حينما يُسلم شخص إلى أجهزة المدينة وهو بمفرده.

إن زين هو الشخص الوحيد في حياتها الذي لم تخنه قط، وهي لن تفعل ذلك الآن. أمسكت تالي بيده وقالت: «أنا لن أتركه».

«فكري تفكيرًا منطقيًا يا تالي.» كان ديفيد يتحدث إليها ببطء وكأنه يوجه حديثه إلى طفلة صغيرة، «لا يمكنكِ أن تساعدي زين إذا بقيتِ هنا. سوف يمسكون بكما معًا.»

– «إن والدتك على حق. إنهم لن يفعلوا أي شيء آخر بمخي، وأنا بإمكاني أن أساعده من داخل المدينة.»

– «يمكننا أن نهرب الدواء إلى زين، كما فعلنا معكِ.»

– «لم أكن أحتاج إلى الدواء يا ديفيد، وربما لن يحتاج إليه زين أيضًا. فسوف أبقيه يقظًا، ويمكنني أن أساعده على أن يعيد بناء الموصلات العصبية بمخه. ولكن الفرصة لن تتاح أمامه بدوني.»

بدأ ديفيد يتحدث مرة أخرى، ولكنه صمت لحظة متجمدًا في مكانه، ثم تغيرت نبرة صوته وبدأت عيناه تضيقان: «إنكِ ستبقين معه فقط لأنه من الحسان.»

اتسعت عينا تالي وقالت: «أنا ماذا؟»

– «ألا ترين ذلك؟ إنه مثلما كنتِ تقولين دائمًا، إنه التحول، منذ أن وصل أصدقاؤك من الأشقياء إلى هنا بدأت أمي تشرح لي كيف يعمل الحسن» أشار ديفيد إلى زين ثم استطرد: «فهو لديه هاتان العينان الواسعتان اللتان تشعران من ينظر إليهما بضعفه واحتياجه إلى الحماية، وهذه البشرة المثالية التي تشبه بشرة الأطفال، إنه يبدو مثل الرضيع، طفل يحتاج إلى الرعاية والأمان، مما يجعلكِ تودين أن تساعديه، إنكِ لا تفكرين بتعقل، إنكِ تضحين بنفسكِ فقط لأنه من الحسان!»

كانت تالي تحملق به في ذهول، كيف يجرؤ على قول ذلك «لها»؟ إن مجرد وقوفها هنا الآن قد أثبت أن تالي تستطيع أن تفكر تفكيرًا مستقلًا لا يؤثر عليه أي شيء.

ثم أدركت ماذا يحدث، إنه يعيد على مسامعها ما قالته له مادي، فلا بد أنها حذرته من الانسياق وراء مشاعره عندما يرى تالي في صورتها الجديدة، فمادي لم تكن ترغب في أن يتحول ابنها أمام عينيها إلى فتى قبيح اجتاحته هيبة الحسن، فأصبح يعشق التراب الذي تطأه تالي بقدميها.

ولذلك يظن ديفيد الآن أن كل ما تستطيع تالي أن تراه هو وجه زين الجميل. إنه لا يزال يظن أنها ليست إلا فتاة من فتيات المدينة. ربما هو لا يصدق حتى إنها قد شفيت. ربما لم يسامحها ديفيد قط.

قالت تالي بصوت يرتعش غضبًا: «إن هذا لا يتعلق بالشكل الذي يبدو عليه زين يا ديفيد، ولكن لأنه يجعلني متيقظة. لأننا واجهنا معًا الكثير من المخاطر، كان من الممكن أن أكون أنا من أرقد مكانه، وكان سيبقى معي إذا كان ذلك قد حدث».

– «إنه لون من ألوان البرمجة فقط!»

– «لا، سأبقى لأنني أحبه».

عندما بدأ ديفيد يتحدث إليها مرة أخرى اختنق صوته.

تنهدت تالي وقالت: «اذهب يا ديفيد، فمهما يكن ما قالته أمك منذ لحظات فهي لن ترحل من دونك، وسوف تمسك السلطات الخاصة بهم جميعًا إذا لم تبدأ في التحرك الآن».

– «تالي ...»

صرخت تالي في وجهه: «اذهب!». كان على ديفيد أن يركض الآن، وإلا سيموت الضباب الجديد، وستتحمل هي الإثم هذه المرة أيضًا.

– «ولكن بإمكانك ...»

صرخت تالي: «اغرب بوجهك القبيح من هنا!» وعكست جدران المرصد أصداء صيحتها المرتجفة لحظة. حولت تالي بصرها عن ديفيد، وأمسكت يدها بوجه زين برفق وقبلته. كان وقع هذه الإهانة التي صرخت بها في وجه ديفيد مثلما أرادته تمامًا، ولكنها لم تستطع أن ترفع بصرها وهي تسمع وقع أقدامه تتراجع في الظلام، ماشيًا في البداية ثم راكضًا بعد ذلك.

إنها ترى بطرف عينيها أشكالًا متذبذبة، لم تكن هذه هي الظلال التي عكسها وميض النار، لقد كان ذلك هو قلبها الذي تسارعت دقاته حتى إنها ترى الدم المتدفق إلى عينيها وهو ينبض بقوة داخل عروقها وكأنه يحاول الهرب.

لقد نعتت ديفيد بالقبيح، وهو لن ينسى ذلك أبدًا، ولا هي أيضًا.

ولكن كان «عليها» أن تستخدم تلك الكلمة، هكذا حادثت تالي نفسها، فكل ثانية تمر لها ثمن، ولم يكن هناك شيء يمكن أن يدفعه إلى مغادرة المكان بهذه القوة سوى ذلك، لقد اختارت تالي.

– «سوف أعتني بك يا زين».

فتح عينيه قليلًا وابتسم ابتسامة واهنة. «آمل ألا تكونين قد تضايقتِ لأنني تظاهرت بأنني فقدت وعيي من أجل ذلك».

أطلقت تالي ضحكة مختنقة وقالت: «إنها فكرة جيدة».

– «هل حقًا لا يمكننا أن نهرب؟ أنا أظن أنني أستطيع أن أقف على قدمي.»

– «لا، فسوف يعثرون علينا.»

تلمس زين سنه بلسانه وقال: «أوه، نعم، إن هذا سيئ للغاية، وكدت أيضًا أتسبب في أن يمسكوا بالجميع.»

هزت تالي كتفيها وقالت: «كنت مكانك في يوم من الأيام.»

– «هل أنتِ واثقة من أنكِ ترغبين في البقاء معي؟»

«يمكنني أن أهرب من المدينة مرة أخرى يا زين، في أي وقت أشاء، يمكنني أن أنقذك أنت وشاي وكل من تركناهم، لقد تعافيت إلى الأبد.» نظرت تالي إلى مدخل المرصد ورأت الألواح الطائرة ترتفع في الهواء، إنهم راحلون جميعهم.

هزت تالي كتفيها مرة أخرى وقالت: «بالإضافة إلى أن هذه خطة قد أنجزت بالفعل، فهروبي وراء ديفيد الآن سوف يفسد نوعًا ما سلسلة الأحداث التي قمت بها ببراعة من أجل أن أنهي العلاقة بيننا.»

– «نعم، أظن أن هذا صحيح.»

أطلق زين ضحكة خافتة وقال: «هلا أسديتِ إليّ معروفًا، يا تالي؟ إذا حدث وقررت أن تنهي علاقتنا معًا، فقط أخبريني بذلك في رسالة قصيرة.»

ردت عليه تالي بابتسامة: «حسنًا، ما دمت ستعدني ألا تضع يدك مرة أخرى داخل الساحقة.»

قال زين: «اتفقنا.» ونظر إلى أصابعه، ثم أطبقها معًا وأردف: «أنا خائف، أريد أن أبقى متيقظًا.»

– «سوف تستعيد يقظتك مرة أخرى، سوف أساعدك.»

أومأ برأسه وهو يمسك بيدها، ثم قال بصوت مرتعش: «هل تظنين أن ديفيد كان على حق؟ عيناي الواسعتان الجميلتان هما سبب اختيارك لي؟»

– «لا، أظن أن السبب هو ... ما قلته أنا، وما قلته أنت قبل أن تقفز من المنطاد.»

ابتلعت تالي ريقها، واستطردت: «ما رأيك؟»

استلقى زين على الفراش وأغمض عينيه، وظل صامتًا فترة طويلة حتى إن تالي ظنت أنه خلد إلى النوم مرة أخرى.

ولكنه عندئذ قال بصوت خافت: «أنتِ وديفيد كلاكما قد يكون على حق. ربما يكون البشر مبرمجين ... على أن يساعد بعضهم بعضًا،

وحتى على أن يقع بعضهم في حب بعض، ولكن كون هذه هي الطبيعة البشرية فقط لا يجعل هذا الأمر سيئًا. إلى جانب أننا كنا نعيش وسط مدينة كاملة من الحسان يمكن أن نختار من بينهم، ولكن اختار كلٌّ منا الآخر».

أمسكت يده وتمتمت: «أنا سعيدة لأننا فعلنا».

ابتسم زين وأغمض عينيه مرة أخرى، وبعد لحظة رأت تالي أنه يتنفس ببطء، فعرفت أنه نجح في أن يفقد وعيه مرة أخرى، فتلف خلايا المخ قد يكون له بعض الفوائد.

شعرت تالي بأن آخر ما تبقى من طاقتها يتسلل من جسمها، وتمنت لو أنها تمكنت هي الأخرى من أن تخلد إلى النوم، بدلًا من أن تقضي هذه الساعات القليلة القادمة وهي فاقدة الوعي وتستيقظ لتجد نفسها في المدينة، أميرة محتجزة بمحبسها مرة أخرى، وكأن كل ما مرت به كان حلمًا. وضعت رأسها على صدر زين وأغمضت عينيها.

وبعد خمس دقائق وصلت السلطات الخاصة.

الفصل السادس والثلاثون

السلطات الخاصة

ملأت جلبة العربات الطائرة أرجاء المرصد، وترددت أصداؤها مثل صيحات الطيور المفترسة.

تدفقت الزوابع التي أثارتها مراوحها الرافعة من الشق الموجود بسقف القبة، فتوهجت النار فجأة، واختنق الهواء بالغبار. تدافعت أجسام رمادية عبر المدخل، متخذة مواقعها في الأماكن التي انعكست عليها الظلال.

- «أحتاج إلى طبيب هنا، فهناك سوء قد ألم بصديقي». هكذا أعلنت تالي بصوت خشن يملؤه التردد.

خرج واحد من عملاء السلطات الخاصة من الظلام يمسك بسلاح في يده ووقف بجانبها: «لا تتحركا، فنحن لا نود أن نؤذيكما، ولكننا سنفعل إذا اضطررنا إلى ذلك».

قالت تالي: «فقط ساعدوا صديقي، فهو مريض». فكلما أسرع أطباء المدينة في تفحص زين كان ذلك أفضل. ربما كان باستطاعتهم أن يقدموا له شيئًا أكبر مما قدمته مادي.

تلفظ عميل السلطات الخاصة ببعض الكلمات في الهاتف اليدوي، وأرخت تالي بصرها ونظرت إلى زين الذي كان الخوف يطل برأسه من عينيه المفتوحتين قليلًا.

قالت تالي: «إن كل شيء على ما يرام، سوف يساعدونك».

ابتلع زين ريقه، ورأت تالي أن يديه ترتعشان، لقد كانت آخر خطوط شجاعته وإقدامه تتهاوى مع وصول صياديهم.

قالت تالي: «سوف أحرص على إتمام علاجك، بطريقة ما أو بأخرى».

قال عميل السلطات الخاصة: «هناك فريق طبي قادم». فابتسمت تالي له بطريقة الحسناوات المعهودة. قد يظن أطباء المدينة أن حالة زين هي نوع من أنواع الأمراض

التي تصيب المخ، أو ربما يكتشفون أن شخصًا ما حاول أن يعالج الإصابات التي تحدثها العملية، ولكنهم لن يعرفوا أبدًا كيف تحولت تالي بنفسها.

يمكنها أن تتظاهر بأنها قد جاءت هنا فقط لتشارك أصدقاءها رحلتهم، مثلما قالت مادي، فتالي لم تعد معرضة الآن لخطر الجراحة.

ربما يمكن أن يشفى زين مرة أخرى دون الحاجة إلى المزيد من الأقراص، وربما يمكن أن يتغير كل سكان المدينة، فسوف تزداد شهرة تالي وزين بعد هروبهما بالمنطاد و«إنقاذهما» مرة أخرى على يد السلطات الخاصة. ربما يكون بإمكانهما أن يبدأ حملة ضخمة لا تستطيع السلطات الخاصة أن توقفها.

انطلق من بين الظلال صوت حاد مثل شفرة السكين، وسرت رعدة بجسد تالي.

– «لقد ظننت أنني قد أجدكِ هنا يا تالي.» خطت دكتورة كابل داخل الضوء وهي تبسط أصابعها باتجاه النار وكأنها دلفت إلى الداخل بحثًا عن الدفء.

– «مرحبًا دكتورة كابل، هل يمكنك أن تساعدي صديقي.»

لمعت في الظلام ابتسامة المرأة التي تشبه ابتسامة الذئاب: «ألم بالأسنان؟»

هزت تالي رأسها وقالت: «بل الأمر أسوأ من ذلك، إنه لا يستطيع أن يتحرك، وبالكاد يمكنه أن يتكلم، هناك شيء قد ألم به.»

تدفق المزيد من عملاء السلطات الخاصة إلى المرصد، من بينهم ثلاثة يحملون محفة ويرتدون الحرير الأزرق وليس الرمادي، أبعدوا تالي عن الطريق ووضعوا المحفة على الأرض بجانب زين، فأغمض عينيه.

قالت دكتورة كابل: «لا تقلقي، سيكون بخير، لقد عرفنا كل شيء عن حالته من خلال رحلتكما القصيرة إلى المستشفى، فعلى ما يبدو أن أحدًا هرب إلى زين بعض جزيئات النانو الخاصة بالمخ، وهو ما أضر جدًا بجمال عقله.»

– «كنتم تعرفون أنه مريض؟» نهضت تالي ثم استطردت: «ولِمَ لَمْ تعالجوه؟»

ربتت دكتورة كابل على كتفها وقالت: «لقد أوقفنا عمل جزيئات النانو، ولكن الجسم الصغير المزروع بسنه كان مبرمجًا بحيث يسبب له آلام الصداع، أعراض زائفة حتى تبقيكما في حالة تحفز واستعداد.»

– «كنتِ تتلاعبين بنا ...» هكذا قالت تالي وهي تشاهد عملاء السلطات الخاصة وهم يحملون زين إلى الخارج.

أدارت دكتورة كابل بصرها في أرجاء المرصد وقالت: «كنت أود أن أعرف ما الذي تخططان له، وأين ستذهبان، فقد ظننت أنكما قد توصلتما إلى هؤلاء المسئولين

عن مرض الفتى الصغير زين». وقطبت جبينها ثم استطردت: «كنت سأنتظر قليلًا قبل أن أشغَل شريحة التعقب، ولكن بعدما تصرفتِ بوقاحة شديدة مع صديقي العزيز د. فالين هذا الصباح، رأيت أنه يجب أن نخرج من المدينة ونعيدكما إلى الوطن، فأنتما تعرفان جيدًا كيف تثيران المشكلات».

ظلت تالي صامتة والأفكار تتدافع إلى رأسها؛ لقد شُغِّلت شريحة التعقب التي زرعت بسن زين عن بعد، ولكن ليس قبل أن يعثر العلماء الآخرون على دكتور فالين، مرة أخرى تحضر تالي معها السلطات الخاصة.

«كنا نحتاج إلى عربة لنهرب بها، ولكننا ضللنا الطريق.» هكذا قالت تالي وهي تحاول أن تبدو حسناء.

– «نعم، لقد وجدناها في الأطلال، ولكنني لا أظن أنكِ قطعت كل هذا الطريق إلى هنا سيرًا على الأقدام، من ساعدكِ يا تالي؟»

هزت تالي رأسها وأجابتها: «ما من أحد».

ظهر أحد العلماء بجانب دكتورة كابل مرتديًا حلة من الحرير الرمادي وبلغها بخبر عاجل. اقشعر جلد تالي من حدة صوته، ولكنها لم تستطع أن تفهم أيًا من الكلمات التي تمتم بها.

«أرسلوا الصغار وراءهم.» هكذا أصدرت إليه دكتورة كابل أوامرها، ثم استدارت مرة أخرى لتكمل حديثها مع تالي.

«ما من أحد، هكذا قلت؟ وماذا عن نيران الطهي وشباك الصيد والمراحيض؟ يبدو أن عددًا قليلًا من الأشخاص كانوا يعسكرون هنا ورحلوا، ولكنهم رحلوا منذ وقت قليل.» هزت دكتورة كابل رأسها واستطردت قائلة: «للأسف وصلنا إلى هنا متأخرين».

رسمت تالي ابتسامة حسناء على وجهها وقالت: «لن تمسكي بهم.»

– «أحقًا ذلك؟» لمعت أسنان دكتورة كابل في ضوء النار وقالت: «إن لدينا نحن أيضًا بعض الحيل يا تالي».

استدارت دكتورة كابل واتجهت إلى المدخل بخطوات واسعة، وحينما حاولت تالي أن تتبعها أمسك واحد من السلطات الخاصة بكتفها بقبضة من حديد وأجلسها بجانب النار.

من داخل القبة سمعت تالي أصواتًا خافتة لأشخاص يصيحون بالأوامر ومزيدًا من العربات الطائرة تهبط بالخارج، ولكنها لم تعد تحاول معرفة ما يحدث عبر المدخل، وانصرفت إلى مشاهدة لهب النار وقد تملكها الحزن.

فالآن فقط بعد أن أخذوا زين بعيدًا شعرت تالي بأنها قد هزمت. لقد تلاعبت بها دكتورة كابل ببراعة واستدرجتها مرة أخرى لكي تعثر على الضباب الجديد، فكادت أن تخون الجميع مرة أخرى.

وبعد تلك الكلمات الأخيرة التي قالتها لديفيد لا بد أنه كرهها.

ولكن على الأقل هرب فاوستو والأشقياء الآخرون من المدينة، وهي تأمل ألا يعودوا إليها أبدًا، فقد كان الأشقياء وسكان الضباب الجديد محظوظين لهروبهم قبل وصول السلطات الخاصة بدقائق قليلة. لا يمكنهم أن يسبقوا عربات السلطات الخاصة إذا حلقوا في خط مستقيم، ولكن الألواح الطائرة تتميز بخفة حركتها، وبدون شريحة التعقب التي يحملها زين بداخل سنه والتي يمكن أن تفضح أمرهم، يمكنهم ببساطة أن يختفوا عن الأنظار في أرجاء الغابة المحيطة بالمكان.

لقد أضاف هروب تالي وزين أربعة عشر فردًا من الأشقياء إلى سكان الضباب الجديد، والآن وقد اختُبِرَ الدواء، يمكنهم أن يحضروه إلى المدينة والمدن الأخرى، وفي النهاية سيتطور الجميع.

ربما لم تكسب المدينة هذه الجولة.

وقد يكون إمساك السلطات بهم هو أفضل شيء لزين، فبإمكان أطباء المدينة أن يعالجوه أفضل من حفنة من الخارجين عن القانون في هروب دائم من السلطات. ركزت تالي تفكيرها على الطريقة التي يمكن أن تساعد بها زين على أن يسترد عافيته، وتجعله يسترد تيقظه من البداية مرة أخرى إذا اضطرت إلى ذلك.

ربما يمكنها أن تبدأ هذا الأمر بقبلة ...

مرت ساعة تقريبًا على وصول السلطات الخاصة، وخبا لهيب النار ولم تعد تشتعل بقوة، فبدأت تالي تشعر بالبرودة مرة أخرى، وتحرك ظل في شعاع شمس الأصيل الأحمر الذي ينحدر من الشق الموجود بسقف القبة، وهي ترفع درجة حرارة جهاز التدفئة الموجود بسترتها.

انتفضت تالي حينما رأت شخصًا على متن لوح طائر يهبط من ذلك الشق. هل عاد ديفيد لينقذها؟ هزت تالي رأسها، إن مادي لن تدعه أبدًا يفعل ذلك.

انطلق صوت أجش من فوق سطح اللوح الطائر قائلًا: «لقد أمسكنا باثنين منهم.» كان الحرير الرمادي المصنوع منه زي السلطات يرفرف أمامها، حيث كان اثنان من الأشخاص يهبطان عبر الشق الموجود بالقبة. كانت الألواح الطائرة أطول

من المعتاد وقد ثبتت على طرفيها الأمامي والخلفي مراوح رافعة. هيجت هذه المراوح جمرات النار. إذن هذه هي الخدعة، هكذا خطر لها. عملاء السلطات الخاصة على متن ألواح طائرة، فكرة مثالية لتعقب سكان الضباب الجديد. تساءلت تالي من يكون هذان اللذان أمسكا بهما.

«أقبحاء أم حسان؟»، هكذا سألت دكتورة كابل، رفعت تالي بصرها فوجدت أن دكتورة كابل قد انضمت لها مرة أخرى عند النار.

– «إنهما اثنان من الأشقياء، فقد هرب القبحاء جميعًا.» هكذا جاءت الإجابة. أدركت تالي أنه خلف شدة ذلك الصوت القاطعة مثل نصل السكين هناك نبرة صوت تميزها في صوت عميل السلطات الخاصة.

– «آه، لا.» هكذا قالت تالي بصوت خافت.

– «آه، نعم يا تالي-وا.» قفزت فتاة من سطح اللوح الطائر وتقدمت حتى انعكس ضوء النار عليها، «جراحة جديدة، هل أعجبتك؟»

لقد كانت هذه هي شاي، إنها واحدة من عملاء السلطات الخاصة.

– «لقد جعلتني دكتورة كي أحصل على المزيد من الوشوم، أليست مبهرة للغاية؟»

نظرت تالي إلى صديقتها، وقد أرعبها مدى تحولها، فخطوط الوشم المتحركة التي تدور حول نفسها تغطيها، وكأن جلدها لف بشبكة من الخطوط السوداء النابضة، ووجهها النحيف مكسوّ بملامح وحشية قاسية، وحواف أسنانها العليا قد بُردت لتصبح رءوسًا حادة مثل زوايا المثلث، إنها أطول من تالي وقد زود ذراعاها العاريتان بعضلات جديدة قاسية، وبرز صف الندوب التي خلفتها الجروح التي أحدثتها شاي بذراعيها حيث أحاط به إطار من الوشوم التي تلف في دوائر.

كانت عينا شاي تلمعان في ضوء النار مثل عيني حيوان ضارٍ، يتغير لونهما ما بين الأحمر والبنفسجي في وميض ألسنة اللهب المتراقصة.

إنها لا تزال حسناء، بالطبع، ولكن خفة حركاتها التي بدت وحشية والتي لا تمت إلى الجنس البشري بصلة جعلت تالي ترتعد وكأنها تشاهد عنكبوتًا ملونًا يجتاز خيوط شبكته.

هبطت الألواح الأخرى وراءها، كان هوو وتاكس، عضوا جماعة الجارحين الخاصة بشاي، يمسكان بجسدين نحيلين، انكمشت عضلات وجه تالي، حينما تبينت

أنهما قد أمسكا بفاوستو، الذي لم يستقل أي لوح طائر في حياته إلا منذ أيام قليلة، ولكن الآخرين معظمهم هربوا، على الأقل ... واستطاع ديفيد أن ينجو بنفسه.

إن الضباب الجديد لا يزال حيًّا.

– «أليست الجراحة الجديدة التي حصلت عليها جميلة، يا تالي-وا؟» هكذا سألتها شاي ثم استطردت: «ليس بما يكفي لكِ؟».

هزت تالي رأسها في تعب وقالت: «لا، إنها رائعة يا شاي-لا».

ملأت ابتسامة وحشية عريضة وجه شاي وردت عليها: «تستحق حوالي تريليون مللي-هيلين، أليس كذلك؟».

– «هذا على الأقل.» حولت تالي بصرها عن صديقتها وحملقت في النار.

جلست شاي بجانبها. «إن كونكِ واحدة من السلطات الخاصة يجعلكِ متيقظة ومنتبهة إلى درجة لا يمكنكِ تصورها يا تالي-وا. إن كل لحظة تمر عليكِ تكون مفعمة بالحيوية، وكأنني أستطيع أن أسمع ضربات قلبك وأستشعر طنين التيار الكهربي المنبعث من سترتك التي تدفئك، أستطيع أن أشتم خوفك».

– «أنا لست خائفة منكِ، يا شاي-لا.»

– «أنتِ خائفة بعض الخوف يا تالي-وا، لا يمكنكِ أن تكذبي عليَّ بعد الآن.» لفت شاي ذراعها حول تالي. «هاي، أتذكرين هذه الوجوه المجنونة التي كنت أصممها عندما كنا قبيحتين؟ سوف تجعلني دكتورة كابل أحصل عليها الآن، فالجارحون يمكنهم أن يحصلوا على الجراحات كما يحلو لنا، حتى أعضاء اللجنة الخاصة بشئون الجمال أنفسهم، لا يمكنهم أن يقولوا لنا ما الأشكال التي يجب أو لا يجب أن نكون عليها.»

– «لا بد أن هذا شيء عظيم لكِ.»

– «أنا وجماعتي الجارحون نعد الفرقة الجديدة الرائعة في السلطات الخاصة، يمكن القول إننا فرقة خاصة من السلطات الخاصة، أليس هذا مبهجًا؟»

استدارت تالي لتواجهها، محاولة أن تعرف ماذا تخفي العينان اللتان تلمعان باللونين الأحمر والبنفسجي، فعلى الرغم من حديثها بلغة الحسان تلك فقد استشعرت تالي ذكاء جامدًا كامنا في نبرة صوت شاي، وابتهاجًا وحشيًا بإيقاعها بصديقتها التي خانتها فيما مضى في شرك السلطات الخاصة.

لقد بدا لها أن شاي تمثل جنسًا جديدًا من الحسان أصحاب القلوب القاسية، جنسًا أسوأ بكثير من جنس دكتورة كابل، أكثر بعدًا عن الجنس البشري.

– «أأنت سعيدة حقًا يا شاي؟»

اختلجت شفتا شاي، ومررت أسنانها الحادة فوق شفتها السفلى للحظة، ثم أومأت برأسها وقالت: «نعم، لأنني استعدتكِ مرة أخرى يا تالي-وا. لم يكن لطيفًا منكم أن تهربوا جميعكم هكذا بدوني، كان شيئًا محزنًا للغاية».

– «كنا نريدكِ معنا يا شاي، أقسم لكِ. لقد تركت لكِ كل هذه الرسائل.»

– «كنت مشغولة.» ركلت شاي بحذائها الطويل جمرات النار التي كادت تخبو ثم استطردت في تذمر: «أجرح نفسي بحثًا عن دواء».

– «إلى جانب أنني سئمت العيش بالمعسكرات، وعلى أية حال نحن معًا الآن، أنا وأنتِ.»

– «نحن ضدان.» كادت نبرة صوت تالي أن تقترب من الهمس وهي تلفظ تلك الكلمات.

– «لا يمكن يا تالي-وا.» ضغطت يد شاي على كتفها بخشونة. «لقد سئمت من كل هذه الخلافات والعداوة التي بيننا، من الآن فصاعدا ستكون أنا وأنتِ أفضل صديقتين إلى الأبد.»

أغمضت تالي عينيها، إذن هكذا ستنتقم شاي.

– «أنا أحتاج إليكِ في فرقة الجارحين يا تالي، إنها ستشحذ انتباهكِ ويقظتكِ.»

– «لا يمكنكِ أن تفعلي هذا بي.» هكذا همست تالي وهي تحاول أن تبتعد عنها. أمسكتها شاي بقوة. «الحقيقة يا تالي-وا هي أنني أستطيع.»

– «لا!» هكذا صرخت تالي وهي تدفع شاي بقوة محاولة بصعوبة أن تقف على قدميها.

بحركة أسرع من البرق امتدت يد شاي إلى الأمام وشعرت تالي بلدغة حادة في رقبتها. وبعد لحظات شعرت بضباب كثيف يلفها. استطاعت أن تبتعد عن شاي بصعوبة وأن تخطو بضع خطوات وهي تترنح، ولكن بدا لها أن عظام قدميها تنصهر وسقطت على الأرض.

هبط غطاء رمادي فوق النار المشتعلة أمامها، فبدأ الظلام يسود من حولها.

ترامت إلى أذنيها عبر الفراغ كلمات يلفظها صوت شديد كالسكين: «واجهي الأمر يا تالي-وا، لقد أصبحتِ ....»

الفصل السابع والثلاثون

أحلام سخيفة

على مدار الأسابيع القليلة التي تبعت ذلك لم تستيقظ تالي قط، كانت تتقلب في نومها أحيانًا فتدرك من ملمس الوسائد والملاءات أنها في الفراش، ولكن عقلها يحلق في معظم الأحيان بعيدًا عن جسدها، وأخذ يدخل ويخرج من تنويعات مفككة لحلم واحد يتكرر...

هناك أميرة جميلة محتجزة ببرج عالٍ، برج جدرانه من مرايا مفتوحة لا توصد أبدًا. لم يكن هناك مصعد أو أي طريق آخر يسمح لها بالنزول، ولكن عندما سئمت الأميرة من النظر إلى وجهها الجميل في المرايا المحيطة بها قررت أن تقفز من البرج، أرسلت دعوات لجميع أصدقائها لكي يأتوا معها، وتبعوها جميعًا إلى أسفل، فيما عدا أعز صديقاتها التي فقدت دعوتها.

وهناك تنين رمادي يتضور جوعًا يحرس البرج، عيناه حبتان من الجواهر، ولديه الكثير من الأرجل حتى إنه من الصعب رؤيته وهو يتحرك من شدة سرعته، ولكنه تظاهر بأنه نائم لكي يدع الأميرة وأصحابها يتسللون من أمامه. ولا يمكن أن يخلو مثل هذا الحلم من أمير، الأمير وسيم وقبيح، مرح وجادّ، حذر وشجاع. في البداية كان يعيش معها في البرج، ولكن عندما تقدم بها الحلم بدا لها أنه كان ينتظرها بالخارج طوال الوقت. لم يكن غريبًا في منطق الأحلام أن يبدو هو لها كأميرين عليها أن تختار بينهما. أحيانًا تختار الأميرة الأمير الوسيم، وأحيانًا أخرى تختار الأمير القبيح، ولكن في كلتا الحالتين يعتصر الأسى قلبها.

أيًا كان من تختاره الأميرة لا تتغير نهاية الحلم. كانت دائمًا أفضل صديقاتها، الصديقة التي فقدت دعوتها، تحاول أن تتبعها، ولكن التنين الرمادي استيقظ من

نومه وابتلعها، أعجبه طعمها كثيرًا، فتبع بقية أصدقائها متعطشًا لالتهام المزيد منهم. ومن داخل معدة التنين تتطلع صديقتها من عينيه وتتكلم من بين شفتيه وهو يقسم بأنه سيعثر على الأميرة ويعاقبها لأنها خلفت وراءها إحدى صديقاتها.

أثناء كل هذه الأسابيع التي ظلت خلالها مستسلمة للنوم، كان الحلم يتوقف دائمًا عند النهاية نفسها، يأتي التنين إلى الأميرة وفي كل مرة يقول لها الكلمات نفسها:

«واجهي الأمر، يا تالي-وا، لقد أصبحتِ عميلة للسلطات الخاصة».

إشادة برواية القبحاء

«تتمتع الرواية ببداية ونهاية مفعمتين بالتشويق، وهي تتناول المستقبل الكئيب في ظلالحكم الاستبدادي وانعدام الحريات، مما يعدنا بإصدار أجزاء أخرى تُكَوِّن سلسلة شائقة ... تحفل النهاية الرائعة بإمكانيات التغيير الإيجابية».

كيركس ريفيو، مجلة نقدية مرموقة

«من حسن الحظ أن النهاية الشائقة التي تحبس الأنفاس تبشر باحتمال إصدار جزء ثانٍ».

سكول لايبراري جورنال، مجلة نقدية مرموقة

«سينجذب اليافعون لما تتناوله الرواية من موضوعات مثيرة تتعلق بالتكنولوجيا الجراحية، والمجتمع المهووس بالمظهر، والمآزق الأخلاقية للغريم الذي يتحول إلى حليف ... إنها تتميز بأسلوب بارع».

«بوك ليست» مجلة نقدية مرموقة

«سيعجب اليافعون بمجموعة الأدوات التي ترد في الرواية، بما فيها سترات القفز، والألواح الطائرة التي تعمل بقوة الرفع المغناطيسي ... يطرح ويسترفيلد قضايا تحفز التفكير حقًا».

مجلة ببليشرز ويكلي

«تطرح هذه الرواية — الأولى ضمن ثلاثية — أسئلة شائقة حول معنى الجمال، والتفرد، والخيانة. ونزكي هذا الكتاب بشدة لهواة الخيال العلمي أو لكل من يحب أن يعيش مغامرة رائعة تدعو إلى التأمل العميق.»

مجلة كِلِيات

«إن رواية القبحاء ليست رواية تدعو للتأمل صدرت في الوقت المناسب فحسب، بل هي رواية تحبس الأنفاس، يعجز القارئ أن يتركها من يده حتى ينتهي منها، وتجعله يتلهف على الحصول فورًا على الجزء الثاني «الحسان» في ثلاثية سكوت ويسترفيلد.»

موقع Teenreads.com

رشحتها جمعية المكتبات الأمريكية لتكون ضمن أفضل الكتب الموجهة إلى اليافعين عام ٢٠٠٦.

ترقب الخاتمة المثيرة للثلاثية: المتميزون

بقلم سكوت ويسترفيلد

انطلقت الألواح الستة الطائرة بين الأشجار برشاقة تشبه رشاقة أوراق اللعب وهي تُلقى بسرعة خاطفة. انحنى ركابها وداروا ضاحكين حول أفرع الشجر المثقلة بالجليد، وهم يثنون رُكبهم ويبسطون أذرعهم عند الانعطاف، وفي أعقابهم تلالا وابل ثلجي بلوري بفعل تساقط الكتل الجليدية الصغيرة التي تدلت من أوراق شجر الصنوبر الإبرية إثر اهتزازها، وقد بدت متوهجة في ضوء القمر.

شعرت تالي بكل ما حولها بوضوح تام: فشعرت بشدة برودة الرياح القاسية وهي تصطدم بيديها العاريتين، وبالجاذبية المتغيرة وهي تلصق قدميها باللوح الطائر. وأخذت تستنشق هواء الغابة، حتى شعرت بأغصان الصنوبر تغلف حلقها ولسانها وكأنها شراب سكري ثقيل القوام.

كانت برودة الهواء تجعل الأصوات أكثر حدة: فذيل سترتها الفضفاض كان يرتطم بالهواء مصدرًا صوت أجش مثل العلم الذي تقرعه الرياح، وحذاؤها المقاوم للانزلاق كان يصدر صريرًا وهي تطأ به على سطح اللوح الطائر كلما انعطفت. وكان فاوستو يبث موسيقى راقصة عبر شبكة التواصل المغروسة في جلدها، لكنها لم تكن مسموعة لمن حولها. وعلى خلفية الإيقاع الصاخب للموسيقى، كانت تالي تسمع صوت كل خلجة من خلجات عضلاتها الجديدة.أخذت تالي تضيق عينيها لتتقي الهواء البارد، فدمعت عيناها، غير أن الدموع زادت من حدة بصرها. وأخذت الكتل الجليدية المتدلية من الأشجار تمر بجوارهم في شكل شرائط متلألئة، وغلف

ضوء القمر العالم بغلاف فضيّ، فبدا كل شيء من حولها أشبه بفيلم قديم غير ملون عاد ينبض بالحياة.

كان ما يميز جماعة الجارحين رؤية كل شيء جليديًا شفافًا الآن، وكأن العالم من حولها يكشف لها عما تحت جلدها.

انقضت شاي من أعلى حتى أصبحت بجوار تالي، فاحتكت أصابعهما للحظة وابتسمت لها ابتسامة سريعة. حاولت تالي أن تبادل شاي الابتسام، لكنها شعرت باضطراب في معدتها عندما نظرت إلى وجهها. فالجارحون الخمس متنكرون الليلة، وقد أخفوا حدقاتهم السوداء تحت عدسات لاصقة باهتة اللون، وأضفت الأقنعة البلاستيكية الذكية ملمسًا أملس على فكوكهم الجميلة ذات الملامح القاسية. لقد حوّلوا أنفسهم إلى قبحاء لأنهم كانوا سيتطفلون على حفل مقام في حديقة كليوباترا بارك.

لم يستعد عقل تالي بعد للحفلات التنكرية؛ فهو رأى أنه كان مبكرًا للغاية أن تنهمك في عمل تنكري، فلم يمض على انضمامها إلى المتميزين سوى شهرين، وعندما نظرت إلى شاي توقعت أن ترى أعز صديقة لها في طلعتها الجديدة الرائعة بعد أن اكتسبت جمالاً بمسحة من القسوة، لا أن تراها وهي متنكرة في هيئة قبيحة. انعطفت تالي بلوحها لتتفادى غصنًا مثقلًا بالجليد فابتعدت عن شاي، وصبت تركيزها على العالم الذي يتلألأ من حولها، وعلى تحريك جسدها حتى ينطلق اللوح بين الأشجار. وكان لاندفاع الهواء البارد ليساعدها على إعادة التركيز على البيئة المحيطة بها بدلًا من التركيز على إحساس الافتقاد الذي يعتمل بداخلها، ذلك الإحساس الذي انتابها بسبب عدم وجود زين معهم.

قالت شاي: «أمامنا مجموعة من القبحاء عددهم ينبئ بأنهم في طريقهم إلى حفل». وانطلقت كلماتها وسط الموسيقى فالتقطتها الشريحة المغروسة في فكها، وبثتها عبر شبكة التواصل المغروسة في جلودهم بدرجة أقرب إلى الهمس. أضافت: «هل أنت واثقة أنك مستعدة لهذا يا تالي-وا؟».

أخذت تالي نفسًا عميقًا وهي تستنشق الهواء البارد الذي يساعد على تصفية الذهن. وكانت لا تزال تشعر باهتياج أعصابها، ولكن لن يكون من المنطقي أن تتراجع الآن. قالت: «لا تقلقي أيتها القائدة، سيكون هذا مثيرًا».

قالت شاي: «يجب أن يكون مثيرًا، فلا تنسي أنه حفل. لنستمتع بوقتنا أيها القبحاء الصغار». ضحك بعض أعضاء جماعة الجارحين ضحكة خافتة وهم يتطلعون إلى

وجوه بعضهم البعض المستعارة. عادت تالي إلى التفكير في القناع الذي ترتديه والذي يبلغ سمكه مليمترات قليلة، إذ كان وجهها مغطى بانتفاخات ونتوءات بلاستيكية جعلت وجهها يبدو معيبًا تكسوه البثور وحجبت الشبكة الرائعة من الوشوم فائقة الجمال التي علت وجهها. واختفت أسنانها الحادة خلف أسنان زائفة معوجة، بل وغطت يديها المزينتين بالوشوم بشرة مستعارة توضع بالرش.

نظرة عابرة واحدة في المرآة كشفت لتالي كيف تبدو، إنها تشبه القبحاء تمامًا؛ فهي بشعة معوجة الأنف ممتلئة الخدين، وارتسمت على وجهها أمارات اللهفة والتوق إلى عيد ميلادها التالي و إجراء عملية تشويش العقل وعبور النهر؛ بعبارة أخرى أصبحت صبية مرة أخرى في الخامسة عشرة من عمرها.

هذه هي أول حيلة تقوم بها تالي منذ أن صارت من المتميزين. وتوقعت أن تكون مستعدة لأي شيء الآن، فالعمليات الكثيرة التي أجريت لها زودتها بعضلات جديدة قوية، واستجابات مضبوطة على سرعة أشبه بسرعة الأفاعي، علاوة على إنها قضت شهرين تتدرب في معسكر الجارحين، كانت أثناءهما تعيش في البرية دون أن تحصل على قسط كافٍ من النوم ودون أي مؤن.

غير أن نظرة واحدة في المرآة كانت كفيلة بأن تهز ثقتها.

ولم يكن هناك جدوى من قدومهم إلى المدينة عبر ضواحي مدينة «كرامبلي فيل» طائرين فوق صفوف من البيوت التي يلفها الظلام. أورثها ضجر المكان الذي نشأت فيه شعورًا بلزوجة على طول باطن ذراعيها، ولم يُجدِ نفعًا ملمسُ الزي القابل لإعادة التدوير على جلدها الجديد الحساس. خيل إليها أن الأشجار المشذبة في المنطقة الخضراء تضيق الخناق عليها، وكأن المدينة تحاول أن تعيدها بالقوة إلى الأحوال العادية. كان يروق لها كونها من المتميزين، وانطلاقها في الهواء الطلق، واستمتاعها بالإثارة والقوة، وشعورها بأنها أفضل من الآخرين، ولم تطق صبرًا على العودة إلى البرية ونزع هذا القناع القبيح من على وجهها.

ضمت تالي قبضتيها وأخذت تنصت إلى شبكة التواصل المغروسة في جلدها. غمرتها موسيقى فاوستو وأصوات الآخرين: أصوات تنفسهم المنخفضة، وصوت ارتطام الرياح بوجوههم. تخيلت أنها تسمع صوت دقات قلوبهم، وكأن الحماس المتزايد الذي كان ينتاب الجارحين يتردد صداه في عظامها.

حين لاحت أنوار الحفل، قالت شاي: «تفرقوا، لا نريد أن نبدو مترابطين أكثر من اللازم».

تفرق تشكيل الجارحين. بقيت تالي مع فاوستو وشاي، وانفصل عنهم هوو وتاكس بالقرب من أعلى الحديقة. ضبط فاوستو جهاز الموسيقى الذي معه فخفتت الموسيقى، ولم يبق سوى صوت الرياح المندفعة والصخب البعيد الصادر من الحفل.

أخذت تالي نفسًا آخر في توتر، وداهمتها رائحة الحاضرين: رائحة العرق الكريهة والمشروبات الكحولية المسكوبة. لم يكن نظام الموسيقى الراقصة في الحفل يعتمد على أجهزة التواصل المغروسة في الجلد، وإنما كان يبث الموسيقى في الهواء، فتتبعثر الموجات الصوتية وتتحول إلى مئات الانعكاسات بين الأشجار. لطالما كان القبحاء يميلون إلى الضجيج.

بفضل التدريب علمت تالي أنها من الممكن أن تسبر أغوار الغابة وهي مغمضة العينين اعتمادًا على صدى الصوت، وإن كان شديد الضعف، مثل الخفاش الذي يهتدي بصوته. أما الليلة فكانت في حاجة إلى حاسة البصر الخاصة التي تتمتع بها. لشاي عيون في مدينة القبحاء، وقد سمعوا أن هناك غرباء سيحضرون الحفل دون دعوة، وأن هؤلاء الغرباء هم من «الضبابيين الجدد» الذين يوزعون جزيئات النانو ويثيرون المتاعب.

وهذا هو سبب حضور الجارحين الحفل، فهذا «ظرف خاص» يستدعي تدخل السلطات الخاصة.

هبط الثلاثة مباشرة خارج دائرة الأضواء المتقطعة التي تشعها المصابيح الطائرة، وقفزوا على أرض الغابة التي تكسوها أوراق الصنوبر إبرية الشكل وقطع الصقيع. وجهت شاي الألواح لتنتظرهم عند قمم الأشجار، ثم رمقت تالي بنظرة باسمة وقالت: «رائحتك تنم عن توتر».

هزت تالي كتفيها وهي تشعر بعدم الراحة في زي عنبر القبحاء الذي ترتديه. تتمتع شاي بقدرة على التعرف على شعور المرء من رائحته. ردت تالي: «ربما أيتها القائدة».

وهنا — وهم على أعتاب الحفل — نشطت بقعة مؤلمة من ذاكرتها، فتذكرت المشاعر التي كانت تنتابها دائمًا عند الوصول إلى أي حفل. حتى باعتبار تالي فتاة جميلة تعاني من التشوش الذهني، كانت تكره القشعريرة التي تنتابها كلما اشتد الزحام من حولها، وتمقت الحرارة الناجمة عن كثرة الأجساد، وتبغض ثقل وطأة عيونهم عليها وهم يرمقونها. والآن شعرت بأن القناع الذي ترتديه لزج وغريب، وبأنه حاجز يفصلها عن العالم. هذا أبعد ما يكون عن حال المتميزين. شعرت

بحرارة في وجنتيها لثوان تحت القناع البلاستيكي، وكأنما داهمها إحساس مفاجئ بالخجل.

مدت شاي يدها وضغطت على يد تالي قائلة: «لا تقلقي يا تالي-وا».

وهمس فاوستو فشق همسه الهواء قائلًا: «ما هم إلا حفنة من القبحاء، ونحن لن نفارقك». ووضع يده على كتف تالي ودفعها إلى الأمام برفق.

أومأت تالي برأسها وسمعت أنفاس الآخرين الهادئة البطيئة عبر أجهزة التواصل المغروسة فيهم.

صدق وعد شاي: هناك صلة قوية تربط الجارحين بحيث صاروا عصبة مترابطة، لن تجد نفسها وحيدةً بعد الآن، وإن شعرت بوجود نقص ما فيها، وإن أثار فيها غياب زين شعورًا بالذعر الجارف.

انطلقت بسرعة بين الأغصان في إثر شاي إلى حيث الأضواء المتقطعة.

بالجمال الفتاك والشهرة
يرقى المرء إلى الكمال ...
هذا عين الخطأ.

رائعة الجمال، ومحبوبة، ومثالية، ومخطئة تمامًا.

أخيرًا أصبحت تالي جميلة: فاق جمالها حد الجمال، وارتدت أروع الثياب، وصادقت أوسم الشباب، وحازت شعبية واسعة. هذا كل ما كانت تتطلع إليه.

لكن وسط كل هذا الترف — الحفلات التي لا تنتهي، والرفاهية الت[illegible] التكنولوجيا الحديثة، والحرية المطلقة — كان يلح عليها شعور مبهم بأن شيئًا ما ليس [illegible]

ثم تتلقى تالي خطابًا من الماضي: من زمن القبح. وتدرك وهي تطالع الخطاب ما الذي ينقص حياة الحسان. وفجأة تتلاشى المتعة من حياتها.

وعليها الآن أن تختار بين الصراع من أجل نسيان ما تعرفه والصراع من أجل حياتها، لأن السلطات لا تنوي أن تترك من يعرف تلك المعلومات حيًا.

لا تفوت الكتاب الأول من هذه الثلاثية الرائعة.

٣٤٤ صفحة



ISBN 978-977-6263-61-1

كلمات عربية
http://www.kalimat.org